

«وایات الملک»

خیری شلبی



صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

الاصدار الأول

يناير ١٩٤٩

دار الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي
(١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل
ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو
بحوالة بريدية غير حكومية -
البلاد العربية ٣٥ دولارا -
أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا
٥٠ دولارا - باقي دول العالم
٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك
مصرفي لأمر مؤسسة دار
الهلال - ويرجى عدم إرسال
عملات نقدية بالبريد

للاشتراك في الكويت:
السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفحة ص. ب. ٢١٨٣٣
(13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة: القاهرة - ١٦ شارع
مصد عز العرب بك (المبتدیان
سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠
(٧ خطوط) المكاتبات: ص.
ب: ٦١ المتنبه - القاهرة -
الرقم البريدي ١١٥١١ -
تلغرافيا المصور - القاهرة ج.
م. ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

FAX 3625469

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتيرا التحرير

محمود قاسم

مؤمن حسين

من النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن
٢ دينار - الكويت ١,٢٥٠ دينار - السعودية
١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريال -
دبي/ أبو ظبي ١٢ درهما - سلطنة عمان
١,٢ ريال - المغرب ٥٠ درهما - فلسطين ٤ دولار
- سويسرا ٧ فرنكات

إهداء ٢٠٠٧

امرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

صهاريج اللؤلؤ

(دراما موسيقية)

بقلم

خيرى شلبى



دار الهلال

الغلاف للفنان :

جمال هلال

«الحركة الأولى»
وتر مشدود

(١)

للصبح فى شارع أحمد ماهر - أكبر وأهم شارع تجارى فى مدينة طنطا -
نكهة شديدة الخصوبة والحميمية يحبها عبد البصير الصوفانى منذ فجر صباه ،
بل يعشقها عشقه لالة الكمان : رائحة المياه التى نثرتها عربات الرش يتشربها
الأسفلت الرمادى يتحول بها إلى مرآة مصقولة تعكس وجه السماء المجللة بوقار
المشيبي ؛ الفول المدمس والحمص المطبوخ والخبز الساخن الطازج ، البخور النفاذ
القادم من مسجد السيد أحمد البدوى ؛ الأبخرة المتصاعدة من المزارع المتاخمة
المحيطة بالمدينة ، الصابون المعطر المصحوب بزئيط الأطفال فى اللجأ القريب وقد
استيقظوا ويدأوا فى غسل وجوههم ؛ الأقمشة الجديدة فى محلات مجاورة ؛
الهريسة الغارقة فى السمن البلدى السايح فوق عربات يد على نواصى الحارات
المتفرعة من الشارع ، مياه الحموم العطنة التى تندلق فجأة فى الحوارى الضيقة
لتسرح بين شقوق البلاطات العريضة نحو بالوعات أعدها الاحتلال الإنجليزى
وعنى بها كما عنى بنظافة الشارع وتجديد رصفه ؛ المازوت المحترق له فى
الخياشيم رغم الزخم والزناخة وقع لذيذ وهو يتصاعد فى وشيش آتيا من محطة
السكة الحديد بمبناها الأبيض البديع المحاط بسور حديدى ، كل تلك الروائح
يبعثرها فجأة صوت صفير القطارات الداخلة إلى المحطة والخارجة منها يذكر
الأذان أن فرصة السفر قائمة على الدوام ميسورة على طول الخط . سرعان ما
يمتلئ الشارع بناس من مختلف الأشكال والألوان والأحجام ؛ الكل ماض فى
حيوية وسرعة وهرولة ؛ البعض يبسبس بختام الصلاة وترديد الأدعية الصباحية ؛
والبعض الآخر صامت منهمك فى السير لا يلقى على شئ .

فى مثل هذه الساعة من صباح كل يوم ، حيث تعلن ساعة المحطة عن تمام
الثامنة ، لابد أن يكون عبد البصير قد أتى من بيتهم فى حارة المليجى المتفرعة من
هذا الشارع ، يخب فى جلبابه البويلين الأبيض النظيف ذى الياقة والأساور ،

بجسمه النحيف ، وقوامه المربع ، الذى يشى بأن طوله فى قابل السنين لن يزيد كثيرا ، وبوجهه الأسمر القمى ذى الرأس الكبير، غليظ الملامح ، واسع الفم كبير الأسنان ، فى عينه حول خفيف يلمع كلما أغرق فى الضحك ، بصوت خشن جعجاء متفتت الإيقاع ؛ الصلابة فى ملامحه توحى بأنه قوى الشكيمة حاد التصميم ؛ إلا أن كثيرا من الإرهاق فى هذه الملامح يعطيه عمراً أزيد من سنواته العشر ، فكأنه رجل عجوز فى حجم طفل .

مفتاح المحل فى يده ؛ فلأنه تمرد على المدرسة ولم يطق الانخراط فى نظام ، أو احتمال شخطة مدرس ، أو تمقيق العين فى قراءة كتاب ، فقد أصبح منوطا به الاستيقاظ مبكرا كل يوم ليفتح المحل ويبقى فيه إلى أن يستيقظ أبوه الحاج مصطفى الصوفانى من النوم قرب الضحى العالى ، فيتناول فطوره وقهوته ، ثم يخطف رجله إلى المحل .

الصبى الذى كان يدوخ البيت كله أثناء إيقاظه للذهاب إلى المدرسة أصبح يستيقظ من تلقاء نفسه ، وملامح وجهه التى كانت تتجمد من قرط الضيق والاكنتاب فى طريقه إلى المدرسة أصبحت منبسطة فى مرح كبير مفعم بالتفاؤل والحب فى طريقه إلى المحل . هو يحب هذه المهمة ، بل لعله تمرد على المدرسة لكى تؤول به الحال إلى هذه المهمة التى أصبح يؤديها بشكل أدهش الجميع . ولو أن أباه فهم سر ولع الصبى الشقى بهذه المهمة فلربما حال بينه وبينها إلى الأبد ، لأنها كانت ضد ما خططه لمستقبل الصبى ، أو على الأقل ما كان يرجوه له فى هذا المستقبل .

يصل الصبى إلى المحل فيفتحه كمن يفتح باب مخدعه الشخصى أو محرابه الخاص . المحل مميز عن بقية المحلات المجاورة والمقابلة ، لم يتغير شكله العتيق وإن احتفظ بأناقته ونظافته ؛ أنف الحاج مصطفى من منظر الأبواب الصاج التى ترتفع وتهبط فى جرار ، احتفظ بالباب الخشبى المزخرف ذى الدرفتين يغلق - بعد سنكرة الكالون بالمفتاح - بدرفيل حديدى وقفل كبير .

يفتح الباب على مصراعيه ، يزحزح البترينة الزجاجية المستطيلة واقفة ، عن

المكتب الشبيه ببنك صغير وأطىء ؛ يثبتها فى مكانها المعتاد لصق الباب فتحتل نصف فتحته؛ ينظف الزجاج بالقوطة الزفرة حتى يلمع جيدا ؛ يفتح بابها الجرار، يعدل وضع آلتى العود فوق الرف العلوى ، بحيث يكون أحدهما فى اتجاه الشارع بأوتاره والآخر معكوس يظهر للشارع ظهر صندوقه الشبيه بحبة الكمثرى المصنوع من خشب الجوز اللامع المخطط بالطول فكأنه حزمة من الخطوط منبجعة ومربوطة من أعلاها فى ذراع معقوف ملئء بالأصابع المسكة بالأوتار ، ثم يعدل آلتى الكمان على الرف السفلى بنفس النظام ، ثم يفلق باب البترينة ويتجه إلى الدواليب الزجاجية المصممة على مقاس الحوائط والمليئة بآلات موسيقية معظمها أعواد وكمان وقانون ورق وطبلة ، وعلب صغيرة فيها مجاميع أوتار لمختلف الآلات. ينظف زجاج هذه الدواليب بالقوطة الزفرة ، بعدها يمسك بالمقشة فيكنس الأرض المغطاة بالخشب اللامع . وإذ ينتهى من كل ذلك يبدأ قلبه فى الخفقان ؛ يتلذذ بتأجيل ما يؤد فعله حتى يجيئه القهوجى بصينية الشاى وفوقها شريحة خبز محشوة بالفول والحمص ، وأخرى محشوة بالطعمية الساخنة .

* * *

الحاج مصطفى الصوفانى أشهر صانع لآلتى العود والكمان فى مصر كلها . تلك مهنته ، ورثها أبا عن جد . يقال إن جده البعيد جدا ، الذى انحدر من قبيلة مغربية الأصل وفدت مع المعز لدين الله الفاطمى ، والذى استوطن مدينة طنطا فى رحاب شيخه الأثير السيد أحمد البدوى ، كان موسيقيا فى الأساس يعزف على آلة العود فى فرقة صييت شهير من حاشية البدوى ، وكان خبيراً فى إصلاح الآلة، فامتدت الخبرة فى نسله ، فما أن وصلت إلى الحاج مصطفى حتى أصبحت مهنة غاية فى الدقة والإتقان ، ولأن الحاج مصطفى كان هو الآخر موسيقيا فى الأساس لا يكف عن السفر ، فإنه كان يتفطن فى صناعة الآلة كأنه سيعزف عليها بنفسه ، فاكتسب شهرة عظيمة بين الأوساط الموسيقية بمختلف مستوياتها وأنواعها ، وأصبح كل عازف ماهر يعزى حسن أداء آلتة إلى كونها من صنع الحاج مصطفى الصوفانى .

وإذا كانت الآلة الوترية الخشبية يعلو سعرها كلما ازدادت قدما وعتاقة ؛ حيث يتداخل خشب الصندوق فى بعضه ويتصلب فيكسب الصوت رنيناً صافياً عميقاً ؛ فإن الآلة تخرج من بين يدي الحاج مصطفى جديدة قديمة فى نفس الآن ، فإن حدث أى عطل أو خلل فى أية آلة فى يد أى عازف فى أى قرقة فإن أول نصيحة يتلقاها من الأقدمين : عليك بالحاج مصطفى فى طنطا . لا بد للحاج أن يكشف عن سبب للعطل لم يخطر ببال العازف ، وربما لا يخطر على بال أى صانع آخر .

خبير هو فى تشريح الآلة ؛ فى استنطاقها بأصابع ذهبية لا مثيل لرونتها بين العازفين المحترفين . العازف وهو يتسلم منه الآلة يلذ له أن يستمع إلى نصائح الحاج مصطفى فى كيفية التعامل معها ، فكأنه استمع إلى محاضرة قيمة فى أصول العزف . لم يكن الحاج مصطفى ييخل بعلمه على أحد من زبائنه الدائمين ؛ لكنه إلى ذلك لم يكن ليترك خبرته هذه تضيع هدراً بالمجان . افتتح معهداً لتعليم الموسيقى استأجر له شقة واسعة فى شارع النحاس ، بينها وبين مقر الورشة خطوات قليلة . أصبح يقسم وقته بالتساوى ؛ بعد الغداء ونومة القيلولة القصيرة يمر على الورشة ليووجه الصنایعية ويتابع منجزاتهم لمدة ساعتين ؛ يعود بعدها إلى المحل ليتسلم ما عساه يكون قد ورد إلى المحل من آلات للتصليح فيرسلها إلى الورشة بالتعليمات المطلوبة ؛ يمكث فى المحل حتى الساعة مساءً ؛ ثم يتجه إلى المعهد يستقبل تلاميذه القادمين من كل مكان ، فيعهد ببعضهم إلى ثلاثة من المدرسين يتعاونون معه ، ويتفرد هو ببعض الآخر ، هم أولئك الذين تعلموا العزف بالفعل ولم يعد ينقصهم سوى التمرس والمران واستكشاف عوالم النغم والمقامات وكيفية التنقل بينها فى يسر وسلاسة ؛ تلك مادة يسميها بـ «فقه النغم» . ساعتان فقط هما مدة الدرس ؛ بعدهما يعود إلى المحل فيبقى فيه حتى منتصف الليل يستقبل زواره الخصوصيين من الموسيقيين المحترفين تادمين إليه من بلاد مختلفة قاصدين التقاط هذه الحصة الليلية الرائعة .

أكثر الفنانين حبا للحاج مصطفى وإيمانا بزيارته إن طنطا الحميم المطرب الملحن محمد فوزى ؛ فكل بضعة أسابيع يفاجأ به داخلا عليه ؛ إما لإصلاح

عوده ، أو لطلب عود جديد ، والحاج مصطفى دائم البحث عن الأعواد القديمة
التالفة ، يشتريها كخردة ، يحولها إلى تحف ثمينة يحتفظ بها فى أماكن
خفية ليهدىها لأحبائه أمثال محمد فوزى أو محمد القصبجى أو السنباطى أو
قريد الأطرش أو غيرهم من فرسان النغم الذين يقدرّون جودة الآلة
وخصوصيتها .

اللحظات الحميمة عند الصبى هى تلك التى يتجمع فيها عند أبيه رهط من
الفنانين المشهورين ، ويدور الحوار بينهم حول طرائف العزف ونوعية الأوتار
وأصالة الخشب . آلة الكمان تنتقل بينهم لتجريبها ؛ تصير شيئاً مبهرًا ، هذا
الصندوق الرقيق الصغير نو الضلوع البارزة كيف يتحول بين أيديهم إلى عالم من
الأنغام لا تحده حدود ؛ أنغام تطوف به فى رحلات ساحرة لا يود لها أن تنتهى .
كل نغمة تخرج من أصابعهم ، وكل كلمة تخرج من أفواههم تستقر فى أنف
الصبى تنحرف فى رأسه . عيونه النهمة تتابع حركات الأصابع اليسرى فوق
الأوتار ؛ واليد اليمنى ممسكة بالقوس الذى يلثم الأوتار فى صعوده وهبوطه
فتتفجر الحياة فى أنغام . بات الصبى يحفظ الأوتار والنغمات والمقامات عن
ظهر قلب ، أصبحت أصابع يسراه تتحرك فى الهواء مع كل نغم يسمعه كأنه يترك
بصماته على الأنغام .

ما يدهش الصبى أن أباه الذى يفيض بخبرته على كل زواره سواء طلبوها أو
لم يطلبوها ، قد حرم هذه الخبرة على أبنائه ، وبالأخص على هذا الولد ، لما يلمحه
فيه من ميل نحو الموسيقى . أحياناً ينتبّه فجأة على ابنه يستمع بشغف هائل أو
يتابع حركة العازف ، فيلعو وجهه الغضب ، وفى الحال يخترع له شيئاً يشغله عن
المتابعة ، فإذا ما أسرع الصبى بإنهاء الشغل والعودة إلى المتابعة صرفه إلى
البيت : روح نام أنت يا عبده عشان تعرف تصحى بدرى . فيمشى الصبى على
مضض ، يكاد ينفجر من الغيظ . إلى أن جاءت مهمة البقاء فى المحل على
الطيطاب ، فوجدها فرصة عظيمة للانفراد بآلة الكمان .

* * *

ها هو ذا ينتهى من الأكل وشرب الشاى . بشغف عظيم يسحب آلة الكمان المدخرة تحت البنك فى علبتها الجلدية الأنيقة فى انتظار صاحب النصب الذى ينبغى أن يدفع فيها - كما يقول الحاج مصطفى - مهراً غاليا قبل أن يمسك قوسها . لم يعد الصبى يندهش من كونه استطاع تجميع الأنغام فى سياق منطقي متآلف ، تماما كأنه استطاع أن يكتب باللغة الفصحى فى أسلوب منمق متسق تتضافر فيه الجملة مع الجملة فى تصاعد نحو ذروة تؤدي إلى معنى . إنما الذى يشغله الآن هو محاولة استعادة التقاسيم الساحرة التى سبق أن استمع إليها من أبيه ومن زواره فرسان النغم . كم يود لو يعزفها بنفسها ، إن أنغامها تكاد تكون على طرف القوس . وهو موقن من أنها كامنة فى صدره وأن هذه الأوتار تعرفها ولا تريد أن تبوح له بها لأنه بعد صغير لا يعرف كيف يركبها . لكنه لن يكف عن مطارحتها الهوى ، لسوف يشهر قوسه يغمده فى أحشائها حتى نخاع النخاع يهز كل شعرة فيها هزة النشوة . إنه يشعر أن فى قلبه بركان من الانفجالات لابد أن يزلزل هذه الأوتار .

على أن الوقت سرعان ما يمضى ، وموعد قدوم أبيه شبح مسلط على رقبتة . فلو فاجأه أبوه متلبسا بالعزف فلن يتركه إلا بعد أن يدمر هذه الكمان فوق رأسه . عقدة أبيه فى الحياة أن يتصل أحد من أبنائه بهذا العالم ، لا يريد لأحد منهم أن يتعلم الموسيقى !! لماذا ؟ لا أحد يدري !! كل ما يدرونه أن الأب يفقد أعصابه ، يركبه الجنون والهياج إذا أبدى أحد أبنائه مجرد الرغبة فى تعلم العزف على إحدى الآلات !!

هذا ما زرع السخط والحقد فى قلب الصبى على أبيه . هذا هو الشيء الوحيد الذى لا يعجبه فى أبيه . إنه ليعجب غاية العجب من أبيه الذى تختفى رفته فجأة ، فيتحول إلى كائن شرس حينما تفتاحه أم عبده على استحياء فى هواية ابنها للموسيقى ، ينتفض متغيرا فى الحال :

- « لا أحب أن أسمع هذه السيرة مرة ثانية !! موته عندي أحسن !! » .

تقول محاولة ضبط أعصابها :

- «يوه ! علام هذا كله ؟» .

يشوه فى وجهها بأصابعه الطويلة :

- «هذا ما أقوله فلا تسألينى لماذا !!» .

لكنه فى ساعة الرواقه يمكن أن يتكلم فى التفاصيل ؛ كأن يقول مثلا :

- «الفن فى بلادنا مستقبليه غير مضمون !! الفنان الذى يصل لابد أن يبيع

شرفه وضميره وكل حاجة محترمة فى حياته !! بلادنا هذه بلاد العوالم ! لا ينفع

فيها سوى القواد والراقصة والخباص والحرامى !! أنا رجل حاج ! أصلى

وأصوم ! لا أقبل أن يطلع من صلبى واحد فسدان !! ليس كل من يقع فى غواية

الموسيقى يصير رياض السنباطى ولا أم كلثوم ولا عبد الوهاب !! هؤلاء حالات

استثنائية لا تتكرر بسهولة !! أنت نفسك يا امرأة شفت بعينيك ابن الجيران كيف

تعب وماذا فعل لكى يصل ويصبح مشهوراً !! ولولا أنه موهوب جداً ! وله ظروفه

الخاصة ما كان أصبح شيئاً ! حتى أخته الكبيرة حاول منعها من طريق الفن فلم

يقدر ! وظل بعيدا عنها غضبان عليها لحد ما عملت نفسها بمجهودها وربنا هيا

لها من يأخذ بيدها!!» .

كان يقصد بابن الجيران هذا المطرب الكبير محمود فهمى ، الذى بات ملء

السمع والبصر . ذلك أن البيت المواجه لبيتهم هو بيت أسرة محمود فهمى ؛ أبوه

عمدة إحدى القرى المجاورة ، تزوج من امرأة ثانية فى المدينة واستأجر لها هذا

البيت . امرأة غاية فى الجمال ، طول بعرض ، شقراء واسعة العينين كالجنينة ،

غزيرة الشعر والحلاوة ، كل ملمح فى وجهها مشرق فاتن ، أنجبت منه بنتين :

بهيجة وسها . ومن الواضح أن الأب فهمى الحلوانى من عشاق الغناء ولذلك

فالطيور على أشكالها تقع ، وإلا ما تزوج من هذه السيدة التى تموت عشقا فى

الغناء والموسيقى ، وإذا كانت ظلت مجرد هاوية نواقة فإن ابنتيهما احترفتا الغناء

منذ وقت مبكر ، تيمنا بأخييهما من أبييهما .

عبد البصير ينتظر حلول المساء بفارغ الصبر ، ليجلس على الكنبه الملتصقة

بالشباك فى الحجرة المطله على الحارة فى مواجهة بيت آل فهمى . الشباك

مواجه للشباك وكلاهما مفتوح ؛ وحجرة صالون الجيران تفص كل ليلة بالزوار المطربين اللطوشين بلوثة الفن ، شيوخ معمرين ، أفندية ، نساء فانتات ، آلات موسيقية ؛ تماما كأنهم فى حفل كبير يلعبون فيه نور الفنانين والجمهور معا . الفقرات تتتابع طوال السهرة فى سحاء يفيض بالتجليات التى لا تتحقق إلا فى مثل هذه الجلسات الحميمة بين جمهور كله من العشاق المتيمن بالفن : فاصل من العزف على القانون ؛ تقاسيم على الكمان ، على العود ، على الناي ، الرق أيضا له تقاسيم منفردة ؛ فاصل من التواشيح للشيخ للشيخ فلان ، أنوار وطقاطيق وموشحات أندلسية ؛ مواويل وغناء بلدى ؛ تصل السهرة إلى وجد مشبوب ، لا بأس أن تقوم إحداهن فتتحزمن بشال أحد الحضور وتخرط فى رقص يحيى العظام وهى رميم .

* * *

كم ود الصبى لو كان مقيما وسط سامر الأنس هذا مشاركا فيه . إن البهجة الطاغية المجنونة تشيله عن الأرض . كل الجيران مثله يشاركون فى البهجة من شرفاتهم ونوافذهم . ولقد يتسلل شخص فى الضوء الكابى لقانوس الحارة ، ربما طفل أو فتاة ، ليغيب فى شقة الأنس قليلا ثم يخرج منتعشا فرحا ؛ لقد بعثه أحد الجيران ليطلب من الجوق أغنية أو تقاسيم آلة معينة . يسمع الصبى فى مكانه رد الست أم بهيجة بصوتها الريان المجلجل بشظلة الذهب :

- « من عينى يا حبيبى ! كله جاي ! قل لجدتك لو طلبت عبده الحامولى نبعث من يجىء به !! » .

تصدح الأنغام والأصوات فى انطلاقة وحرية تكاد تصل إلى حد الجنون ، فإن خفت صوت الانطلاق فقد يحتج الجيران . يعرف الصبى ضربة مفتاح أبيه فى كالون الباب ، يستوى فى الحال ممدا على الكتبة متصنعا الإغراق فى النوم . فهو يعرف أن أباه بمجرد دخوله يتجه فورا إلى هذه الحجرة يخترقها إلى الشباك لكى يغلغه إذا كان مفتوحا ، ولكن فى هدوء شديد حتى لا يسبب حرجا للسامرين ، وحتى لا يبدو كأنه يحتج على أفرأحهم وهو الرجل المحب للموسيقى . لا ينسى وهو

خارج أن يلكز الصبى فى جنبه بحركة من يعرف أنه يتصنع النوم ، قائلا : « قوم يا ولد نام جوه ! » ؛ ثم يمضى إلى حجرة نومه المجاورة فيخلع ثيابه ويرتدى الجلباب ويتوجه إلى مائدة العشاء . ولأن الصبى لابد أن يمر عليه فى الردهة فى طريقه إلى الحجرة التى ينام فيها مع إخوته الخمسة فإنه تعلم كيف يمشى مغمض العينين دهشانا كأنه كان بالفعل فى نوم عميق ، مع أن رأسه قد تخونه لحظتها فتتمايل طربا مع النغم الذى ابتعد قليلا فصار أكثر صفاء واحتمالا .

(٢)

من ذا الذى يستطيع إيقاف تدفق الإلهام إذا انبرى واتسق مع لحظته العبقرية المجهولة التى لا يعرف أحد متى تجيء ولا كيف ؟! فجأة وجد الفتى نفسه فى قلب هذه اللحظة بون أن يدري : اتصلت أنامله بالأوتار بحركة القوس العروى بالأعصاب فجرى الدم السحري فيما بينهما . القوس يصافح الأوتار يلثمها من قريب ومن بعيد ، وأنامل يسراه صاعدة هابطة على رقبة الكمان بسرعة الطائر تمهد للقوس سككا داخل عروق الأوتار . الوتر الواحد يصير مجموعة أوتار بمجرد أن يلمسه الأصبع فى جزء آخر منه . حقا إن المران هو صلب المهارة ، أساس الإبداع . التقاسيم الدسمة البارعة التى طالما سمعها من العازفين المحترفين المهرة ها هى ذى تجيء على أوتاره بنصها ، بل يزيد عليها الكثير من الزخارف يصل بها إلى قفلات أخرى أكثر إشباعا لأحاسيسه المتفجرة . مهارته إذن تحققت فى الانتقال من مقام إلى مقام فى سرعة الضوء . ما يجعل الإحساس يلهث وراء النغم فيلتقطه إيقاع النقلة التالية فى حنو شديد قبل أن يهوى من حائق .

لا يعرف الفتى من أين تجيئه هذه الأنغام التى يشعر بجديتها وطزاجتها . انفتحت جميع مسامه على الأوتار بحيث لا يعرف متى يتوقف ولا كيف ؛ فالنغم يمتط ويطرح أنغاما متناسقة كباقات الورد . لكن الجو أظلم فجأة بظل قاتم أخذ يزداد كثافة شيئا فشيئا ، فسرى فى مفاصله شعور شتائى أحس معه بالبرودة

رغم حر أغسطس الخائق ورغم العرق المتصبب من جبينه . خيل إليه أن الشمس غابت وراء سحاب عابر ، فرفع رأسه قليلا ، محدقا في الضوء ، ففوجيء بهم الموت واقفا قبالة . كان أبوه قد دخل منذ برهة فوقف مسمرا في مكانه ينتفض من الغضب . أما الفتى فقد تجمد ؛ لكن صدره تفسخ ، صار القوس بعيدا عن الأوتار ، فيما أنمل بنصره لا يزال يضغط على الوتر الخامس ، وبقايا صيحة الوتر المقطومة يكتمل تدفقها في صدره .

لم ينتبه الأب إلى حلاوة ما سمعه من عزف ؛ فتدفقت الصواعق الشريرة على صفحة وجهه الشاحب فيما جعل يردد .

« ما شاء الله ! أمهذه هي الوصية التي لقيتها لك ؟ ! تهزأ بأوامري يا

كلب ؟ ! » .

وتقدم نحوه ؛ نزع الكمان برفق من تحت ذقنه ، وبالياد الأخرى نزع القوس ، وضعهما معا على البنك ، ويغلظة أمسك بالفتى من خناقه فأوقفه ، بكل ما فيه من قوة هوى بكفه على صدغه . مال الولد ، كاد رأسه يصطدم بالبنك من عنف الصفعة ؛ لولا أن الكف اليسرى تلقت صدغه الآخر بصفعة أعنف ، ثم أصابه الجنون ، ظل يهوى عليه ركلا وتشليتا وتبكيسا ؛ والولد . لا ينطق ، بل يتزحزح شيئا فشيئا حتى اقترب من الباب فأطلق للريح ساقيه ؛ وكان يشعر أن للعقاب بقية ، ربما أعنف ؛ لكنه كان تحت خدر شعور لزيد نابع من يقينه بأنه قد تعلم ما كان يود أن يتعلمه . كان رغم الألم والشعور بالمهانة يشعر أنه من الآن قد أصبح شيئا آخر قد امتلك كنزا لا تساويه كل كنوز الفراغة .

* * *

روعت الأم حينما وقع بصرها على ابنها وما وضع عليه من هوان ، من انتفاخ في مواضع من وجهه ، وكدمات زرقاء تحت عينيه كأن عصابة شريرة كانت تتوى قتله ، إلى بحيرة من الدمع السخين ينثال على خديه في صمت . عرفت في الحال أن هذا من فعل أبيه ؛ فابنها الذي تعرفه ليس يقبل احتمال هذا من أحد . أصابها الكدر ، انهمرت دموعها ، صارت كالمحصرة لا تعرف منفذا تدخل منه

لإصلاح العلاقة بين هذا الولد بالذات وأبيه . تعرف أن موقف الأب غامض لا سبيل إلى الاقتناع به ؛ فإذا كان الأب نفسه يعشق الموسيقى ويعلمها للناس ويصنع لهم آلاتها ؛ فكيف به يلوم ابنه إذا ورث عنه عشق النغم ؟ هل فى مقدورها أو مقدور أحد أن يمنع ابنها عن حب النغم ؟ هل تستطيع أن تمحو ملامح الأب عن وجه ابنها ؟ ما ذنب الولد إذا كان مولودا هكذا ؟ هل نسى أبوه تلك الليالى الجميلة وهو يهيتها نفسيا فى قلب الفراش بالعزف على آلة العود أو آلة الكمان ؟ هل نسى أنه كان يأتيتها فى الفراش على نغم ، فيظل النغم راكبا عليهما معا حتى ساعة متأخرة من ليل الساهرين فى الحجرة المقابلة ؟ هل نسى أن تلك الأنغام التى طالما صبها فى أذنيها وفى رحمها معا هى التى أزالته الحواجز بينهما وقربت قلبها من قلبه ؟ كيف إذن يتنكر لبرزته يكاد يقتل الولد من الضرب بكل هذه القسوة ؟ يجب أن يعرف أنه المسئول عن فشل الولد فى المدرسة منذ أن حرم عليه الإمساك بآلة إلا عرضها على الزبائن أو الإتيان بها من الورشة ، لقد غرس الولد فى الورشة منذ تعلم المشى ، لم يترك له فرصة يذاكر فيها دروسه ، فمن المدرسة إلى الورشة ، ومن الورشة إلى البيت ، ومن البيت إلى المدرسة ، إنه هو الذى كبرها فى دماغ الولد منذ أول مرة نبه عليه فيها بألا يتعلم الموسيقى . ومالها هذه المهنة يارب ؟ أليست هى مصدر رزقنا ؟ أليست تدخل السرور والبهجة على الناس تقيم لهم الأفراح ؟ مالنا نحن إذا كان بعض أهلها غير محترمين فى نظر الناس فيسمونهم باللاتية أو العوالم ؟ هل أصابعك مثل بعضها ؟ وماذا لو تعلم الولد الموسيقى ؟ هل كل من يتعلمها يصبح من بتوع المزيكة ؟ لماذا تصبح أم بهيجة عقدة نفسه ؟ تفتح بيتها لطوائف من الناس من كل لون بعضهم شكله يقرف الكلب تتركهم يدهسون بيتها غير مراعية خاطر بناتها اللائى يتمتن بجمال الحوريات!! هذا صحيح ولكن مالنا نحن ؟ يتصور أن ابنه يمكن أن يفعل هذا فى بيته ؟ من أدراه أن الولد لن يكون عازفا كبيرا مشهورا محترماً ؟

لا تملك الأم سوى أن تهذى بهذه الكلمات فى غضب تجاهد فى كتمانها حتى لا يسمع صوتها أحد خارج الباب ، فى صوت ينفضه البكاء نفضا أليما وحتى إذا تعبت من البكاء والهديان ربتت على كتف ابنها قائلة :
- «أمرك لله يا بنى ! لك رب يسمى الكريم ! هذا هو الله وهذه هى حكمته !!» .

ثم تمضى متبخترة كالأوزة نحو المطبخ تعصر له كويا من الليمون يهدىء نفسه المضطربة الجريحة .

* * *

جاء العقاب كما توقع بالضبط : لا شأن لك بالمحل بعد اليوم ومن صبيحة ربنا تتوجه إلى الورشة لتساعد الصنایعية فهذه على الأقل مهنة إن تعلمتها نجوت من الفقر ، صحيح أن مستقبل هذه المهنة فى بلادنا غير مضمون لكنها مهنة محترمة ، فإن يكون صانعا فاهرا للآلات خير من أن يقال إن ابن الحاج مصطفى الصوفانى يشتغل آلاتيا مع العوالم . ثم يضيف الأب الثائر فى ثقة عجيبة :

- «طبعاً لابد أن يكون مصيرك مع العوالم لأنك لم تحصل على شهادة تؤهلك لأن تكون موسيقيا محترما ! ولست موهوب الصوت لتكون مطربا ملحنا كمحمد فوزى ورياض السنباطى !! صحيح أن بعضهم مثلك لا يحمل شهادة ولكن هذا الزمن قد مضى وإن يعود !! هؤلاء ناس خدمتهم ظروفهم والظروف دائما غير مضمونة !! قم يا روح أمك نم لتصحو مبكرا تذهب إلى الورشة !!» .

أصبحت الورشة قدره وملذته فى نفس الآن . فى شهور قليلة أصبح من أنبغ الصنایعية فى كل وحدات الآلة ، وبالأخص فى عملية تركيب الأوتار وشدها وضبطها . قال الصنایعية القدامى إن لأصابع الولد «نفس» كنفس المرأة الشاطرة فى الطبخ ؛ فكل آلة قام بشد أوتارها لم تحتج من أبيه لمراجعة تذكر . لحظة المراجعة يسأل الأب فى إعجاب :

- « من الذى ركب هذه الأوتار؟» .

يقول الفتى :

«أنا» .

يعتقل الأب إعجابه ، يكتفى بالغمغمة التى تعنى الرضا . وقد اعتاء عبد البصير ألا ينتظر كلمة تشجيع واحدة من أبيه . لم يعد يشغله سوى مراقبة يد أبيه حين تقترب من جيبه ؛ عندها يرقص قلبه فرحا بالبقشيش الذى سيفمره به عند انصرافه ؛ زيادة على اليومية البسيطة التى قررها له مع أنه يستحق أجر صناعى ماهر لاسيما وأنه أصبح قادراً على تركيب الآلة كلها من ألفها إلى يائها، ناهيك عن قدرته على استخدام منشار خرط الخشب ، وتنعيم الخشب وزخرفته باللوائر المثقوبة فى وجه آلة العود بالذات ، كل تلك الأعمال كان يمارسها بمزاج رائع وحب استطلاع كبير . كان يشعر كأن فى الخشب روحا كروح الإنسان تستجيب لتحسساته بل تكاد تتسامر معه تبته أسرارها الخفية .

الأسرار التى تكشفته له من خلال تصنيع الآلة جعلته يشعر تجاه هذه المهنة بإجلال كبير . أسرار لم يكن ليتاح له معرفتها من ممارسة العزف إلا بعد سنين طويلة من التجارب المضنية . أما الآن فقد أصبح قادرا على تقويم الآلة ومعرفة مدى أصالتها بمجرد الإمساك بها ، على تمييز الفروق الدقيقة بين أنواع خشبها رغم اختفاء لونه .

لم يبتعد عن عالمه الأثير كما أراد له أبوه ، بل انغمس فيه حتى النخاع؛ لاسيما وقد عهد إليه أبوه بإصلاح آلات الكمان الواردة إلى الورشة سواء من التجار أو من العازفين ؛ يرمم الصندوق يصلبه حتى ولو كان هشيمًا ، يعيد خرط عنق جديد ويلحمه فى الصندوق بكفاءة عالية ، يغير الأوتار ؛ فكان عليه بالضرورة أن يجرب الآلة بعد صياغتها ليطمئن على مهارته . فى العادة يكون التجريب فاصلا من العزف ربما استغرق نصف ساعة يشفى غليله فيها ، كأنه ينتقم من عدو لنود يحول بينه وبين العزف وها هو ذا ينكل به شر تنكيل بالإمعان فى العزف وفى المعننة . أبداً ما كان ليصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والتجلى لو أنه استمر فى المحل، فلقد وجد هنا جمهورا من السميعة القراريين يهتفون به أن

أعد، ويصفقون له بانبهار ؛ إنه جمهور الصناعات الذين بهرتهم موهبته الفذة بالقياس إلى عمره الذى لا يزيد على أربعة عشر عاما . وقد قام بينهم حلف صامت على أن يكتموا أمر هذا العزف عن أبيه ، بل يتطوع أحد الصبيان بمراقبة الشارع من طرف خفى لإعلان خبر وصول الأب فى موعده الذى اعتاد أن يخلفه من حين لآخر .

* * *

فى صبيحة كل يوم يصطحب بالموسيقى ، فى الثامنة من صباح كل يوم تطوف فرقة موسيقى ملجأ الأيتام بالشوارع ، لابد أن يخرج هو ليتفرج عليها وهى تعزف الأناشيد الحماسية والأغنيات الوطنية ، العازفون صبيان فى مثل سنه أو أكبر قليلا ، تشكيلة تجمع بين الطفولة والصبا والشباب . وهو يشعر نحوهم بتعاطف كبير ، بل يشعر أنه يكاد يكون مثلهم مجهول الأب والأم ؛ يقشعر بدنه من فرط السعادة إذ يكتشف أن الموسيقى جمعت بينه وبينهم فى أخوة حميمة ، وأنه يود لو ينضم إلى طابورهم ، ويبيت معهم داخل عنابرهم ، فى هذه العنابر وحدها يحقق ما يريد دون أن يربعه أحد أو يحبس حريته أحد .

بعد الظهر بقليل تمر فرقة موسيقى المطافىء متجهة إلى كشك الموسيقى ، فى المدينة أكثر من كشك للموسيقى ، فى الحدائق العامة والمتنزهات ، عزف متواصل للموسيقى الغربية والشرقية معا . جميع رواد الحدائق والمتنزهات يتلقون هذا الفضل العقيم بامتنان عظيم ؛ يجلسون جماعات أو فرادى فى حالة إنصات عميق حتى وهم يتبادلون الحديث الهامس لا تغفل آذانهم عن المعزوف ؛ فالموسيقى غذاء يومى يتنفسه الناس مع الهواء النقي .

فى كل أسبوع يمر استعراض شرطة المحافظة بجميع فصائلها وأقسامها ، تتقدمها فرقة موسيقى الشرطة وهى طائفة كبيرة من العازفين على الكاسات والطبول والطربيع والقرب والآلات النحاسية ذات الأبواق . منظر طالما بهر عبد البصير . على أن أكثر ما بهره وملك عليه ليه هو عالم القسس والرهبان والكنائس بكل ما يتصل بها من جمعيات خيرية للإنفاق عليها .

ملنطا بلد شيخ العرب السيد أحمد البدوي بمهرجان مولده السنوي الضخم، تضم عددا كبيرا من الكنائس تتبع مختلف الملل والمذاهب ، أرثوذكسية وبروتستنتية وغير ذلك . لكل كنيسة جمعية خيرية من أتباعها ، تضم إلى جانب الأقباط عددا لا يستهان به من الأجانب : طليان وإنجليز وفرنسيين وألمان وروس وأمريكان وأفارقة ، كلهم - وبالعجب حقا - خبراء في الموسيقى . هكذا يبدون لعبد البصير المنبر حينما يتناقشون فيها مع أبيه . وكلهم - يا لشديد العجب - من أصدقاء أبيه الحميمين . فأبوه الحاج ، شيخ الطريق الدرويش ، لا يجد غضاضة في أن يترك صحابه في القعدة عنده ليخطف صلاة العصر جماعة في مسجد البدوي ؛ يعود بعدها ليكمل المناقشة معهم ؛ بل إن بعضهم من القسس نوى العمائم السوداء كان ينظر في ساعته فجأة لينبه الحاج مصطفى إلى أن صلاة العشاء قد وجبت فعليه أن يؤجل الكلام في هذه النقطة أو تلك حتى يعود من الصلاة . فحينما يعود تصافحه جميع أصواتهم في ورع وتقوى: حرماً يا حاج، فيقول : جمعاً إن شاء الله ، فيعلق واحد منهم : اللهم تقبل منا جميعا .

تتور المناقشات في أمور غريبة يحتدم فيها الحوار احتداما شديداً ، يتعمق ، فتكثر المعلومات بصورة مبهرة ، حول مخترع المقام الفلاني ، هل هو فلان العري ، أم علان الطلياني ؟ ومن الذي قام بتطوير آلة العود ؟ وفي سنة كم أضيفت إليه التعديلات الفلانية ؟ ومن هو أول عازف على آلة الكمان من المطربين والعرب ؟ ومتى دخلت الآلات الغربية في التخت الشرقي وعلى يد من ؟ وهل أضرب ذلك بالموسيقى الشرقية أم أفادها ؟ ومن الذي بدأ التطوير الحقيقي في الأغنية العربية ؟ هل هو محمد القصبجي أم محمد عبد الوهاب أم السنباطي أم سيد درويش أم ذلك الشاب الطنطاوي الأصل محمد فوزي ؟ هل صحيح أن القصبجي قال بلسانه في حديث صحفى أنه علم تلميذه عبد الوهاب لكن التلميذ تقوى على كل الأساتذة ؟ هل يتطور عبد الوهاب في كل ساعة من ساعات عمره كما يقول عشاقه ؟ هل تطوره إبداع ذاتي أصيل أم اقتباس من الموسيقى الغربية ؟ ما حدود الاقتباس ومتى يتحول إلى سرقة ؟ داوود حسنى سيد الملحنين المعاصرين

هل أخذ حظه من التقدير أم أنه ظلم ؟ هل الشيخ زكريا أحمد تلميذ سيد درويش أم تلميذ الشيخ على محمود ؟ أم تراه نروة لدور المشايخ فى الفن الغنائى ؟ ما مدى استفادة عبد الوهاب والسنباطى من الغناء الدينى ؟ السنباطى عملاق أى نعم ، والشيخ زكريا أحمد ضخم الحجم ما فى ذلك شك ، والشيخ على محمود هو الأب الشرعى لجميع الملحنين والمغنين هذا صحيح ، لكن مدارس التجديد الحقيقية فى تاريخ الأغنية ثلاثة فهل تعرفونها ؟ هى القصبجى وعبد الوهاب وابن طنطا محمد فوزى ؛ تلك حقيقة ثابتة لكنها لا تنفى عظمة الآخرين وأهميتهم فى طريق التطوير .. الخ .. الخ .

أطرف من هذه المناقشات ، مناقشات طائفة أخرى من رواد المحل أصدقاء الحاج مصطفى ، طائفة معظم رجالها من الباشوات والبكوات المتيمين بالموسيقى ، كل واحد منهم فى بيته آلة بيانو كجزء لا يتجزأ من أثاث البيت ، وآلة جرامفون ، وعدد من الأسطوانات يقدر بالآلاف . بعضهم فى قصره غرفة خاصة للاستماع ، يؤمها الصحاب والأحباب فى ساعات طويلة من الوجد ، حيث تتطوح الطرابيش وتدق العصى الأبنوس وجه الأرض فى نشوة وطرب ، وتتلو صيحات الإعجاب والافتتان . بعضهم أيضا لديه أذن موسيقية غاية فى الحساسية والدقة ، لديه قدرة على أداء الجملة الموسيقية بصوته دون أن يخطئ فى حرف .

مناقشاتهم تختلف عن مناقشات الطائفة السابقة ، فهى تخلو من الأسلوب العلمى والمصطلحات ؛ إنما هى تعكس آراء انطباعية ووجهات نظر تنوقية لا تخلو من فهم عميق لفن الموسيقى ، ولا تخلو من اجتهاد دؤب فى الإلمام بتاريخها وتاريخ عباقرتها فى العالم ، إلا أنها مناقشات كثيرا ما تأخذ طابعا غوغائيا طريقا قد يصل إلى حد العراك بالألسن والتراشق بالتهمة الغليظة حول معلومات واستنتاجات تبدأ بأن يمعن أحدهم فى مدح السيمفونية الفلانية وما تثيره فيه من مشاعر وأفكار وأخيلة ، فيعقب آخر بامتداح سيمفونية الدانوب الأزرق ، وفى حمية الانفعال والحماسة يدندن جملة أو جملتين من هذه السيمفونية ؛ فإذا بأحدهم يستوقفه فى هزة وسخرية : حيلك يا باشا ! هذه الجملة ليست من

الدانوب الأزرق ! لقد اختلط عليك الأمر ويبدو أنك تسمع بأنك السفلية !! فيريد هذا صائحا بانفعال حاد :

« أنت آخر من يتكلم فى الموسيقى ! أنت بالكثير تتذوق طلبة المسحراتى وشغل الموالية أما الموسيقى ذات الفكر والقرن فإنها لا تتفك من غير مؤاخذة !! » .
فيحتد صاحبنا :

« أنا أسمع الموسيقى الكلاسيك من قبل أن تولد يا باشا !! وأبى من قبلى ! والموسيقى مثل الطعام فى بيتنا ليل نهار ! لو دخلت أية حجرة فى بيتنا تسمع فيها الموسيقى ! الموسيقى مخزنة فى حجرات بيتنا من قديم الأزل !! » .

« ولكن أخلاقك غير موسيقية مع الأسف ! وإلا فهل من الأخلاق أن تقاطعنى وتتهمنى بالتخريف ؟! » .

« إنما أردت أن أصحح معلوماتك فحسب ! » .

« تراهن ؟! » .

« أراهن ! إذا اتضح أن الجملة التى قلتها لنا الآن من الدانوب الأزرق يحق لى أن أدوس بالحذاء على رقبته !! وإن كنت أنت صادقا يحق لك أن تفعل نفس الفعل معى !! » .

« اتفقنا ! نرسل هذا الولد يأتى لنا بالأسطوانة أما الجرامفون فموجود هنا !! » .

والحاج مصطفى يفقد القدرة على تهدئة الموقف، فهو يعرف جيدا أن الموقف لن يحسم إلا بمجىء الأسطوانتين . ولقد يحدث هذا بالفعل ، تنطلق الكارثة أو السيارة الفورد إلى أحد القصور لتعود بعد دقائق بالأسطوانتين . يقوم الذى ادعى بتريده الجملة من جديد ، فيقوم الحاج مصطفى بكتابتها على النوتة الموسيقية ثم يقرأها على الجميع بحروفها الهجائية الصوتية : صول فاصول .. الخ ، ثم يدير اسطوانة الدانوب الأزرق ، ليتضح أن الجملة ليست منها . هنا يقوم الهيجان واللغط ، وتترى الألفاظ القاسية بغير حساب ، لكن المنهزم يتشبث بأخر سهم فى جعبة الأمل :

- «انتظروا من فضلكم ! هو يقول إن هذه الجملة من السيمفونية الخامسة ! ولكى تكتمل شروط الرهان لابد أن نسمع هذه السيمفونية ! صبح يا باشوات؟! » .

يقولون جميعا مع هز رؤسهم المنكسة فى استمتاع :
- «صبح !» .

فالواقع أنهم راغبون فى الاستماع فحسب ، الاستماع هو الهدف النهائى من كل هذا الزئيط . يستمعون إلى السيمفونية الخامسة فيتضح أن الجملة المزعومة ليست منها أيضا . حينئذ تتفجر الضحكات الصاعقة التى تهزأ بالإنثين . ويقف المنهزم الثانى قائلًا وهو يمسح عرق الخجل بمديليل حريرى أزرق :
- «واحدة بواحدة يا باشا ! لا تبوس على رقبتى ولا أبوس على رقبتك !!
نسمع الدانوب الأزرق مرة ثانية على رواقه !!» .
فقدار الأسطوانة مرة ومرات .

لرجال الجمعيات الخيرية الكنسية نشاط هائل فى الموسيقى ؛ فثمة احتفالات عديدة تقيمها الكنائس كل عام : عيد القيامة ، عيد الميلاد ، عيد العذراء ، عيد العيد ، المهم أن حفلة موسيقية مبهرة لابد أن تقام فى الكنيسة الفلانية أو الكنيسة العلانية . الحفل فى العادة تسبقه فترة حماسة دعائية ، تتردد خلالها الأخبار المفرحة فى المحل : لسوف تدعو الجمعية هذا العام أشهر عازف بيانو إيطالى ، أشهر عازف كمان فى العالم ؛ أكبر مؤلف موسيقى معاصر ، أضخم فرقة أوبرالية فى أوروبا .. الخ .. الخ .

يظن الصبى أن هذه الأخبار محض أساطير وفشر خيالى ، لكنه يفاجأ قبل الحفل بأيام أن بطاقات الدعوة قد تم طبعها ووضع على رأسها هذا الاسم أو ذاك من الأسماء الضخمة .

الحاج مصطفى لا يتحرج من دخول الكنيسة عندئذ ، بل لا يتحرج من اختيار ركن قصى فيها لاستقبال القبلة وإقامة الصلاة ولو على سبيل المجاملة والتحية لبيت الله . يحضر الحفلات الموسيقية كلها من البدء حتى الختام ، وعبد البصير -

سراً - فى أعقابہ . تسمى هذه الحفلات زادا للحديث فى الدكان يستمر شهوراً طويلة . عبد البصير يستمع ويشاهد ويتأمل حركات العازفين وكيفية تعاملهم مع الآلات الموسيقية .

فى هذه الحفلات الحافلة العظيمة عرف الكثير من المعلومات ، إكتشف الكثير من الحقائق والأسرار . عرف معنى السماعى والبشرف والسوناتا واللونجا والتحميله والسيمفونية . أدهشته سرعة إيقاع العزف ، حركة الأقواس فوق الأوتار . أذهلته الفروق الهائلة بين عزف العرب وعزف الأجانب ، بين هذه الموسيقى والموسيقى التى تربي عليها . استوقفته فروق كثيرة وأسئلة كثيرة فعلاہ كل ذلك متعة ومعرفة وتطلعا ، فتح عينيه على آفاق أبعد وأرحب ، أنعش خياله ، زرع فى قلبه فى وجدانه فى عقله بذوراً كان يشعر لها كل يوم باخضرار جديد .

* * *

المليم فوق المليم ، القرش إلى القرش ، خمسة عشرة فعشرين جنيتها هى كل ما استطاع ادخاره من مصروفه ويقشيشاته . فى الساعة المخصصة لغدائه انطلق إلى حى قحافة ويده فى جيب جلبابه قابضة على المبلغ . توقف أمام بيت عتيق كان ذات يوم بعيد على شىء من العز والأبهة . طرق الباب سائلا عن إبراهيم أفندى غطاس ، القانونجى . هو فى الأصل ساعاتى وله محل لإصلاح الساعات فى نفس الحى ، لكنه يفتحه على مزاجه .

إبراهيم أفندى غطاس عازف ماهر على آلة القانون ، سوقه فى الأفراح رائجة . كل ليلة فى حى أو فى بلد ، مع العوالم والآلاتية ، وجوده فى الفرقة يرفع من سعرها ومن شأنها أيضا ، فقد يقطع نصف السهرة يشنف أذان المدعوين بالتقسيم على القانون . فيستر بذلك عوار الفرقة . الكل يناديه : إبراهيم أفندى ، وهو الوحيد بين جميع الآلاتية فى منطقة الغربية إذا قيل إبراهيم أفندى فالمقصود دائما إبراهيم أفندى غطاس لا غيره . أصحاب الأفراح يطلبونه بالإسم ليتحول به

منظر الفرقة - أيا كان مستواها - إلى تخت شرقي محترم يضيء على الفرع
عزا وأبهة .

له عين واحدة سليمة ، والأخرى مجرد بحيرة زرقاء داكنة لا معالم لها ، لكن
ذلك لم يقلل من جمال وجهه الأبيض المستطيل بشعره القصير المنسق بسوالف
طويلة ، وقوامه الفارع المهيّب ، وبذلته السموكنج الأزلية الأنيقة التي لم يغيرها
طول عمره ولا تزال جديدة متماسكة ، والبييون الأسود المعتقل بين حردتى الياقة
البيضاء المنشأة ، وأساور القميص بأزرارها المذهبة ، والخاتم الذهبى فى بنصره
الطويل يلعب فمه الياقوتى وهو يحرك راحتيه فوق أوتار آلة القانون .

أصابه تدغدغ أوتار القانون فى مواضع شديدة الحساسية يقف
لأنغامها شعر رأس المستمع ، وقد يفقد وقاره فى صيحة إعجاب عالية . معروف
أنه علم نفسه بنفسه ، فهو خريج الملجأ العتيق فى طنطا ، زامل فيه عيالا أصبحوا
من أكابر الموسيقيين كمحمد حسن الشجاعى ، تلقى مبادئ علم
الموسيقى فحسب ، وتكفل هو بالباقي ، وكان لا يننى يردد فى خجل فخور أمام
موجات الإعجاب :

- «الشجاعى كان زميلى يوما بيوم ! لكنها الظروف ! إن المرء فى هذه الحياة
خاضع لحظه وظروفه مهما اجتهد !» .

وكان صديقا للحاج مصطفى الصوفانى ، الذى يحترمه ويقدم له الكرسي كلما
زاره فى العصارى لمجرد الجلوس معه :

- «أقعد يا ابراهيم أفندى ! ما برنامجك الليلة ؟» .

ولابد أن يرد عليه قائلا :

- «عندنا فرح فى قطور ! عندنا حفلة طهور فى الشين !» .

ولابد أن يقول الحاج مصطفى :

- «رينا يزيد أفراكك وأفراحتنا !» .

فيرد إبراهيم أفندى فى ابتهاج :

- «يارب !» .

ثم يدور الحوار بينهما حول النحاس باشا ومحاصرة القوات الإنجليزية للقصر الملكي ، وحول محمد عبد الوهاب الذى سيموت فى طلب البكوية دون أن ينالها ، وأم كلثوم التى ضربت منيرة المهدية وأسمهان ونادرة وفتحية أحمد مطربة القطرين . أحاديث لا تنتهى بينهما ، لا رابط بينها سوى تيار الحب ونغمة العشق الدافئة .

كل ذلك كان ماثلا أمام عبد البصير وهو واقف بباب إبراهيم أفندى غطاس ينتظر الإذن بالدخول . جاءه صوته من حجرة النوم الجوانية : ادخل يا عبده . فدخل عبده يتعثر فى أوان وحلل ، متجها إلى سرير نحاسى بعمدان وناموسية مرفوعة . فلما اعتادت عينه ظلام الحجرة ميز على السرير وجه إبراهيم أفندى ، الذى اعتدل فى رقدته مسندا ظهره للمخدة ، يرتدى جلبابا من الزفير المقلم وطاقية من نفس القماشية ، سحبت يده علبة السجائر المعدن ممتاز البططة فأشعل سيجارة وصاح فى طلب الشاى ، ومال برأسه نحو عبد البصير :

«خطوة عزيزة يا ابن الحبيب ! خيرا إن شاء الله !» .

صارت عينه الشبيهة بالبحيرة الزرقاء ، المجاورة لعبد البصير ، تتماوج فى حيرة وإرتباك ، لكن عينه السليمة كانت ثابتة حينما سلطها على وجه عبد البصير يحاول أن يستشف بها معنى هذه الزيارة غير المتوقعة خاصة أن عبد البصير يعلم أنه ليس من عادته الصحو فى مثل هذه الساعة المبكرة . أدرك عبد البصير هذا فأخرج النقود من جيبه وقدمها له :

«تحويشة عمرى يا عم إبراهيم أفندى!» .

نذر الرجل من هول المبلغ ، ظن لأول وهلة أن الفتى جاء يخطب ابنته أستير الشبيهة بالوردة النضرة ، متحميا الحاجز الدينى ، ولكن كيف يكون الأمر هكذا ؟ ..

«ما الأمر يا عبده ؟!» .

«خدمة بسيطة يا عم إبراهيم أفندى ! لا يقدر أحد على تقديمها إلى

غيرك!!» .

- «وهل أنا أخدم بالفلوس يا ولدى ؟» .
- «ما قصدت هذا ! الحكاية وما فيها أن أبى عنده كمنجة أثرية ثمينة ! أريدك أن تشتريها لى !» .
- ضحك إبراهيم افندى ضحكة عالية أفزعت الدواجن المتناثرة فى حوش البيت :
- «أنا الذى أشتريها لك من أهلك ؟! يا لها من نكتة !» .
- «سأشرح لك ! ..» .
- وحكى له مجمل القصة ، بكل خلفياتها وأبعادها ، وكيف أن إبراهيم افندى عليه أن يشتري هذه الكمنجة من أبيه على أسم أحد أصدقائه المهمين ، ثم يسلمها له فى السر ، ليخفيها فى مكان بعيد عن البيت ، فى بيت خالته مثلا ، ليعزف عليها وقتما يشاء . إلا أن إبراهيم افندى توقف عند كلمة عابرة قالها عبد البصير وشعر هو أنها أصابته فى منطقة موجعة ، فاعتدل جالسا فى حركة احتجاج :
- «ولكن كيف يكون العوالم سبة فى جبين الزمن ؟! كيف يعتقد الحاج مصطفى هذا الاعتقاد ؟! لا حق له أبدا فى هذا !!» .
- اعتذر عبد البصير :
- «ليس كل العوالم يا عم ابراهيم افندى !!» .
- زام الرجل فى نبرة تأمل هادئة ، ثم قال مداعبا :
- «وهل تنوى أن تشتغل بهذه الكمنجة مع العوالم ؟»
- «لا طبعا ! سأعزف عليها لمزاجى الخاص !!» .
- «وتظن أن أباك يرضى يبيع هذه الثمينة بعشرين جنيها فقط ؟» .
- «لك أنت يرضى ! إنه لا يؤخر لك طلبا ! وهذه هى الخدمة التى تقدمها لى !
- أنا أولى بها من غيرى !» .

- «اطمئن ! سأقوت عليه بعد العصر وربنا يسهل !»

ودس المبلغ تحت المخذة . فى الحال وقف عبد البصير مستائنا فى العودة إلى الورشة بسرعة ، مؤجلا شرب الشاي ليوم مجيئه لاستلام الكمان . قال هذا وهو

يعلم أن طلب الشاى الذى هتف به إبراهيم أفندى كان مجرد صيحة فحسب كجزء من طقس الضيافة لابد من تأديته حتى ولو لم يتم .

الكلمة التى نغصت قلب إبراهيم أفندى غطاس وشغلت باله قول عبد البصير إن أباه يأنف من اشتغال ابنه بين العوالم والآلاتية فكيف يكون هذا هو رأى الحاج مصطفى - صديقه الحميم - فى الفئة التى ينتمى هو إليها ؟! الحاج إذن يحتقره فى نفسه باعتباره من فئة الآلاتية هذه . تجسد أمام عينيه وجه الحاج مصطفى رصينا بريئا محترما عاشقا للموسيقى ولأهلها . فكر أن الولد ربما يكون قد أضاف هذه العبارة من عنده ، لكنه تذكر أن الولد قالها عفو الخاطر على سجيته، أى أنها أفلتت منه وإذن فهو لم يختلقها . ثم خطر له أن العملية من أساسها دليل كاف على صدق الولد ، فأن يلجأ إليه ليشتري له الكمان من أبيه فى السر على اسم شخص آخر معناه أن صديقه الحاج مصطفى يحرم على ابنه الاتصال بالموسيقى حتى لا تكون مهنة له فيما بعد .

شوح إبراهيم أفندى بذراعه يطرد ذبابة ملحاحة ، وقال لنفسه إن كل واحد حر فى تربية أولاده ؛ لكنه مع ذلك شعر بالمرارة فى حلقه ، كاد يغضب بالفعل من صديق عمره . طافت بشفتيه ابتسامة صبيانية ساخرة ، تمت فى أثرها : طيب يا حاج مصطفى ! ها هو ذا الولد سيصبح غصبا عنك موسيقيا ! وأنت الذى سيبيع له الكمان ولابد أن تبيعها له ! إن المنوع مرغوب فما بالك لو كان المنوع حلالاً طيباً أنعم الله به على عباده ؟ كيف فانتك هذه النكتة يا حاج مصطفى وأنت الرجل الداير المحتك ؟!

ثم اندس تحت الغطاء كائنه يهرب من شىء سيوغز صدره ضد صديقه الحميم .

* * *

فى مساء نفس اليوم كان إبراهيم أفندى غطاس بكامل بذلته السموكن يمسى على الحاج مصطفى الصوفانى فى دكانه :
- «ليلتك سعيدة يا حاج !» .

- «أسعد الله مساءك !» .

وهب واقفاً فى استقباله كالعادة ، مسلماً عليه بحرارة لا مجال للشك فى صدقها ، نفخ له مقعدة الكرسي بالمنفضة الريش ، نادى على الجرسون طلب منه مضاعفة فنجان القهوة . أشعل سيجارتين قدم واحدة لصديقه قال من خلال سحاب الدخان الغزيرة المتدققة من منخريه الكبيرين :

- «لا حفلات الليلة !؟» .

- «على فيض الكريم !» .

- «كله على الله !» .

وفيما يرشيفان القهوة تلصصت عين إبراهيم أفندى تحت البنك ، تلكأت عند صندوق كمان على غاية من دقة الصنع والنعمه ، فاطمأن إلى أن الكمان المرجوة لا تزال موجودة فى هذا الصندوق . ثم قال بعد برهة وجيزة :

- «لى صديق عزيز كالحاج مصطفى كلفنى بخدمة وعنده عشم كبير فى صداقتى لك !» .

- «أنا تحت أمرك وأمره !» .

- «بالمناسبة هو عازف كمان عجوز فى فرقة من فرق القاهرة ! يبحث عن آلة أصيلة ! وقصدنى فى هذه المهمة ! وعشمى أن ترفع رأسى !» .
ثم راقب عين الحاج مصطفى وهى تتجه تلقائياً إلى ذلك الصندوق الأنيق المكون تحت البنك . قال الحاج مصطفى :

- «مستعد هو لدفع ما أطلبه فى هدية ثمينة تبقى معه العمر كله !؟» .

- «رقيبى سداة نيابة عنه لأن ظروفه تعبانه قليلا بسبب عدم وجود آلة تناسبه !!» .

نهض الحاج مصطفى واتجه نحو البنك ، سحب من تحته الصندوق الأنيق ذا الطابع الأثرى . فتحه برفق ، رفع آلة الكمان ، سطعت هيبتها ناصعة : كان لها ظل مهيب ، فى خرطة الصندوق ، فى الرقبة ، فى مفاتيح الأوتار ، فى القوس ، كانت كالعروس المجلوة ليلة زفافها . من منظرها كان إبراهيم أفندى يستخسرها

فى الولد ، إذ هى تلىق بعازف حريف فى فرقة أم كلثوم مثلا ، لا بولد يتعلم عليها وقد يبهدلها ؛ لكنه ما لبت حتى تتم لنفسه : نصيبه . ثم تلقى الآلة فى صدره وصار يتفحصها بإمعان وانبهار ، يداعب أوتارها بأنامله المدرية ، يطرب لصوتها العميق الرنين ذى الترددات العالية . قال وهو يحيطها بساعديه فى حنو :
«كم تطلب فيها يا حاج مصطفى ؟» .

« لك أنت لا لغيرك هات ثلاثين جنيهها ! إلا ملیم واحد يفتح الله ! » .
حقيقة الأمر أن إبراهيم افندى غطاس كان يتوقع ملیغا أكبر ، فأدرك فى الحال أن صديقه يعزّه حقا . إلا أن الحاج مصطفى أضاف بلهجة ملیئة بالدهاء إلى حد أنها بدت غاية فى البراعة :

« أقسم بشباك النبى الذى زرتك أنك لو قلت لصاحبك هذا أنك دفعت فيها خمسين أو ستين أو حتى مائة فلن يراجعك !! هذا إذا كان بالفعل يفهم فى هذه الجواهر ! وما دمت قد قلت إنه عجوز فى فرقة محترفة فلا بد إذن أنه يفهم ! إن مجرد كونه كلمك أنت لتتوسط له عندى دليل على أنه ولد دقرم يعرف أماكن الآلات الأصلية !! » .

العبارة الأولى قرصت إبراهيم افندى غطاس قرصة عابرة لكنها موجعة ، جعلته يهمل الاستماع لبقية الكلام . ولم يصبر على الرد ، فاضطر إلى القول فى لطف خبيث :

« لست أنوى أن أبيعها له فلست سمسار آلات إنما أنا ألقط رزقى من إصلاح آلات أكثر دقة هى الساعات ! وأما الفن فهواية ! ما ذهبت إلى فرح إلا وكان هدفى وشاغلى هو إمتاع نفسى باللعب على آلة القانون التى أموت فى عشقها وأستمع باستمتاع المستمعين بلعبى يساوى فى نظرى كنوز الأرض كلها !! ولعلك لا تعرف أن الحسنة التى تجيء من وراء ذلك لا أمد يدي أبدا لتلقيها إنما هى توضع مطوية فى جيبى فلا أعدها إلا عندما أبدأ فى الصرف منها !! بالمناسبة ما رأيك فى طائفة الآلاتية يا حاج مصطفى ؟ » .

جميع ألوان الانفعالات المدهوشة الغامضة تواترت على صفحة وجه الحاج

مصطفى ، محاولا استكناه سر هذا الكلام الغريب الذى يقوله صديقه . أخيرا أراح نفسه من الحيرة وقال :

«أولا أنا لا أقصد ما سرح إليه بالك !! إنما قصدت أن أبين لك قيمة التحفة التى بين يديك ! ثانيا كل مهنة فيها كفوها ! من هذا ومن ذاك ! أصابعك ليست مثل بعضها يا إبراهيم أفندى ! وأى فرقة يكون فيها فنان مثلك لابد أن أحترمها بالطبع ! أظنك تعرف أننى أميز بين الفنان الحقيقي ولا بس المزيكة !! لكن قل لى أنت : ما مناسبة هذا السؤال الآن ؟» .

أسقط فى يد إبراهيم أفندى غطاس ! فلم يجد سوى الضحكة العالية الرنانة يدارى بها شعوره بالحرج ، ختمها بقوله :

«لست فى حاجة لأن أعرفك ! المهم الآن أن نصل إلى سعر الخلاصة فى هذه العروس !! ماذا يكون موقفك إذا علمت أننى سأدفع من جيبى ؟! وأننى لابد أن أجامل صاحبنى هذا لأنه يستأهل الخدمة من ناحية ويمكن أن يفتح لنا سككا فى القاهرة من ناحية أخرى !!» .

مد الحاج مصطفى يده بحركة تعنى : هات الكمنجة ، فبهت إبراهيم أفندى لبرهة وهو يقدمها له فى حركة من يقول : هاك بضاعتك فلسنا لصوصا ، ثم فرك يديه فى قليل من الحرج ، ويطرف عينه السليمة راقب الحاج مصطفى : الذى فرش للكان قطعة من القطيفة القرمزية ، ثم أنامها فى مرقدها المنحوت فى قلب عليبتها ، ثم وضع فوقها قطعة أخرى من نفس القطيفة ، وشبك القوس فى مرقده فى غطاء الصندوق ! أغلق الصندوق بحرص وعناية : تراك ترك . ثم إذا به يزيح الصندوق نحو إبراهيم أفندى قائلا فى جدية :

«خلاص يا إبراهيم أفندى ! خذها وقد وصل ثمنها !! اعتبرها هدية منى لك !!»

ارتعش صوت إبراهيم أفندى من فرط الشعور بالامتنان ، وقال كأنه على وشك البكاء :

«كذا ؟! هى إذن أغلى مما توقعت ! وعلى كل حال ! سبحانك يا رب ! هى

ليست ذاهبة بعيدا ! من القلب للقلب رسول فعلا ! ولكن اسمح لى مادام الأمر هكذا أن أدفع فيها ثمنا رمزيا لا يساوى ثمن قوسها وحده ولكننا اتفقنا على أنها هدية !!» .

وشفع هذه العبارة الأخيرة بورقتين من فئة العشرة جنيهاات حمراء كبيرة . قدمهما مقروبتين . فنظر فيهما الحاج مصطفى لبرهة فى قليل من الأسف ، لكنه ما لبث حتى هز رأسه بحركة من يقول : سمعا وطاعة . تناول الورقتين ، دسهما فى جيبه :

« حلال على صاحبك ! ليست خسارة فيك !!» .

قال إبراهيم افندى وهو يقدم نحوه عليه سجائره :

« صدقنى إنه يستأهلها ويستأهلها ! اقتنعت الآن أنها مكتوبة له ! فسبحان

الله مقسم الأرزاق!!» .

وكان يود لو يضيف : ها أنت ذا بنفسك تسهم فى تنفيذ القدر الذى لا مفر منه لإبنيك ! أردت منعه عن الكمان ولكن الله يخدر أعصابك حتى تسلم فيها من أجله بتراب الفلوس ! تمكر بالله والله خير الماكرين ! إذا كان الله قد زرع فى قلب الولد حب الكمان فيكيف بك تنزعه ؟! أه لو عرف ابن آدم منا حجمه فترك ما لله لله . إلا أن إبراهيم افندى غطاس خشى أن يزلف لسانه بكلمة تفسد المقدور على شدة يقينه من تمام مشيئة الله ! فلزم الصمت برهة طويلة فبدا كأنه غارق فى خجل الشعور بالامتنان . على أن إبراهيم افندى غطاس ما لبث حتى شعر بامتنان عظيم وبهجة أعظم لنجاح مهمته ، لمجرد شعوره بأنه كان واسطة لتنفيذ مشيئة إلهية مقبورة : وإن هذا لشرف كبير له . وهكذا أمضى بقية السهرة مع الحاج مصطفى يضحكان من الأعماق على نواذر جيد إبراهيم افندى حكايتها عن عالم الآلاتية وعوالم الأفراح والراقصات العجائز اللائى يتحولن إلى قوادات قاسيات . ثم مسح دموع الضحك قائلا :

« هى طائفة وسخة ما فى ذلك شك ! ربنا يتوب علينا منها !!» .

وحمل آلة الكمان ومضى يتعجب من تصارييف الزمن .

(٣)

فغر عبد البصير فاهه، شهب، ثم انعقد لسانه من الدهشة. كان يتوقع آلة جديدة الصنع من الآلات الكثيرة المعروضة في المحل، ولكن أن تجيئه هذه الكمان بالذات فهذا ضرب من جنون المصادفة، وشئ من اثنين إما أن يكون إبراهيم أفندى قد اتفق مع الحاج مصطفى على بقية من المهر الثمين يدفعها بالتقسيط، وإما أن يكون الحاج قد سلب وعيه حتى يبيع هذه بعشرين جنيها فقط، لقد شاهد بنفسه أباه ذات ليلة يكتب بحثا عن تاريخ هذه الآلة يوم اشترى صندوقها مكسور العنق ويلا أوتار من بائع الروباييكيا بعدة شلنات. كان الحاج ليلتها منهمكا في استعراض كتالوجات وكتب على صفحاتها أنواع وأشكال من صناديق آلة الكمان، الفروق بينها دقيقة جدا ولا تكاد تلحظ للعين العابرة، لكن الكلام المكتوب تحت كل صندوق يملأ صفحات حافلة بالتواريخ وأسماء الصناع وما أضافه كل منهم إلى هذا الصندوق السحري من مميزات لها تأثير قوى على الأنغام كما أنها تضيف على الأوتار إمكانية أوسع وأرحب وأكثر إثارة واستجابة لأدق نامة في خلجات الص، يذكر أن أباه ليلتها انتهى إلى تسنين الصندوق فكتب له شهادة ميلاد تقريبية، ثم اشتغل فيها بنفسه حتى سواها هكذا، واستلقت لها هذه العلبة الأثرية ليضعها فيها كالجوهرة .

راقب إبراهيم أفندى وجه عبد البصير بابتهاج كبير، لقد أيقن من فرحة الولد أنه يفهم قيمة الآلة التي بين يديه جيدا، ومن ثم فإنها ستعيش معه سنوات طويلة تزداد فيها قيمتها ارتفاعا. المهم الآن - قال في نفسه - هو أصابع الولد، يريد أن يراها كيف تتحرك كيف تمسك بالقوس كان إبراهيم أفندى غطاس مشوقا للاطمئنان على مصير هذه الآلة الأثرية الثمينة فإذا انبهاره بالولد يفوق انبهاره بالآلة وانخرط في المشاهدة والاستماع.

بمعلمية وحرفنة عجوزة أمسكت أنامل عبد البصير برقبة الأوتار. صرخت الأوتار، فجرت في قلب إبراهيم أفندى براكين النغم الذي راح يتدفق بغزارة يكاد يرسم على صفحة الأثير أشكالا جمالية مجسدة تكاد تراها عين الخيال ملونة

بأزهى الألوان، تكاد الكمان تغنى بكلمات منطوقة . ثم إن عبد البصير نفسه اختفى من ناظرى إبراهيم افندى وبقيت الكمان ككتلة جمر ملتهبة بين سحائب من الأنغام تحتوى على كل شئ، تقاسيم غضة طازجة مفعمة بروح الفتوة. فلما انتهى عبد البصير من العزف بقى إبراهيم افندى برهة طويلة لا ينتبه إلى أن العزف قد توقف، فالأصداء كانت لاتزال تتردد توقظ فى قلبه أبهج الذكريات فى دفتر الأحلام والطموحات الشبابية الوردية الحميمة. قال كأنه يرتل تعويذة قدسية:

«فتح الله عليك يا ابنى .. فتح الله عليك .. أنت مفاجأة! أنت فعلا تستأهل هذه التحفة الثمينة ، الرب أرسلها إليك خصيصا ، يشاء السميع العليم أن أباك الذى يريد أن يحرمك ويحرمنا من هذه الموهبة الناضجة هو نفسه الذى يوضبها لك ويجهزها بكل خبرته وحرقته، فاللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!!»

الدموع الساخنة راحت تنثال على خدى عبد البصير، الذى امتلا جسمه مؤخرا واكتسب مظهر الرجل الرصين. ثم تبسم قائلا :

« لكن براوة عليك يا عم ابراهيم افندى أنا لن أنسى لك هذا الجميل فأنت أتيت لى بحبيبتى وجمعت شملى عليها!!»

«والله يا إبني أنا مالى فضل، أبوك غمزنى بكلمة نابية خرجت غصبا عنه ! فأراد أن يصلحنى شاعرا بغلطته فتهور فى الكرم، كل ذلك لكى يجمعك الله على حبيبتك الغالية ! وأقول لك الآن بعد أن استمعت إلى عزفك إنك فى مستوى المحترفين، خل بالك من نفسك وإياك والغرور فالإنسان يتعلم طول عمره ويموت جاملا!!»

«على آخر جهدى»

«إن أذن الله فأننا يمكن أن أدعوك معى لحفلات مخصوصة فى السر، ويمكن أن تختار لك إسم شهرة تعرف به وتترك لأبيك اسمه ولكن قل يا رب!!»

«يا رب !»

قالها عبد البصير وهو يتأبط عروسه التى هبطت عليه من السماء مد يده
ليسلم على إبراهيم اقتدى . احتضنه الرجل وقبله ودعا له بالتوفيق.
خرج عبد البصير طائر الخطوات لا تكاد الدنيا تسعه من شدة الفرح، قاصدا
بيت خالته فى شارع الشيخة صباح، ليخفى الكمان عندها فى صندوق ملابسها
كما وعدته لحين يطلبها، بل أنذنت له أن يحتل حجرة نومها لآى وقت يشاء حين
يريد التدريب.

* * *

ليس فى مدينة طنطا كلها شخص له أدنى اتصال بالموسيقى إلا ويعرف
عبد البصير الصوفانى، من المحترفين إلى الهواة إلى المعلمين فى المدارس والملجأ.
فكلهم قد تردد على المحل والورشة . وكان طبيعيا أن يمشى فى أى شارع فى
المدينة فيصادف واحدا من هؤلاء . فمن الطبيعى أن يسأل كل منهما الآخر عن
أخباره، ولابد أن تجى سيرة الموسيقى. يكتمل الحديث بينهما على المقهى. كل
الأحاديث ربما وصلت إلى حد الملل بعد وقت يقصر أو يطول إلا حديث الفن بين
هواته الذين يحلمون بالشهرة والاحتراف، هو أكثر الأحاديث حميمية وأكثرها
مودة وحرارة.

تلقى عبد البصير أكثر من دعوة لحضور حفل عيد ميلاد، خطوبة، شبكة. من
الجميل - والمتوقع بالطبع لدى صاحب الدعوة - أن يصطحب عبد البصير آلة
الكمان معه . بات من المؤلف أن يتلقى عبارات المديح والإعجاب بغزارة. طربت
أذنه للتصفيق الحار. دغدغت مشاعره بكبرياء نجومية مبكرة. فى أشهر قليلة صار
مشهورا فى أكثر من بيت فى كل شارع وحارة من شوارع وحوارى طنطا البديعة
المفتونة بالفناء والموسيقى طول عمرها. تكونت له طبقة من المعجبين المتحمسين،
معظمها من الطلبة، ومدرسى الموسيقى، وبعض كبار الموظفين المثقفين الذين قرنوا
مهارة فى العزف بمهارة عزيز الشوان وأنور منسى.

بدأت حفلات السمر فى المدارس والمنتديات تدعوه لإحياء بعض فقراتها،
يكرمونه بكتابة اسمه بالخط الكبير على لافتة يعلقونها فى مدخل المكان. وكان هذا

أكثر ما يزعجه متوقعا أن يمضى شرير من حفدة إبليس بواحدة من هذه اللافعات إلى أبيه، فتكون الطامة الكبرى، فإنه لا يزال يعتز باسمه ولا يحب تغييره بسهولة كئنه إن غيره ذهب الإعجاب إلى شخص آخر. وقد اعتاد أن يرد عليك إذا طلبته الليلة لحفل:

«بس وحياة والدك ! لا داعى لللافتات ! أنا هاوى ولست أبحث عن الشهرة!!»

فلا تزيدك هذه العبارة إلا حماسة للإمعان فى تقديره جزاء وفاقد لهذا التواضع، أليس يكفى أنه لا يقبل مد يده لأخذ أية نقود؟!

* * *

إبراهيم افندى غطاس فتح له جبهة لا يستهان بها بين عشاق الفن فى طنطا وضواحيها، من مشاهير كبار الأثرياء، وكبار التجار، المغرمين كلهم بليالى الانس الدائمة، ومن أعيان الضواحي من ملاك الأراضى الزراعية الشاسعة وفيهم الباشوات واليكوات والعمد ومشايخ البلاد وكلهم عشاق مغنى وطرب ولهم ليااليهم الخاصة يقيمونها فى مخادع لهم داخل سرايات وفيلات وسط الحقول فى قلب الحدائق فى أماكن نائية، بمناسبة وبغير مناسبة، أساس هذا الولع بالموسيقى والغناء ما زرعه الفرق الصوفية العديدة - العاشقة لرحاب السيد البدوى - من حب للموسيقى، إذ ان الموسيقى عمود رئيسى فى نشاط الطرق الصوفية تستعين على توصيل المريد إلى حالة الوجد الصافية، وقد لايعرف الكثيرون أن الطرق الصوفية بجميع فرقها لعبت الدور الأعظم فى تمصير الموسيقى وتطويرها وتقريبها من الوجدان الشعبى، حتى بات فى كل قرية أعداد هائلة من المنشدين والصبيطة والمغنين والمقرئين والمبتهلين وعازفى الرباب والأرغول والدقوف والمزمار البلدى والنأى والأرغول والسلامية والدريكة والعفاطة والصاجات والكاسات والطبل البلدى.

أصبحت الرغبة فى الفرفشة والتطهر بالموسيقى والغناء عادة متأصلة فى ريف الغربية الخصيب وشعبها الحضارى الرقيق. بعد هذه الرغبة الدائمة ما أسهل

استقطاب المناسبات : قراة فاتحة، سفر إلى الحج، عودة من الحج، شراء قطعة جديدة من الأرض، بيت جديد وجب افتتاحه، ظهور، حصول على لقب، ترقية، نجاح ابن فى المدرسة، تخرجه، حصول على حكم بالبراءة أو بالأحقية فى شئ، سرعان ما تذبذب الذبائح يخبز الفطير بأنواعه، تحتل الفرقة الموسيقية أشرف موقع فى القعدة ، تتلقى صنوف الترحيب والمجاملات والتدليل، وهى فى العادة فرقة مختارة بعناية، أرفع مستوى من آلاتية عوالم الفرح وراقصات الزفة وخليبيص المزينة ، معظم عازفيها أفندية محترمون فعلا لا مظهرا فحسب، ملابسهم نظيفة مكوية باللغة الأناقة، لا تصدر عنهم ألفاظ أو حركات نابية، متعففون متحفظون خاصة على موائد العشاء، وهم بين مدرس للموسيقى وطالب جامعى من الهواة ومن بقايا الفرق المحترفة القديمة التى أخنى عليها الدهر فتككت وتعمصت ضد الاتجاهات العصرية السطحية. لا بأس من وجود راقصة ومغنية.

تلك هى الحفلات الخاصة لأثرياء وأعيان الغربية من عشاق النغم. فى مثل هذه الرحلات إلى الضواحي البعيدة والبلدان الريفية كانت سعادة عبد البصير تصل إلى ذروتها، حيث يجلس تحت شجرة فى بستان، أو فى شرفة سراية المضيف، أمامه شاي وقهوة وقاكة ولفائف تبغ عامرة بالسبلة، يستمع إلى غناء الفلاحين فى عز الشقاء والعرق تحت وهج الشمس الحارقة، غناء الفلاحات لأطفالهن، حداء الصبايا وموكبهن العائد فى الأصيل يحملن بلاليص المياه مائلة على رؤوسهن كأشعة السفن يخليل إليك أنها لابد واقعة على الأرض إذ هى واقفة على جزء يسير من جنب قاعها لكنها أبدا لا تميل لا تهتز رغم أن أجساد الصبايا تتلعبط تحتها كالبلطى وأيديهن تلوح مشاركة فى التعبير مع الغناء، عن الولد أبو طاقية، عن بدلة الحبيب المقلمة، عن الزند العفى، عن العنب، القطن، القمح ، الارز، شجر التوت، عن ليلة الحنة، ليلة الدخلة، الصباحية .. الخ.

غناء غناء غناء، فى كل خطوة، كل بقعة، بل كل بلوى. ولد غائص بسباقيه فى مسطاح التربة وهو جالس يحرك يد الطنبور بزنده على ايقاع أغنيات شبيهة بحركة دوران الطنبور وصبه الماء فى قناة صغيرة. للماء نفسه أغنيات المتعددة

الإيقاعات والأرتام والتغمات، فخريره من الجنول يختلف عن غنج الطنبور عن جعجة الشايف المتقطعة عن نغير السواقى عن تلاطم الموج، للجمال أغنيات مملوطة تقطع عباراتها هزة للأمام فردة إلى الخلف تشبه إيقاع خطو الجمل. حبذا ولد على حمار لكع، يرقع بالموال من حنجرة منطلقة جمالها فى خشونة نبرتها فى خشونة انفعال صدق وليست نشارا فى النغم . حبذا استغاثة الفجر فى المسجد القريب من قعدة كهذه، حبذا امرأة عجوز تخلو بنفسها فى حوش الدار تندبن بأغنيات العديد تنعى أسيدا أكلتهم الأرض وأعزاء لم يعزوا على خالقهم وزمنا جميلا مضى وابنا غائبا.

ما أجمل أن يحاول عبد البصير ترجمة كل هذا الذى يفقته بأوتار كمانه، لا قيمة لهذه الآلة فى يديه مالم تنطق بكل هذه الأنغام الدافئة الغنية الأصيلة، هذه الآلة الغربية التى طالما رطنت أوتارها باللاوندى فى المذيع المحتشم، والحفلات ذات اللياقات المنشأة، أن الأوان لتعليمها اللغة العربية التى لا تعرفها كتب الدروس والمطالعة، لغة هذه الأغنيات التى تشعل فى القلب نيران الأسى والبهجة والجمال: أه من عبقريه لحن صعيدى يخرج من شغاف القلب يهدر بالشوق العارم مناديا فى لهفة حارة: يا وابور الساعة انتاشر يا مقبل ع الصعيد، لهف قلبى على حسب وداد قلبى يابوى رح أقول للزين سلامات، يا بهية وخبرينى ع اللى قتل ياسين.. أه لو أن الكمان تزوجت الرياب وأخذت منه شعوره الفياض بالغربة، الشعور الجبلى الصحراوى الساخن، كم يشعر بقدرة الكمان على استيعاب مشاعر الرياب ذات الثبرة اللحمية النائحة . يكاد يوقن أن عشق الكمان له بات أكبر من عشقه للكمان، هى التى تناديه باشتياق، تسلمه نفسها طائعة طيبة، لسوف يبقى مخلصا لها أبد الدهر، سوف يذيب دمه فى أوصالها، سيضمن أنها لن تخونه، لن تخفى عنه شيئا من أسرارها، سيبثها كل أشواقه، أحزانه ، آلامه ، آماله، همومه، وإنه لوائق أن صدرها العريض سيحتويه بكامل كيانه، لكن صورة أبيه اعتادت أن تعبر مخيلته فى مثل هذه اللحظات التى يختلى فيها بنفسه مع كمانه، واعتاد أن يتحفر فى مواجهة أبيه مكشرا منتفضا بمس سريع من الحمى ، والشرر الأحمر يتقد فى عينيه.

لاحظ الحاج مصطفى الصوفاني أن ابنه لم يعد يظهر كثيراً في البيت، بل لا يكاد يراه في البيت إلا نائماً. فمواعيد الحاج لا تتغير مطلقاً: حينما تدق ساعة الحائط العتيقة في ردهة شقته - تلك الساعة التي استلقتها له إبراهيم أفندي غطاس بتراب الفلوس - منتصف الليل، يكون هو جالساً بالجلباب البويلين الخفيف إلى تراييزة السفرة يتناول عشاءه، المكون من قطعة لحم مشوية مع قطعة جبن أبيض ومغرفة من الأرز المحمر ونصف رغيف، وحينما يؤذن مسجد السيد أحمد البدوي لصلاة الفجر يكون هو قد طرح العباءة على كتفيه وارثدى الشبشب الجلدى فى قدميه واخترق الحارة متوجهاً إلى مسجد البدوي. فى طريق العودة إلى المنزل ينتهى من تريد أورداد لابد أن يختم بها صلاة الفجر كل يوم، هى غالباً عهد السيد البدوي الذي حفظه منذ الطفولة. ثم يستأنف النوم حتى يسمع ساعة الحائط تدق نفس دقات المنتصف، يشرب كوب الشاي بالحليب إلى جوار طبق من الفول المدمس المهروس فى الزبدة، يرتدى كامل ثيابه، لا ينسى رباط العنق تحت السترة التى لابد أن يخلعها فى المحل يعلقها على مشجب خلف الباب، يبقى بالقميص والبنطلون ذى الحملات المطاطية المبططة فى شريحتين على صدره وعلامة إكس على ظهره، مشمراً كمي القميص، ليتحرك بحريته فى المحل، بقامته المديدة الضخمة، وشعره الكثيف الأشيب الذى يصفى على وجهه شكل الفنانين الأجانب فى عصر النهضة الأوروبى، صارم الملامح قاسى السميت، غليظ الشفتين المضمومتين دائماً فى إصرار وعزم، مقطب الجبين على الدوام، لوزى العينين، حاد البصر قوى التحديق فى الأشياء وفى اللاشئ أحياناً، رخم الصوت حاسم النبوة كخطيب سياسى معتزل، طويل الذراعين طويل الأصابع، بارز الصدر عريض الكتفين، يكلم أولاده وصبياناه بالإشارة، ربما بتلوحة أصبع سريعة، ربما بنظرة، لا يحب كثرة الكلام فى العمل، لا ولا الفصال عند البيع والشراء، بكذا يعنى بكذا، كلمة واحد لا يتراجع عنها مطلقاً، قد يتساهل بمزاجه فى لحظات نادرة مع الأحبة، أحد أبنائه لابد أن يكون

موجودا معه طول النهار، لأنه لابد أن يصلى العصر والمغرب والعشاء جماعة فى المسجد البدوى. ومن المسجد بعد صلاة العصر يروح على البيت ليتناول الغداء ويغفو بضع دقائق، يخرج منها إلى المسجد البدوى لصلاة المغرب، ومنه إلى المعهد لتدريب طلابه على العزف ومحاضرتهم فى تشريح الآلات الموسيقية، ثم يقفل عائداً إلى المحل، فيصرف ابنه ويمكث فيه حتى منتصف الليل. ليس من المهم أن يبيع أو يشتري، المهم عنده أن يبقى المحل مفتوحا، غارقا فى بحر من الضوء البهيج.

إن زاره ضيوف فأهلا بهم، وإن لم يزره أحد فما أحلى أن ينفرد بنفسه، يتصفح بعض المجلات الفنية والثقافية التى يحرص على شرائها كالهلال والثقافة والرسالة والصباح وروزاليوسف، أو يقرأ فى كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني، أو يكتب بعض الأفكار فى دفتر عتيق. هى فى الغالب أفكار خاصة بمشروعه الأزلى الذى يتشاحن بسببه مع وزارة المعارف العمومية، لا يكف عن إعادة تقديم مشروعه للوزير كل عام بتعديلات جديدة وإضافات تيسر تنفيذه. حلمه الكبير أن تقوم وزارة المعارف بزرع فن الموسيقى فى تلاميذ المدارس منذ نعومة أظافرهم، لا لكى تخرج المدارس فى النهاية موسيقيين محترفين بل مواطنين صالحين يتذوقون الموسيقى، فهى فى رأيه بوابة الحضارة الحقيقية والتقدم المرموق، لأن المواطن حين يتذوق الموسيقى جيداً يسهل عليه أن يتذوق معنى الوطن ومعنى الحياة، تستضاء روحه بنور الفن، وليس غير الموسيقى دلالة على الفن الرفيع الصرف، أعظم بها من مرب يقتل بذرة الشر فى الإنسان يخلق منه كائنا حساسا راقيا، إننا يا سيادة الوزير فى حاجة إلى تربية موسيقية قبل التربية البدنية والخلقية لأنه لا سبيل لهاتين المهمتين بغير الأولى، لابد يا سيادة الوزير أن يكون لكل فرقة دراسية فريق موسيقى كامل تتوافر له الآلات الوترية والنحاسية والخشبية، ومن الفرقاء يُنتخب لكل مدرسة فريق كبير يمثلها فى حفلات سمر دائمة فى نطاق المدرسة الواحدة كل أسبوع مثلا، ثم فى نطاق مدارس المنطقة فى مهرجان شهري، ثم فى نطاق القطر كله فى مهرجان نصف سنوى

تتمثل فيه كل المدارس، إن حياة التلاميذ والطلاب لابد أن تمتلئ بالموسيقى من الحضانة إلى الجامعة وإلا امتلأت بالخراب الروحي والخزيعلات، وليس ثمة مشكلة خاصة بتمويل الآلات ولبس الفرقاء فإن رسوما ضئيلة أو اشتراكات يمكن إضافتها على أولياء الأمور، إلى جانب دعم من الوزارة كفيل بحل هذه المشكلة الثقافية بالقياس إلى حجم الفائدة، أما أن نكتفى بتدريس الموسيقى حصة عابرة كل أسبوع ينساها التلاميذ بمجرد عودتهم إلى بيوتهم فهذا هو التهريج بعينه.

صحيح أن وزارة المعارف العمومية - ومن بعدها وزارة التربية والتعليم - لم تأخذ مشروعه بالجدية الواجبة وإن داومت الرد عليه واستمرت المراسلات بينهما قائمة، إلا أنه على شئ كبير من الثقة في أن يجي يوم تكتشف فيه الوزارة أهمية مشروعه، فأبداً لن تستمر البلاد على حالها، ومن المؤكد أن الأحوال ستتحسن بشكل أو بآخر.

ما أكثر ما نام مشروعه في أعماق الدرج السفلى وعلاه التراب شهوراً طويلة. ولكن ما أكثر ما استيقظ فكأنه يبرز في ذهنه من جديد لأول مرة، فما يلبث حتى يتذكر لوامع أفكاره وحكمة مقترحاته وسديد آرائه التي تقالعه في سطور المشروع، فيخيل إليه أن شخصا آخر غيره هو الذي كتبها في لحظة تجل نادرة. يتوقف عند آرائه في فلسفة التربية الموسيقية وضرورتها بالنسبة للشعوب الناهضة، وكيف أن الشعب الذي يحس الموسيقى ويتنوقها لابد أن يتمسك كل شئ في حياته: نظام البيوت، نظافة الشوارع، اتساق المدن، ازدهار الحدائق، اتصال الأفكار، حرارة المشاعر: إن الموسيقى كفن زمني يوقظ في الإنسان الإحساس بالزمن، بقيمة أن تمتلئ كل برهة بشئ منظم للإحساس والعمل، والنغم نقيض للفوضى، وعدو للفراغ.

أشد ما يضايق الحاج مصطفى الصوفاني هو أن طلاب معهده لا يستوعبون هذا الكلام عندما يجد نفسه قد انجلى فراح يحاضرهم به كي يضئ نفوسهم. لكنه دائماً أبدا يشعر بالصدمة قوية بعد دقائق معدودة، حين يرى أنهم قد بدأوا في التثاؤب والتملل، وبدأت ملامح الضجر تنتشر كالجدري على صفحات

وجوهم اللولة بطبيعتها. وكان يعرف السبب، فالواقع أن الذين وفدوا على معهده معظمهم يتوق إلى تعلم شئٍ وحيد: العزف على الآلة كصنعة للارتزاق أو التباهى على الأقران أو مسابقة الطبقات الغنية، ندر بينهم من لديه إحساس عميق بالموسيقى كفن حضارى، حتى المهويون منهم نوقهم مبتذل، فكل القطع التي يغرمون بالتدريب عليها فى منازلهم من الفن الساقط المنحط، من أغنيات العوالم الشائعة. إنهم معذرون فى الحقيقة لأنهم نتاج طائفة العوالم واللاتية، فلا أحد يقدر على تدمير الأنواق والإضرار بفن الموسيقى مثل هذه الطائفة أه كم يكرها ويمقتها. ويوم يهل عليه واحد منهم لشراء أو إصلاح آلة فإنه يعامله أسوأ معاملة، لا يخفى احتقاره الشديد له، بل ينهره بقسوة على أقل بادرة جهل تصدر عنه، يسفه من آرائه ويضن عليه بالرأى الصحيح. إلا أنه يأنف أن تخرج من تحت يده آلة غير متقنة على أكمل وجه، وعندئذ يسلمها لصاحبها- إن كان من هؤلاء- وإسان حاله يكاد ينطق : حار و نار فى جنتك! فأنت لن تفهم قيمة ما فعلته يدي!!

(٥)

مضى الحاج مصطفى الصوفانى إلى منزله ذات ليلة وهو مستغرق فى تفاصيل مشروعه الذى استيقظ فجأة كالعادة فجعل يفكر فى إضافات جديدة تحيله إلى مشروع قومى بمعنى الكلمة. كان يفكر هذه الليلة فى مسئول جديد يخاطبه، أو جريدة تتولى عرض مشروعه على الرأى العام. فما أن وضع قدمه على أول الحارة حتى صافحته الموسيقى المنبعثة من شقة أم بهيجة، وبيوت الحارة كلها تسبح فى ضوء الفوانيس السابح فى بحر من النغم الشجى عالى الحرارة والحرفة. كانت موسيقى محضة، ميز طبيعة بنائها النغمى، إنها «تحميل» من مقام النهاوند، كل آلة تصول فيها على حدة شوطا طويل النفس: القانون والنائى والكمان والعود والرق. هذه التقاسيم على آلة القانون غريبة على طنطا، هذه الأصابع ليست أصابع إبراهيم أفندى غطاس أشهر وأهم عازف قانون فى البلد، وليس فى البلد غيره يقدر على مثل هذه التقاسيم التى تحتاج لموهبة واقتدار. لابد إذن أن بهيجة وأما ليهما ضيوف من القاهرة أو الإسكندرية أو ربما من تونس

أو سوريا، أو لبنان. إن لهجة الأوتار في هذه المعزوفة ذات الطابع التركي تشبه اللهجات العربية ذات اللسان المعوج بلكثات بدوية. إنه يستطيع تمييز العزف المصرى الصميم كما يستطيع الفرد العادى تمييز النطق المصرى من النطق الشامى أو المغربى أو السودانى، أليست الموسيقى السودانية من الموسيقىات التى تتركها الأذن لأول وهلة ؟ .. كذلك الموسيقى التركية والإيرانية ناهيك عن موسيقى الغرب، فكل نغم يحمل بالضرورة إيقاع وجدان قومه وإيقاع حياتهم وطبيعة مناخ بلادهم.

طرب الحاج مصطفى لهذه المعزوفة طربا عميقا، صار يتابع الأنغام يتوقع القفلات المناسبة فلا يخطئ حدسه. وأحيما دخل البيت توجه من فوره إلى حجرة الجلوس المطلة على شبك أم بهيجة وكان هدفه مزوجا: أن يضبط ابنه عبدالبصير متلبسا بالاستماع متظاهرا بالنوم، وأن يتابع المعزوفة فلا يضيع من أذنه شئ منها. لم يجد ابنه على الكتبة. أضاء وفتش بعينه فى أنحاء الحجرة فلم يجد له أثرا، فشرع بقليل من غصة فى حلقه إذ إنه منذ شهور طويلة جدا لم يعد يرى ابنه فى هذه الحجرة على هذه الكتبة ينصت ويتصنع النوم، فأين تراه يذهب هذا الولد؟! لكنه خرج متجها إلى حجرة النوم الملاصقة لها والمطلة أيضاً على نفس الحارة بشبك لا ينفتح مطلقا. تلكأ فى خلع ثيابه وقد ارتبطت أذنه بنهر متدفق من العزف على آلة الكمان التى تسلمت دفعة البوح من آلة القانون، فكان المشاعر التى هيجها القانون ونثر بنورها الناضجة فى سياق المعزوفة تأخذ وضعها الآن مستريحة على صدر الكمان تتأصل تتفتح أكامها. ترى من يكون هذا العازف الجبار؟ لا أقل من أنور منسى، أو موهوب أعلى منه حسا ونويانا فى بحور الأوتار. لله درك يا أم بهيجة، لديك قدرة فذة على استقطاب الفنانين من كل مكان، كأن لك مندوبين فى جميع بلدان الفن يكتشفون لك الدرر الثمينة، رحم الله زوجك النواقة فلولا هذه الميزة فيك -مثلما فيه- ما ضحى بزوجته أم أولاده ولا بمنصب العمودية وجاء يسكن معك فى هذا البيت، لقد تفاضى عن أشياء كثيرة فى طبعك وسلوكك ودافع عنك بحرارة حينما اتهمك أهله بأنك محض عالمة تائبة،

قال -وقد صدق- إنك من بيت طيب وكانت أمنيته أن تصيرى مغنية محترمة كام كلثوم لكن أبوك الصبييت -كأب أم كلثوم أيضا- منعك من هذا الأمل على عكس ما فعل أبو أم كلثوم، لكنه سمح لك بإشباع هوايتك فى مجالسك الخاصة، المشكلة أن بناتك الآن لا مانع لديهن من الاشتغال مع العوالم، لولا أن أخاها الذى لمع وأصبح من مشاهير الطرب والتلحين يمكن أن يقتلهن لو فعلن، صحيح أنه من أم أخرى غيرك لكنه نعم الأخ، لا يكف عن زيارتك ورعايتك بكل ما يستطيع.

على سفرة العشاء قال الحاج مصطفى لام عبده :

- «إبنك يسهر خارج البيت كثيرًا وهذا شئ لا يطمئن فى هذه السن الحرجة!!»

كانت أم عبده جالسة أمامه على الكرسي، بجسدها المفتول كتمثال من آلهة الجمال عند الإغريق، وقد لفت الطرحة البيضاء حول رأسها وعنقها، فبدا وجهها كقناوس أحمر الضوء. لوحظ بذراعاها البيض الممتلئ، قالت:

- «أنا واثقة من تربية ابنى! هو لا يسهر إلا مع بعض صحابه من أبناء الناس الطيبين! وهو يقابلك كل يوم فى صلاة الفجر فى المسجد الأحمدي!...»

فواصل الأكل دون أن يعلق.

فى فجر تلك الليلة مسبح فراغات المسجد بعينه، فلمح ابنه ساجدا فى ركن بعيد، تحيطه هالة من الورد الحقيقي، اطمأن بآله، تسلل خارجا بتأبط حذاءه، زفمه مشغول بترديد نص العهد الأحمدي الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من صلاة فجره.

(٦)

يرى عبد البصير أباه كل ليلة فى صلاة الفجر من ركنه القصى فى زاوية بعيدة، لكنه لا يجرؤ على الذهاب إلى البيت إلا فى الضحى، حيث يطمئن إلى أن أباه قد استغرق فى النوم. إنه يهرب من مواجهة أبيه ما أمكن، يتجنب النظر فى عينيه منذ ذلك اليوم الذى ضربه فيه بقسوة شديدة، يعرف أنه لابد سيسأله: أين كنت يا ولد حتى هذه الساعة؟ ولن يستطيع الرد، المشكلة أنه لابد أن يذهب إلى

الورشة كل يوم، ولابد أن يسرق ثلاث ساعات على الأقل للنوم قبل الذهاب إلى الورشة. على كل حال فمن محاسن الحاج مصطفى أنه لا يكلم ابنه في الورشة أمام الصنّاعية، لاسيما وأن ابنه يشوف شغلّه في الورشة على أكمل وجه، فهو يحب المهنة.

غير أنه لاحظ في الشهور الأخيرة أن الحاج مصطفى يتجنب النظر إليه ما أمكن، بل يتجنب الحديث معه، كما لاحظ أن وجهه يكفهر دائماً كلما وقعت العين صدفة على العين. شئ من الجفوة كأن يتكلس بينهما. لقد تعب عبد البصير من محاولة تفسير هذه الجفوة الغامضة، لكنه استراح لتفسير بدا معقولاً : فمن الواضح أن الرجل مدرك أن ابنه لن ينسى هذه الإهانة التي لقيها منه يوم ضربه بقسوة لأول مرة في حياته إلا أنه فيصا يبيو لا يريد أن يصالحه، أغلب ظن عبد البصير أن الرجل يصّر على الاستمرار في هذه الجفوة فلربما اقتنع ابنه بأن رضاء الأب عنه مرهون بنسيان لآلة الكمان نسياناً تاماً. ولكن لا، إن الأمر لابد أن يكون أعمق من هذا، وإلا فما السر في أن الحاج قد خفض مصروف ابنه إلي أقصى حد؟ صحيح أن حالة البيع في المحل راكدة، والدخل يكفي بالكاد مصاريف البيت والورشة، ولكن كيف ينسى الحاج أن ابنه بات ركناً أساساً في الورشة ومن ثم يستحق أجراً مجزياً كأكبر الصنّاعية؟! أترأه قد علم أن ابنه أصبح من مدخني السجائر بشراهة فأراد أن يعاقبه بشكل عملي ؟ .. أم تراه قد عرف أنه مستمر في اللعب على آلة الكمان؟!

خفق قلب عبد البصير عند هذه الخاطرة . مثلت أمام عينيه تلك الليلة الرائعة التي غامر فيها بالسهر في منزل أم بهيجة عازفاً على الكمان ضمن تحت تم تأليفه في التروال لحظة بصدفة محضة. كانت ليلة ولا كل الليالي، تجلى فيها، نزلت عليه فيوضات ربّانية مذهلة، قام الجميع من فرط الوجد فقبلوه على وجنتيه بإعجاب شديد ومنهم من هو من نجوم القاهرة اللوامع. أليكون الحاج قد علم بوجوده في هذه السهرة؟ ولكن كيف؟ لقد أحيط الأمر بكتمان وسرية شديدين حيث سبقته آلة الكمان مع مخصص ثم تسلل هو مبتكراً في زى عمدة قروي يلتف بعباءة ويتعمم

يشال فوق الطاقة، ونبت أم بهيجة على جميع الحاضرين بعدم ذكر اسمه طوال السهرة كما أخفت خبره عن الجيران المقربين الذين يتبرعون للسهرة بماكولات ومشروبات وفاكهة. وعند انتهاء السهرة خرج إلي المسجد الأحمدي مباشرة، وفي الصباح بعثت أم بهيجة بالكرمان إلى بيت خالته. فأى سر ياترى يكون وراء هذه الجفوة التي تتزايد باستمرار؟

(٧)

كان يمشى فى شارع أحمد ماهر قادما من شارع الحلو بعد سهرة ملائنة بالود والتجلى فى بيت أحد تجار الحمص المشهورين فى طنطا . كان يحتفل بعيد ميلاد ابنه الوحيد وريث ثروته الضخمة. كان عبدالبصير هو نجم الحفل بغير منازع، لدرجة أن أهل البيت بعد انصراف المدعوين استبقوه مع نفر قليل جداً، فظل حتى الثالثة صباحا فى تقاسيم حرة بلا شيطان، ولعب الرق يسنده بالواحدة. عزف جميع الأغنيات المشهورة فكانت الأوتار تنطق الكلمات فى وضوح تام، وانطلقت الزغاريد التى كانت مكبوتة فى أول الحفل، فهدهده ، ملائكة بالبهجة والثقة فى النفس. عند انصرافه دس يده فى جيبه ليخرج المندبل، ففوجئ بأن صاحب الحفل قد دس له فى الخفاء ورقة بخمسة جنيهات كاملة على سبيل البقشيش، شعر للمس الورقة المالية بدفء عظيم: أخيرا بدأ يكسب من فنه فيالها من متعة فائقة أن يتمتع نفسه بالتدريب على العزف وفى نفس الوقت يقبض أموالاً سخية مجزية.

انتهى الليل ، من خلع ملابسه الثقيلة الدكناء، بقى بالملابس الداخلية الخفيفة ذات اللون التريكوأزى الزأهر. عند ذاك كان عبد البصير يحوم حول البيت، حيث تركت أمه شراعة الباب متحررة من الترياس الداخلى، فما عليه إلا أن يدفع شريحة الشراعة الزجاجية ثم يسرب أصابعه الطويلة من بين الشبكة الحديدية ليجذب رأس الأكرة برفق شديد حتى لا تحدث صوتا، ثم يتسلل داخلا إلي الحجرة الجوانبية التى ينام فيها مع إخوته، فيخلع ثيابه ويندس فى الفراش ليغطس فى الحال فى بحر النوم العميق.

قال لنفسه وهو يندس في الفراش. لابد أن تنزل السوق، نعم، لا مفر من الاحتراف بأى حال من الأحوال، أنت في أشد الحاجة إلى النقود، وقد ثبت الليلة أنك قادر على كسبها بشرف واحترام وكرامة، يكفي أنك لم تساوم كالاتية. ثم أضاف بمرارة: ستشتغل مع العوالم والاتية لا محالة، لكن لا بأس طالما أن مكانتك بينهم ستكون محفوظة، فلقد أصبحت مشهورا فى طنطا وضواحيها كعازف كمان متميز ذي مستوى خاص يندر وجوده فى مثل هذا الاقليم البعيد عن الأضواء، هكذا شهد لك محترفون من القاهرة أم المحترفين، قالوا إن وجودك فى أى فرقة فى طنطا سيرفع من قيمتها ومستواها أيضاً، وفارق السعر لابد أن يكون لك أنت بالطبع، لسوف تتقاضى أكبر أجر على أسوأ الأوضاع، عليك إذن أن تكلم إبراهيم أفندى غطاس فى هذا الأمر صراحة فهو الوحيد الذى يمكن أن يحفظ لك تميزك بين الاتية، كما أنه الوحيد الذى تقبل أن تشاركه عزف المقطوعات التراثية العتيقة المركبة.

إلا أنه وهو يسحب الغطاء على رأسه، جاعته كحة أبيه بنبرة ذات معنى، كأنما يريد أبوه إشعاره بأنه يراقبه جيداً ويعرف مواعيد أوبته. لحظتئذ قرر تأجيل مقابلة إبراهيم أفندى غطاس يوماً أو يومين، فلربما غير رأيه وفكر فى الرحيل نهائياً إلى القاهرة مثملاً فعل من قبله ابن بلدته محمد فوزي، وكما فعل ابن زوج بهيجة، فمن يدري؟ فلربما.. وربما.. وربما.

(٨)

شرب إبراهيم أفندى غطاس قهوته، استمع جيداً إلى كل التعديلات الجديدة التى أدخلها مصطفى على مشروعه التربوى الموسيقى، امتدحها بشدة وحماسة كبيرين، تمنى على الله أن تكون وزارة المعارف العمومية - خاصة فى عهد الدكتور طه حسين المنتور - فى مستوى فهم قيمة هذا المشروع وخطورته التربوية. عندئذ شعر الحاج مصطفى بالرضا التام عن نفسه كأن مشروعه قد تم تنفيذه بالفعل. طوي الأوراق، نسها فى الدرج، مرر يده فوق أزوار الصديري الصدفية ذات الوبرة القطيفية الحمراء، ثم طلب قهوة أخرى، وأشعل سيجارتين، له

ولإبراهيم أفندى، نفث الدخان فى كثير من اللذة والاستمتاع:

- «يا أخى الولاية أم بهيجة ارتفع مستوى ضيوفها فجأة!!»

انتفش إبراهيم أفندى غطاس وضوعف حجمه، لقد أدرك بفطرته أن الليلة التى سهرها عندها مع عبدالبصير هى المقصودة بالإعجاب. داعبته سعادة فائقة لاكتشافه أن الحاج مصطفى قد سمع طرفا من تلك السهرة حيث توجه هو فى العزف على القانون كما لم يتوجه فى حياته، كما اشتعل عبدالبصير اشتعالا مذهلا. قال غروره له إن اشتعاله كان السبب الأكبر فى إنكاء روح الهمج فى جميع العازفين. عند ذاك اعتدل فى قعدته مواجهها الحاج مصطفى بكثير من التحدى:

- «أنت إذن سمعت تلك الليلة الجبارة؟! كان محمد فوزى نفسه حاضرا وكنا نحتفل به!!».

صدم الحاج مصطفى أول صدمة بخبر وجود محمد فوزى فى المدينة تلك الليلة نون أن يمر عليه كالعادة. قطب حاجبيه وزام. ولعل إبراهيم أفندى شعر بهذه الصدمة فأردف شارحا:

- «كانت زيارة سريعة ولم يكن مزاجه طيبا فأرادت الست أن تسرى عنه! ولأنها تعرف رأيك فيها فلم تشأ دعوتك!!».

حاول الحاج مصطفى قدر الطاقة أن يتشبث بنبرة المرح، إذ قال باسمًا:

- «تريد إقهامى أن الذى كان يعزف على القانون هو أنت؟!»

لم يتقبل إبراهيم أفندى هذا التعريض بكفاته، تأكد لديه فى الحال أن الحاج مصطفى -الذى يحتقر جميع طائفة الآلاتية- يضعه ضمن هذه الطائفة بوضوح لارجعة فيه. ابتلع القصة مؤقتا ، قرر تأجيل الرد على هذه الغمزة، ثم قال بهوء:

- «سمعت التحميلة كلها؟!»

- «نعم! فقد بدأت التحميلة وأنا على عتبة الحارة فسلمتها أننى حتى النهاية!!»

قل لى: هل كان معكم أنور منسى أو الشوان؟ أو أى عازف كمان من القاهرة؟!».

- «ما رأيك فيه بالنسبة؟!»

- «شئٌ بديعٌ جداً ! ما شاء الله! مستوى لم أسمع مثله من قبل! رأيي أن البلاد مليئة بالمواهب! إن ما سمعته من تلك التجميلية كان طبعاً جديداً حقاً! إحساساً جديداً! أقصد آلة الكمان بالذات لقد حيرتني طول الليل فأنا أعرف العازفين من عزفهم!!»

- «أعجبك إذن هذا العازف؟»

- «أخذني أخذاً!!»

اعتدل إبراهيم أفندى غطاس، وضع ساقاً على ساق، بحث عن عتبة سجاجره المبطلة ماركة البستانى، قدمها مفتوحة للحاج مصطفى، وتهدأ لإلقاء القنبلة:

- «أتعرف من هذا الفنان الذى كان يعزف على الكمان؟»

- «قلت لك إنه حيرنى فكيف أعرفه؟»

- «إنه ينام تحت سقفك كل يوم! نعم يا راجل يا طيب!! ففى بيتك فنان خطير من صلبك! هو فى نظرى أهم شئ صنعه أنت فى حياتك كلها! أهم من مشروعك التربوى ومن ورشتك ومن معهدك! إنه الدليل العملى الوحيد الذى سيبقى لك!!»
انتفض الحاج، انتفض وجهه كقط شرس يتأهب للانقضاض على فريسة مراوغة:

- «تقصد من فى بيتى؟»

- «إنه ابنك عبد البصير! باسم الله ما شاء الله يحرك مشاعر الحزن! لو كان فى القاهرة لما تنازلت عنه أم كلثوم!!»

غاضت الدماء فى وجه مصطفى، هبط انفعاله من قمة الغضب إلى سفح الشعور بالهوان، بالخديعة، بأنه يجب أن يهدأ ليفكر جيداً فى كيفية التصرف. قال كأنه يتمنى أن يكتشف كذب إبراهيم أفندى:

- «ولكن آلة الكمان نفسها عتيقة وأصيلة ولا توجد إلا فى حوزة محترف قديم

يفهم فى الآلات!!»

بلهجة من يقرر حقيقة مفروغا منها أجاب:

- «فى هذه الملاحظة أنت فارس! شهدت لك! الآلة التى عزف عليها ابنك أصيلة

فعلا! وكيف لا تكون أصيلة وهى من صنع رجل عبقرى مثلك؟!».

زام الحاج مصطفى بصوت عميق رخم أودع فيه كل شعوره بالغضب والعتاب. لحظتئذ أدرك إبراهيم أفندى غطاس أن الرجل قد فهم حقيقة الملعوب الذى قام هو به ليلة أشتري منه الكمان الأثرى. مسح الحاج مصطفى بكفيه على وجهه، تتم بكلمات مبهمه، لعلها صلوات يتقى بها شر غضبة عارمة يديرها إبليس اللعين، الواقع أنه حول اتجاه كفيه ليمسح بهما على وجهه بدلا من أن يصفع إبراهيم أفندى على وجهه صفة حادة تلقى به أرضا .

بقى صامتا لبرهة طويلة كأنه فقد القدرة على النطق . حار كيف يتصرف إزاء ثلاث صدمات كل منها أعنف من الأخرى. مجئ محمد فوزى إلى طنطا دون أن يمر عليه كالعادة ليشعره بأنه لا يزال حيا قويا مؤثرا فى عالم الفن وإن كان بعيدا عن العاصمة. الصدمة الثانية اكتشافه أن ابنه ضرب بأوامره عرض الأفق ونفذ ما فى رأسه فهو إذن لم يحسن تربيته وفوق ذلك ما هو إلا طرطور فى بيته لا قيمة لوجوده فى الحياة. الصدمة الثالثة اكتشافه أن صديقه الحميم إبراهيم أفندى غطاس قد خدعه خدعة لا تفتقر، أفسد عليه ابنه، اشترى له الآلة التى يضربه بها فى مقتل!!

راح العرق يتصبب بغزارة على وجهه. فك عقدة رباط العنق، فتح أزرار القميص العليا، ثم أزرار الصديرى كلها. سحب علبة سجاثره أشعل واحدة دون أن يعزم على صديقه وإن كان قد استدرك فأزاح العلبة نحوه بعصبية دون أن ينطق بحرف.

لكن إبراهيم أفندى تغاضى عن هذه الإهانة فى استمتاع شديد، ثم أشعل سيجارة من علبته الخاصة، نثف الدخان فى زفرة ذات معنى. أدرك أنه نجح فى رد الإهانة إلى صديقه الغريب المعقد. إلا أنه أحس بضرورة التأكيد على رد الإهانة ولكن فى صيغة استرضاء:

— يا حاج مصطفى لابد أن تقتنع أن طائفة العوالم ناس لهم احترامهم!!
إنهم على الأقل حقل يتخرج فيه الكثيرون من الموهوبين! ثم إن استمرارهم هو

السبب الأقوى لاستمرار محل كمحلك هذا مفتوحا!! فإذا انقضت طائفة العوالم
فقل على الموسيقى يا رحمن يا رحيم!! صحيح أنك تطلب المستوى الرفيع ولكن
نصف العنى ولا العنى كله!! شئ آخر لا حق لك فيه: أن تقتل موهبة خلقها الله
فى شخص مع أنك رجل مؤمن وشيخ طريقة!! واسمح لى أن أقول لك إنك تتناقض
مع نفسك تماما حين تتادى بتعميم التربية الموسيقية كهدف قومى ثم تحاربها فى
أبنائك!! هذا أمر غير لائق بك! ولا هو من شرع الله!!

هذا وصل الغضب بالحاج مصطفى إلى ذروته، فانتفض واقفا يشوح بذراعيه
فى وجه إبراهيم أفندى بغلظة، صائحا بصوته التخين العميق القرار:
- «خلاص يا إبراهيم أفندى! وفر نصائحك الثمينة! كفى! لحد هنا وكفى! وعن
إنك! سأغلق المحل!!»

بهت إبراهيم أفندى . نزع ساعته من جيب الصديرى، نظر فيها بسرعة،
وجدتها تشير إلى العاشرة مساء:
- «تطردنى إذن يا حاج!؟»

وارتعشت الايتسامة الخجولة على شفثيه النحليتين.

- «فسرها كما تشاء ، المهم أنى سأقفل المحل الآن!!»

وشرع بالفعل فى إغلاق الأدرج، وتزير القميص والصديرى ، فجمع إبراهيم
أفندى نفسه، مضى يتعثر فى غضبه المكتوم، موقنا أنه لن يخطو عتبة هذا المحل
مرة أخرى، حتى لو اضطر لاعتزال الموسيقى.

(٩)

جمال الست أم عبده يضرب به المثل فى طنطا: القوام الفارع المشقوق، الملى
بالبروزات المخروطية كإله للجنس يشعر أمامها أى فحل مهما كانت قوته بأنه طفل
عابث لا قبل له بإشباع هذا الجسد المحشو بالطغيان الأنثوى. رقبة كرقبة أبى
الهل تستطيل بين الهرمين فارعة هى الأخرى بنحر مضى. ووجه أبيض بغلالة
أرجوانية غنية كالطليفة الأصلية، وعينين خضراوين واسعتين لا يصمد أمام
بريقهما أعتى الجابرة، ورأس صغير غزير الشعر أسوده بصورة غير طبيعية، إلا

أنه رأس يحتوى عقلا أصغرا من عقل الطفل الأحق. رغم اتساع مساحة صدرها ونهدته فإنه ضيق على النوم يتفجر بالغضب لأقل احتكاك عصبى. برمة طول الوقت، متشككة، متوترة، لا أحد يحرك إن كان هذا طبعها ورثته عن أصلها التركى البعيد أم أنها اكتسبته بطول عشرتها للحاج مصطفى الصوفانى. لكن الجيران يعرفون أن الحاج مصطفى هو الذى طير مخها، أحرق أسلاك أعصابها بتياراته الكهربائية العالية الصاعقة. لقد هد حيلها، أنجبت له ستة أولاد، أربعة ذكور وبنتين، كلهم ورثوا لون بشرة أبيهم السمرء ولامحه المكتنزة، فليس لجمالها الطاغى ثمة من أثر على أى من أولادها.

وهذا - في تفسير المشايخ العلماء من أصدقاء الحاج مصطفى ورفاقه فى الطريقة الأحمدية - دليل على أن الست - الحق لله - تحب أكثر من نفسها، والأهم من ذلك أنها ماعون نظيف شريف طاهر حفظ بذرتة ورد إليه بضاعته سليمة مصانة من الزيف والغش.

هم أصدقاء خلص، أهل شفافية، ورع وتقوى، لم يبيع لهم الحاج مصطفى بما يساوره من شكوك، وما يعتوره من آلام مبرحة منشؤها العلاقة المعقدة بينه وبين زوجته زينب هانم. هو محب للدردشة مع الخلاء إلا فيما يختص ببيته. إلا أنهم لم يكونوا فى حاجة لبوحه وإفضائه كى يعرفوا همومه الشخصية، يكفيهم أن يروه فى الحضرة الأسبوعية مكفهر المزاج باستمرار بسبب «شوية مشاكل فى البيت». ثم إنه فى لحظات الصفاء يحلو له الحديث عن طبائع النسوان، وكيف أنهن لا يؤمن لهن جانب مطلقا إذ إنهن يتنفسن الخيانة، وأن الرجل إذا لم يكن صنديدا قويا فى كل شئ، الشكيمة والفحولة والمال، فإن المرأة تمرغ كرامته فى التراب.. الخ.

كان الشيخ سند - أحبهم إلى قلبه - هو الوحيد الذى يزوره فى البيت أحيانا، فى المناسبات الضرورية، كأن يتخلف الحاج مصطفى عن الحضرة الأسبوعية مرة بسبب وعكة صحية. فيما عداه لا أحد من الرجال - أو جنس الذكور - يسمح له بدخول البيت فى غيابه أو حضوره على السواء. الشيخ سند رغم ورعه الشديد

فإنه أرقم، دقيق الملاحظة ، يجيد عملية الربط بين ما يرى وما يسمع. هو إلى ذلك مغفول اللسان أحيانا، لا مانع لديه من التصريح لبقية الصحاب بيعض استنتاجاته، لا من قبيل النم أو التشنيع بل من قبيل استعطاف القلوب على صاحبهم ومحاولة إيجاد مخرج له.

الست زينب هانم كانت بارعة في استلقاطه لبرهة عابرة، فتشكو له -بالتلميح المرح- سوء معاملة الحاج لها، فمرة كسر لها ذراعها، ومرة بطحها في رأسها، ومرة شرح جسدها بكرياج سودانى مسقى بالزيت. كل ذلك- وتومئ بيدها حول رأسها فى حركة ذات دلالة واضحة -نتيجة أوهام معششة فى رأسه. يستعيز الشيخ سند بالله من الشيطان الرجيم، يدعو لهما بصفاء المياه وراحة البال، يدرك الشيخ سند، بشكل ما، أن صاحبه ربما كان غير محق فى هذه القسوة، فصوت الست فى أذنيه لا ينبئ عن أى لوع أو تلوين ثم إنه لم يرها إلا من وراء حجاب لا يكشف عن شئ من وجهها.

كل النصائح التى تلقاها الحاج من صاحبه كانت هى الأخرى من وراء حجاب، معممة، فى صيغة حديث عمومى لا يتعلق بأحد بعينه، فمثلا كان الحاج مصطفى ييثم شكوكه على أنها تخص ناسا يعرفهم، فإن الردود هى الأخرى كانت تجئ دائما متعلقة بشخص مجهول، من قبيل: إن صاحبك هذا مخطئ فى كذا وكيت.. الخ.

الواقع أن هؤلاء الصحاب أعضاء الطريقة الأحمدية نجحوا فى التخفيف من غلوائه بعض الشئ وإن لم يدخلوا التظامن عليه تماما.

الوحيد الذى كان يشعر بغلواء أبيه ومأساة أمه هو ابنه عبد البصير، نظرا لحساسيته الشديدة التى تمنحه غنى فى العاطفة، والتى جعلته يرتبط بأمه أكثر من ارتباطه بأبيه، فهى التى تشجعه فى هوايته للكمان، وتقنق عليه مما تبقى فى يدها من مصروف ضئيل، وتحنو عليه إذا توعك، وتطيب خاطره إذا اشتكى من قسوة أبيه عليه فى الشغل. بل إن سر إصرار أبيه على منعه من الارتباط بهواية الموسيقى مصدره إصرار أمه على أن يتعلم الموسيقى. إن أبوه فى الواقع ليس

لديه مانع من أن ينبغ أحد أبنائه فى الموسيقى التى يعشقها ويسعى لتعميم تعليمها، ولكن أن تأمر الأم ابنها وأن يمثل الابن لإرادتها هى فذلك ما يطعن الحاج مصطفى فى صميم كبريائه. الإرادة فى نظره للرجل حتى ولو كان مخطئاً، وأن تملأ المرأة إرادتها عليه فذلك ما ينبغى أن يحاربه حتى ولو كان ضد مصلحة أبنائه جميعاً!!

جميع إخوته كانوا يخلون إلى النوم مبكراً إلا هو يظل ساهر أغلب الليل يستمع إلى الموسيقى المنبعثة من شقة أم بهيجة أو التى تهدر فى داخله، وإذا يضطر إلى دخول الفراش بعد مجئ أبيه كان يبقى يقظاً لمدة طويلة يستمع خلالها إلى مشاحنات ومشاجرات تتضح أحياناً وتغض فى معظم الأحيان. مشاحنات أشبه بالاستجواب بل المحاكمة، لا يسمع خلالها سوى صوت أمه يجيب على أسئلة لم يسمعها، ويكذب وقائع لم يتبينها، ويردد القسم على المصحف بأن شيئاً من هذا لم يحدث، وصوت دفاعها يتطور يزداد علواً وضيقاً شيئاً فشيئاً، تعقبه لطمات على الخدين، وفى النهاية يعلو صوت أبيه بأقذع الألفاظ وأقسى التهم.

كثيراً ما كان باب الحجرة يفتح فجأة بعصبية، ويضاء النور، فيفتح عبد البصير عينيه، فيرى أمه تبحث فى حجرتهم عن شئ لعله المصحف أو البخارى، أو لتصحى ابنتها الصغيرة من النوم وتسحبها من يدها متوجهة بها إلى حجرة نوم الأب، ويسمعها تقول لأختها:

«أنا كنت فى النهارده ساعة أدان الضهر؟!»

فتتلعثم البنت فى ثغاء طفولى:

«كنت .. كنت .. فى البيت!»

«بأعمل إيه؟!»

«كنت .. كنت .. بنتقى رز .. ويعدين .. تخيطى الشرابات! وتخشى المطبخ

تطبخى!!»

«قولى لأبيك!!»

ثم تسحبها عائدة بها إلى الحجرة لتنميها فى سريرها وتحكم حولها الغطاء.

يرى عبد البصير وجهها منتفخا مهانا، شعرها منكوشا، بعض خرايش في رقبته.

من العادات التي لاحظ عبده أن أباه قد كف عنها، عادة التفتيش في دولاب أمه، بحجة البحث عن شيء تائه منه، فلابد أن يكون هذا الشيء المزعوم أدق من الإبرة وإلا ما اقتضى التقلب في محتويات بعض العلب، وفي المكحلة، وقض كل لفة ورق ثم التدقيق في محتوياتها أو سطورها. كذلك كف عن عادة مداهمة البيت في أوقات غريبة، والدخول على أطراف أصابع القدم والتدقيق في عيني الأم وفي ملامحها حيث يبدو عليه الضيق الشديد إذا رأى في وجهها نضارة أو في تصنيف شعرها عناية، كأنه يريد أن يكشف بصمة الخيانة على هذا الوجه النضر باستمرار.

كف أبوه منذ سنوات قليلة عن مثل هذه العادات بعد أن كبر الأولاد فصاروا رجالا وعرائس، ويعد أن تأكد أن دمه ولامحه يجريان في عروق أولاده بوضوح جلي. إلا أنه في الشهور الأخيرة قد بدأ يساوره الشك من جديد، لكن صوت أمه كان قد عرف كيف يعلو، ووردها كيف تكون رادعة باترة، مشبعة بالقسوة والتطاؤل أحيانا، بل أصبح صوتها هو الأعلى، يصادر صوت أبيه قبل أن ينطق، يحذره من شغل العيال أو التماهى في أمور المصغرة، إذ المفروض أن عقل الرجال يكبر حين يكبرون لا يزداد خيبة وخبالا.

(١٠)

أغلق الدكان بالفعل إثر انصراف إبراهيم أفندي غطاس، وكانت هذه أول مرة في حياته يضطر لإغلاق المحل قبل مواعده بساعتين على الأقل، لكن كلام إبراهيم أفندي قد عصف بكل عقله، أقنعه بأن «هذه المرأة» التي دلت عليه وأخفت عنه نشاط ابنها ودارت على سهره المتواصل في الحفلات مع العوالم، لابد أنها فعلت ذلك في أمور أخرى كثيرة أشد وأخطر، فالتى تفعل هذا لا تتورع عن فعل ما هو أفدح، هذه مثل تلك، بل هذه لا تتفصل عن تلك.

مضى يدب في شارع أحمد ماهر، ومنه إلى شارع الحلو، فشارع الشيخة

صباح حيث صلي في مسجدها ركعتين التماسا للهدوء ولساعدتها له في هذه المحنة. جلس على مقهى فى ميدان المحطة. كان يبحث عن مكان شديد الصخب ينغمس فيه لبعض الوقت، لكن شوارع طنطا الهادئة فى مثل هذه اللحظات من الليل كانت تزيده استغراقا فى نفسه، فيشعر بشرائينه تكاد تنفجر وبأطرافه تكاد تشل. استراح قليلا فى مقهى المحطة، ثم زلله صفير القطارات من أعماقه، فارتفع قلبه إلى علو شاهق ثم حلق فى الفراغ قليلا ثم هوى مرتطما بالأرض فى عنف. أفاق من الدوخة على صوت يتردد فى صدره: لقد عجزت عن تربية ابنك! عجزت عن السيطرة على زوجتك المارقة لقد انخدعت ويعلم الله فى أى شئ آخر قد خدعت أيها المغفل! قد كانت شكوكك فى محلها إذن!! قلبك كان دليلا! لقد بدأ الخداع يحكم شباكك حولك منذ أن كفت عن المراقبة والمحاسبة وتضييق الخناق!! ارتفع صوت وشيش القطار وهو يتحرك ويتخبط كثيرا ثم ينتظم إيقاعه مع سرعة الانطلاق وقد ملا الفضاء كله بسحب الدخان ورائحه المازوت المحترق الأقرب إلى رائحة الشحوم والحمضيات . احتجب الضوء عن ناظرية، التبس عليه دخان السيجار بدخان المازوت، يخلق فى الضوء الرمادى المعتكر. رأى الخنجر فى يمينه يقطر دما، وجسداً أنثويا عملاقا طافح الأنوثة منظرحا على الأرض معزى الضلوع يقطع دما قانيا، وشابا سمهري القوام يترنح وهو يلفظ آخر أنفاسه وقد تكسر فوق رأسه صندوق الكمان، وجميع الآلات الموسيقية انتحرت، ألقت بنفسها من فوق الرفوف إلى الخلاء هشيما يلمه بائع الروبايكي، وبوابات سجن تفتح أمام كارثة منوية تنقل أبناءها الصحف، ثم إن الهدير قد ارتفع فجأة بدخول قطار جديد إلى المحطة. ثم مالبت بوابة السجن حتى انجلت عن بوابة المحطة التى راحت تدلق أفواجا من البشر تائهين منبهرين يتصادمون ثم ينويون فى الميدان الذى يوزعهم فى كل اتجاه.

الساعة المواجهة له فى ميدان المحطة كالقدر. أشرفت على الثالثة صباحا، وحر أغسطس الخانق انكسرت حدته بنسمة عابرة أعادته إلى الحياة، فطلب فنجانا من القهوة صار يقرأ بعض آيات قرآنية فى سره، ختمها ببعض أوراد

وتسبيحات واستخارات. ثم نهض أخيراً، توجه إلى المسجد الأحمدى مليباً نداء الفجر. فما أن ختم الصلاة حتى شعر كأنه قد خرج لتوه من بوابة السجن بعد حكم بالمؤبد، أو لعله قد انعتق من حبل المشنقة بعفو إلهي.

في المسافة القليلة بين المسجد الأحمدى والبيت كان قد توصل - بهداية من الله طبعاً - إلى حل يريحه من هذا العذاب راحة تامة ونهائية، مقتنعاً تمام الاقتناع بحكمة أهل زمان «شيل ده عن ده.. يرتاح ده من ده»..

دخل البيت فوجد الست هانم في انتظاره ساهرة يفريها القلق على غيابه. كانت بالفعل مرتاعة، مخطوفة اللون، غاضت الدماء في وجهها. تأهبت لتسأله عن سر تأخيرها، لعله خير. لكنه تقدم داخلاً لا يلوى على شيء. وبدلاً من دخوله مباشرة إلى حجرة نومه كالعادة ليخلع ثيابه، جلس على أول كرسي صافيه، ثم ارتكن بمرفقيه على ترابيزة السفرة وراح يفرز سهام نظراته في وجهها الشاحب المرتاع، وثمة صوت في أعماقه يهتف به قائلاً:

إياك أن تتردداً فشحوب وجهها واضطرابها دليان على شعورها بالخطيئة والخطأ.

تقدمت منه وجلة، حارة، خائفة، متممة:

- «مالك يا حاج؟ فيه إيه؟!»

مد ذراعه نحوها أمراً منذراً :

- «قفى مكانك! إياك والاقتراب مني!!»

فتسمرت في مكانها كقنبلة ألقي بها في الأرض فنزلت ساكنة دون أن تنفجر.

بكل برود وحسم باتر أمرها قائلاً:

- «لى هبوك وأشياك كلها !! » .

- «ماذا قلت؟!»

- «أنت طالق! طالق! طالق!!»

تركها تتخبط في زهولها، ومضى إلى حجرة النوم، فارتقى على السرير بثيابه وحذائه، ثم مالبت أن استغرق في نوم عميق داهم ثقيل.

(١١)

الحياة فى البيت أصبحت مستحيلة، فمنذ أن رحلت أمه عنه يخيم عليه ظل من الكآبة واليتم والشقاء. أخذت الأم كل شئ معها: حجرة نوم الأب كلها، حجرة السفرة، الأنتريه، نحاس المطبخ، لم تترك سوى حجرة العيال، والعيال، والنكد المتواصل فى كل ركن فى البيت.

أخته الكبرى زاهية تكفلت بشئون المطبخ، أخته وهيبة نشطت فى غسل الثياب ومسح البلاط. مضت الحياة بالحاج مصطفى على نفس الوتيرة بنفس المواعيد، وفى آخر الليل ينام على كنبه اشتراها مؤقتا، لكن البيت فقد روحه وأنسه ونوره. شهور طويلة طويلة مضت كزحف السلحفاة. وكل يوم يمر يطلع عبدالصير على حجم الخراب الذى حل ببيتهم بعد رحيل أمه التى كانت تحبه وتحنو عليه. كانت هى الشجرة الوحيدة فى هذا الهجير. كانوا جميعا - هو وإخوته - يتصورون أن الحالة مؤقتة، وأنها لن تلبث حتى تتغير باسترداد أهم أو باعتمادهم غيابها.

كل ما هنالك أن الأب هو الذى تغير بالفعل، أصبح هادئ الأعصاب على الدوام، زالت عصبيته، زاد ورعه، بات يكثر من الصلاة حتى فى غير أوقاتها، صار يحنو عليهم لكنه لم يستطع ملء جزء يسير من الفراغ الذى ضرب أطنا به فى حياتهم، خاصة بعد اقتناعهم بإصرار أبيهم على أن غيبة أهم لا رجعة فيها بأى حال من الأحوال.

اجتمع الأخوة فى ليلة على أسرة النوم، اتفقوا على أن يقوم أخوهم الأكبر بمفاتحة الأب فى أن يسمح لهم بزيارة أهم من حين لآخر. لكنهم فى الصباح فوجئوا بأن ثورة قامت فى البلاد شغلت الدنيا بأكملها. أصبح الجميع يتكلم فى الثورة، أصبحت الثورة زادهم اليومي، لاسيما وقد بهرتهم بجليل الأعمال المتوالية فى إيقاع سريع: طرد الملك من البلاد، إعلان الجمهورية، إلغاء الألقاب، تصفية الإقطاع، إنهاء الاحتلال الإنجليزى، الإصلاح الزراعى مجانية التعليم فى جميع مراحله.. إلخ.

فوجئ الأولاد بأن سنين قد مرت وحادث الثورة هو الحديث المتجدد فى حياة كل فرد، حيث انبعثت الآمال والأمنيات الكامنة فى كل الصور مشرقة زاهية قابلة للتحقق، المستحيل أصبح ممكنا فى كل شئ. فوجئ الأولاد بأنهم قد اعتادوا الحياة بغير أهمهم، وأن الحاج مصطفى قد ارتد شابا فتيا يهتم بأناقته وصحته. كذلك دبت الحياة فى مشروعه الأزلى العتيد؛ فبدأ يخاطب حكومة الثورة بشأنه ، مستخدما عبارات الاشتراكية والكفاية والعدل وتجمع قوى الشعب العاملة. ثم إنه استجاب بسرعة للمحاولات التى بذلها أصحابه للصلح بينه وبين إبراهيم أفندى غطاس، الذى ما لبث أن أستأنف احتلال كرسىه المعتاد بجوار المكتب يستمع إلى الصيغ الجديدة لمشروع الحاج مصطفى الصوفانى، ويضيف إليه بعض المقترحات للنهوض بفن الموسيقى وتعميمه عن طريق المؤسسات الشعبية والنوادي الاجتماعية والجمعيات الخيرية إضافة إلى المدارس بالطبع. إلا أن الحاج مصطفى الصوفانى ظل يشعر بغصة فى قلبه كلما تطرق الحديث إلى ذكر العوالم والالاتية، أو نبوغ ابنه فى العزف على الكمان، إذ يقطب جبينه ويغير مجرى الحديث فى الحال، ولا بد أن يسرب عبارة أو عبارتين يفهم منهما إبراهيم أفندى غطاس أن الحاج مصطفى الصوفانى لم ولن يغفر له تلك الخدعة بنى حال. غير أنه استجاب بأريحية لاقتراحه الذى نقله إليه عبدالبصير للحاج، فوافق على أن يزور الأولاد أهمهم من حين إلى حين.

فرحة ما تمت، وفى الأسبوع الذى تهيأ فيه الأولاد لزيارة أهمهم يوم الجمعة القادم، فوجئوا بخبر نزل عليهم جميعا كالصاعقة. لقد تزوجت أهمهم منذ شهر طويلة مضت. لم يحتمل أهلها فلتان أعصابها الدائم، واكتئابها الحاد. خالهم كان يدرك خلة أخته عميق الإدراك، يعرف أن جبلتها الأمومة، وأن بطنها من الخصوبة الحادة بحيث لا تقدر على الحياة بغير جنين يملؤها على الدوام، فسعى لتزويج أخته من رجل فاضل يعمل موظفا مرموقا فى مصلحة السكك الحديدية يبلغ من العمر أربعين عاما قضاها أعزب يشتااق للولد ولا يجد من تملأ دماغه من بنات الناس فى قريته المجاورة لطنطا، فما أن شاهد زينب

هانم فى دار أخيها أثناء زيارة تم تدبيرها بعناية، حتى فقد وعيه وتهاوى أمامها فأنهى إجراءات الزواج فى ثلاثة أسابيع. ولم يكتمل الشهر الثانى على زواجه حتى تلقى نبأ الحمل فى سعادة بالغة.

الزوج طيب القلب ودود، استجاب لنداء قلب زوجته حين طلبت رؤية أولادها. أرسل مخصوصا محترما من رؤسائه فى المصلحة إلى الحاج مصطفى الصوفانى يستأذنه فى هذا الطلب الشرعى. عندئذ أحس الحاج مصطفى بكيانه يتصعد، كاد يتطاير مزقا، وقد شعر المخصوص بمحتته، وكان لطيفا لبقا فصار يتحدث فى أمور القسمة والنصيب وإرادة الله، حتى تأكد من هدوء بال الحاج مصطفى، وحصل منه على وعد بأن يزور الأولاد أمهم يوم الجمعة القادم إن أحيانا الله وأعطانا عمرا .

أبلغ الحاج مصطفى أولاده النبأ، فى قليل من التشفى؛ وكثير من الحزن الغامض . وقد فوجئ -لدهشته- أن الخبر الذى نزل على أولاده كالصاعقة فجمد ملامحهم لبرهة طويلة، سرعان ما أب إلى ضرب من البرود واللامبالاة، حيث فترت حماسة الأولاد للزيارة. بدأ كل منهم يهمل أمر الهدية التى حوش لها من مصروفه القليل. إلا عبد البصير، لم تفتر حماسه ولم يسترح إلا بعد أن زار أمه بالفعل فى بيتها الجديد، حيث حمل إليها هدايا إخوته وسلامهم وحرارة شوقهم وعشر قبلات من كل واحد منهم، وسعادتهم بقدم أخ جديد لهم من غير أبيهم.

إنما الخبر الذى جمدهم تماما وبث القلق العارم فى نفوسهم حدث ذات ليلة انحفرت تفاصيلها فى وجدانهم: لقد فوجئوا بحجرة نوم جديدة تدخل عليهم، والعمال يقومون بتركيبها فى بهجة وزأطة، ثم تلتها حجرة أخرى هى الأنتريه. جعلوا يتابعون الموقف ببلاهة وجمود حتى دخل عليهم الحاج مصطفى قرب منتصف الليل وفى ذراعه سيدة نصف شابة، جميلة حقا، مصحوبة برهط من النساء والرجال يزأطون ويزغردن . بعد انصرافهم جمع الحاج مصطفى أولاده وقال لهم بحزم وهدوء شديد:

- «هذه هى زوجتى الجديدة! ستكون لكم أما ثانية! فعليكم احترامها كأكم !

ومن يتسبب منكم فى إقلاق راحتها أو راحتى أو فى أى شغب فهو الجانى على نفسه!!».

ثم اقتادها إلى حجرة النوم فى رزانة ورسانة كما يقتاد الأب ابنته الكبرى للقاء عريسها، بعد أن أمرهم بالجوء إلى مخادعهم، وإطفاء كافة الأنوار. ثم داف داخلا وأغلق الباب من الداخل بالترياس.

(١٢)

أخذ العنوان من إبراهيم أفندى غطاس، وركب القطار إلى بلدة قُطور، ومنها إلى قلين. فإذا هى قرية تأخذ شكل المدينة على استحياء؛ بيضعة قصور مبنية فى الخلاء لجموعة من العائلات الإقطاعية الشهيرة هناك: القلبنى ومنصور والديب والديبى وغيرهم.

سأل عن بيت المغنية هنيات شعبان فإذا هى هناك أشهر من المدينة نفسها؛ وإذا هو أمام سيدة فى ريعان الصبا، بيضاء شاهقة البياض، موفورة الصحة، بشوشة الوجه، لبقّة، جبهة الصوت مجلّته، قوية الشخصية. كانت هذه أول مرة يراها رغم أنه سمع عنها كثيرا، فهى مشهورة فى البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها؛ يدعوها الأثرياء والأعيان لإحياء الأفراح والموالد والليالى المفترجة، معظم غنائها دينى؛ لكنها فى سبيل الانتشار وملاحقة التطور الذى أحدثه ظهور الراديو فى الفناء بدأت تغنى بعض الأغنيات العاطفية المتزنة. لم تفعل أكثر من أنها غيرت الكلام بكلام جديد ركبته على الألحان الدينية الموروثة فبقيت الألحان كما هى بجذافيرها غير أنها اكتسبت على الكلام الجديد مزيدا من الإشراق والتألق؛ فكلها ألحان تقيض بعاطفة جياشة سخنة، لأنها فى الأصل موضوعة فى حب النبى عليه الصلاة والسلام. تمثل ذكاء هنيات شعبان فى انتخابها مجموعة ألحان قيمة مما يزخر به الفولكلور الدينى العربى، البارعة موسيقيا، المشبوبة بحب النبى، ومدحه، والسفر إلى الحجاز. منها موشحات أندلسية مجهولة المؤلف. ومنها ألحان ابتدعها ونشرها الشيخ على محمود بين الصبيّة فى القرى.

ذكاؤها الفنى مسنود بذكاء اجتماعى؛ يتجلى فى إعطاء كل حفل ما يناسبه

من التواشيح والأدوار، أو الطقاطيق، أو المواويل الحمراء، أو المدح النبوى الخالص. حفل الزواج يختلف عن حفل الطهور عن حفل ليلة النصف من شعبان عن الاحتفال بعودة أحد الحجاج عن حفلات الذكر فى موالد البدوى والدسوقى والحسين والسيدة زينب.

صوتها فى القوة الناتجة عن التدريب منذ الصغر ينتسب إلى فصيلة صوت أم كلثوم، وفى الخامة إلى كل من ليلى مراد وأسمهان معا؛ مع انطلاقة شرحة تشبه انطلاقة الأرض الزراعية فى امتداد الأفق. إذا توهجت جلجل صوتها بكل ما فى ليل القرى من هسهسات النسيم وحفيف الأشجار وجأر النواير وخرير الجداول، كانت تطرب الجمهور حقاً؛ وكانت كريمة معطاءة؛ تسهر مغنية حتى مطلع الفجر دون تعب من الوقوف على قدميها أمام الميكروفون. هى إلى ذلك تفرض على الجميع احترامها، حظيت بلقب الحاجة قبل زيارة النبى بوقت طويل. تفرض كذلك الأجر الذى ترضاه فلا يناقشها فيه أحد، بل ربما أضاف إليه بعد انتهاء الحفل حينما يتبين أن ليلته قد أحيت بالفعل بصورة رائعة لم يكن يتوقعها.

الجمهور كان يتفاعل بها يعتبرها مباركة. وقد حرصت هى أن تكون لها فرقتها الموسيقية الخاصة: عواد وناياتى وطبال ورقاق وأرغولجى وقانونجى وثلاث أو أربع كمانات لابد أن يكون من بين عازفيها صوليست متمرس على التقاسيم لكى يسلطنها.

جلست على الكنبه البلدى لافة رأسها ورقبتها بالطرحة البيضاء، عاقدة ذراعيها على صدرها، مائلة برأسها مطرقة، مستترقة فى الإنصات بعقم وتمعن لهذا الشاب الذى انخرط فى العزف أمامها ليديرها إمكانياته لعلها تضمه إلى فرقتها. ذهلت هنيات شعبان من مستواه المبهر على صغر سنه؛ سلطت عليه عينيها السوداوين المخضلتين بدمع التأثر الشديد. فما أن انتهى من عزفه والتقت نظرتة بنظرتها حتى هزت رأسها قائلة فى امتنان :

— «صحيح ابن الوز عوام ! الله يفتح عليك ! .. إبراهيم أفندى عنده حق لما

قال إنه سيعت لي هدية! أنت فعلا هدية! إنما الشغل معي يحتاج لصبرا! فشغلي
كما تعلم مواسم! عندي هذا الأسبوع مثلا ثلاث حفلات! واحدة في بلدة شباس
عمير! والثانية في بلدة صندلا! والثالثة في بلدة ميت الديبة! وبعد شهر عندي
سبع حفلات في بلدة سنهور المدينة والرحمانية وديسوق والبكاتوش! وربنا بيعت!
إن شاء الله أراك هنا بكرة! زرقك ورزقي على الله! أهلا بك! وصيتي أن تجيء
ميكرا لتعمل بروفة على المقطوعات التي سأغنيها! سلم لي على أبيك وعلى إبراهيم
أقندي!»

تفاعلت به! أحبته حبا عميقا. أصبحت يطيب لها أن تقدمه لجمهورها قائلة:
- «أحب أن أقدم لكم عازف الكمنجة الموهوب الأستاذ عبدالبصير الصوفاني
في فاصل من التقاسيم! إن شاء الله أنا متأكدة أنه يعجبكم!!».

وتجلس على مقربة لتريح صوتها وقدميها قليلا، وفي نفس الوقت تمتع أذنيها
بأنغام هذا الشاب المعجزة، الذي تحس أنه يفتح وعيها على مناطق جديدة تجربها
بصوتها! فتكاد تجن من حلاوتها وطيب مذاقها. وفي آخر الليل وهي توزع
الأنصبة على العازفين تغمره في السر بنفحة مجزية لكي تشجعه على الاستمرار
معها بنفس مفتوحة! فلقد أدركت إلى أي حد هو يضيف على فرقته غنى ولعانا
وعصرية! كما أن جمهورها الذي يرتحل وراءها قد بات يطلب «شوية على
الكمنجة» من الأستاذ عبده.

انشغل أبوه عنه وعن كل إخوته بزواجه الجديدة، وبمشروعه الذي بدأ يتلقى
بشأنه رويداً مشجعة من حكومة الثورة تنبئ عن اهتمام شديد به لكنها لا تتخذ
أي خطوات نحو التنفيذ. وهذا في حد ذاته أنعش مزاج الحاج مصطفى
الصوفاني وجعله طول الوقت مشغولاً باستكناه أفكار جديدة تسهل تنفيذ
مشروعه.

قام بينه وبين ابنه عبدالبصير نوع من الاتفاق الصامت على أن يترك كل
منهما الآخر في حاله! فلا عبدالبصير يطلب منه مصروفاً، ولا الحاج مصطفى

يهتم بغيا به أو حضوره، حتى بدا كأنه رمى طويته نهائياً؛ لا سيما وأن زوجته الجديدة الشابة قد نشطت فأنجبت له ولدا فرح به كأنه ينجب لأول مرة في حياته، ربما لأنه كان دليلاً على أنه لم يفقد قوته بعد.

استطاعت فرقة هنيات شعبان أن تعيش عبد البصير في قليل من الرغد، وأن تنشر اسمه في كل القرى وبين جميع الفرق، ومتعهدي الحفلات. أصبح مألوفاً أن يعمل على أذنه الشيخ طلعت العواد الضرير في فرقة هنيات شعبان، ليهمس في أذنه بأن المتعهد فلان الفلاني يطلبه لحفلة في البلد الفلاني يوم كذا، وأنه سيعطيه ما يشاء من الأجر، فيوافق في الحال. شيئاً فشيئاً أصبح يعمل في جميع الفرق الشغالة بجميع مستوياتها وألوانها.

الحفلات المتواصلة جمعت بينه وبين ثلاثة أكفاء : الشيخ طلعت الشبكشي، والشيخ عطية البليسي، والشيخ عبد الحليم مشهور. دائماً أبداً كان يفاجأ بهم في كل حفل. أما الشيخ طلعت والشيخ عطية فإنهما مصيبتان كبيرتان في حفظ التراث. كل منهما مخزن حي متحرك يحوي في ذاكرته العجيبة كنوزاً لمحمد عثمان وداوود حسنى والشيخ أبو العلا محمد والشيخ محمد المسلوب وعبد الحى حلمى وعبد الحامولى والشيخ على محمود وسلامة حجازى والمغنى الشعبى عبده الدمرداش وقرينه محمد العربى والشيخ زكريا أحمد وسيد درويش وغيرهم، إلى جانب الكثير من القنود الطلبية والمواويل المصرية الحمراء والخضراء. وأما عبد الحليم مشهور فكان أصغر منهما سناً، وقليل المحفوظات، ويتعشم أن تكون رفقته لهذين الشيخين طريقاً لحفظ ما يحفظون، لا سيما وأنه الوحيد الذى يملك حنجرة قوية قادرة على الأداء فى سرادق كبير وىلا ميكروفون. صحيح أنها حنجرة سمجة بعض الشيء، تفنقر إلى الإحساس، لكنها تؤدى بسلامة وقوة.

كان لثلاثتهم - إلى كونهم قنطرة على التراث الموسيقى العربى العتيق - فضل التسرية والترفيه عن عبد البصير فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة بين القرى والساكر.

(١٣)

موعده مع الشيخ طلعت كان موعد قطار الخامسة على رصيف المحطة، حيث يركبان من طنطا إلى بلدة تبعد بثلاث محطات. ومن المحطة يمشيان قليلا إلى بلدة ملحقة بهذه البلدة بنيت حديثا، يسكنها روط من الأهل الذين علموا أولادهم فى جامعات الثورة بالمجان، فأصبح لزاما عليهم السكنى فى بيوت تليق بأولاد المدارس والجامعات الذين أصبحوا - بمجرد لبسهم للبدلات - أفندية وأساتذة. اقتطعوا من أراضيهم الزراعية مساحات لا يستهان بها، أقاموا فوقها بيوتا بالطوب الأحمر مسقوفة بالحديد المسلح، بعضها من طابقين وثلاثة، على طرز متنافرة، متشاكلة فى آن. هى تقليد بدائى ساذج لقصور الإقطاعيين قبل الثورة، ليس فيها من ذلك سوى شرفات عريضة وشبابيك ذات شيش وزجاج مدهونة باللون الأخضر، أما الحيطان فمدهونة بألوان فاقعة، ولم تخل الأسقف من أحمال الحطب والقش وأقراص الجلة. وهكذا انقسمت البلدة بلدين: الأولى وهى العتيقة وكلها مبنية باللبن والثانية وهى الجديدة تكتم على أنفاسها. أصبح يتعين على كل قادم إلى البلدة لغرض فيها أن يحدد: القبلية أو البحرية؟

هذا ما لم يكن يعرفه الشيخ طلعت وعبدالبصير. كل ما هناك أن المتعهد الذى اتفق مع الشيخ طلعت أعطاه العنوان على البلدة مكتفيا. بأن اسم العائلة صاحبة الحفل غنية مشهورة وأهلها من الأكابر. كان الحفل بمناسبة عودة عميدها من الحجاز. وفى الطريق قال الشيخ طلعت لعبد البصير إنه أصر على أن يكون عبدالبصير على رأس التخت، وأن المقاول اشترط على أصحاب الحفل أن يضعوا ذلك فى اعتبارهم عند تقدير الأجر، وأنه فوجئ بترحيبهم. والواقع أن ثمة حلفا وديا قد نشأ بين العميان الثلاثة وبين عبدالبصير، أن يفرض كل منهم زملاءه عند اتفائه على أى حفل. والشيخ طلعت بالذات لم يكن يأنس لأحد من الآلاتية قدر إئتناسه بعبد البصير، إذ هو الوحيد الذى لا يضيق به ولا يجار من عبئه، بل يتكفل بسحبته على اللوام، يتأبط نراعه فى الطريق، يساعده فى تهيئة القعدة له على المنصة، يكون أسرع من استجيب إذا قال الشيخ شيئا، بل كثيرا ما يتكفل

هو يحمل عوده نياية عنه إضافة إلى كمانه. لم يكن الشيخ لينسى هذه الأريحية،
قيعمد طوال الطريق إلى الترفيه عن عبدالبصير قدر الإمكان. هو أبرع من يحكى
النكات القبيحة الخارجة، موهوب فى تقليد أصوات الحيوانات وخاصة نهيق
الحمير وصياح الديوك عند الفجر ، يطلق الأول عند استهجانه للشئ، والثانية عند
استنكاره له، كما أنه نَمَام لا يشق له غبار، لا تعرف كيف حصل على كل هذه
الأخبار والتشنيعات التى يعجز عن ملاحظتها الميصرون، خاصة أخبار الشواذ
الذين يفرمون بالانتحشار فى المركبات وفى أى زحام.

يستخف عبدالبصير ظله، يحضو عليه، لا يدقق معه فى أى شئ، لا يحاسبه
على أى قول مهما بلغت فيه درجة الفشر والمعر فهو يعرف أن كل ما يقوله محض
تأليف من خصوبة الخيال التى يتمتع بها معظم العميان. لا يستاء منه إلا فى
شئ واحد فقط : قسوته على عبدالحليم مشهور الذى يكاد يكون فى مقام ابنه،
وقد عجز عبدالبصير عن تفسير سر هذه القسوة التى تتم عن حقد دفين على الولد
بصورة مرعبة، هل لأن الولد قوى الحجرة بارع الأداء للعُرب الحريفة فى حين
يقترّب صوت الشيخ طلعت من صوت الحمار بل ربما كان الأخير أجمل؟! هل لأن
معظم الناس يعطفون على الولد بشكل ظاهر مبالغ فيه أحيانا؟! الله أعلم، ولكن
قلب عبدالبصير انقرص مرة حين تمادى الشيخ طلعت فى مزاحه مع الولد فسحب
كتفه متحسسا إياها قائلا: خذ دى، ثم هوى بقبضته - بكل قوته الشريرة - فوق
كتف الولد، فأنّ الولد أنّه واحدة عميقة، ثم انقطع تنفسه فى الحال فعجز حتى عن
البكاء. اغتآظ عبدالبصير وبكل ضيق نثر نراع الشيخ طلعت من تحت إبطه فى
عنف صائحا: «لا بقى ياشيخ قرد! حرام على دينك!»، ثم راح يدلك كتف الولد
ويريت على ذقنه ليرد إليه نفسه المستلب. ليلتها ظل الولد مكبوسا منطفئا يكتّم
الآلم، فظل عبد البصير كسير القلب موجوعه طول الليل.

كان أعضاء الفرقة قد تكاتبوا! العنوان وسبقوا إلى البلدة كل بآلته، واثقين أن
عبدالبصير هو خير دليل للشيخ طلعت ، وأنه لابد سيلحق بهم على طبلية العشاء
قبل أن يقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم. وإلى أن تقابل عبدالبصير مع الشيخ

طلعت على المحطة، وحتى استلامهما الطريق الموصل للبلدة كان عبد البصير لا يزال غير قادر على تصور المحنة التي يصر الشيخ طلعت أن يضعهم فيها هذه الليلة بصلابة مخه وانتهازيته . ذلك أن أصحاب الحفل كانوا فى الأصل يطلبون هنيات شعبان، فالتقاهم المتعهد وأبلغهم أن الحاجة هنيات - عقبال عندكم - قد اعتمدوها فى الإذاعة، وأنها مقيمة فى القاهرة منذ أسبوع تحفظ لحنا للملحن الكبير أحمد صدقى أسمه يأهل البيت ياسندى كما نشرت الصحف، ولن تعود قبل تسجيله بفرقة موسيقى الإذاعة، أمال ياعم، وأمامها من عشرة أيام إلى شهر. هكذا أوحى الشيخ للمتعهد. فلما قالوا للمتعهد: تصرف ، اجأ للشيخ طلعت باعتباره عوادا فى فرقة الحاجة هنيات:

«دبرنا ياسى الشيخ ! ألا تعرف صَيِّتًا محترما يحيى الحفل بدلاً من الحاجة؟»

صاح على الفور :

«أعرف طبعاً ! كيف لا أعرف؟ هذا كلام يارجل؟ أعرف أكبر صييت فى العبّ كله! الشيخ طلعت المهدي الشبوكشى!!»

واندهش المتعهد:

«هو أنت إذن؟!»

«عليك نور ! أنا معلم هنيات شعبان! وبينى وبينها عهد ألا أغنى إلا فى حالة

غيابها!!»

«على خيرة الله!».

«على خيرة الله!»

تم الاتفاق. وقد سرّ المتعهد عندما تبين أن التكاليف أقل مما قدر لها، فسلمه العربون والعنوان.

عبد البصير الذي طبعت روحه على المزاح والأريحية والصفاء لم يستطع استيعاب هذا الموقف رغم أنه وافق على المشاركة بكمائه فى التخت المصاحب للشيخ طلعت. ذلك أن الشيخ طلعت فى الواقع لم يسبق له الغناء مطلقاً وسط

جمهور، إنما دورهم مقصور على التحفيظ والعزف على العود. وحتى عند التحفيظ يخونه صوته القبيح الفظ فيتحشرج ويقصر عن إكمال الجملة فيكملها عزفا على العود.

فى الطريق الزراعى إلى البلدة قال عبد البصير للشيخ طلعت فيما يتأبط ذراعه:

«جهزت نفسك للعلقة التى ستأكلها الليلة؟!»

صاح الشيخ طلعت مفجرا ضحكته الهائلة:

«إن شاء الله مستورة ، صل أنت على النبى وقل يارب ثم اتركها لله!»

«لكنك ياشيخ طلعت لست مغنيا! ولا صبيتا! وهم يطلبون صبيتا كالشيخ على محمود! هنيات شعبان! محمود أحمد عبد الهادى! فما الذى ستفعله فى ليلتك المهيبة هذه؟!»

ضحك الشيخ طلعت ضحكة صاعقة :

«الذى لا تعرفه ياسى عبده أفندى أننى سأتحفكم الليلة بما لم تعرفوه! عليكم فحسب أن تصحصحوا ورائى ! سأشير لكم على النغمة فى كل دخلة! وما عليكم إلا أن تقسموا لازمة طويلة من هذه النغمة حتى أتسلطن ويعدها يحلها الحلال!!»
كان عبد البصير يعرف أن هذا محض ادعاء، فالشيخ طلعت لم يتجه للموسيقى من صغره، لأنه قد عمى على كبر، وحينما أراد أن يتعلم العزف على العود كسبوبة يشحذ بها على المقامى تصادف أن لجأ إلى عواد يحفظ الكثير من التراث فدرسه عليه فالتحق بعالم الآلاتية فى مقهاهم الشهير بطنطا. قهوة الحللى، فمرطوه فى سوق العوالم. وكان يضيق أحيانا بلقب الشيخ لأنه يطلق فى البلاد على كل ضرير وهو يحب نسيان أنه ضرير، لكنه مع ذلك كان كثيرا ما يفرح باللقب لأنه مفتاح القلوب.

لم يجد عبد البصير مفرًا من إطلاق خاطر الحبيس فى صدره، ففاجأه بلهجة مريرة مازحة فى أن:

«ولكن صوتك ياشيخ طلعت! صوتك...»

فقاطعه الشيخ طلعت بثقة الأدعياء العتاة !

- «هل الشيخ زكريا أحمد حسن الصوت ؟! مع ذلك يعبىء الأسطوانات فتباع بالآلاف ! وهو مشهور هنا ! المسألة ليست حلاوة الصوت والجعر على الفاضى والمليان!!»

نقد صبر عبد البصير، فرغده:

- «وهل أنت مثل الشيخ زكريا بذمتك؟! الشيخ زكريا فنان كبير متمرس على الأداء وعبقرى فى التلحين! كما أن إحساسه مرهف! حسه حلوا والناس تعجب بحسه لا بصوته! ولأنه صاحب اللحن فإنه بصوته الأجش هذا يجىء بعُرب العُرب ويكاد قلبه يتكلم فى صوته! إن صوته فى الواقع هو صوت أم كلثوم لكنه كالأوانى البلورية مدفون فى كومة من القش لحمايته من الانكسار! وأنت حينما تسمعه ترى القش يتناثر بعيدا فلا يبقى أمامك سوى البلور الصافى !! إسمع لى ياشيخ طلعت أنت خرمت وجاوزت حدك !!»

ولم يلتفت إلى رد الشيخ طلعت، لأنه غرق فى الهم فجاء وخفق قلبه بشدة، إذ تذكر أن أهل هذه البلدة قوم فى غاية الشراسة والعنف، فمعظمهم من البدو والمستوطنين الذين لا خبرة ولا صبر لهم على الزراعة فاشتغلوا بالتجارة والإقراض بالربا وأعمال النجارة. إلا أنهم والحق يقال سماعة من الدرجة الأولى، أهل طرب وأنس لا يستقيم مع شراستهم وعنفهم الشديدين، حيث لا كلام لهم إلا بالأبدى والقيضات وربما النبابيت غير أن هذه الأخيرة لا تطلع بسهولة. يتميزون بقدرة هائلة على المزاح الهازل يفرغون فيه عنفهم فيجىء مزاحاً أقسى من القتل. رأى عبد البصير أنه لا بد من الإفصاح للشيخ طلعت عن هذه الجبلية حتى لا يستهين:

- «أتعرف طباع أهل هذه البلدة ياشيخ طلعت؟!»

- «طبعا طبعا! وهل أنا غريب عن المنطقة؟!»

- «أقصد تعرفها جيدا؟!»

- «أظن طبعا !!»

ثم أضاف بعد برهة وهو يضغط بذراعه إبط عبد البصير:

- «يا أخى خل تكالك على الله!!»

انتبه عبد البصير إلى أنهما يخترقان شارع دابر الناحية منذ وقت طويل، ولا أثر لسرادق أو تباشير حفل فى الأفق. إنه يعرف معنى الحفل فى هذه القرى: البلدة كلها تشغى بالحركة والزأطة منذ أذان المغرب وتباشير الحفل تكون ظاهرة فى كل مكان، من صوت ميكروفون يوشّ ويصخب، ومن أنوار مبهرة، وناس تلتقى الالاتية فى الشوارع ليدلونهم على مكان السرادق. كل هذا لاشئ منه فى البلدة التى يمشيان فيها، اضطر عبد البصير للسؤال بعد أن أخرج ورقة العنوان المون فيها اسم عائلة الهراوى فحسب. تكفل أكثر من واحد بتصحيح مسارهما: إن العنوان المقصود ليس فى البلدة القبلية بل فى البحرية. وبين البلديتين ترعة عريضة كالرياح عميقة الغور تهدر فيها أمواج الفيضان حتى الحافة. ولكى يصلا إلى البلدة البحرية يلزمهما ركوبة لأن المشوار من هنا إلى الكوبرى الذى يجب أن يعبراها إلى البلدة البحرية طويل جدا. وقد يستغرق ساعتين على الأقل، معنى ذلك أن يصلا إلى الحفل قرب منتصف الليل، لأن المسافة التى يمشيانها إلى الكوبرى سيرجعانها ثانية على الضفة الأخرى، إضافة إلى مسافة فى عمق المزارع توصلهما إلى المساكن التى تبدو من هنا غاطسة فى الأفق تحت ظلال الأشجار والحطب وقش الأرز.

وقف عبد البصير حائرا متشائما منقبض الصدر. فكر فى الرجوع، لكنه ليس من النوع الذى يبارر باليأس حتى ولو كانت كل الدلائل مشنومة، ثم إنه لن يخلص بسهولة من لزقة الشيخ طلعت. أخذ يروح ويجيء على الشاطئ، وذهنه يتقاذف بسرعة هائلة نحو أفكار مجنونة ومفترحات خرقاء، فحتى لو كان يجيد السباحة فالشيخ طلعت لا يجيدها، وآلتا العود والكمان عبء إضافى. لكن الفكرة لمعت فى عينيه حينما التقطت نظراته ماسورة تخينة تعبر التربة رابطة بين الضفتين. سحب الشيخ طلعت ووقف أمامها يدرس فكرته، ثم نقلها للشيخ طلعت، فرحب بها على الفور. قال عبده :

- «إنن فتعال نجرب على الأرض أولاً! أنا سأمسك العود فى يد والكمنجة فى اليد الأخرى! وأنقل قدما بقدم! وأنت فى كعبى! تضع قدمك فى الموضع الذى غادرته قدمى! وأصابع يدك تلامس ظهري! تلامسها فحسب! إياك إياك أن تمسك بى وإلا وقعنا سويا فى الغريق!! على أقل من مهلنا! واحفظ توازنك بكل قوة!!»
- «اتكل على الله لا تخف!!»

جربا على الأرض مسافة يقرب طولها من طول الماسورة، فنجحت التجربة، فواصل عبدالبصير السير حتى دخل بالفعل فوق الماسورة، والشيخ طلعت من خلفه، أصابعه تلامس ظهره مجرد ملاسة، وقدمه العريضة المفرطة تزحف خلف قدم عبدالبصير الذى راح يجاهد ويناضل كى يحفظ توازنه مستخدما نقل ألتى العود والكمان. داخ فى منتصف الماسورة، لكنه استعان بالله ويسورة يس وآية الكرسي، فجاءه الإلهام بحيلة موفقة، همس للشيخ طلعت فى هدوء شديد:

- «قف مكانك ثابتا ثم افعل مثلما أفعل! تهبط بجسمك شيئا فشيئا حتى تجلس على قرافيصك متحسسا بيديك جسم الماسورة ثم تركبها كما تركب الحمار! هكذا .. ثم تركز بكفيك عليها وتزحف هكذا ! ماشى؟»
- «اتكل على الله!!»

.. غير منتبه إلى أن عبدالبصير قد ركب الماسورة بالفعل مستخدما علبة الكمان الخارجية فى الاستناد عليها لا للزحف بل للقفز فوق الماسورة مسافات واسعة. قفزة فالثانية فالرابعة صار على الشاطئ تحت شجرة جميز وارفه. الأرض كانت تدور به، ريقه ناشف من شدة الاضطراب، فارتقى على الأرض تحت الشجرة مسندا ظهره إلى جذعها التخين. آخر نظرة حانت منه إلى الماسورة كان الشيخ طلعت لا يزال يزحف ببطء السلحفاة فى بداية النصف الثانى من الماسورة، بعدها ارتخت جفونه وغاب فى الحال فى نوم عميق رأى فيه الحفل قائما وسط حقل من الحلفاء الشائكة، وجميع المدعوين نوى رعوس كرعوس الإبل تأكل فى هذه الحلفاء فيما تتطلع بعيون زائغة فى الآلاتية الجالسين على المنصة تحت ضوء الكلوبات المبهر، وكان هو غائضا حتى الركبتين فى جنود الحلفاء النابتة فوق

المنصة نفسها، يحاول نقل قدميه بصعوبة باللغة ليصل إلى المنصة التي بدت قريبة بعيدة في آن، وثمة صوت يناديه بأقصى ما في صاحبه من عزم: ياسى عبده ! يا عبد البصير أفندي! يا صوفانى بيه!، فى حين راح هو يلتفت حواليه بحثا عن مصدر الصوت الذى يناديه فلا يراه، فيحاول أن يشير بذراعه لعل صاحب النداء يراه فيسرع إلى نجده، لكنه لا يستطيع تحريك ذراعيه، يحاول الصراخ ليرد على النداء فلا يجد صوته، والنداء مستمر مع ذلك فى إلحاح ورجاء واستعطاف حتى بدأت الدموع تبلل الصوت فى بكاء حار، حينئذ بدأ يتعرف على حقيقة الصوت، يعرف أنه صوت الشيخ طلعت على وجه التحديد، فإذا به ينتفض مرة واحدة، يفتح عينيه، يفاجأ بنفسه جالسا تحت شجرة الجميز، والشيخ طلعت واقف على الشاطئ قرب الماسورة يتأبط حذاءه وينادى بأعلى صوت: ياسى عبده، فصاح وهو ينتفض قائما :

- «أيوه ياشيخ طلعت ! أشهد أن لا إله إلا الله! خير ! اللهم أجعله خيرا!»

- «نشفت قلبى يا رجل ! أين كنت؟!»

- «تصور أن عيني غفلت تحت الشجرة؟! ربنا يستر! هيا بنا! أعود بالله من

الشیطان الرجيم!!»

ثم ساعد الشيخ طلعت على لبس حذائه، وسحبه ومضى على طريق ضيق محفوف بأشجار الجزورين فى مدخل البلدة، فما أن توقف فيه حتى ظهرت تباشير الحفل واضحة، وخرخشة الميكروفون ترد: ألو ألو.. آ.. لوه .. واحد اتنين تلاته آ.. لوه .. محلات الحاج محمد الصردى للفراشة تحييكم ويقول لكم نحن فى الخدمة على الدوام وكل عام وأنتم بخير!!». بعد خطوات قليلة ظهر من اقتادهما إلى سرادق الفرخ قائلا إن الركائب لاتزال تنتظرهما عند محطة القطار فلماذا لم يركباهما؟! فتعجبا من ذلك لأن عبدالبصير لمح الركائب بالفعل لكنه تجاوزها ومضى بجهالة إلى الطريق الزراعى، تلقاهما من أدخلهما على طبلية العشاء، وكانت الفرقة قد بدأت بالكاد فى تحريك الملاعق نحو الأطباق.

صلوا العشاء جميعا فى المنذرة، ثم خرجوا فاصطفوا على منصة أعدها لهم

متعهد الفراشة، عبارة عن أربع دلك عريضة فوق أربع أعرض، فرشت عليها سجادة. فى مواجهتها اصطفت الكراسى الخيزران ثلاثة ثلاثة بالطول، تفصل بينها ممرات، حتى منتصف السرادق. أما بقية السرادق فملآنة بالدلك لأهل البلدة وراء الضيوف الأغراب، وخارج السرادق أحمال قش وأكوام ردم ودلك أتى بها الناس من بيوتهم .

الفرقة مكونة من عواد وقانونجى وناياتى وطبال ورقاق وثلاث كمانات وأرغول. فرقة لا بأس بها تملأ العين وتليق بصييت محترم كمحمود أحمد عبد الهادى. بدأت الفرقة بقيادة عبد البصير فعزفت تحميلة مشهورة مما يذاع فى الراديو خلال فقرات البرنامج اليومى. ثم انفرد عبد البصير بالتقاسيم الحرة لوقت طويل تداعت خلاله التصفيفات وصيحات الإعجاب والتهليل المتفائل: كمان والنبى! إيه الحلاوة دى! ياسلام سلم.. إلخ .. بعد استراحة قصيرة جدا أومأ عبد البصير إلى الطبال الذى كان مغرما بتقليد مذيى الراديو، فترك هذا طبلته مقلوبة على كرسية وتقدم نحو الميكروفون فأمسكه ونفخ فيه - عادة سخيفة متأصلة - فبدأ كأنه ييصق فى وجهه القوم، ثم قال: والآن سيداتى وساداتى - مع أنه لم يكن فى الحفل سيدات على الإطلاق - نقدم لكم الصييت الشهير، البلبل المغرد اللامع: الشيخ طلعت الشبوكشى . فدوى تصفيق شديد استمر لبرهة طويلة يخفت ثم يشتد إلى أن خفت تماما واطمحل فى الأرض الزراعية المتاخمة. وعاد الطبال فسحب الشيخ طلعت من ركنه، أجلسه أمام الميكروفون، خفض الميكروفون إلى مستوى فم الشيخ، أمسك بيده ووضعها على حامل الميكروفون ليحدد مكانه منه، ثم عاد إلى كرسية ممسكا بالطبله صار يبرم جلدها فوق ركبته ليسخنه ثم يرنه بطرف أصبعه ثم يعود فيبرم الجلد حتى انشد الجلد تماما وانضبط رنينه.

التفت الشيخ طلعت من فوق كتفه متهامسا مع عبدا صير، فدوزنت الفرقة أوتارها ثم أخذت وضع الاستعداد حتى أتاها الإذن من عبد البصير بواسطة قوسه. ثم انبرت الفرقة تعزف لحن الشيخ على محمود. «يانسيم الصبا مرحبا مرحبا». فتقارن الحضور خيرا، وصفقوا مهللين. أنهت الفرقة عزف المقدمة كلها

وتمهلت تمهد للشيخ دخلته، لكنه لم يدخل. فاستأنفت الفرقة عزف المقدمة من جديد حتى أتمتها، ففوجئت بأصبع الشيخ طلعت يدور حول مؤخرته مشبيرا لهم أن يستأنفوا التكرار. فكروا المقدمة للمرة الثالثة ثم الرابعة، فالخامسة، لكن الشيخ طلعت لم ينطق . سال العرق الغزير على وجه الآلاتية، بدأ الحرج يخنق أصابعهم فوق الآلات، فما كان من أحد عازفي الكمان - الذين دأبوا على معاملة الشيخ طلعت ببذاءة تتم عن احتقار.. إلا أن زغده خلسة بطرف قوسه فدخل في مؤخرة الشيخ طلعت عن غير قصد. كانت حركة مباغطة انتقض لها الشيخ طلعت مذعورا، ممسكا بمؤخرته متلفتا حواليه مطلقا صيحة بذئية. انفجرت الضحكات في جميع أنحاء السراشق، عم الهرج، كاد يستمر لولا أن عبدالبصير أسرع بعديل الشيخ طلعت في قعدته معتذرا للجمهور. استأنفت الفرقة العزف بجدية مبالغ فيها.

أخيرا نطق الشيخ طلعت، ليت ما نطق. كان طوال قعدته يواصل الاستماع لعله يتذكر أداء الشيخ على محمود وكيف يطم الحروف الموسيقية إلى أقصى ما في صوته من مرونة الكاوتشوك ممزوجة بنعومة الحرير وشخلة الذهب. أراد المائفون أن يقلده، فإذا بالميكروفون يجسد في الأسماح نهيق حمار لا يمكن احتماله. هذا هو الجواب في صوته، فلما هبط إلى القرار جسد نغير جاموسة في حالة ولادة. كل ذلك وهو يقصد أن يقول حرف يا.. فقط، فما كاد ينهي كلمة: نسيم، حتى كان السراشق كله قد انقلب إلى حالة من الفوضى العارمة: وصفير ماجن وقهقهات وتعليقات بذئية.

لحظتئذ انخرط عبدالبصير في قراءة آية الكرسي وعدية يس طالبا من الله أن تفوت الليلة على خير فلا يصيبهم الأذى. إنه يعرف جيدا ما الذي يمكن أن يفعله هؤلاء القوم بالمغنى الذي لا يعجبهم، لا أحد في الدنيا يستطيع إيقافهم عن الاستمرار في المزاح العنيف متى بدأ. ما هي ذى البشائر قد بدأت بالفعل. صعد أحدهم إلى المنصة بقفزة سريعة. تلاه آخر، فأخر. ثم صارت المنصة كجبلالية القروذ يتقاذز فوقها الولدان سمر الوجوه بملاحم عدوانية صلبة. وضع

أحدهم يده على كتف الشيخ طلعت قائلا كمن يخاطب طفلا شقيا صفيقا:

- «ماشفتك بالضبط ياشيخ قرد؟»

صرخ الشيخ طلعت خذه نحو الصوت قائلا:

- «هه؟ أنا صبيت ! قل له ياسى عبده!!»

فعاجلته الصفعة على قفاه، انكفاً منها رأسه مصطدما بالميكروفون الذى لايزال متشبثا به بين يديه..

- «صبيت .. أم ترى؟ أنت لا تتفع حتى تربيا!!»

وتقدم آخر نحو الشيخ طلعت بلهجة من يرد عنه العدوان:

- «أهذه عملة تعملها فينا يا رجل يا طيب؟ ليلة كهذه تكلفت الشيء الفلانى!

وناس جاءت لتتفرج وتنبسط ! تجيء أنت يا أعمى العين لتتك على بلد بحالها؟

وتأخذ نقودا أيضا؟»

وكان بين الجملة والجملة يشد شعرة من ذقن الشيخ طلعت ينتفها، فيصرخ

الشيخ طلعت يجأر من أعماقه:

- «حرام عليك ! لا يصح هذا مع رجل محترم!!»

- «أنت لم تر شيئا بعد!! أنت ليلتك أسود من قرون الخروب! يا نصاب

يا حرامى».

ثم صاح فيمن حوله:

- «هاتوا النعش يا أولاد !!»

وبالفعل ظهر بجوار المنصة أربعة ولدان يحملون النعش كأنهم جهوزه من قبل.

وفيما كان الشيخ طلعت يمد رقبته منصتا لهدير من جاعا بالنعش فعلا، وقبل أن

يعلن هو احتجاجه رأى نفسه محمولا كعرق الخشب، حيث تقدم أحدهم من كتفيه

بحبل متين، فشد وثاقه حول نزاعيه ورجليه، أرقدوه فى النعش باستماتة جنونى.

حمل الأولاد النعش وشقوا به الصفوف إلى الخلاء، ومن خلفهم موكب هائل من

الأطفال والولدان والشيوخ، وثمة من يجعر صائحا: «العجل وقع!»، فيرد عليه

الأولاد: «فى الحتة دى!». «العجل وقع!». «فى الحتة دى!». صار الموكب يبتعد ويرج شوارع البلدة رجا. ثم إن المنصة انتهكت، تفرق الآلاتية كل فى سبيل نافدا بجلده.

وفيما كان الموكب يبعثر ضجيجيه المرح فى أعطاف البلدة، كان ثمة شبح كالزعرور الأسود يترنج فوق الماسورة إياها محتضنا آلة الكمان بيد، وعود الشيخ طلعت باليد الأخرى، يستعيز بالله من الشيطان الرجيم. استلم الطريق الزراعى مهولا نحو المحطة وهو يردد فرحا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

(١٤)

تجمعت الفرقة كلها - حسبما اتفقوا سلفا - فى منزل العريس فى بلدة صناديد، لكى تحملهم الركائب إلى منزل العروس فى بلدة جنزور. صحيح أن فرح الشبكة يقام على نفقة أهل العروس، ولكن لا مانع من أن يساهم العريس فى اختيار الفرقة، أو يتفق هو معها نياية عن أصهاره خاصة إذا لم تكن لهم خبرة فى مثل هذه الأمور. وهذا ما فعله عريس صناديد، إذ خطف رجله إلى طنطا على مبعدة بضعة كيلو مترات، وعلى مقهى الجمهورية القريب من المسجد الأحمدي التفت حوله أكثر من متعهد حفلات، لكنه استراح لذلك الذى قال له:

«إنا آتيك بفرقة أبهة فيها عبدالبصير الصوفانى الكمنجاتى وفيها راقصتين لهلويتين ومطربين ونويتجى ملحق!»

قام المتعهد من فورهِ فبيّث على عبدالبصير، الذى اتصل بدوره بالعميان الثلاثة: الشيخ طلعت للعرزف على العود، والشيخ عطية والشيخ عبدالحليم لتبادل الغناء. ومن جانبه اتصل المتعهد براقصة يعرفها وطلب منها أن تأتى بزميلة تريحها، فاقترحت عليه صديقتها نعيمة وصديقها المنولوجست أنور شفيق، فمنه منولوجست يملأ الفرع صياحا وتنكيئا وفرفشة، ومنه نويتجى يجمع النقطة.

فى اليوم الموعد جاءت ركائب حملت عبدالبصير والمشايخ الثلاثة إلى صناديد، واحقت بهم سيارة أجرة متهاكة تحمل الراقصتين والمنولوجست وبقية الآلاتية. تناولوا الغداء فى بيت العريس، وهو بيت واسع ببوابة مفتوحة على الدوام

لا تغلق ليلاً أو نهاراً حتى فى غياب أصحاب الدار، فالبوابة مفتوحة على أرضهم الزراعية وهم إما فى الدار أو فى الغيط على مرمى حجر، كما أن الدار أمان.

بعد الغداء مباشرة انتقلت العائلة كلها إلى جنزور، بقيت البوابة - من لخمهم - مفتوحة توصل مباشرة إلى الزريبة فى انتظار من يكون قد تأخر فى العودة من الغيط، أما القاعات الداخلية كلها فقد أغلقت بالضبة والمفتاح.. ولم يبق فى الدار سوى جدة عجوز مكومة على قبة الفرن فى الدويرة المتاخمة للزريبة.

سيارة الأجرة التى بقيت معهم حملت الراقصتين وبقيّة الفرقة ومضت إلى جنزور. وركب عبده ورفاقه العميان كل واحد على ركوبة، ومضى الموكب فى زئيط مبهج يشق قلب صناديد متجها إلى الطريق الزراعى.

تسابت الركائب لتلحق بالسيارة، إلا ركوبة الشيخ عطية استهزأت به فتكاسلت، وكانت عجوزاً مثله تماماً، دنيئة، تشمشم فى الأرض باستمرار. وكان هو ثقيلاً عليها جداً، إذ هو ضخّم الجثة مثل فيل أبيض الوجه غائر العينين عريض الجبهة حليق اللحية عارى الرأس، يرتدى البذلة والبليون، غليظ الخدين موفور الصحة يبك الدم من ملامح وجهه التى مع ذلك تستقطب شغفتك إذ هى تشى - صدقاً أو كذباً - بأنه عزيز قوم ذل، وأنه ابن ناس لا يستحق البهذلة. هو كذلك شديد الطيبة، أبيض القلب، صبور جداً كحجر صلد لا يتأثر بأى مؤثرات خارجية، باسم الثغر على اللوام، مصعر الخد مشرع الأنف كأنه دائم الإنصات لصوت خفى مجهول فى الأفق. من حين لآخر ينكس رأسه قليلاً فى تفكير كأنه يتمعن فيما استمع إليه لكنه ما يلبث حتى يرفع الرأس مائلاً به كمن يؤهل خده لصفعة. هو إلى ذلك جميل الصوت جداً، صوته مزيج من الذكورة والأنوثة فى جلجلة تأسر القلوب خاصة حين يغنى أغانى أم كلثوم القديمة، أو بعض الموشحات الأندلسية. وإذا تجلى فى حفل فقد يكون نكبة على من معه من المغنين، فلسوف يستمسك به الجمهور يظل يستعيده حتى الصباح، ولسوف يستجيب إلى ما لا نهاية ناسياً حقوق غيره فى الغناء مثله، وستفتتح مخازنه النغمية السرية فيفاجئ حتى زملاءه بكل مبهز طازج شهى شجى. متمرس ماهر بارع فى اختيار الألحان التى ينتقل

بينها بحيث تجيء كلها فى فلك واحد متشعب التفرعات ينسلت من نغمة إلى أخرى فى حسن تصرف ومرونة صوتية نادرة. من هنا يكرهه الشيخ طلعت كره العمى ويدير لحفلات من ورائه. هو دائما يشكل عصب الفرقة فى أى حفل يحضره، هو النمرة الرئيسية ولهذا فإن الفرقة دائما تسخره لآخر الليل، تتيج لبقية النمر فرصة الظهور وأداء الواجب، وفى نفس الوقت تهيبه فرصة التوهج وسط زينة الجمهور بعد انصراف الغوغاء واستئذان الأعيان المتنوقين الذين جهزوا أدمغتهم للاستماع جيدا مقابل ما سيفقدونه على الفرقة من نقوط سخي. حينئذ يشبعهم الشيخ عطية بالليالى والمواويل التى يفصل بها بين الموشحات والأنوار والقطايق.

وصل الجميع إلى جنزور بعد صلاة العشاء. أدخلوا الفرقة إلى السفرة حيث تناولوا عشاءهم. نظام السفرة عندهم ستة فستة، كل ست رجال يتحلقون مائدة مستديرة من الرخام، والسفرجى واقف على رأسهم، يضع سلطانية الشربة الكبيرة وينتظر حتى ينتهوا من شربها بالملاعق، ثم يرفعها ويضع طبقا كبيرا من الخضار باللحم وحواليه تلال الأرغفة. فإذا انتهوا منه رفعه ووضع طبقا به محشيات من جميع الأنواع تحف بها صدور وأفخاذ الدجاج والحمام. بعده قارب الأرز الساخن وفوقه ضلع اللحم المسلوق يغطيه كله. بعده تنزل أطباق الحلوى وتبدأ بالجلاش ثم البقلاوة ثم المهلبية، وفى الختام طبق الفاكهة بنت الموسم الراهن. ثم ينصرفون ليحل محلهم ستة آخرون. وهكذا إلى أن ينتهى الجميع ويبقى السفرجى ومساعدوه فى حالة عمل حتى وقت متأخر من الليل تبعا لوصول آخر المدعوين من البلاد المجاورة، ودائما أبدا هناك فائض احتياطى لضيوف لم يكونوا فى الحسبان.

سفرة الليلة كانت دسمة وسخية، لأن الفرخ فى الواقع كان مزنوجا: شبكة البنت وبخلة الإبن فى فرح واحد، تجلس العروس المشبوكة فى الكوشة مع العروس المزقوفة إلى الدار. شبعت الفرقة وامتلأت. جاء من اقتادها إلى ركن بعيد فى حوش الدار بجوار النصيبة المعدة للطباخ، حيث ارتصت الكراسى ودارت

الجوزة بأبخرة الحشيش الأخضر الطازج. شربوا جميعا، حتى الراقصتان أظهرتا خبرة عميقة في الشرب.

كان السرائق منصوبا في باحة كبيرة أمام الدار، وقد امتلأ عن آخره بالمدعويين من أهل البلدة والأغراب، وثمة مغن من أهل البلدة حسن الصوت يغنى موال حسن ونعيمة. تلك عادة شائعة في أقراح قرانا كلها: فمهما بلغ وزن المغنى من أهل البلدة فإنه يبقى دائما مساعدا للمغنى الأجنبى حتى ولو كان أرفع منه شأنًا وأكثر موهبة، لعل هذا من أصول المثل الشعبي السيار «شاعر البلد لا يسليها!»، وهو نفسه المأثور الفصيح: «زامر الحى لا يطرب!». حتى المدعويون علي يقينهم من أن ابن بلدتهم جميل الصوت جدا، يستمعون إليه من باب الواجب تقلبا على القلق الذى ياكلهم فى انتظار ظهور الفرقة الواردة من بلدة أخرى خاصة إذا كانت هذه البلدة هى طنطا بلد الفن والجمال والمدنية شىء لله يابدى.

فى حوالى منتصف الجزء الأول من الليل كانت أنمغة الفرقة قد توازنت واعتدلت بما فيه الكفاية. نهضوا جميعا واتجهوا إلى المنصة فاتخذوا أماكنهم فوق كراسيها. استقبلهم المغنى المحلى بموال قصير رطب فيه بهم فى بلدته كضيوف أعزاء وكفخر للفن ولأهل طنطا، أظهر خلاله مقدرته الكبيرة على الارتجال والتأليف والتلحين لعل فيهم من يحاول الاستفادة بخدماته مستقبلا، حيث ضمن مواله أسماهم جميعا واحدا واحدا، كل اسم مقرون بصفة صاحبه وعمله ومدى شهرته فيه، ثم وضع توقيعه باسمه الكامل فى نهاية الموال كجزء من سببقة النظم. ثم إنه تقدم منهم فسلم عليهم واحدا واحدا، فشكروه وأثنوا على جمال صوته، وسحب هو كرسيا فجلس عليه خلف الطبال متوقعا أن الحاجة إليه ربما تكررت لسبب من الأسباب فيكون جاهزا عند الطلب. إلا أن جلوسه هكذا أقلق بعض الالاتية وخاصة المنولوجيست الذى كان سفروتا خفيف الظل خفيف الحركة كأنه حزمة من السست مبرومة فى بذلة أنيقة محزقة تبرز تفاصيل جسده، يتكلم بالعين والحاجب، مستطيل الوجه نحيف الملامح مصفوط الصدغين كمريض بالسل، أخضر العينين مرهقهما من فرط السهر والمخدرات. بنظرة سريعة أوحى

للمتعهد أن جلوس هذا الرجل بينهم ربما يدل على أنه ينوى مشاركتهم فى محصول النقوط آخر الليل، فما كان من المتعهد إلا أن أعاد ترتيب الكراسى وتوسيع المسافات بينها حتى وجد الرجل نفسه مرغما على زحزحة كرسیه شيئا فشيئا، لكن المتعهد بصنعة لطافة سحب كرسیه ووضعها فى مواجهة المنصة قائلا فى لطف وود:

- «اتفضل حضرتك هنا هنا!! المنولوجست يجب أن يتحرك فى مساحة واسعة: أصله راكبه عقریت عدم المؤاخذة!!»

بدأ برنامج الفرقة بالمنولوجست والراقصة الكبيرة فأشاعا فى السراىق جوا من المرح الراقص البهیج، لعب فيه الطبال والرقاق دورا بارزا، فارتفعت الزغارید، انتهالت النقوط على الفرقة على سبیل التشجیع لإغرائها بالتوهج وإظهار أحلى ما عندها.

دخل الحفل منطقة الوهج الكامل، حدث التلاحم بین الجمهور والفرقة إذ راح الجميع یرقص وعبدالبصیر یقود الفرقة فى عنقود متصل من الألحان الراقصة الحریفة، بمصاحبة صوت الراقصة الثانية التى كانت على شىء من حلاوة الصوت. تلت ذلك موجة من النقوط السخی، كف الجمهور بعدها عن النقوط وبدأ یتطالب بحقه فى الغناء من المطرب الأساسى الذى سمع عنه الجميع قبل مجئ الفرقة:

عندئذ فحسب، انتبه عبدالبصیر إلى أنه لم یر الشیخ عطية منذ لحظة خروجهم من صنادید، غاض الدم فى وجهه، جف ريقه، صاح كاللأسوع بالنار:

- «الله !! الشیخ عطية یا جماعة!! الشیخ عطية!!»

انتبهت الفرقة كلها، ساد التوتر بینهم، راحوا یصیحون فى وجوه بعضهم البعض فى ذعر: الشیخ عطية !! الشیخ عطية!! صاح ناس من أهل الفرح مذعورین:

- ماله ؟!

قال عبدالبصیر :

- «ما جاء حتى الآن!! مصيبة ! تكون الحمارة وقعت به فى المصرف؟! خطفهما أحد ؟! إنها غلطتنا ! هذه نتيجة أى لهوجة!!»

ثم هب واقفا وقد توجس وارتعب. وجد نفسه يكس الكمان ويقف حائرا:
- «استر يارب! كيف نسيناه كل هذا الوقت وهو النمرة الأساسية فى الفرقة؟! ما نحن إلا أنذال!! الشيخ عطية لابد أن يأتى من تحت طقاطيق الأرض ! فأننا المسئول عنه أخذته من وسط عياله فالنذب ننبى! ماذا أقول لعياله؟!»

ذهب العريس الصناديدى إلى زريبة أصهاره، عدّ الركائب فاكتشف غياب الحمارة التى يركبها الشيخ عطية. توجس، إنه يعرف حمارته، حمارة شقية يركبها ضرير، إنها تمكر بالمبصرين وتعذبهم، رائحة الحمير الذكور تخرجها عن طورها فتركبها العفاريت تضرب الهواء بقدميها الخلفيتين ولابد أن يقع راكبها، قال العريس لنفسه: هذه هى غلطتى فالشيخ عطية بالذات كان يجب أن يركب السيارة.

سمع عبدالبصير هذا القول فضوعف زعره، سحب كمانه تحت إبطه وتقدم مهرولا:

- «معنى إذن للبحث عن الشيخ عطية!»

بهدهء أعصاب قال العريس:

- «خليك أنت شغ شغل وأنا سأتكفل بالبحث عن الشيخ عطية حتى آتاك

به!»

- «شغل !!! شغل ماذا يارجل ياطيب؟! كيف أشتغل وأعصابى بايظلة؟!

لماغى مشغول! نحن لا نعرف ماذا جرى له؟!»

- «أنا المسئول عنه فلا تقلق!!»

- «خذنى معك ! لابد أن آتى معك! وجودى هنا كعدمه! وعندما نجد الشيخ

عطية نمتعكم حتى الصباح!!»

سحب العريس وقد توتر كلاهما إلى أقصى حد. نبه عبدالبصير على الفرقة أن تستمر فى عملها كأن شيئا لم يكن، ومضى حيث كان سائق السيارة جالسا فى

حوش الدار يحشش، سحبه برفق:

«عد بنا من الطريق الذى جئنا من نبحث عن الشيخ عطية!!»

وقف السائق قائلاً:

«أخر مرة شفته فيها فى مرآة السيارة العاكسة كانت الحماره حرنانة تلف

به حول نفسها تريد أن تبرك!!»

شخط فيه العريس بحدة :

«وكيف سكت يا أسطى؟! كان الواجب أن تنبهنا!!»

«رينا يستر! نسيت والله من ساعتها! هيا بنا!!»

ركبوا السيارة وانطلقوا . السائق أضاء النور العالى. كل من العريس

وعبدالبصير يرسلان البصر فى كل اتجاه، وكلما صادفهم فى الطريق ناس أوقفوا

السيارة وسألوهم :

«ألم تروا حماره يركبها ضرير أبيض الوجه عارى الرأس تخين؟!»

الجواب على طول الخط :

«لا والله!!»

فلما انتهى الطريق دون أن يعثروا له على أثر، ورأوا صناديد ساكنة صامته

مطفأة الفوانيس إذ إن جميع أهلها كانوا مدعوين فى الفرح فى جنزور، شعر

عبدالبصير بشبح المصيبة يقترب، قال:

«على طنطا يا أسطى!»

أكمل السائق السير دون اعتراض. دخلوا أقسام الشرطة، دوروا على

المستشفيات. أخيراً خطفوا أرجلهم إلى بلدة الشيخ عطية القريبة من جنزور . كان

عبدالبصير يخشى أن يثير ذعر أولاد الشيخ عطية، فتفتق ذهنه عن حيلة سرعان

ما نفذها: بعث السائق إلي منزل الشيخ عطية، أوصاه أن يطرق الشباك المطل

على الشارع، فترد الزوجة: من ؟ فيقول السائق أنا فلان الفلانى - أى إسم

مستعار - جئت أطلب الشيخ لإحياء ليلة حيث إن للمغنى الذى اتفقنا معه لم

يجى٢٠

ذهب السائق بالفعل ثم عاد بعد قليل كاسف البال:
- «تقول زوجته إن الشيخ عطية فى فرح فى جنزور!!»
عندئذ كاد عبده يشق الهوم، بل إنه بكى بالفعل وصار يردد فى تأثر عميق:
- «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم ألهنا الصواب!!»
لحظتئذ شق الإلهام طريقا مضيئا فى ذهن العريس، فإذا هو يطرقع بأصبعيه
قائلا:

- «بس! أنا تقريبا فهمت الملعوب! أقطع نراعى إن لم يكن ما خطر ببالي
صحيحا! إرجع بنا إلى البلد يأسطى!!»
لحظتها صاح المؤذن فى جميع أنحاء الفضاء: الله أكبر . فصاح عبدالبصير
فى تفاؤل: الله أعظم والعزة لله.

حينما دخلت السيارة بلدة صناديد كان الصباح قد فتح لهم ذراعيه، فدخلوا
تحت عباته إلى الدار. البوابة كانت مفتوحة. تقدم العريس شاقا طريقه إلى
الزريبة مباشرة. ما أن دخلها حتى صاح من أعماق الفرحة «الله الله الله! ما
شاء الله!». اندفع كل من عبدالبصير والسائق إلى الزريبة، ليفاجأ بأغرب منظر لا
يتوقعه أحد منهم: الحمار واقفة أمام منودها تأكل التبن فى فروغ بال، والشيخ
عطية راكب فوقها، متشبث بيديه برقبتها، مصعراً خده شاهرا أذنه كالمعتاد كأنه
ينصت لصوت مجهول، كأنه يؤهل خده الأيسر لمن يصفعه. كان الملعوب الذى
توقعه العريس واضحا جليا: لقد استهانت الحمار براكبها الغريب العاجز
فاستدارت عائدة به إلى الدار، لامن شاف ولا من درى.

(١٥)

قالت هنيات شعبان لأعضاء الفرقة إنهم يجب أن يسبقوها إلى قرية ميت غزال
القريبة جدا من طنطا، وهى بلدة مشهورة جدا فى اللعب كله لأنها بلدة الشيخ
مصطفى إسماعيل القارئ الشهير، صحيح أن للشيخ مصطفى إسماعيل مكتبا
فى طنطا ولكن معظم الناس يذهبون إلى البلدة نفسها لضمان الاتفاق مع الشيخ
نفسه بدلاً من أخيه الذى يدير المكتب ويتحكم فى تدبير المواعيد.

كانت هنيات شعبان متعاقدة على إحياء ليلة في هذه البلدة بمناسبة المولد النبوي الشريف، يقيمها - سنويا - جماعة من أعيان البلدة لهم وزنهم - ولهذا فقد حرصت هنيات على اختيار العازقين بدقة، وأغدقت عليهم مثلما أغدق عليها أصحاب الليلة. نهبت على جميع أعضاء الفرقة يوم الاتفاق أن يناموا جيداً ويأخذوا كفايتهم من الراحة حتى يتألقوا بصورة تشرقها، وعليهم أن يكونوا متذكّرين أنهم في بلدة كل أهلها سمیعة من الدرجة الأولى يتنوقون الغناء الدينى كالمحترفين وأكثر، فعلى أعضاء الفرقة إذن أن يغفروا لها إرهابها لهم طوال الأيام الثلاثة الماضية في تدريبات متواصلة.

نقلتهم سيارتان من سيارات الأجرة إلى ميت غزال ، فوصلوا بعد صلاة العصر بقليل، حيث استقبلهم أصحاب الليلة في نوار كبير، وقدموا لهم العشاء من أطايب العجل المذبوح صبيحة اليوم. كذلك قدموا لهم الحلوى للأكل، وفي علب إضافية لأولادهم. وكانت سيارة خاصة قد سافرت إلى بلدة قلين لتأتي بهنيات شعبان على مهلها، فوصلت مع أذان المغرب، وشعرت بالاطمئنان والرضا حينما لقيتهم في النوار يقودهم عبدالبصير في تدريبات سريعة كالمراجعة قبل لحظات من الامتحان ، لزوم التسخين.

لكن الذى أكرهها قليلا وعكر مزاجها بعض الشيء أنها لم تجد سرادقا منصوبا، ذلك أن البلدة والبلاد المجاورة كلها كانت معزومة بالكامل فلزم أن يكون الخلاء كله سرادقا. ودرماً لمشاعر الإحباط قالت لنفسها: لعل الحفل سيقام داخل مكان مغلق، فى حديقة منزل مثلا، أو فناء مدرسة. ثم إنها تناولت عشاها وشربت الشاي والجنزبيل، وأقامت صلاة العشاء بمفردها، وبقيت فى انتظار الدعوة للخروج إلى الحفل، يصل إلى سمعها لفظ شديد يتزايد خارج المنزل. لاحظت أن الكلوبات منتشرة بصورة هائلة. مالت على شيخ قصير القامة يجلس بجوارها ويسأله عن المكان الذى سيقام فيه الحفل، فأشار بتراعه خلف ظهره يعنى فى الباحة أمام الدار. فنكست رأسها لتستوعب الصدمة، إذ ليس من المعقول أن أسرة كهذه من الأعيان المستنيرين لا تعرف أصول إقامة الحفلات، ألم يدركوا أن

فرقة موسيقية كبيرة ستكون وراها على منصة عالية؟ كيف ستقف هي على الأرض مع فرقتها؟! ثم إنها لم تسمع حتى الآن خرخشة ميكروفون ، فلا بد إذن أنها ستكون ليلة بائسة لا تليق بنجمة كالحاجة هنيات شعبان التي أصبحت مغنية فى الإذاعة.

حينما دخل عليها من يقول : تفضلى يا حاجة هنيات، بقيت جالسة فى مكانها بكثير من البرود وعدم الحماسة، توجه إليه نظرات حيرى. فلما كرر عليها كلمة: تفضلى، وجدت نفسها تعتلل انفعالها ببسمة تهكم قارصة:

- «قل لى أنت أولا: هل المكان مناسب؟!»

شوح بذراعيه فى تأكيد :

- «كل شىء تمام! تفضلى شوفى بنفسك!!»

ارتكزت بيديها على المسند ونهضت واقفة ، لبست حذاها أحكمت الطرحة البيضاء حول رأسها ، شدت العباة السوداء المشغولة بالقصب حول جسمها . مضت بخطوات بطيئة متملة. خرجت من الغرفة إلى الفناء، مرت على اللوار الذى يجلس فيه الموسيقيون ، كان خاليا، فعرفت أن الفرقة اتخذت أماكنها. دلفت من عتبة باب الشارع غارقة فى بحر صاحب من الضوء، عشرات الكلويات تبعث وشيشا، معلقة فوق عمدان ومتدلية من بعض الأسقف المحيطة. الساحة الكبيرة أمام الدار قد فُرشت كلها بقش الأرز على طول مساحة لا تقل عن نصف كيلو متر، بعرض ثلاثين أو أربعين مترا. وكانت الدار مقامة على شاطئ ترعة عريضة، والمساحة المفروشة بالقش محاذية للترعة وتتصل بساحة أعرض هى جرن القرية. قلبت هنيات نظرها فى المساحة المفروشة بالقش فرأت منصة خشبية عالية كالسرح أقيمت لصق جدار الدار على شاطئ الترعة، وقد جلس فوقها الموسيقيون على كراسيهم، ظهورهم للترعة ووجوههم فى اتجاه الجرن. وعلى جانبي المساحة المفروشة بالقش رُصت أعداد كبيرة من الدك الخشبية خصصت لكبار أهل الدار وكبار ضيوفهم الأجلة، الذين اتخذوا أماكنهم بعد صلاة العشاء فازدانت منطقة المنصة بالعباءات والعمم والطرابيش. أما المساحة المفروشة بالقش

فقد امتلأت عن آخرها بأعداد هائلة من البشر تربعوا على الأرض فى مجموعات متناسقة بحيث تتمكن جميع العيون من رؤية المنصة، وعلى امتداد البصر كانت شوارع القرية لاتزال تدلق فى الساحة أعداداً متزايدة متردفة حتى ظهر كأن فى نهاية البصر سدوداً واقفة مكونة من الأجساد، ناهيك عن مئات من المتريعين فى الأسطح المتاخمة تتوسطهم ركيات النار وعدد الشاى والجوزة. ثمة رجال أشداء يحتاطون بالساحة كلها لفرض النظام والهدوء، أما الأطفال والصبيان فأعدادهم تفوق الحصر، تفرغ لهم رهط من الرجال بالعصى يطاربونهم منعاً للصبخ والنوشة وحتى لا تتسبب شقاوتهم فى إسقاط كلوب من الكلويات المصلوبة على أعمدة. والأطفال مع ذلك يزأطون يثيرون صخبا لا يمكن احتماله أو إيقافه إلا طغيان صوت الميكروفون الذى تعددت سماعاته فى جميع الاتجاهات معلقة على الأسطح مرتفعة الصوت إلى أقصى حد، وتكتكة الموتور الذى يديرها تكاد تضيع وسط صخب الأطفال على شاطئ التربة خلف المنصة مباشرة، وكانت هذه السماعات العالية الصوت المسكة بجميع الاتجاهات هى بمثابة بطاقة دعوة مسموعة موجهة لجميع أنحاء القرى المجاورة كى يتفضل أهلها بتشريف الليلة بالحضور أو بالاستماع وهم فى بيوتهم .

تعلمت هنيات نوق التعامل مع الميكروفون منذ اعتمادها فى الإذاعة، تدربت على الاحتفاظ بالمسافة المناسبة بينها وبين الميكروفون، ومتى تقترب منه ومتى تبتعد عنه، ولذلك أصبحت أذنها تتأذى من خشونة المتحدثين فى الميكروفون، صعد إلى المنصة رجل وقور ضخم الجثة، أمسك بالميكروفون ونفخ فيه تلقائياً نفس النفخة التى يحولها الميكروفون إلى بصقة، ثم أعلن ترحيبه بالحاجة هنيات، وكل عام وأنتم بخير جميعاً بمناسبة المولد النبوى الشريف، ثم وجه التحية لكل أعيان الناحية، ثم نزل.

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً، سرعان ما تعرف عليه الحاضرون جميعاً لأنه مشهور جداً عندهم إذ إن فرقة المزمار البلدى تجيد عزفه وغناؤه فى كل القرى، أحلى من مغنيته الأصلية لورد كاش ذلك هو لحن: أمنت بالله، صار

الحاضرون جميعا يشاركون هنيات شعبان فى تطوير رأسها بنشوة فيما هى تترنم: نور جمالك آية.. أمنت بالله... أمنت بالله.. بعد نوى التصفيق والتهليل عزفت الفرقة لحن رياض السنباطى: إله الكون سامحنى أنا حيران جلال الخوف يقربنى من الحرمان وأنا إنسان ياربى أنا إنسان، صوت هنيات يتوهج فى هذا اللحن أفضل كثيرا من صوت السنباطى، لقد عزفت المقدمة بصوتها مع الآلات فبهرت الناس بعضلات صوتها وقدرتها على الارتفاع والانخفاض بسلاسة على سلم الآلات المتدرجة المتنوعة النغم كما تتضمنها عبقرية اللحن الأصيل.

سكنت هنيات شعبان فغنت لحنها الإذاعى الشهير الذى لحنه لها - ضمن برنامج إذاعى - الملحن الكبير أحمد صدقى: يا أهل البيت ياسندى. ومنه انتقلت إلى طائفة من موشحات الشيخ على محمود، فتوجهت البلدة كلها فى نشوة لا مثيل لها. دوت فى السماء تهليلات الوجد والانجذاب. ثم انداحت التهليلات فى الألق البعيد. وتخفض الصمت المفاجئ عن صوت الآلات وهى تمهد لسلطنة يشرق لها صوت هنيات مترنماً بياليل ياعين، تخرج من سفح الشعور الأزلى للأنثى العربية المقهورة بالسجن الأبدى فى قصص الحريم، عالية إلى مستوى الشعور بالنشوة لامتلاك هذا القدر من قوة التأثير فى كل هؤلاء المستمعين، منخفضة إلى مستوى الشعور بالضعف الأنثوى المسكر للرجال. طالت الليالى وتنوعت درجاتها وألوانها، لتدخل إلى موال الشيخ محمود صبح الشهير: سلطان جمالك على أهل الغرام حاكم. راح صوتها المجلجل الصافى، الواضح الهوية، ينوح ويبتلى فى الأفئدة يزلزلها، وقد استسلم الجميع لخير النشوة فاستخسروا تضيق برهة واحدة فى أى تصفيق حتى لا يقطعوا تدفق الشلال الشعورى الهادر فى هذه الحنجرة الفلاحية المبهجة.

وفيما هى تضع كفها بجوار أذنها غائبة فى نشوة المقامات التى تتعشقها، وفيما الجميع غارق فى الوجد حتى الأذنين، فوجئوا بأن هنيات شعبان قد طارت فى الهواء كحدأة مذعورة، حلت فى الهواء برهة ثم اختفت فى الخلفية المظلمة، مخلفة صوت ارتطام هائل. وإن هى الإبرهة وجيزة حتى كان الموسيقيون كلهم قد

تطايروا فى الهواء كخرق تلعب بها الريح. صكت الآذان والأفئدة أصوات ارتظام الآلات والأجساد بالأرض الصلبة، وأصوات صرخات عاوية.

دب الفزع فى الجميع، وقفوا مذهولين، عمت الفوضى، ارتفع الصراخ والجعير فى كل ناحية. فلما شرع الرجال القريبون من المنصة يستوعبون المشهد المفزع، فوجئوا بأن المنصة نفسها قد اختفت، وحلت محلها عربتان من عربات الكارو، كل منها مائلة على حافتها فى اتجاه متعاكس، وليس ثمة من أثر لمن كانوا على المنصة منذ برهة.

بقلوب هلعة راح الرجال يبحثون عن الحاجة هنيات وفرقتها. جىء بالكليات إلى الخلفية المظلمة. رأوا هنيات شعبان على وشك الفرق فى الترفة، تطبش وتهصيح رافعة رأسها وذراعيها تستغيث بأخر ما بقى فى صدرها من نفس. أما الموسيقيون فكانوا فى أوضاع بشعة أثارت مع ذلك ضحك الأطفال المجرمين، فثمة من انطرح على ظهره رافعا ساقيه والآلة فوق صدره، ومنهم من رفع ذراعيه بالقوس والكمآن لا يعنيه أمر جسده قدر عنايته بأمر الكمآن، ومنهم من راح يعوى بشدة محاولا سحب قدمه من تحت صخرة ثقيلة، ومنهم من برك على وجهه فتحطمت آلته، ومنهم من شج رأسه وفقد النطق.

فى لمح البصر تم انتشار هنيات شعبان وإدخالها إلى الدار تصرخ مطالبه بمن يبحث لها عن فرعها الذهبى. تم حمل المصابين إلى المندرة، جرى ناس إلى منزل الشيخ إبراهيم - جد الشيخ مصطفى إسماعيل - ليتكلم فى التليفون طالبا عربة الإسعاف من طنطا. جىء بحلاق الصحة، وبالمجبراتى. انقلبت الدار إلى مخيم يعوى فيه المصابون. كل ذلك والرجال يتبادلون اللوم والاتهامات فى جعير صارخ. كانت المصيبة تتلخص فى أنهم أتوا بعربتين من عربات الكارو، ضمومها إلى بعضهما، وحفظوا لكل عربة توازنها بقطع من الأحجار والصخور الثقيلة، وجربوا متانة المنصة فوجدوها فى غاية الثبات قبل أن يفرشوها بالسجادة ويضعوا فوقها الكراسى، لكن ما ذنبهم إذا كان أطفال البلدة شياطين تستحق الحرق بالنار؟ لقد فعلوا ما فى وسعهم لطرد الأطفال لكنهم اندمجوا فى الاستماع

فانتبهز الأطفال الفرصة وصاروا يزحزون قطع الأحجار من أماكنها حتى انفصلت العريتان عن بعضهما فانقلبتا.

قيل الفجر كانت أشياء كثيرة تحدث فى لحظة واحدة: شبان حاصروا منطقة المنصة وعثروا على فرع الحاجة منيات منقسما إلى قطعتين، شبان آخرون حاصروا الأطفال وعرفوا من هو بالضبط الذى فعل هذه الفعلة الشنيعة، سيارة الإسعاف تصلصل بأجراسها المقبضة خارجة من ميت غزال تحمل الفرقة الموسيقية إلى مستشفى طنطا العام، ومن خلفها ركائب من الخيل تحمل لفيفا من أعيان البلدة لتسوية الأمر إذا ما أصرت الحكومة على فتح محضر. ولحظة أن وصلوا جميعا إلى المستشفى كانت البلدة تشهد مذبة دامية لم يسبق لها مثيل فى تاريخها، مات فيها كثير من الرجال والأطفال، إلا الطفل الذى فعل الفعل فقد كان يتيما لطيفا غادر البلدة بعد فعلته إلى غير رجعة.

(١٦)

الفرح كان فى بلدة اسمها العَجُوزَيْن، تبعد عن مدينة طنطا بمسافة طويلة وتدخل فى أعمال محافظة الفؤادية - كفر الشيخ - فى خارطة جوانية تقع بين مدينتى دسوق وقلين. أهلها كلهم فلاحون، معظمهم من نوى الأملاك الأثرياء، المدينة بالنسبة لهم هى طنطا، فيما عداها ليس فى البر كله من مدن مثله، ليس فحسب لأنها مسكن البدوى، وإنما لجمالها ونظافة شوارعها المرصوفة كالبللور، وعماراتها البديعة المتساوية القامات مع اختلاف فى الأشكال والألوان والمشربيات، حصصها وحلاوتها السمسامية والعنبرية وهريستها توصف لشفاء العليل إذ هى بركة من رحاب القطب الكبير.

رغم أن مدينة دسوق الجميلة على مقربة منهم، وهى الأخرى حافلة ومبروكة بأبى العينين، فإن أهل بلدة العجوزين لا يختفون بالسفر حقا إلا إذا كانت الوجهة طنطا، بل إن كلمة: مسافر مقرونة فى الأذهان دائما بطنطا. إذا قال أحد لأحد: أنا مسافر إن شاء الله غداً، رد عليه فى الحال قائلاً: شى الله يابدى. أما دسوق فإنها فى نظرهم لا تعتبر سفرا، فالمسافة إليها فرقة كعب، وكل يوم والثانى

هناك ناس يذهبون إليها لعرض أنفسهم على الحكماء فى المستشفى، أو لدخول السينما، أو للتقديم لأولادهم فى المدرسة الابتدائية والثانوية، أو لشراء البضائع الاستهلاكية . والذاهب إلى سوق يقول: ورائى مشوار قصير، فيقول من سمعه: شى الله يابو العيتين.

أعيان البلدة يجهزون لعرائسهم إما من دمياط أو طنطا، لكنهم جميعا إذا فكروا فى إقامة الأفراح فإن الوفود تذهب إلى طنطا، يتوجهون مباشرة إلى قهوة الحللى إن كانوا على قد حالهم، فهذه القهوة مقر لأهل الفن بجميع مستوياتهم ويمكن لأى عجل منهم أن يؤلف فرقة لأبأس بها فى بحر ساعة على الأكثر تكون متوجهة إلى مقر الفرع. أما إذا كانوا على درجة من الوعى والميسرة فإنهم يتوجهون إلى مكتب المتعهد فى شارع البورصة. فإذا كانوا أكثر ثراء توجهوا إلى متعهد ميدان الساعة لأنه واسع الاتصالات كبير الخبرة لا يتعامل إلا مع نوى الأسماء اللامعة فى سوق الفن، من سامية جمال إلى هدى شمس الدين، ومن محمد فوزى إلى أحمد حسبو، ثم إنه يأخذ الفرع من يابه فى مقالة واحدة تشمل الفراشة والمسرح والميكروفونات وما سوف يقدم للمعازيم من أكل وشرب، واسمه أبو ريحان، ومكتبه كالمتحف مزدان بصور جميع الفنانين اللامعين بالحجم الطبيعى والألوان. وأبو ريحان نفسه رجل أريب مدقق، يعرف كيف يكشف الفنانين الجدد المبشرين بمستقبل، فيلمعهم فى الأفراح فى مقابل أن يشاركوا بنمرهم بأجور رمزية.

أصحاب الفرع كانوا من أكابر الأثرياء فى منطقة الغربية كلها، أطيان وماشية وعمدية وعضوية فى البرلمان ومشيخة وأبهة. الفرع كان - شأن معظم أفراح الفلاحين - مزنوجا، لكنه أغرب ازواج فى التاريخ: ولد وحيد أبويه يتزوج هو وأبوه فى ليلة واحدة!! ذلك أن الأب - الذى كان هو الآخر وحيد أبويه - عمقت زوجته بعد إنجابها هذا الولد حيث أصيبت بمرض خبيث فأجريت لها عملية جراحية استأصلت الرحم. الإبن ليلة الدخلة كان عمره دون العشرين بخمس سنوات - نفس السن التى تزوج فيها أبوه من أمه - وكان عمر الأب - ليلة الدخلة

الثانية - لا يتجاوز الثلاثين عاما، أى أنه فى عز شبابه. ولأن زوجته - أم الولد - بنت عمه وبنت خالته فى نفس الوقت، وتحبه، ويتمنى له أن يملأ الدار عيالا تترث هذه الثروة الطائلة، وأن يستمتع بشبابه، فقد رضيت عن طيب خاطر أن يتزوج بل هى التى دفعته إلى الزواج وانتخبت له عروسا جميلة هى بنت خالتها أيضا. وكانت عروس الأب أكبر من عروس الإبن بثلاث سنوات فقط.

سافر العريس الكبير بدوى السيد - على اسم البدوى - إلى موطن سميح وقطبه، فاتجه مباشرة إلى ميدان الساعة واقتحم مكتب إبي ربحان وقال له بالفم المليان:

- «معك من ألف لعشرة آلاف جنيه! هات لى أكبر فرقة فى البر كله! أكبر مغن فى الإذاعة فلسنا نفرح كل يوم والفلوس عندي لا تجد من يصرفها!! فما نفعها إذن إن لم نفرح بها؟!»

وبعد أن دفع العريون الكبير، وطمأن المتعهد على أن الخير الذى ستجنيه الفرقة من نقوط أهل البلدة سيكون أجرا ثانياً مضاعفا، اتخذ طريقه إلى مطبعة التوفيق فى شارع طه الحكيم فاتفق على طبع دعوات بماء الذهب عليها رسم التاج الملكى، ثم قفل عائداً إلى بلدة العجوزين.

يوم الفرح جاءت عربات القراشة فأقيم سرادق فى أكبر جرن فى البلد، امتلأ بالثريات الكهربائية الملعدة، فى عمق السرادق منصة المسرح، من خلفها حجرة كبيرة من نفس القماش محكمة الإغلاق لكى تغير الراقصات فيها ثيابهن.

على محطة القطار كانت الركائب والصناطير والكارات التى تجرها الخيول فى انتظار فرقة أخرى هى فرقة المزمار البلدى، حيث أقلتتها حتى مدخل البلدة. تلك هى فرقة الرئيس «صاوى» صاحب المزمار البلدى الذى سيتولى زفة العفش والشوار من بيتى العروسين إلى بيت العريسين. أعضاء هذه الفرقة يلبسون الجلابيب والطرايبش وهم حوالى ستة أشخاص: الرئيس واثنان بالمزمار البلدى، وعازف أرغول، وطبال بطيلة كبيرة معلقة فى الكتف، وخليوص متحرك يتولى جمع النقطة و.. شو. وبش ياحباب، سرعان ما التحمت الفرقة بموكب الشوار، وهو

موكب مكون من عدد كبير من الجمال تحمل الدواليب والأسرّة والتسريحات والمراتب والألحفة والنحاس والكتب ويقع الملابس وخزائن التموين المسمى بالعشاء، حتى يرى كل فرد في البلدة نوع العفش والشوار وعدد قطعه ومدى أبهته ومدى كرم أب العروس في عشاء ابنته، كل ذلك إمعانا في تعزيز مركز العروسين . قد يستمر الموكب ساعات طويلة حيث يلف شارع دابر الناحية كله، تتقدمه فرقة المزمارة البلدى، تحف بها - يه - الزغاريد من كل حدب وصوب. يتوقف كل بضع خطوات أمام أبواب الدور المظلة على الشارع، ليتلقى الشربات والنفوط من أصحاب هذه الدور، وترد فرقة المزمارة البلدى بعزف السلام الملكى، تعقبه معزوفة: أمنت بالله، وأغنية: والنبي يا جميل ودينى على منى وجبل عرفات. تتسع الطلقة، يفز فيها شبان يلعبون التحطيب فى حركات راقصة مع المزيكة، وقد تنزل الخيول بفرسائها لترقص هى الأخرى بطرب واتبهاج.

لما انتهى الرئيس صاوى من زفة العفش ذهب لاستقبال فرقة السهرة. مضى بها هى الأخرى فى موكب حافل إلى الدوار الكبير حيث تناولوا جميعا عشاءهم الدسم، وشربوا من الحشيش والأفيون ما وزن الأدمغة وسخنها، فعاد الرئيس صاوى إلى بلدته مشيعا بالخيرات فوق الركائب.

صعدت فرقة أبى ريحان إلى خشبة المسرح، مدفوعة بقدر كبير من الانتشاء، والتفاؤل الكبير بليلة من ليالى العمر. وقد كانت هكذا بالفعل: أربع راقصات سمهريات القوام يتفجرن بالأنوثة والحيوية بخصور رفيعة ومؤخرات مبرومة مرنة كالخيزران. تشغلن واحدة فواحدة، ثم اثنتين اثنتين، ثم اشتعل بهن الوجد على كمان عبدالبصير الصوفانى مع قانون إبراهيم أفندى غطاس ودريكة النُّن اللهلوية مع الدفوف والصاجات. أدى المنولوجست حسان شرارة نمرة طويلة استغرقت ساعة كاملة، غنى الجمهور معه بنشوة راقصة : «جار الشانوف اللى فى دابر الناحية.. شفت الحليوه أبو جلابية لمونى.. نظر لى نظرة من عيونہ الصاحية.. روحت دارنا أقول لهم غطونى». جمع النوبتجى من النقوطة السخية ما ملأ كل جيبوب إبراهيم أفندى غطاس. وغنت المطربة سامية السحلى - التى وصفها

النويتجى عند التقديم بأنها مطربة الإذاعة والسينما - أغنيات كثيرة: البوسطجية اشتكوا من كثر مراسيلى، يابو العيون السود، ياحليله ياحليله أهو وحده جانى الليلة، أسمر ملك قلبى، كان صوتها من عائلة صوت أسمهان تشويه نبرة سوقية موالدية لم تجد من القريب والدراسة ما يشذبها ويمحوها. ولم تكن تكمل الأغنية حتى نهايتها، يكفيها منها المقطع الجميل المشغل، ترتفع به إلى موال أخضر تظهر فيه خصائصها كموالدية أصيلة لا علاقة لها بالإذاعة، ثم تهبط من الموال إلى أغنية أخرى، الحق أنها شعلت السرداق بالفعل، استنفرت الزغاريد بكثرة صياحها فى طلبها: زغرودة ياحبايب، حتى إذا تقدم الليل دارت الجوزة على الفرقة دورات كثيرة خاطفة، مع أطباق من حلوى سدّ الحنك، والمهلبيه، كل ذلك وهم فى شغلهم لا يهدأون إلا فى مسآت بسيطة لا يكاد يلحظها الجمهور، ثم ران الصمت برهة وجيزة، قطعها أحد المدعويين صاعداً إلى خشبة المسرح ليفتح بورة جديدة من النقاط، سرعان ما انتعشت، حتى انتفخت اجناب ابراهيم افندى ببطانة سميكة من الفلوس المتكورة تكاد تعوق حركة ذراعيه وأصابعه فوق خنود أوتار القانون لولا أن قانون ابراهيم افندى غطاس يعرف شفرة أصابعه فيستجيب لأقل لمسة عابرة، ثم هدأت موجة النقاط واضمحلت، فارتفع صوت احد أقارب العريسين :

«أظن قد حان وقت النمرة الكبيرة الآن !! » .

حينئذ شد ابراهيم افندى اوتاره، جأويه عبد البصير. قدم كل منهما فاصلا من العزف المنفرد يشاركه الآخر مع بقية العازفين . ارتفع مزاج السلطنة الشجية لدقائق طويلة ثم حلت برهة صمت ، تقدم بعدها النويتجى ممسكا بالميكروفون !

- «والآن سيداتى سادتى نقدم لكم نجم الحفل مطرب الإذاعة والسينما

والاسطوانات ! محمد افندى عبد الوهاب !

ضج السرداق كله بالصراخ والهتاف والتهليل والصفير لوقت طويل حتى زلزلت البلدة كلها، صارت الاسطح من جميع الجهات ترشق السرداق بالزغاريد

كالمنجنيق . فى حين وقف على خشبة المسرح أفندى غاية فى الاناقة : بذلة سموكن ، بابيون حول الرقبة طريوش على الرأس. نفس منظر محمد عبد الوهاب فى فيلم الوردة البيضاء ، بإضافة نظارة طبية سميكة العدسات جىء له بكرسى، نزع آلة العود من جرابها الازرق القطيفى، لعبت ريشته على الأوتار دونزنتها بحرفنة واضحة ؟ ثم بدأ يعزف مقدمة أغنية .. يا واپور قول لى رايح على فىن . نوى التصفيق ولكن بغير صياح . ثم انطلق صوته مغنيا ، كان قريب الشبه بصوت عبد الوهاب ، لكن تشويه عجمة صوتية من لكمة فريد الأطرش والتطجين البلدى . غنى عدة أغنيات لعبد الوهاب وكارم محمود وعبد العزيز محمود . ثم احنى رأسه ردا على تحية الجمهور، وابتعد عن الميكروفون عائدا إلى قعدته السابقة يمسح عرقه.

فيما كان ابراهيم افندى يتشاور همسا مع عبد البصير حول تقديم فاصل جديد من الرقص بمصاحبة النويتجى المغرم بتقليد محمد عبد الوهاب ، صاح صائح كان يقف خلف رءوسهم على خشبة المسرح ، فى صيحته احتجاج بانفعال مكبوت :

«متى تجيء النمرة الكبيرة إذن يا أسيادنا ؟!»

نظروا اليه مبهوتين . وقف له المتعهد :

- أى نمرة كبيرة ؟ ماذا كان يفعل هذا الفنان إذن ؟ إننا نتأهب للختام !! «

- « ختام ؟ ختام ماذا يا حضرة » ؟!

دققوا فيه النظر . اتضح أنه العريس الكبير شخصا .

سأل إبراهيم أفندى فى أدب شديد :

- « نقصد إيه حضرتك بالنمرة الكبيرة » ؟!

قال العريس مشوحا :

- « الأستاذ محمد عبد الوهاب !!»

قال ابراهيم افندى :

- « فمن الذى كان يغنى إذن ؟! »

أحمر وجه العريس، انتفخت ملامحه بدماء الغضب اليأس تماما من التفاهم:
- «لا!! تظنوننا بهائم عدم المأخضة؟! الذى سمعناه الآن محمد عبدالوهاب
التقليد .. نحن عدم المأخضة اتفقنا على محمد عبدالوهاب الأصلى» .

بهت إبراهيم أفندى غطاس. تصلب الجميع فى أماكنهم من فرط الدهول،
ظنوه مجنونا بلاشك، لكن الجد كان واضحا على سمته، والعقل الحكيم يعتقل
الغضب فى وجهه، اعتدل إبراهيم أفندى كى يواجهه، وقسم نظرتة المندهشة بينه
وبين المتعهد الواقف على مقربة لاويا شفتيه اشمئناطا :

- «حضرتك اتفقت مع المتعهد على محمد عبدالوهاب الأصلى؟»

قال العريس بجدية هائلة :

- «طبعا .. فلماذا سافرت إلى طنطا إذن؟»

قال إبراهيم أفندى :

- «محمد عبد الوهاب شخصا» !

شوح العريس وقد تطايرت فى لعبه بوادر انفجار :

- «وأيه يعنى محمد عبدالوهاب ؟! ما نقدر على مهره ؟!»

أحس عبد البصير أنهم قد تورطوا فى مأزق شديد الغرابة والغموض، فتدخل
فى الحديث بلطف :

- «إبراهيم أفندى لا يقصد !!»

قاطعة العريس غاضبا بصوت أعلى :

- «شف يا أستاذ إن كنتم تظنون انكم افندية قادرون على الضحك على

الفلاحين لهذه الدرجة فأنتم فى منتهى الهباله نحن نذهب بكم إلى البحر ونعود
بكم عطشانين !!»

قال عبد البصير الصوفانى :

- «أنتم أحسن ناس ، وأنكى ناس ومن يضحك عليكم لم يخلق بعد ! كل ما

فى الأمر . أننا نستفهم من حضرتك لأننا بالفعل لا نعرف أى شىء عن الموضوع
الذى تتكلم فيه حضرتك !! إنما نحن قنانون ! جاعنا طلب من المتعهد : نريدكم فى

حفل فى البلد الفلانية ! أهلا ومرحبا ! جئنا نخدم لا نذب لنا فى أى شيء فإذا كان هناك سوء تفاهم بينك وبين المتعهد فمن حسن الحظ أنه أمامك يمكن التفاهم معه بالعقل بالراحة، مؤكداً هناك سوء تفاهم لأن محمد عبد الوهاب الأصلى لا يحضر الافراح ولا أحد يملك ثمنه مع احترامى لكم، إنه رجل كبير جدا !! إنه رئيس جمهورية الفن! الناس تذهب اليه ولا يذهب هو إلى الناس !!

لحظتُذ كان المتعهد لا يزال واقفا لاثذا بالصمت من هول المفاجأة التى لم تكن لتخطر له ببال، فحينما اتفق مع العريس على محمد عبد الوهاب ايقن بدون أدنى شك أن العريس يقصد محمد عبد الوهاب الطنطاوى، ولذلك اندهش يوم الاتفاق لأنها اول مرة يتلقى طلبا صريحا به، لكنه لم يكن يخطر بباله أن الرجل يطلب محمد عبد الوهاب الكبير . وهو الآن حائر لا يدري ماذا يفعل فى هذه الورطة التى يأتى سوء الحظ إلا أن يختم بها هذه الليلة السعيدة ..

امتلات خشبة المسرح بلباسى الجلابيب واللاسات والطواقى والمراكيب ، أحاطوا بالفرقة ، حتى بدت الفرق ككومة من الصراصير تحت حلقة من العماليق، إلا أنهم كانوا جميعا صامتين، يتابعون الحوار فى حيدة ، لكن ملامح الغضب واضحة فى وجوههم وحركاتهم العصبية المتوجسة : قال العريس للمتعهد :

- «يا أستاذ هذا نصب واحتيال ! أنا متفق معك على أن تأتى لى بمحمد عبدالوهاب وتأخذ من ألف جنيه لعشرة آلاف ! وحينما قلت عبد الوهاب فليس هناك سوى محمد عبد الوهاب واحد ! وبناء عليه طبعت الكروت وكتبت فيها أن محمد عبد الوهاب سوف يحيى الفرح ! يعنى أنا الآن اشتريت سمعة بلدى وحضرتك بعتنى سمعة اصطناعى ! فماذا يكون هذا ؟! »

قال عبد البصير لنفسه دون صوت : غش طبعا ! نصب وقلة ضمير، ثم سأل العريس :

- «دفعت كم للمتعهد نظير عبدالوهاب؟»

قال العريس :

- خمسة آلاف جنيه لعبد الوهاب وحده !!

صرخ عبد البصير رغما عنه :

- يا خير اسود !! تشتري الترمای ؟!

ورمق المتعهد بنظرة احتقار صارخة ، فاشاح المتعهد بوجهه بعيدا فى خجل وارتابك . وهز العريس يده متبها على من حوله من الرجال :

- «لا أحد منهم يتحرك من هنا حتى أعود !!»

ثم اختفى :

كان ضوء النهار قد بدأ يتسلل من خلل رقاع السرادق ، فبدأ العازفون فى تكيس آلاتهم ، وجلسوا صامتين منكسي الرؤوس كأنهم فى مأتم .. ظلوا هكذا وقتا طويلا جدا ، مملا دخنوا السجائر بكثرة، تنهوا أكثر فى تشاؤم وقرف . بدأوا يتحدثون مع بعض الملتفين حولهم حديثا وديا تتخلله أسئلة عن الركائب التى ستوصلهم الى المحطة، لكن الربود المضغمة التى تلقوها خالية من الحماسة، أقتعتهم بأنهم - تقريبا - مأسورون لوقت معين .

سلطت الشمس واقتحمت السرادق الذى صار خاويا على عروشه. دخل عليهم بعض الخفراء لابسى اللبد الميرى تلمع فوقها النحاسة الصفراء، والبنايق معلقة فى اكتفاهم ، قالوا للفرقة فى قليل من الأدب : تفضلوا معنا ، نهضوا يحملون آلاتهم ، مضوا فى صف طويل تخيم عليه التعاسة ، يتقدمهم الخفراء، اخترقوا شارع داير الناحية ، الى بيت مميز الشكل سرعان ما اتضح انه دوار العمدة - وهو ابن عم العريس لزم - فدخلوا . أجلسوهم على الكنب البلدى. بعد قليل دخل العمدة من باب داخلى ، يرتدى الجبة والقفطان والعمة ويتسلح بلامح وجه صلبة حادة . ولم يلق السلام، بل اتخذ طريقه صامتا الى مكتب منزو فى الركن البعيد، عليه آلة التليفون . جلس ، أشار صامتا بأصبعه الى المكتب صائحا بلهجة باترة أمرة :

- «قبل كل شىء ! جميع النقطة التى وصلتكم توضع هنا أمامى على داير مليم! ماذا وإلا سأفتشكم وأخذ كل مافى محافظكم !!».

سقطت قلوبهم فى أرجلهم ، اصفرت وجوههم فيما يرمقون ابراهيم افندى

غطاس بنظرة أسيفة تعيسة قانية . قال ابراهيم افندى بكل بساطة وأريحية غير متوقعة :

«حاضر ! بكل سرور » .

ثم قام متجها الى المكتب ، نفذ على سطحه جيبه الأيمن ، ثم جيبه الأيسر ، ثم فتح ازرار القميص ، ومد يده فخلع السترة رماها على الكنبه ، ونزع ازرار القميص كلها من عراوئها ، صار يفترف النقود ويلقى بها على المكتب ، ويبحث فى بكية السروال عن ربع جنيه يكون قد اختبأ أو انحشر ، ثم دار حول نفسه أمام العدة يريه أن قميصه الشفاف لم يعد يحتفظ بمليم واحد ، ثم عدل وضع الأزرار ، ارتدى سترته ، رجع الى مكانه فى وقار شديد ، جلس ، اشعل سيجارة راح ينفث بخانها فى زفرة حادة .

نظر العدة فى كومة الفلوس الكبيرة مرتاعا :

« يا أولاد الكا .. لب !! أنتم فعلا لا تستحقون هذا الخير كله !! » .

فتح درج المكتب .. بكفيه العريضتين صار يزيح كومة النقود الى الدرج حتى امتلأ الدرج عن آخره ، أغلقه بالمفتاح . نظرات الفرقة تجمدت فوق سطح المكتب فى حسرة قاتلة ، معظمهم - فيما عدا ابراهيم افندى غطاس وعبد البصير الصوفانى - كان يقاوم ليحبس دموعه .

وقف العدة أمرا :

« تعالوا ورائى !! »

مضى بهم خارجا الى الساحة المتاخمة للدوار ، حيث كان فى انتظاره سيارتان ماركة فورد القديمة جدا .. أشار لهم فى كثير من التبكيك الماسخ :

« ستركبون الفورد !! »

انحشروا حشرا فى السيارتين بالاتهم . ركب العدة وابن عمه العريس كل منهما بجوار احد السائقين .

« على طنطا يا أسطى !! »

تسلق كل رفرف خفير بيندقية . عند أذان العصر كانوا قد دخلوا طنطا

متجهين الى قسم الشرطة . وكان من الواضح أن العمدة تكلم مع القسم فى الهاتف ، لأن ضابط المباحث والمأمور كانا فى انتظارهم ، حيث استقبلاهم بفتح المحضر مستخدمين ألفاظا خشنة سوقية. تكفل كل من ابراهيم أفندى وعبد البصير بشرح طبيعة الموقف وأبعاده ، ويأنهم وقعوا تحت عدوان لا ذنب لهم فيه . لم يتورع عبد البصير عن اتهام العمدة بالقسوة والندالة اذ انه سلبهم حقهم وعرقهم طول الليل، وكيف انهم أمتعوا الناس فكان جزاؤهم الضرب بالصرمة فى آخر الليل .

كلماته الصارة الصادقة ، الغاضبة، استطاعت ان تستميل ضابط المباحث، فراح يرشق العمدة بنظرات تحتية تفيض بالاحتقار والاشمئزاز ثم سأل المتعهد :

«هل اتفق معك هذا الرجل على أن تأتى له بمحمد عبد الوهاب ليغنى في فرجه ؟! » .

«حصل !! » .

«وهل أخذت منه خمسة آلاف جنيه ؟! » .

«حصل !! » .

«فلماذا لم تنفذ الاتفاق ؟! » .

«نفذت يا سعادة اليه !! » .

«كيف ؟! » .

« تعال يا أستاذ محمد ! » .

تقدم المدعو بمحمد عبد الوهاب . سأل المتعهد :

«ما شغلتك يا عم ؟! » .

«مطرب وملحن ! هذا مكتوب فى بطاقتى الشخصية !! » .

« وما اسمك ؟! » .

«محمد عبد الوهاب !! » .

« ابرز بطاقتك الشخصية لحضرة الضابط !! »

- « ها هي ذى !! » .

تناولها الضابط، تفحصها بعناية ، الاسم محمد محمد عبد الوهاب ، العمل : مطرب وملحن فى سرعة أخرج محمد عبد الوهاب من جيب سترته لفة ورق متخمّة، فردّها ، فإذا هى مجموعة أفيشات مطبوعة بالألوان بصورته كدعاية له فى بعض الجفلات الرسمية التى تقيمها محافظة طنطا . تفحصها الضابط مبتسما، ثم قال للمتعهد:

- «يقول العريس إنه اتفق معك على محمد عبد الوهاب
الأصلى الكبير !! »

- « وهل هذا يعقل يا سعادة البية ؟! محمد عبد الوهاب بجلالة قدره يجيء
لفرح فى قرية مع العوالم ؟ لو لم يكن فى بلدنا محمد عبد الوهاب آخر ! ومشهور
عندنا لراجعت العريس فى طلبه !! » .

- «لكن المبلغ كبير ! وكان المفروض ان تتشكك !! » .

- «ولكنه لا يصل إلى سعر عبد الوهاب إذا افترضنا أنه سيوافق من الاصل!!
ثم إن التجارة شطارة !! والعريس بنفسه قال يشجعنى إن عنده فلوس لاتجد من
يصرفها وأن على أن أطلب ما أشاء فطلبت خمسة آلاف فوافق !! » .

شوح العمدة فى احتجاج :

- « هذا نصب واحتيال !! » .

اغتاظ الضابط من شخطة العمدة فى وجهه نون اعتبار للياقة او ادب . وجد
نفسه يقول له فى حده :

- شف يا عمدة ! القانون لا يحمى المغفلين ! ليس أمامى ما يشكل قضية !!
من يريد محمد عبد الوهاب شخصيا يتفق مع متعهد في طنطا ؟! من يقول بهذا؟!
وأنت الآن تعتبر معتديا على هؤلاء ، سطوت على أموالهم ونزعتها بالقوة !! وهى
عرقهم ! رزقهم ولا حق لك فيها حتى لو اختلفت مع المتعهد ! وإننى مضطر الآن
للقبض عليك وتبليغ النيابة إلا إذا سافرنا معا وفتحنا الدرج وأعدنا الفلوس
لأصحابها !! فماذا قلت ؟! » .

انذهل العمدة، شوح فى توتر :

- « تقبض على ؟! كيف تقبض على وأنا الشاكى ؟ ! ثم إننى عمدة ولى
حصانتي !! » .

أهمله الضابط ونظر الى الفرقة :

- « هل تتقدمون الآن بشكوى ضد العمدة ؟! » .
صاحوا جميعا :

- « نعم ! ونصر على إبلاغ النيابة ! » .

ضغط الضابط على زر جرس . نخل المخبر . صاح فيه الضابط :

- « خذ العمدة وابن عمه إلى الحجز حتى أعرضهما على النيابة غدا ! والآن
فلنفتح محضرا جديدا للعمدة والفرقة ! » .

تقدم المخبر وتأبط ذراع العمدة فقال العريس :

- « خلاص يا سعادة اليه ! عوضى على الله ! تعالوا خذوا فلوسكم !! » .

نظر الضابط الى العمدة مستطلعا رأيه. فصمت العمدة منكسا وجهه فى
الأرض. صاح الضابط فى المخبر .

- « جهزوا لنا عربة اليوكس ! سأسافر أنا وضابط وقوة من العسكر ! نأخذ
معنا المتعهد وإبراهيم افندى وعبد البصير ليدلونا على درج المكتب !! » .

قال إبراهيم افندى :

- « أنا عدت الفلوس بالمليم !! » .

ذهبت الفرقة إلى مكتب المتعهد لتتقنر نصيبها من الغنيمة ، وانطلقت سيارة
الشرطة ومن خلفها السيارتان الفورد ، عائدة إلى بلدة العجوزين فى مدخل المساء .

(١٧)

مولد السيد البدوى أحب شىء الى جميع ابناء الغريبة بوجه عام، وأبناء مدينة
طنطا بوجه خاص ، وعبد البصير الصوفانى بوجه أخص. إنه عيدهم الحقيقى فى
طنطا ، موسمهم السنوى الذى فيه تنتعش تجارتهم وجميع أحوالهم . ليس ثمة
من لا يجد رزقا وفيرا فى أسبوع المولد، حتى الذين لا تجارة لهم ولا حرفة ولا

عمل يتلقون الهبات والحسنات من كل قادم إلى طنطا . ما أكثر من يشيرون الرجال إلى البدوى من جميع أنحاء القطر المصرى، تصل ذروة الزحام فى الليلة الكبيرة، حينئذ تصبح الطرق المؤدية إلى طنطا والمتفرعة منها إلى جميع البلدان والقرى كأنعشاش الزنايير تشغى بالحركة والضجيج ، آلاف السيارات من جميع الاشكال والألوان والأحجام والمراكات ، مئات القوافل من جمال وحمير وخيول ، عربات الكارو، الكارتات والحناطير، الراجلون يحملون الصرر والاريطه والاقفاص والأسبته ، عائلات عائلات ، فرادى وجماعات، كلهم من محاسيب البدوى وبراويشه ، اسم البدوى يتردد بينهم طوال الطريق بلهجات متعددة، تجمعها كلها نبرة ود ، فيها الكثير من العشم ، والحميمية ، يخاطبون بها البدوى فى كل لحظة كنفر منهم ، يجالسهم بل يعيش معهم الآن فى الطريق ، يستنفرونه ضد اعدائهم او حظوظهم النكدة يستنهضون همته فى قضاء حوائجهم المرصودة المتلبكة ، يطلبون وساطته فى أمور كثيرة معلقة على فيض الكريم ، منهم المربوط الذى كاد له احد الاشرار بعمل سحرى منقوش على قحف قرموط ألقى به فى البحر ليظل هو مربوطا عن زوجته كلما قاربها، ومنهم من أوشكت ابنته على سن اليأس نون أن يدور عليها عريس، ومنهم من تتوالى مرات رسوب ابنه فى الدراسة ، ومن له ابن مريض، زوجته ممسوسة ، بقرة مسروقة، طفلة ضائعة ، حاجات ومحتاجات لا تنتهى مطلوب من البدوى أن يساهم فى حلها، يطلع ينزل لايد من الوفاء بها.

غير أنهم جميعا يدركون أن السيد البدوى رجل عقر، صاحب عكوسات لا حصر لها، إنه يضرب به المثل فى العكوسات والنحوس ، ذلك أنه - فى اعتقادهم - من مكنه تحت قبة ضريحه فى المسجد الأحمدي يعرف لاشك ان فلان الفلانى أو علان الترتانى جاء لغرض فى نفسه لادافع الحب الخالص والزيارة للزيارة ، فيفتاظ منه، فيضع العكوسات والنحوس فى طريقه : تتعطل السيارة التى يركبها لأسباب تافهة لا تخطر على البال، تنفق دابته، تضيع نقوده ، زوادته ، تقوته جميع القطارات ، يغلبه النوم فتفتوته المحطة فيتعذب فى العودة ، تصيبه وعكة صحية فى منتصف الطريق فلا يحصل ولا يوصل . حينئذ يزفر

الواحد منهم فينطلق من اعماقه الشخص الآخر الذى يخفيه اثناء الزيارة تحت ثياب الورع والتقوى ، لكنه يكتفى بأن ينظر فى اتجاه طنطا صائحا : «علمتها يا أفرع ١٩ » . وقد يحاول مع ذلك إصلاح العطل واستئناف المسيرة ، وقد يأخذها من قصيره ويقفل عائدا الى بلدته .

إلا أن معظمهم يخزى الشيطان فيعترف بسوء نيته بل قد يبحث فى نفسه عن سيئة ارتكبها فى حق البدوى او فى حق أى أحد، ولربما التمسها فيمن يرافقونه، على الأقل يوقن ان احدهم لابد يكون جنبا يلزمه ان يتطهر من النجاسة . فى العادة يستسمحون البدوى ويصرون على مواصلة السير للحاق ولو بال لحظة الأخيرة فى الليلة الكبيرة. منهم من يصر على طنطا ولو طال السفر، فيطلع عليه النهار التالى ليلة الكبيرة وهو على الطريق، فيلتقى وفود النازحين، اصحاب الخدمات من رجال الطرق الصوفية، اهل الفن الذين ينصبون التياترات والسيركات والسوامر، أرباب الالعاب النارية، سقاة العصائر والمرطبات ، الباعة الجائلون، تجار الحمص والحلاوة وحب العزيز ، تجار الاقفاص والاسبطة والمأكولات الجاهزة السريعة . كل هؤلاء وأولئك ينشطون بمجرد انقضاء الليلة فى فك وتستيف وترتيب وتحميل ، ليدركوا أماكنهم بسرعة فى مولد ابى العينين فى دسوق .

لا بد من طنطا وإن طال السفر وأحاطته النحوس والعكوسات. فالخارج من داره على ذمة المولد لابد أن يعود لأولاده بحمص وحلاوة وحب العزيز وإلا فإنه لم يذهب الى المولد حتى لو كان قد ذهب بالفعل، ما فائدة السفر إن لم يجرى المسافر بدليل البركة من جوار الضريح المبارك ينعم بها بين الأهل والأصدقاء ؟

لوكائدت طنطا بجميع مستوياتها تمتلئ عن آخرها بحاملى القفف والزكائب واللحى الطويلة والخرق المرقعة. الشوارع كلها تزدهن بأفرع السبج الملونة ، وأفرع الخرز والشيلان والعباءات والطرايش والطراوير والطواقى، وفروشات الحمص والحلاوة وعربات الهريسة . حتى محلات المانيفاتورة الكبيرة تحشد على الارصفة بضائعها المعروضة للبيع . الحناطير والسيارات وعربات الكارو تجلجل تصلصل

تزمر فى جميع أنحاء المدينة . جماعات لا حصر لها من جميع ألوان البشر من جميع الأعمار يمشون فى الشوارع بلا وجهة محددة، فأى وجهة ستقودهم فى النهاية إلى الضريح والمسجد يحومون حوله .

فى ساحة المسجد تصب الحركة وتتفرع الى مالا نهاية، نداءات الباعة تختلط بصيحات الدراويش الهيمانة المتوجدة بضجيج الميكروفونات فوق أعمدة السرادقات وشرفات بعض المنازل القريبة التى تؤجر للخدمات الصوفية، تبت القرآن الكريم وغناء المغنين وشخلة رقص الغوازي ، بصفير القطارات المستمر المتكاثف الدخان، بأصوات الذاكرين والمنشدين ، بأصوات المستغيثين يبحثون عن نوبهم الضامعين التائهين .

تلك هى «الملقة» أى الساحة التى يتلاقى فيها جميع الزائرين ، ويقام فيها المولد ، ينصب أهل الفن مسارحهم وسيركاتهم، وأصحاب الخدمات خدماتهم ، وأصحاب الألعاب منصاتهم : التشنين ودفق الطارة وتراييزات البخت والملاهى ولعب الثلاث الورقات، باعة الأشربة الملونة، بدوارقهم الزجاجية المكشوة تسبح فى مياهها كتل الثلج ..

ذلك أحب مكان يتجول فيه عبد البصير طوال لياالى المولد ، فإذا كان أبناء جميع القرى يدخرون طوال العام من مصروفهم لكى يذهبوا الى مولد البدوى والدسوقى ، فإن أبناء طنطا كذلك يدخرون ما يحقق لهم التجول فى «الملقة» والاستمتاع بألعابها وكل معروضاتها ومسارحها الطريفة المسلية.

يحب عبد البصير أن يبدأ جولته دائما بسرادقات الغناء والتمثيل الهزلى. يدمن الفرجة على الصور الكبيرة المعلقة فى براويز على أبواب السرادقات تحتلها أسماء أصحابها مقرونة بألقاب وأوصاف لم يثلها محمد عبد الوهاب وأم كلثوم فى عز مجدهما، من قبيل : بلبل مصر ، كروان الإذاعة ، صاحبة الصوت الملائكى، أجمل راقصات السينما .. الخ . أما الصور نفسها فشكلها طريف: الشعور المصطفة بعناية تلمع بفعل الصابون والغازلين، السوالف الطويلة كمقاصيص النساء، والشوارب المحففة، العيون المكحولة المفجلة فى وقاحة . بقدر استنكاره

ونفوره من هذه الصور والأوصاف التى تدعى النجومية الكاذبة وتعلن عن نفسها بفجاجة ، كان يشعر مع ذلك أنه ينتمى إلى عالمهم بصورة او بأخرى ، إنهم جميعا غريبا حتى فى بلدانهم ، اسلسوا قيادهم لشيطان الفن الذى لم ولن يرحمهم؛ يوخهم، كتب عليهم القربة ومغادرة الأهل والخلان من أجل إشباع ذلك الشيطان المريد، لتصفيق الجماهير وقع السحر فى نفوسهم ، تكفيهم كلمة اعجاب واحدة تجرى كالبلمس الشافى على جراحاتهم الكثيرة الغائرة تجعل الواحد منهم يشعر ان اغترابه لم يضع هباء . هم جميعا - الموهوب والموهوم تصهرهم بوتقة واحدة : كان يشعر عبد البصير أنه مثلهم وإن استعلى عليهم بجودة عزفه وسطوع موهبته ، فهذه الفروق الدقيقة بين الموهوب والموهوم لا قيمة لها أحيانا فى هذه المعمعة ، بل ربما كان الموهوم فى أحيان كثيرة يمثل احتياجا ضروريا لبعض الفرق أكثر من الموهوب الاصيل . ليس على العملة الجيدة وحدها تقوم الاسواق بمختلف انواعها، بل إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق دائما، إنه عالم كبير حافل بالغموض والاسرار .

استحسن برنامج احد السراقات فدخله كان يرافقه لفيف من اصدقائه الشبان من أبناء شارع الطو، ابناء كبار التجار والحرفيين الموسرين. من أول نمرة فى البرنامج أدرك عبد البصير أنه لم يخطئ التقدير، فمستوى العازفين جيد بالفعل ، لا نشاز ولا هرجلة ولا هزل، ثمة انضباط واحترام للمستمع ، اما المطرب فجميل الصوت فعلا، والارجع انه من طنطا نفسها، واغنيته اجمل، إذ تقول كلماتها : أنا اصى من طنطا .. حطة يابطة يا دقن القطة يالى السمك ف برك بيلعب نطة. بعد المطرب ظهر منولوجست وصفه مقدم البرنامج بأنه جامعي، لم يكن رديئا على أى حال ، بل اضحك الجميع بنكات كثيرة جديدة بالفعل، يرتدى بدلة انيقة بصوفين من الازرار سترتها مقفلة على رباط عنق وياقة متشاة، فلما شرع يرقص تناقضت حركاته البتذلة مع وقاره الظاهرى فأضحك الجميع بشدة. بعده ظهر مقدم البرنامج ليقدم - كما اسمها - مطربة السهرة، نجمة حفلنا الساهر، مطربة الاذاعة والسينما ذات الصوت الملائكى الناعم «سعيدة الميجى» ..

ضحك عبد البصير ورفاقه من هذه الاوصاف ضحكا صاعقا يفيض بالسخرية والاستعلاء . ما كاد يمسح دموع الضحك حتى تفجر الضوء فى ناظريه فجأة: قنديل يتهادى مقبلا من الكالوس . تسمر عبد البصير فى كرسيه لبرهه ثم اعتدل شاخصا ، تشبثت عيناه بالقنديل البشرى المبهر . هذا ملاك نازل من السماء ، وجهه كالقطيرة ينعكس على أديمه ضوء القمر ، ملامح دقيقة بارزة ، أنف مستطيل مهيب شامخ ينسرب من بين حاجبين كثيفين يظللان عينين واسعتين سوداوين نفاذتين على عوالم سحرية مثيرة للخيال ، شعر أشقر تكوم فوق مقدمة الرأس كتاج ملكى ربانى، وتنطرح جدائله السخية على كتفيها تغطيها حتى منتصف ظهرها ، الكتفان العريضان خلفية متينة لصدر ناهد نافر مشقوق بالطول إلى هرمين شامخين ، الخصر رفيع نحيل تكاد تحيط به اليد الواحدة، لكنه ينساب هابطا إلى بروز يتكور من الخلف فى نصف دائرة قطبى مقعر مقلوب على وجهه، ومن الأمام فى فخذين انسيابيين ينتهيان بساقين مبرومتين متناسقتين سبحان النحات الأعظم . من النحن الشبيهة بحبة الجوافة ذات غمارة فى المنتصف، إلى الرقبة المستطيلة فوق نحر كبلات القصور الملكية، إلى بطن كالخريطة، إلى الفخذين إلى الساقين إلى الكعبين المستديرين كريالين من الفضة فوق كعبي الحذاء اللميع المرتفعين يا أرض احفظى ما عليك.

صارت عين عبد البصير معلقة بالقنديل الساطع. دبّت فى أحشائه النيران لأول مرة فى حياته. لم يحدث أن خفق قلبه هكذا وارتفعت ضرباته تدق فى أذنيه بشدة. بحق الله كيف تأتى للأميرة كهذه أن تلتحق بمثل هذا العالم الموبوء؟ حقها قصر من القصور الملكية الزاهرة تتربع على عرشه. ليس فى الأرض كلها رجل مهما بلغ ثراؤه أو جاهه لا يتمنى أن تكون هذه الحورية ملك يمينه ولو دفع فيها عمره. كيف عميت عنها العيون؟ اهل عميت عنها العيون حقاً؟! ما الذى جعلها تتنازل عن مفاتيح الجنة فى سبيل أن تبهدل نفسها هكذا فى الموالد باسم الفن؟! أتراها فتاة حقاً؟! وأى فن هذا الذى يمكن أن يعوضها هذه الخسارة الفاحشة التى تضحي بها من أجله؟! لا بد أن وراعا سر مهول مثير للخيال.

الأول مرة فى حياته يشعر عبد البصير الصوفانى أنه يضرع إلى الله فى طلب شخصى حميم ويخشى أن يردده الله فيزلزله. كل شىء فى حياته الماضية تركه لله يصرفه كما يشاء. الآن فحسب يتمنى أن تكون أبواب السماء مفتوحة لتصل ضراعتة الحارة إلى الله سبحانه: يارب لست أطلب من الحياة كلها ومنك سوى هذه، هذه فحسب، سعدية المليجى .. أرجوك وأضرع إليك يارب وأنت قادر على كل شىء أن تكتبها لى! لتبقى طول العمر زوجة وخليفة أما وأختا ومصيرا مفتوحا تثير لى طريقى تفتح قلبى على حب الحياة وعشق الجمال والإبداع الإلهى السامى، يارب! يارب! .

بعد برهة قصيرة دخلت نسخة طبق الأصل منها، لكن الفروق الكثيرة بينهما مالبت أن اتضحت بعد قليل. إنهما شقيقتان تغنيان معا «دويتسو»، شبيهتان فى الإشعاع عن بعد فحسب أما تفاصيل الوجه والجسد والجانبية فلا وجه للمقارنة بينهما. بقى أن يعرف إن كانت فنانة بالفعل أم أنها كغيرها من فتيات الريف الجميلات تجرى وراء وهم كبير تحرق فى كهفه شبابها وسعادتها وبراعتها ١٩.

عزفت الفرقة الموسيقية لحن كمال الطويل للمطربة صباح: مال الهوى يامه، وبدأت سعدية المليجى تغنى، وتكتفى أختها بالرد عليها بدلا من الكورس. عجباً، صوتها نسخة طبق الأصل من صوت صباح بل هو أكثر جلجلة، أكثر بهجة. صوت ناعم باسم بشوش، منطلق صراح. هو صوت صباح أضيفت إليه أطيار من عصافير وحمائم وقبرات وكروان. صوتها فرقة صوتية كاملة منصهرة فى هدير واحد، هى إذن موهبة بكل وضوح وتجل، وذات شخصية قوية مسيطرة تفرض احترامها، فى سلوكها وتعاملها مع الميكروفون والفرقة الموسيقية سلوك النجمات الكبيرات. تذكر عبد البصير أن مقدم البرنامج قال من بين ما قال إنها فخر محافظة الشرقية. هى إذن من أصل فلاحي شرقاوى أصيل، ترى أى تجربة أتاحت لها أن تتصرف هكذا فى الأداء كالمطربات الراقيات المحترمات؟! لو قدر له أن يمتلك هذه الغادة الحورية فسيبدأن معا قصة كفاح مشرقة وصولا إلى نجومية

حقيقية. أه لو أنها فى يده إذن لكسر بها الدنيا، سوف لا تمضى شهور قليلة إلا وتصبح ألمع نجوم الأفلام الاستعراضية. بحق الله كيف لم تصل هى إلى هذا الحلم حتى الآن رغم أنها كفه له ؟! أتراها لا تعرف الطريق ؟ المؤكد أنها من النوع الذى يتمسك بشرفه لا تحب الوصول على حساب الشرف. إنها إذن لجديرة بأن يوقف عليها عمره كله كى يوصلها حتى لو اقتضاه ذلك الاستغناء عن العزف على ألتة الحبيبة كى يتفرغ لها هى. إنها الأمنية الوحيدة التى يمكن أن يضحى بالكمان فى سبيلها .

انتهت أغنية مال الهوى ياامه، يا أعز من عينى قلبى لقلبك مال، من أغنيات ليلي مراد، ثم أغنية نجاح سلام :يا شمعدان حارتنا يا منور حينا، ثم شاركت أختها فى استعراض بساط الريح لفريد الأطرش.

حين لوحت بذراعها للجمهور فى حركة وداع ضج السرايق بتصفيق وصفير وهياج يطالب ببقائها. لم يقو عبد البصير على السيطرة على نفسه، وجد نفسه يقف ملهبا كفيه بالتصفيق الحار، فوقف رفاقه أيضا. كانت هى قد تابعتهم فى جلستهم فى الصف الأول فلاحظت باستمتاع شديد تفانيهم فى التصفيق والتشجيع بعبارات الاستحسان المتواصلة، حتى شعرت كأنها تغنى لهم وحدهم، بالتحديد لهذا الشاب الأسمر الخشن ذى الحول الخفيف فى عينيه، فقد لفت نظرها بتعليقاته وعبارات استحسانه التى دلت على أنه من أهل المهنة، حيث استخدم أسماء التغمات والعرب والموازير. فوجيء عبد البصير بأنه قد صعد إلى خشبة المسرح ومن خلفه شلته، سلم عليها بحرارة واحترام، أثنى على جمال صوتها ودقة أدائها، ثم قدم إليها النقوط جنيها كاملا، وأوما لرفاقه ففعلوا مثله، فاقتدى بهم الكثيرون من جماهير الصفوف الأولى بأنصاف وأرباع جنيهاات كان لوقعها فعل السحر فى خشبة المسرح حيث انتعشت الفرقة واستأنفت عزفها فاستعادت سعيدة المlijى وقفتها. غنت أغنية شادية:حبينا بعضنا، كشفت عن أبعاد جديدة فى صوتها، عن جانب الخفة والشقاوة، ثم غنت يا دبلة الخطوبة وسوق على مهلك. ومضت مشبعة بالتصفيق الحار.

فى الليلة التالية كان عبد البصير ورفاقه يحتلون أهم المقاعد فى الصف الأول. كرروا بهجة الليلة الماضية ونقوطلها السخى، شجعوا الجمهور على هذه الأريحية. قبل انصراف سعدية المليجى عن خشبة المسرح أومأت لعبد البصير ورفاقه فى امتنان خاص مصحوب بنظرة ساحرة من عينها كأنها تقول لهم :أراكم غدا إن شاء الله. وفعلًا، باتت هذه المقاعد فى الصف الأول محجوزة لعبد البصير ورفاقه بقية الليالى.

يوم سفرها حرص عبد البصير ورفاقه على توديعها حتى لحظة المغادرة. كل ذلك دون أن يعنى عبد البصير بتعريفها اسمه، كما أنها لم تسأله. إلا أنها حين رنت إليه بعينها قائلة إنها لأن لأهلها إحساس بالفن ولأنها تعتبر بلد الفن يطلع منها الكثيرون من الفنانين الكبار والأصلاء أمثال محمد فوزى وشقيقته هدى سلطان ومحمد حسن الشجاعى، شعر بازدياد الخفقان فى قلبه. ثم إذا بها تسأله فيما لم يكن يتوقعه على الإطلاق :

«وهل تعرف عبد البصير الصوفانى ؟!»

تدفقت صفائح الدم الأحمر فى صفحة وجهه، تجمدت عروقه وسرى فى كل شرايينه جيش هائل من النمل البارد. غمز بعينه لرفاقه أن يصمتوا، فعل ذلك فى لذة كبيرة عجيبة، ثم ابتسم قلبه على شفثته:

«تعرفينه أنت ؟!»

هزت رأسها باسمه :

«بودى لو أعرفه ! سمعت عنه كثيرا فى كل الفرق التى اشتغلت معها ! يقولون إنه عازف كمان ساحر مثل عزيز الشوان وأنور منسى! من هذه القماشة يعنى !!»

أحس أنه فى وقفته هذه أمامها أصغر من الصورة التى تحملها له فى رأسها. لذ له أن يموه عليها مستفيدا من عدم معرفتها لشخصه . وجد نفسه يقول لها :
«مصيرك تعرفينه ! على رأى المثل نطالما أنت طبال وأنا زمار سنتقابل على باب الدار !!»

- «لكن هل تعرفه؟!»

- «طبعاً! إنه من أعز أصدقائي!»

- «لهذا تفهم فى الموسيقى؟!»

- «بالضبط!!»

- «هل هو كبير أم صغير فى السن؟!»

- «هو من دورى! سوف أعرفك عليه قريباً!!»

مدت يدها الرخصة البيضاء كأنها مصنوعة من الحلوى، كاد يرفعها إلى فمه ليطبع عليها قبلة متبلة، لكنه اعتقل رغبته، اكتفى باحتوائها فى قبضته الكبيرة بعض برهة، ثم تركها كأنه يعتذر . وحينما تمنعت فى كف يده التى كان يلوح بها لاحظت أنها يد غير طبيعية، فالإبهام مكسور فى انحناء دائمة، وبقية الأصابع طويلة بصورة لافتة للنظر، إلا أنها حولت وجهها إلى الطريق عبر زجاج السيارة وهى تشعر بالرضا التام عن شبان مدينة طنطا الطويلين ..

(١٨)

أبدا لم يعد هو نفسه ذلك الشخص الذى كانه قبل اللقاء، باتت سعدية المليجي تقاسمه الفراش. أصبح يخاف عليها من الوسط الذى تعمل فيه، يشعر بالغيرة ممن يجالسونها ويخالطونها ، بل يغار عليها حتى من الثوب الذى يلامس جسدها. لقد أخطأ خطأ كبيراً حينما لم يعرفها بنفسه، كان يجب على الأقل ان يحصل منها على عنوانها. طول عمره يسمع عن الحب وهمومه وأوجاعه ، وياطالما سخر من المحبين المجانين . الآن يشعر بإشفاق على كل المحبين . هذا إذن هو الحب الذى سمع عنه ولم يكن قد جربه من قبل . أه كم هو مشتاق لرؤيتها، رؤيتها فحسب . إنه مستعد للسفر إليها لو فى الشلال إذا ضمن أنها هناك. هل يسأل عنها المتعهدين الذين لاشك لديهم عنوانها؟! لسوف يطلبها فى عمل، نعم لم لا ؟ حقاً، لماذا لا يحاول فرضها على كل حفل يشترك فيه ؟ ولكن لا ، إن صورته التى رآها فى عينيها كانت ارفع من ذلك. لقد رأى فى عينيها صورة الفنان المثال ، ألم

تقرنه بعزیز الشوان وأنور منسى وهو فى عمر أبنائهما أو ربما أحفادهما؟! الآن يشعر انه اشد احتقارا لعالم العوالم والآلاتية من أى وقت مضى، ابوه الحاج مصطفى الصوفانى يستيقظ الآن فى نفسه صارخا . يا بتاع العوالم والآلاتية يا حقير ياواطى، نعم، يجب ان يمتنع عن الشغل مع هؤلاء الحثالة ، لا عوالم ولا مشايخ بعد اليوم . ولكن كيف يعيش ؟ كيف يحتمل نضوب القرش فى يديه بعد أن جرب متعة سيولته ؟! لا داعى إذن للمبالغة والتطرف، فليقف فى المنتصف ، عليه أن يتخير مستوى الحفلات التى يشارك فيها بكمائه حتى لا يبتذل ، عليه ان يستمسك بصورته التى رأها مجسدة فى عيني سعدية المليجي ، هذه الصورة لا يجب أن يخدشها أبداً بأى حال من الأحوال . لو كان يعلم ان الشوق إليها سيكون حادا هكذا ولما يمض اسبوع واحد على غيابها ، لطالبها بخط سيرها حتى يلاحقها متى استبد به الشوق هكذا . رياه ماذا يفعل ؟ الليل طويل، شوارع طنطا محدودة ، لقد سئم من صلاة العصر فى الأحمدي ، والمغرب فى الشيخة صباح، والعشاء فى عطيف ، فمتى يصلى فى الحسين والسيدة زينب والسيدة عائشة والسيدة نفيسة ؟! سئم التجوال فى شارع الطلو، وشارع أحمد ماهر، وشارع طه الحكيم ، وميدان الساعة، وقهوة الطلى، سئم المزارع والترع، سئم البيت بزوجة ابيه المتسلطة السليطة التى تضرب اخوته بقسوة تثير أعصابه ونقمته على ابيه ، سئم الورشة والدكان، ومحلة مرحوم التى يقطنها لقيف من أصدقائه، وقحافة التى تمدد بالتعميرة الطازجة ، حتى التعميرة نفسها لم تعد تبهجه، يشرب مهما يشرب ، يلف علبة سجائر كاملة بأجود الحشيش فلا تحرك فى خياله شعرة واحدة .

أبدا لم يكن من قبل يشعر أنه وحيد هكذا رغم كثرة الأصدقاء والمشجعين عمره ما أحس بالغربة فى طنطا هكذا، فما الذى جرى له ؟ أين تراه يمضى الآن متأبطا صنوق آلة الكمان ؟ من يراه يتصوره ذاهبا الى حفل او فرح، اما هو شخصيا فلا يعرف له الان وجهة ، انتبه لآلة الكمان تحت ابطه، فتعجب من وجودها : لماذا اتيت بها من بيت خالتك ما تمت غير ذاهب الى عمل؟ حاول أن

يتذكر السبب الذى دفعه الى اقتحام بيت خالته للإتيان بالكمان، حاول أن يتذكر ماذا قال لخالته فلم يفلح ، فلماذا هو يتأبطها الآن ويمضى بها وسط الحقول؟ ! هكذا تسأل كالمثلاث . وكالمثلاث لم يجد جوابا معقولا، لكنه مع ذلك واصل المشى بكل حماسة وجدية، كمن يسعى لإدراك موعد مهم وخطير. اتراه يبحث عن شيء ضائع منه؟! أم تراه يبحث عن نفسه التى كانت معروفة لديه قبل أيام قليلة ثم اختفت وحلت محلها فى جسده نفس أخرى؟! أه لو يغمض عينيه ويفتحهما فيجد سعيدة المليجي امامه بين هذه المزارع الخضراء المترامية ، يغمضهما هكذا يفتحهما هكذا : لا شيء سوى الخضرة والاشجار والاصيل ، الشمس الحمراء كالنحاس المنصهر ينسكب على شواشى الاشجار، قرصها الملتهب يرافقه جنبا الى جنب فى قاع التربة وفوق رأسه .

لف به الطريق الزراعى ، دار وتخرج ثم اعتدل. أخيرا وجد نفسه مشرفا على «دغرا» أتراه كان مدعوا الى حفل فى هذه البلدة ولذلك أتى بالكمان واتخذ الطريق إليها دون أن يدرى؟! لا بالقطع ، إنه متأكد أنه لم يتلق أية دعوات طوال الأيام الخالية. يذكر جيدا انه لم يتلق سوى طلبين للشغل من بعض المتعهدين وأنه رفض بشدة وإصرار حينما عرف ان ابراهيم افندى غطاس ليس فى الفرقة .

أيا ما كان الأمر فإنه يتذكر الآن - بقلب منشرج - أنه جاء هذه القرية من قبل بصحبة ابراهيم افندى غطاس ذات ليلة سعيدة لا ينساها ، حيث كانا مدعويين فى هذا البيت القاطس تحت سحب خضراء لأشجار عالية، الفارق فى الورد والرياحين . لصاحبه .. ما اسم صاحبه ياترى ؟ هو اسم مرتبط بالوجه البحرى، نعم ، اسمه البحرأوى ، أه ، عبد البديع البحرأوى ، من أعيان البلدة ، تعلم فى الأزهر حتى قبيل التخرج لكنه انصرف عن التعليم اثر موت ابيه لكى يتفرغ للإشراف على أرضه ويساتينه . هو قارئ ممتاز ، لديه مكتبة مليئة بالمجلدات المنقوش اسمه على كعوبها بماء الذهب ، يعشق الموسيقى عشقه للصلاة والحج الى بيت الله الحرام كل عام، لا يعنى فى الإنصات بورع وتركيز شديدتين إلا فى حالين اثنين فحسب : حال استماعه للقرآن الكريم ، وحال استماعه

للموسيقى يذكر أن البحراوي بك أنصت الى عزفه فأرسل صلوات على النبي بعدد شعر رأسه، بل هب واقفا واحتواه في حضنه وقبله وربت على ظهره في حنو قائلا له :

«زرنى كلما شئت فالبيت بيتك سواء وجدتنى أو لم تجدنى !!»

ويا حبيذا لو جئت فأقمت معى على الدوام تأكل وتشرب وتكتسى وتأخذ مصروفا!! مل على كلما احتجت نقودا أو أى شيء !!

يذكر أنه عاد الى بيته ليلتها بأقفاص العنب والمانجو والكثرى والاوراق المالية السميكة، توصله الركائب حتى باب البيت .

هو إذن قد جاءه الهاتف بأن يلبي دعوة البحراوي بك الليلة، ياله من هاتف ساحر جبار أخذه على مشمه دون ان يصرح له بحقيقة المشوار إلا على باب الدار، وهكذا وجد نفسه وجها لوجه امام البحراوي بك الذى كان بالصدفة السعيدة واقفا امام بوابة الحديقة ينظر فى ساعة جيبه قبل أن يتخذ طريقه الى المسجد لصلاة المغرب، كان البحراوي بك قد شاهده من بعيد مقبلا، تعرف عليه من ملحين : آلة الكمان ومشيته المميزة، فتوقف فى انتظاره ..

فرح به البحراوي بك فرحا عظيما ، فتح حضنه وتلقاه بقبلات حارة صادقة:
- «بارك الله فيك ! أنت اليوم اثبتت انك صديق عزيز غالى هات هذه الآلة !» .

أخذ آلة الكمان فسلمها لخادم رابض تحت الشجرة بجوار البوابة، ومضى به الى المسجد لصلاة المغرب .

بعد تناول العشاء الدسم الحافل، وألوان الفاكهة ، انتقلت القعدة الى الشرفة المطلة على الحديقة هي كبيرة مربعة فى حجم غرفة إلا أن جدارها الرابع مفتوح على نسق الاشجار الكثيفة فروعها المورقة تصنع على الشرفة شرفة ثانية، الشرفة مفروشة بالكنب البلدى المنجد العريض، والارض مفروشة بالسجاد الثمين . فى أرض الحديقة - المنخفضة عن أرض الشرفة بأربع درجات سلم رخامى - يقترش الجانيى جوالا أمام منقذ النار تحت براد الشاي ذى الرائحة النفاذة الشهية،

يضع الحجر فوق الجوزة يرمص فوقه النار بإحكام ومزاج ، يصعد به ، يسقى
البحراوى بك وضيئه . نكهة الحشيش الطازج تطشطش فى الجو. تعلق على
روائح الفاكهة المتدلية من أشجارها كإثداء فتيات أبكار. القمر راقد
فوق هامات الشجر، يبرز له أنف فضى دقيق كأنف سعدية المليجى،
وعينان كعينيها ، والبيت المحاط بالحديقة يسبح فى سكون جليل . ليس ثمة
من ضوء سوى ضوء القمر المبرقع بالأشجار ، وضوء سعدية المليجى
الذى أضاء قلب عبد البصير، فاتصل القلب بالآوتار كأنما لا وسيط بينهما من
أنامل أو قوس .

نسى عبد البصير مضيئه الجالس امامه فى صمت مهيب كأنه قد تبخر
واختلط بسحائب الدخان الأزرق الشبيه بضوء القمر. كان يقصد أن يجرب القوس
على الآوتار بعد ضبطها ، فإذا بالقوس يختطف جملة مفيدة كاملة سريعة لاسعة
ضربت العازف فى نخاعه ضربة صادمة شعر على أثرها كأنه كان طوال العمر
أعمى واكتشف فجأة انه قد ابصر. برعشة لذيذة رهيبة اختطف الجملة نفسها
ثانية، فالتسعت دائرة الضوء فى عينيه ظهرت مرئيات كثيرة مبهمه بعض الشيء
لكنها سرعان ما تتضح ثم تتضح فتزداد اتضاحا. وضع الكمان فى حجره
والقوس بجوارها وقد ركبت رعشة فرح غامض بل راح ينتفض كبنى نزل عليه
الوحي فجأة لينقله من الظلمات الى النور .

ابتسم عن أسنان كبيرة لا تتسق مع ما فى بدنه النحيل من رقة مشاعر فى
نعومة القطيفة ، مسح بكفيه على وجهه ، وطلب حجرا يولعه بمفرده وكويه شأى
صغيرة. وفيما كان يطرد الدخان الكثيف من منخرينه كان يشعر أنه قد صار على
يقين من الآن ، والآن فحسب ، أنه يكتشف سر الفن لأول مرة فى حياته ، ذلك
السر السحري الغامض الذى قد لا ينتج ممارس الفن فى اكتشافه وإن ظل طول
عمره ينتج ما يسميه بالفن . يدرك الآن أن الفن إن هو فى حقيقة أمره إلا الحنين
الى الغائب المرموق ، المرجو، المرتقب لقد قرأ ذات يوم فى مقالة عابرة أن الرجل
المصرى الفرعونى القديم الذى كان يعيش على الصيد والقتنص ، كان قبل خروجه

الى الصيد يرسم نفسه وقد نجح فى الايقاع بالفريسة ، ليس أى فريسة بطبيعة الحال ، بل الفريسة التى يحلم بها ، يرسم نفسه فى عدة صور تبين كيف دبر للإيقاع بها ، تصل الى المشهد الختامى الذى فيه قد جندلها . إنه هنا يضرب عصفورين بحجر واحد ، يستكته بالفن طرائق الابداع فى الصيد ، إذ الإبداع مزيج ، إبداع فى الفن وفى تحريك ملكة الصيد ، وفى نفس الوقت يكشف بالفن ، عن قواه الخفية التى ربما لا يكون قد وعاما من قبل ، انه اذن رسم خطة الصيد من ألفها إلى يائها . وإذا يصل بفن الرسم الى درجة اليقين التام من النجاح فيما هو مقبل عليه ، يشعل النار يضع فوقها القدر ملأنا بالماء ريثما يعود بصيده حتى لا يضيع وقتا فى الصيد وفى الطهو . منتهى الثقة ، ثقة تفوق ثقة الذى يفتح مخزن طعامه ليأخذ من مخزونه ما يشاء .

فيما مضى كان عبد البصير يترك نفسه على سجيته اثناء التقاسيم الحرة تنتقل من مقام الى مقام ببراعة وبرية ، خواطر متناثرة مبعثرة فيها مشاعره المتضاربة الحائرة بفيض هائل من أحاسيس مجسدة فى انغام ، لا يمكن ان يطلق عليها اسما محددا ، انما هى مجرد تقاسيم ، مهارات فى العزف وفيض من الانغام الحسية لا أزيد ولا اقل . أما الآن ، فى تلك اللحظة ، فإن الانغام التى تهدر فى صدره تتجمع فى اذنيه تصب كلها فى تيار شعورى واحد يمكن التعرف عليه ، واثباته وتسميته ككائن حر يمكن أن تستحضره وقتما تشاء تستعيده بنصه ، له استقلاله وشخصيته المحددة ..

عمل فنى . هذه اول مرة يفهم فيها مغزى هذا التعبير الذى قرأه كثيرا . عمل فى إطار محدد ، فيه اخذ وعطاء وحوار ، وله مفاتيح يمكن الدخول إليه بها . إن هذه الجملة الموسيقية العابرة التى اختطفها القوس من الأوتار عفوا كانت بمثابة غطاء ارتفع عن قدر به شراب ساخن ، ربما كان ماء ، خمر ، إداما .. والقوس هو الغرفة التى ترفعه الى مشاعر المتلقى ، وأيا كان مذاقه فلا يغترف القوس إلا منه حتى ينفذ ما فى القدر ليحل محله شراب آخر .

راح القوس يخطو على الاوتار فى ديب حذر، حتى لا تلسعه سخونة ما فى القدر من سائل شعورى يغلى ويقور . كانت الحرارة تشيع فيه شيئاً فشيئاً، والقدر يفيض بغليانه دفقة وراء دفقة من مشاعر منصهرة فى أنغام على روى واحد يبرز فى الانغام ما يشبه القوافى، الشبيهة بعشرات المجاديف على الصفين فى جندول مديد ينساب فوق الموج المتلاطم بسلاسة وقوة . لم يعد ثمة فاصل بين العازف والكمان ، كأنهما كيان واحد غارق فى دائرة بيبضاوية من الأنغام الكثيفة المتناسقة المتضافرة المتآزرة .

البحراوى بك جاحظ العينين منبهر، يشعر كأنه يمتطى صهوة الجندول نشوان ترنحه حركة الجندول فوق الموج حتى ليوشك أن ينقلب به فى قاع النهر لكنه لا يلبث حتى يعتدل متوازناً لتتسلق مقدمته موجة عالية تطيره فى الهواء لبرهة سرعان ما يتجاوزها بمنحدر لطيف ، وصفحة النهر امامه مثل كئيبان رمل ابيض فى صحراء مترامية. لم يعد البحراوى بك يقبل الخروج من هذه الحالة بأى حال من الأحوال. ود لو بقى هكذا الى مالا نهاية وسط هذا البحر الفياض بالطرب والبهجة والأنس .

إنه ليشعر فى هذا الجو كأن ثمة شيئاً مهما يستدعيه، ثمة هاتفا يناديه الى ما هو أهم ، لعله مؤذن يناديه حى على الفلاح، لعله عاشق مجروح يطلب اليه طبيب الروح بيلسم الشفاء، لعله داعى الخير يدعوه الى العطف على بنى البشر ، لعله بشير الصبح يدعو الناس الى القيام لتصنع فجرها الصحيح ، لعله رسالة تنبيه الى أن فى هذه الحياة ما هو أهم وأمتع وأجل من المال والممتلكات وكافة المتع الرخيصة الزائلة، أبداً ليست هذه مجرد تقاسيم حرة كالتى اعتاد سماعها من هذا الولد النابه العجوز، إنما هى رحلة متكاملة فى موضوع بعينه صاغه نفما شجيا يبتئ القلب ويحكمه العقل بموازين ورموز فى غاية الوضوح والتجلى .

اختلط ضوء الفجر بضوء القمر، ثم وصلت الشمس فى قطارها السريع، فنثرت حليها على الحديقة والشرفة ، على القوس والوتر حينئذ أفاق العازف على

حقيقة ساطعة استقرت في ذهنه فيما هو ينيم القوس في مرقده من الصندوق :
تلك هي أنه قد انتهى لتوه من تأليف أول مقطوعة موسيقية للكان ، ولكمانه على
وجه التحديد وإذ رنت في أذنيه طرقة اقفال الصندوق كان عنوان المقطوعة كائنه
الصدى لهذا الصوت الطروب : نداء ، حقا ، وياله من نداء يشعر بحرارته تكاد
تصهر قلبه .

(١٩)

أدمن الجلوس في شرفة البحراوى بك المطلة على الحديقة من الداخل ، فما
كان من البحراوى بك إلا أن خصص له حجرة صغيرة ملحقة بحجرة
الجلوس لكي ينام فيها إذا أراد . ذلك أن البحراوى بك رأى أن يستضيفه
لأجل غير مسمى .

« ماذا وارك في طنطا كى تنشغل عليك؟ الورشة لم تعد تذهب اليها! أبوك
نفسه استغنى عنك ! فلتبق معى ليس لى سوى ولد واحد اختطفه فن التمثيل إلى
معهد الفنون المسرحية ومنه الى الفرقة القومية فلتكن انت بدلا منه ها هنا إلى أن
تختطفك القاهرة التى لايد أنها ستختطفك ذات يوم !! » ..

بقى هو صامتا علامة الموافقة ، ثم مالبت حتى استقر فى البيت كسيد من
كبار السياح نازل فى افخم الفنادق ، بين ليلة وأخرى يزورهما إبراهيم أفندى
غطاس، يمكث معهما حتى الصباح، أحيانا كثيرة يقضى الخميس والجمعة
لايبارح هذه الشرفة الممتعة . كان يلاحظ ان عبد البصير فى حالة غياب شبه
كامل عن القعدة وإن كان عنصرها البارز فيها، ولطالما أبدى إبراهيم أفندى
اندھاشه من هذه الشخصية العجيبة : فى داخله ساعة منضبطة على مواقيت
الصلاة يشعر بموعدها بدقة حتى وهو مستغرق فى أعماق النوم، فحيث يبدو على
الفراس كالميت لأحراك فيه، إذا به يبريش بعينه فجأة، وفى لمح البصر تراه واقفا
يبحث بقدميه عن الشيشب ليدخل نورة المياه ، حينئذ ينظر إبراهيم أفندى فى
ساعته فيرى ان موعد صلاة العصر قد أزف، وفى الحال يسمع صوت المؤذن

على سطح المسجد القريب . من صلاة العصر الي صلاة المغرب يشاهد الضيفان حوارات البحراوى بك مع فلاحيه وخدمه وسماسرة تجارة الفاكه القادمين لمعاينة صفقات العنب والتين والمانجو والكمثرى وهى فوق اشجارها . وسواء وصلت الحوارات الى حلول او تعقدت فإن أذان المغرب لايد أن يقطعها على وعد بأن تستأنف غدا أو بعد غد، ويصطحب البحراوى بك رجاله وعبد البصير الى المسجد لصلاة المغرب، وعند عودتها يكون العشاء جاهزا ..

إبراهيم افندى غطاس - الذى يزيده وزنه بشكل ملحوظ من أكل الضأن والرومى والحمام المحشو بالفريك الصعيدى والدجاج البلدى والبط ناهيك عن الفواكه - يلاحظ باستمرار ان هذا النعيم كله لا أثر له على عبد البصير كأنه يأكل الطعام لغيره ،فهو على الدوام نحيل، فى وجهه قليل من الشحوب ، تقوم عيناه بخدمة فى غاية الطرافة ففى عينيه حول خفيف يجعل الناظر اليه يتصور انه مركز عليه النظر، ولو انتبه لا كتشف ان صاحب هاتين العينين فى حالة شرود كاملة. وقد جرب ابراهيم افندى ان يحدثه فى موضوع ما، وظاهر العينين يقول إن مستمعه يتابعه بتركيز كامل ، فحينما يصمت قليلا ثم يسأله، فيم كنا نتحدث ؟ يفاجأ به ينظر اليه فى كثير من البلاءة قائلا : هه ؟! بل قد يفاجأ بأن عبد البصير لم يكن يدرى أن ابراهيم افندى يتحدث اصلا. تذهب الدهشة بإبراهيم افندى كل مذهب، فالولد لم يكن هكذا ابداء، وهذه الحال طارئة عليه بدأ يلاحظها منذ شهور قليلة، إلا أنه لم يتوقف عندها طويلا، استراح لتفسيرها بأنها بؤادر عبقرية سوف تتضح فى السنوات المقبلة لتحقيق وجودا فى حجم عبد الوهاب وأم كلثوم وذكريا احمد والسنباطى فى مجال العزف على الكمان، لكن شرود العبقرية كما يعرف ابراهيم افندى غطاس لا يصل الى هذه الدهولة التامة، فأتية عبقرية هذه التى تعزل صاحبها عن حوله كأنه داخل قمقم مسحور ؟ ! هذا الولد ليس طبيعيا على الاطلاق ولايد أن وراءه سرا غامضا يقلق باله الى حد الاستغراق . هكذا قال ابراهيم افندى لنفسه مرارا وتكرارا فى الشهور الأخيرة ، لاسيما

وأن حالة الشرود والذهولة هذه تزامنت مع بداية رفضه للعمل مع جنس العوالم
فى الأفراح والموالد .

تلك خواطر تقلبت فى صدر إبراهيم أفندى غطاس وهو جالس وحده فى
الشرقة أثناء غياب صديقيه فى الصلاة فى المسجد ، ثم تسأل فيما يشبه
الاقتناع : أليكون الولد قد وقع فى الحب؟ لم لا ؟ هذا هو المحتل. ولكن - استدرك
إبراهيم أفندى على نفسه - الولد ليس من شبان هذه الأيام، لا عشق فى حياته
سوى آلة الكمان ، وما عداها كلام فارغ لا يعرفه . على أن إبراهيم أفندى ما ليث
حتى ابتسم ابتسامة عريضة مشرقة حينما تذكر فجأة أنه مكوى بنار الحب فى
شبابه وكان أكثر جدية من عبد البصير . إن قصة حبه تعرفها شوارع قحافة بل
تعرفها طنطا كلها ، فلقد وقع فى هوى بنت مسلمة ملكت عليه قلبه أطاحت بكل
استقرار فى حياته وكان كالحبيس لا يدرى ماذا يفعل للخروج من حبسه ، فحبه
لامينة ليس من النوع الذى يمكنه التفاوضى عنه أو علاجه بأى علاج سوى أن
يقترن كلامها بالآخر مهما صادفهما من عقبات، وبناء عليه تقدم لأهلها واضعا
نفسه تحت الأمر والإشارة، لسوف يعلن إسلامه إن أرادوا ، سيدفع من جنيته
لألف، سيبينى لها عشا لا مثيل له، ثم إنها موافقة . كل هذا قد ضاع إدراج
الرياح، رفضه أهل العروس رفضا قاطعا، رفضوا حتى مناقشة الأمر من أساسه.
البنت كانت ميتة فى هواه، فذهب إليها فى المدرسة الثانوية عرض عليها أن يهربا
معا الى القاهرة حيث يشق هو طريقه فى فرقها الموسيقية وتواصل هى تعليمهما
كما تشاء، فوافقت البنت من فورها ، وفى اليوم المتفق عليه لتنفيذ الهرب اكتشف
أخوها سرها فحبسها فى البيت منعها عن المدرسة نهائيا ، فأصابته حالة نفسية
حادة فانتحرت .

تصدرت دموع ساخنة على خدى إبراهيم أفندى غطاس، وارتعش بدنه
قليلا، لكنه مسح الدموع بمنديل وحاول نسيان هذه الذكرى المؤلمة، إلا أنها
انتثالت على رأسه ، مثلت أمام عينيه صورها المرعبة: الشرود الدائم، الإضراب
عن حلقة اللحية، عن كل المتع ، عدم الرغبة فى الطعام فقدان الحماسة

للحياة كلها . لم يضمّد جراحة سوى هذه الآلة السحرية العجيبة آلة القانون، دفن فيها كل ذكرياته المؤلمة، أهمل صنعته الأصلية كساعاتى بعد أن مهر فيها، وجد فى شغل العوالم والموالد صخباً لذيذاً، تزوج ، أنجب ، بهتت نكريات الماضي، ولكن قرحاً غائراً بقى فى القلب يوجعه كلما دهمته أطيايف عابرة من قصة غرام جديدة .

ضرب ابراهيم افندى فحذه بكف يده وتمتم : الحب لا كبير عليه، لا منطق له، لا أمان، لا شفاء منه إذا تمكن داؤه من القلب، ذلك لأنه حب، لأنه قانون وحده، ولأنه جميل، إلا أن الوصل أجمل بالطبع، ومن المؤكد أن هذا الولد قد أصابه داء الحب فى الصميم ، قلبى عليك يا ولدى فالحب سلاح نوحدين مع الأسف وهذا هو عيبه الوحيد ومكمن الخطر فيه ، الآن قد أصبح للكمّان منافس فى قلبك الغض ، مع ملاحظة أن الفن لا يقبل شريكاً فى اهتمام الفنان، فليستر الرب .

دخل البحراوى بك يتمتم بختام صلاة المغرب، ومن خلفه عبد البصير كمهر صغير يشب خلف جواد الضخم . ألقيا السلام على إبراهيم افندى ، الذى اعتدل قائلاً : حرماً ، ثم نهض واقفا تلبية لإشارة من نراع البحراوى بك . تبعه الى الردهة الكبيرة حيث احتلتها ترابيزة السفرة الكبيرة المستطيلة بكراسيها الجلدية وبوفيهها الضخم المتعدد المرايا تلمع فيها تلال من أطعم الاطباق الصينى والاكواب والكؤوس والملاعق والقوارير . كانت الترابيزة على طولها وعرضها محتشدة بالاطباق والسلطانيات والفوط كأن بلدة بكاملها ستاكل، فى الصدارة جلس البحراوى بك . فى مواجهته جلس ابراهيم افندى ، ويجواره عبد البصير وشرعوا ياكلون ، وكانت نوايب الكتب بواجهاتها الزجاجية التى تكسو جميع الحوائط، تضىء عليهم جوا من الرهبة والجمال .

لاحظ البحراوى بك أن كتبه المتناثرة فى كل مكان فى بيته لم تلفت نظر عبد البصير . فعلى قدر شغف ابراهيم افندى بهذه الكتب ومناظرها وعناوينها كان عبد البصير لا يهتم بها ادنى اهتمام كأنها مجرد ديكور . وكان البحراوى بك

كثيرا ما يضع أمام عينيه بعض كتب فى فن الموسيقى ، عن آلة الكمان بالتحديد، عن بيتهوفن ، أم كلثوم، سلامة حجازى ، من تلك الكتب الكثيرة التى تجذب اهتمام البحراوى بك أثناء زيارته المتكررة لمدينة القاهرة، ويحلو لبراهيم أفندى التقلب فيها واستعارتها ، إلا أن عبد البصير يكاد لا يراها أمامه ، حتى كتاب الاغاني للأصفهاني ، الموضوع فى الشرفه باستمرار لم يلفت نظره مطلقا، لهذا استغرب البحراوى بك أشد الاستغراب ، شك فى ان هذا الشاب الموهوب يعرف القراءة والكتابة ، أراد ان يقطع الشك باليقين فقدم له جريدة الاهرام طالبا منه ان يقرأ له بعض اخبارها لأن منظار القراءة تأث به، ففوجيء بعبد البصير يتعثر فى قراءة العناوين نفسها بشكل فاضح مثير للسخرية . طلب منه أن يكتب له عنوانه فى طنطا ففوجيء بخط كنبش الفراخ لا يمكن قراءته مطلقا، ناهيك عن كونه استغرق ما يقرب من ربع ساعة فى كتابته . ليس هذا وحده ما أدهش البحراوى بك واعتبره نقصا فادحا فى هذه الموهبة الجبارة الساطعة ، إنما الذى أدهشه أكثر هو أن هذا الفتى الموهوب لا يفقه فى أمور السياسة او الثقافة شيئا على الاطلاق، مما جعل البحراوى يقلق على فتاه أشد القلق، خشية أن تؤثر دائرة معارفه المحدودة هذه على مستقبله الفنى ، فصحيح ان الموهبة ضرورية كأساس، لكنها وحدها لا تكفى لبناء مستقبل فنان .

أثناء تناولهم الشاي قال البحراوى بك :

« علي فكرة يا عبد البصير لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة؟! »

نظر له عبد البصير فى بلاءة وشرود :

« هه ؟! » ..

قال ابراهيم أفندى باسماء بلهجة ذات معنى ..

« هو ليس في دماغه سوى الكمان فحسب !! »

صاح البحراوى بك :

« عظيم ! ولكن القراءة عالم ثان يخدم الكمان مثل الموهبة ! القراءة وحدها

تجعل منه فنانا كبيرا ! على الاقل تفيده فى الاطلاع على آخر منجزات الموسيقى
كفكر وفن معا !!»

قال عبد البصير بنبرة وضح الصدق فيها:

- منذ ان تعرفت على حضرتك بدأت اهتم بتدريب نفسى على القراءة لقد
نسيت قواعد القراءة والكتابة ! وسوف ادخل معهدا ليليا ! وربما اتعلم لغة
اجنبية!! إن شاء الله سيكون عندى مكتبة كهذه حينما استقر !!»

- «على كل حال مكتبتي تحت أمرك ! أى كتاب يعجبك خذه وارغم نفسك علي
القراءة حتى تتعلم !! .

- سأخذ كتاب الاغانى !!»

- «خذ اباه لو شئت !!»

ضحكوا ، وشرع عبد البصير يمرر ابهامه الكبير على الاوتار فى حين نصب
ابراهيم افندى آلة القانون على حواملها ، وشرع يضبط اوتار الكمان، استعدادا
لعزف مقطوعة (نداء) التى حفظها جيدا بقدر ما أمتعته . لكن ابراهيم افندى
فوجيء بألة الكمان قد نفرت واستقلت ، ثم ارتفع صوتها يصرخ بأعلى ما فى
الأوتار من عزم وشجن ..

- «يخرب بيتك يا عبده ! ما هذا يا مقصوف الرقبة ؟!»

هكذا صاح كل من ابراهيم افندى والبحراوى بك فى نفس واحد، وقف شعر
رأس ابراهيم افندى وهو يلاحق حركة القوس بعينين مذهولتين : القوس يرتعش
متراقصا ، والاوتار تصرخ كالذبيحة صراخا يفجر فى الصدور براكين العاطفة
الجياشة ، فى الأنغام ضراعة قوية مؤثرة ، تكاد تنطق صارخة : يارب يا إله
الكون ! ياخالق السموات والأرض يا واهب الحياة يا عليم يا عظيم جل
الباقى سبحانهك : أغثنا أتركنا يا نصير المظلوم يارازق الدود فى الحجر يا فالق
الإصباح يامسير الكواكب يا باعث اللهب فى شمس الظهيرة ومشعل القمر فى
الظلماء .. الخ

كل هذا ترجمته الاوتار فى انغام افسح وابلق من كل كلام . ثم مر القوس
فاستل عبارة ختامية تكاد تتنطق .. أ .. م .. ي .. ين .

صفیق المستمعان الهائمان ، صاح ابراهيم افندی باسماء في خجل ، كآب
نصف أم ، يخاطب ابنه النافقة :

- «قطعة جديدة هذه يا عبد البصير!»

هز عبد البصير رأسه ان نعم .. قال البحراوى بك :

— «ما اسمها ؟!»

تفكر عبد البصير قليلا ثم قال :

— فکرت أن اسمیہا : ابتہال .. فہی مجرد ابتہال،

مط كل من إبراهيم أفندي والبحراوى بك شفتيه علامة التأييد والإعجاب . ثم شرع إبراهيم أفندي يتدرب - فى الحال - على حفظ هذه الإبتهالات ، فجعل عبد البصير يعزف الجملة الواحدة مثنى وثلاثا ورباعا ، وكلمة : يا سلام لانتى تتردد على شفتى البحراوى بك بدرجات متعددة فى سلم الوجد .

(۲۰)

الحياة التي كانت جميلة في نظره منذ برهة صارت فجأة كئيبة مقبضة، كأن في قلبه زعابيب أمشير المتقلبة الهوجاء ، صار يعجب من نفسه التي أصابها زلزال فصدعها فزعزع استقرارها، كان الانتسراح يملأ صدره اذ يرى نراع سمعية قد أندس تحت إبطه ومشت هي بجانبه تخطر كالغزال في طريقهما الى حفل أضواء المدينة حيث ينتظرهما في قاعة المسرح جمهور غفير جاء خصيصا ليستمتع بغنائها الذي سيبث فيه روحا عالية . بسمة مشرقة يسقطها على شفثيه خاطر عابر يهمس في اذنه بصوت حميم بأن «الست» لا يجب أن تتأخر في هذا الحفل لأنها مرتبطة في الغد بتصوير في استوديو مصر .

لحظتُذ راح يدب على الارض بحماسة موسعا خطاه وقد وقر في ذهنه يقين بأن الست واقفة في انتظاره داخل سيارتها الفارهة. واذ اقترب من السيارة

بالفعل صدمه منظرها العفن . إنها سيارة مفحصة من كل الرفارف والغطاء والأبواب ، مخريشة كالحلة متساقطة الطلاء فى رقع كثيرة .

سرعان ما تبين له انه مسافر مع فرقة المتعهد الى كفر الزيات، حيث اقنعه متعهد شارع البورصة ، وهو رجل أميل الى الاحترام والصدق والأمانة - أن مشاركته بالعزف فى هذا الفرع بالذات ضرورية لجميع الأطراف وله هو بوجه خاص كعازف يحترم نفسه ، فالحفل سيقام فى نادى البلدية ، وسيحضره جمهور خصوصى من نوعية أهل الفرع الذين هم من أشهر اصحاب مصانع الزيوت والصابون ، مما يشى بنقوط كالنظر، الأهم من ذلك ان العروس لها شقيق من كبار المسؤولين فى الإذاعة ولسوف يحضر ويصحبته لفيف من الفنانين الذين يخدمهم فى منصبه ، من ممثلين وملحنين ومطربين ، أى أنها سوف تكون فرصة بالنسبة له كى يتعرف عليه هؤلاء وأولئك ، فلعل وعسى، ومن يدري ؟ أليس من الجائز أن يكتشفه المسئول الإذاعى فى هذه المناسبة فيضمه الى فرقة موسيقى الإذاعة ؟

ما أن استمع عبد البصير إلى هذه الإغراءات حتى هتف بحماسة عالية :
- «عندى حنة دين مطربه ! مالها مثيل فى القطر كله ولا حتى فى الإذاعة !!
مطربة تشرفك !! وعلى فكرة لو حضرتت هى فإننى احضر حتى بدون أجر!!
إسمها سعدية المليجى !!»

رفع المتعهد حاجبيه دهشة وحماسة :

- « الحقنى بها الله يسترك أنا فى عرض مغنية واحدة تكتمل بها المقولة !!» .
كلمة المقولة نغزته فى صدره أوجعته، تجاوزها بسرعة، استغرقته الفرحة بأن توجد سعدية معه فى هذه الليلة، كأنها جاءت بالفعل. إلا أنه أفاق على المتعهد يستحثه على ذكر عنوان سعدية المليجى كى يبعث اليها فوراً . سقطت بينه وبين المتعهد سحابة ثقيلة دكتاء، دوخته كانت الدموع تطفر من عينيه لاكتشافه انه ليس يعرف عنوانها بالضبط . على أن المتعهد بث فيه الأمل حينما أكد له أنه سيبحث عن عنوانها ويغريها على المجيء ولو بمضاعفة الاجر وتمييزها بأعلى نسبة من حصيلة النقوط .

من أسف لم يستطع العثور عليها كما أبلغه صباح اليوم طالبا منه ترشيح واحدة أخرى تنقذ الموقف . قال له : هي ، أو لا أحد. ثم انحرف مزاجه لاستحالة التراجع في آخر لحظة بعد أن قبض العربون وصرفه منذ أيام. توجه الى قحافة ليشحن دماغه بنفسين من دخان الحشيش لعلهما يصيفان الحياة امامه بلون مريح يساعده على قضاء هذه الليلة كيفما اتفق . في طريقه من قحافة الى موقف السيارات نسي كل شيء إلا سعديّة والكمان تحت ابطه، يضغط على صندوقها برفق وحنان وحرارة كأنه يضغط على نراع سعديّة المليجي ، وصورهما معها تترى أمام عينيه زاهرة باهرة براقّة مبهجة ، تحجبها اجساد المارة ، تدهسها السيارات المندفعة المجنحة يشتمتها صديق غير مرغوب فيه يندفع نحوه مسلما متماديا في السخف بسؤاله عن الصحة والأحوال بغير مبرر على الإطلاق ، وإذا يجهد نفسه للتخلص منه بسرعة ولباقة يفاجأ بأن لسانه قد وقع في منزلقات تليل جبل الحديث فيكاد يجن كأن سعديّة تنتظره في غرفة النوم عارية. يشعر لدى التخلص من الصديق العابر أنه عاد يتخبط في أوجال ومنغصات توجع البطن، لقد أصبح يضيق بكل شيء في هذه المدينة التي بدت له الآن كأنها تصادر مستقبله الميمون تدفنه تحت ركام من المشاكل التافهة والأعمال الأكثر تفاهة .

ركب السيارة مع الفرقة . حطت على صورته جبال من الكراهية لكل شيء، ليس فحسب لأنه فوجيء بهنديّة البرشومي بدلا من سعديّة المليجي كنجمة للحفل ، وأنه سيشرب الذل والهوان حتى النخاع إذ يعزف بكمانه وراء هذه الشربوحة هذه البغى الحقيرة التي لا صوت لها ولا حس ولا مواهب سوى بروزات جسدها الوقحة الصفيقة التي تاكل بها عقل الجمهور، وإنما لأن هذه الفرقة مجموعة من أصميص وأحقر الآلاتية ، من حثالة قهوة الحللى ، ستكون الليلة إذن سلاطة باذنجان، وعليه من الآن أن يفكر في كيفية غسل نفسه من هذه الشلة القذرة قبل أن يجد نفسه مضطرا لتبادل الالفاظ السوقية البذيئة على المسرح بل وأثناء العزف كما دأبت هذه اللامامة. اغتاز من المتعهد ، اختنق صدره مد يده ليفتح زجاج السيارة فوجد بها بلا زجاج اصلا ، فنكس رأسه ملوماً محسورا ، وقد

استقر في ذهنه خاطر شرير يوعز له بأن ينتقم من هذا المتعهد الذى دفعه حب انتهاز الصفقة بأى شكل إلى تليفق هذه الفرقة التى لا تصلح فى نظره إلا لكسح المجارى. تراكم الغضب على صدره : أضعه هذا المافون فى هذا المأزق الحرج السخيف ؟! أيساويه بهؤلاء مع أنه يعرف من هو ؟! طيب ! طيب يا متعهد النقر ! لسوف اطينها على رأسك إن شاء الله !!

عقابا لهذا المتعهد النذل قرر أن يحصل على أجره وفى نفس الوقت لا يلوث سمعته بالعزف مع هؤلاء الارزقية . لسوف يتمارض بمجرد الوصول الى كفر الزيات، سيتقن دور المريض، فلتكن الزائدة الدودية مثلا أو حصوة فى الكلى أو أى شىء مفاجىء من هذا القبيل . وهكذا جعل يدرس فى رأسه كيفية رسم اعراض المرض بشرط ان يبعد انظارهم عن فكرة الذهاب به الى المستشفى أو حتى استدعاء طبيب .

فوجيء باحتفال كبير جدا فى نادى البلدية . ما كل هذه الابهة ؟ ما هذا الإسراف الشديد فى العناقيد الكهربائية الملونة باقواس نصر معتدة بطول الشارع العمومى المؤدى الى النادى ؟ الواضح ان أصحاب الفرح اثرياء بالفعل ممن يحبون استعراض ثرائهم فى مثل هذه المناسبات . واضح ايضا أن المجاملين أكثر ، فثمة من تطوع بالسير بدراجة بخارية امام سيارتهم المكحكة طوال الطريق، وثمة من قدم لهم التحية مرطبات وسجائر بغزارة . وكانت سيارتهم - الأجرة - فى وسط هذا الحشد الهائل من السيارات الملاكى اللامعة بمثابة قرحة كئيبة المنظر فى محيط جميل، على نظام أجمل . التقطت عين عبد البصير كتابات على بعض السيارات واستطاع قراتها . الإذاعة المصرية .. أشرفت فى ذهنه صورة سعدية المليجى تغنى متوهجة امام ميكروفون اضواء المدينة . دب فيه انتعاش مفاجىء، سرعان ماذبل وأب الى كآبة رزلة ، قال لنفسه بصوت مكموم: لو أن هذه الفرقة على شىء من النظافة ولو لنصف ساعة، لكانت هذه الليلة بديعة حقاً. من فرط العصبية شعر برغبة هوجاء فى أن يتحدى النظام والقانون، فأشعل سيجارة ملفوفة بالحشيش ، غير عابىء بالشمامين حوله فى السيارة ،

فإذا بهذه الانفاس توقظ سابقتها، فاندفع خياله يسابق سرعة السيارة محلقا فى اجواء وريدية :

رأى سعدية المليجى تخطر امامه فى شارع يخلو من المارة ، مبرومة الجسد داخل الملاعة اللف ، لا يبين منها سوى وجه القمر، وكعبيها فوق كعبي الشبشب كتفاحتين تحت ساقين ملفوفتين من أشعة الاصيل . صار يتتبع خطوها الرشيق، ومؤخرتها - وجهها الآخر - تنساب هابطة صاعدة فى استدارات دقيقة مخلفة تحتها فراغا تدور فيه الملاعة نشوانة . كان من الواضح انها هى التى غمزت له بأن يسير وراعا . ثم لم تلبث حتى ظهر حولها من بدا انهم قائلون على حراستها من أهل الحنة ، احاطوا بها إحاطة السوار للمعصم . ظهر فى الحال قصر على الطراز العربي القديم ، انفتحت بوابته العتيقة . دخلت فى خطو مهيب، ما أن لامست قدمها العتبة من الداخل حتى استدارت ناظرة الى الملهوف خلفها، شيعت له ضربة رمش أسود مشرع فوق العينين الواسعتين الساحرتين، ثم اعتدلت واختفت فى البهو المنعطف على جناح الحرمك . اغلقت البوابة فتفرق الحرس . بقى هو شاخصا يتأمل روعة القصر وبقه بنائه وجمال طرازه المعمارى الفريد، صار يلف حوله فى تبذل رافعا بصره الى أعلى، حيث علقت المشربيات الخشبية كأنها الموسيقى مجسدة فى تشكيلات زخرفية مخزمة فى الخشب دقيقة الصنع والنقش فى تقابلات تشكيلية متكاملة كمعزوفة غنية بالايحاء ، كل تفصيلة فى احجار القصر لها مقابل فى نقش المشربية ، ها هى ذى المشربية تصدر صوتا طروبيا ، فإذا باب صغير محدق يرتفع كالتندة كحافة القبعة . مساحة من الفراغ لم تتسع إلا لعينى القمر لكنها كانت كافية . تحاور مع العينين طويلا، ثم مسته المشربية بالخير ، وأسبلت هدييها على العينين، هبط الباب البديع ، لكن شبح العطر المضى كان يتخايل خلف الخروم المصفوفة فى تشكيلات هندسية بديعة . ها هو ذا يعضى متبئلا فى الحوارى المتاخمة للقصر، تتوقف نظراته عند كل مشربية ، يشب قلبه واقفا ينتفض بين الضلوع، تبلغه موسيقى العطر وحفيف قمصان النوم وطققة الأسرة وهى تستقبل الجسد النسيم كأنها تطيع عليه قبلة

الامتحان لأنه احتواها . كل مشربيه وراها عين سعدية وعطرها ، وكل مشربية موسيقى مجسدة ، حتى اصوات الباعة ، لقلقة العربات الكارو ، صاجات بائع العرقسوس ، صخب المقاهى كل ذلك من أعذب الموسيقى وأطربها .

أفاق على مائدة الطعام فى بوفيه النادى. ما كل هذا العز ؟! زجاجات الخمر منتصبة كالديبانات كالفنارات بين صحائف الطعام الشهى الوفير ذى النكهة الارستقراطية . من أسف ان هذه المائدة المهيبة ينتهك حرمتها الرعاع الاسافل عشاق الفتة والفوضى . كالمفاجيع انقضوا على الاطباق مسحوها بشراة ووضاعة، كل منهم يخشى ان تراخى قليلا ضاع فى شراة الآخرين . كان منظرهم مقززا مثيرا للقرف، ناهيك عن تكالبهم على زجاجات الخمر، يكاد بعضهم يدس بعض الزجاجات فى جيبه أو حقييته، بعضهم لا ينتظر بقاء الكؤوس فيرفع الزجاجاة نفسها إلى شفقتيه يذلق فى جوفه جرعات النار اللاهبة بون أن يطرف له جفن . يرتعد عبد البصير ينكمش فى جلده، إذ هو موقن أن عاقبة هذه الانقضاضة على الخمر ستكون وخيمة بعد وقت قليل، ولسوف يكون منظرهم جميعا مثيرا للرثاء والاحتقار ، لاسيما وأن هذه العاهرة المتنكرة فى إهاب مغنية افراح لابد أن تمارس عهرها ، لابد أن تنتهز الفرصة وتلقى يشباكها على بضعة زبائن موشرين تتفق معهم - بعريون مبدئى - لكى تجيئهم فى زيارات خاصة فى الأماكن التي يحدونها . كيف يخرج هو من هذه الورطة السبوء بون أن تتلوث سمعته او تهتز صورته فى نظر قوم كهؤلاء ؟! يا إلهى إن هذه الليلة وحدها لكفيلة بأن تمسح طهره وعفته طوال العمر الفائن كله . لاحظتها شعر بالوار فعلا ، اضطربت المعلقة فى يده حقيقة لاتمثيلا، انبذلت الشورية على صدره ، وقعت المعلقة من بين اصابعه، امسك بجيبته التى تكاد تنفصل عن رأسه متطايرة فى الهواء شظايا، وقف يتساند على الكراسى، طلب من يسنده الى بورة المياه، هب اليه أكثر من ثلاثة رجال سانبوه جيدا حتى بورة المياه البعيدة، قمال على حوض الغسيل فتقى كل ما فى معدته . غسلوا له وجهه ، جففوه بفوطة جديدة، قال إنه يريد أن يتمدد لمدة ساعة على الأقل فى فراش مريح بغطاء، لم يستطع إكمال

الكلام ، وآخر خاطر برق فى ذهنه كومض خاطف هو أنه جلب الشؤم على نفسه حينما قرر اصطناع المرض فهاهو ذا المرض الحق يداهمه، ثم تهاوى بين أيديهم، اختفت من ناظره كل الأشياء .

(٢١)

حينما فتح عينيه تصور أن دقائق معدودة فقط قد مرت عليه فى حالة الإنعما، فوجيء بأنه متمدد على سرير وثير فى حجرة نوم سخية الفراش، مرتديا كامل ثيابه فيما عدا السترة التى لحها مطروحة على كرسى. نظر فى ساعته فإذا الوقت قبل منتصف الليل بنصف ساعة، بدأت أصوات الفرع تقتحمه بنشاز لا قبل له باحتماله، يضخمه الميكروفون بغلظة مروعة، وصوت العاهرة الأقرع الساذج السوقى يسرع متعها فى ابتذال سقيم مكشوف يققع المارة: «أنا بامسى ع الحبة دول»، ثم تبتعد قليلا: «وبامسى ع الحبة دول»، موسيقى أشد انحطاطا تغريها بمزيد من التهتك: «أنا - وزفرة كالغنج الصريح - بامسى على - كأنها تقول أف - ع الحبة دول». ثم ينشط إيقاع الدريكة والصاجات بشكل غوغائى.

شعر بالتقرز ثانية، حاول أن يتقيأ فى منديه، لم يجد فى جوفه شيئا يتقيأه. نزل عن السرير، ذهب إلى السترة المطروحة على ظهر كرسى، نزع علبة سجائره، اختار واحدة محشوة بالحشيش فأشعلها شاعرا بدوخة لذيذة، تمدد مضطجعا على كنبه عريضة لصق السرير فجاءه طيف سعيدة اللبجى، سرعان ما تجسد فى كيان حى، راح يخطر أمامه فى الحجرة مرتديا قميص نوم عارى الذراعين والكفين والصدر، قادما من داخل البيت!!

يا إلهى، أهى الحمى أصابته بالهذيان البصرى؟ أم لعله الجنون بطيف غزال طعنه فى السويداء ذات يوم قريب ثم اختفى؟ كلا، لقد رأى بألم عينيه الباب ينفتح برفق، وشبح الأنثى يتسلل داخلا، ثم يقترب منه بعطر فواح: الوجه القمرى الساطع ذو الذقن المثلثة كحبة الجوافة بغمازة فى أسفله، يبسم له، يمد الذراع البضة الناعمة المرمرية ليسلم عليه.

اعتدل واقفا، فى حال بين الرعب والنشوة. سلم عليها، تركت يدها الرخصة الدافئة فى قبضته، بصوت أنثوى حاد الأنوثة حاد الرنين قالت: «أنا أفراح! إسمى أفراح!». ثم استدركت:

— «سلامتك ألف سلامة!! مالك يا حبيب قلبى؟ أنا سمعت عنك وعن مواهبك من صديقاتى الطنطاويات!! كلنا فداؤك!!»

ارتج عليه، قال فى حرج شديد:

— «العفو! العفو! لا شىء! مجرد دوخة بسيطة! ولكن الحمد لله! نمت جيدا فأفقت!»

صار يرقب فتحة الباب فى فزع، الذكاء يطفّر من عينيّن كطائفتين مفتوحتين على ليلة القدر، قالت:

— «لاتخف!! فالبيت خال!! ذهبوا كلهم إلى الفرح وأغلقوا علينا من الخارج بالمفتاح!! واضح أنهم نسوك وإنهم حقا لأغبياء!!»

جعل يتلفت حواليه كالأسير، لكن جمال الأنثى المائتة أمامه كان مبهرًا بدرجة خارقة، شابة فى حوالى الخامسة والعشرين من عمرها تقريبا، غزيرة الشعر بجدائل سوداء ناعمة كالحرير محلولة، على وجه خمري نضر، تتدفق خلف بشرته الشفافة صفائح الدم الأحمر القانى. أما العينان ففيهما بريق نظرة جبارة يتعانق فيها الجنون بالثقة المطلقة. برقة دافئة تذيب الصخر قالت:

— «تفضل أقعد! لماذا تقف؟»

اردفت قولها بضغطة من يدها على كتفه، أجلسته على الكنب، أشعل سيجارة أخرى. نظرت له بنصف عين نظرة ذات معنى، قالت ببراعة وصفاء:

— «أنت كييف حشيش إذن!! لو كان أبى هنا كنت جئت لك بقطعة كبيرة منه!! لكن مع الأسف!! أبى راح فى مشوار بعيد منذ سنوات ولم يعد!! يقولون إنه سيرجع لكنى غير مصدقة! على كل حال ربنا يطرح البركة فى عمى فإنه يقوم بالواجب!!»

صار يخرج من ذهول ليصطدم بذهول أشد... قال بريق ناشف كالعصا:

- «حضرتك متزوجة؟»

هزت رأسها النقي:

«طالبة! كلية آداب الاسكندرية قسم اللغة الانجليزية لكن الحظ تعثر بى فى السنة الرابعة ثلاث سنوات لأنى بدأت أسافر كل يوم بعد أن كنت مستقرة فى المدينة الجامعية!! تشرب قهوة؟ على فكرة أنا أعمل قهوة تجن!!»
صاح مستقيثاً:

- «أرجوك! أنا فعلا محتاج لقهوة مضبوطة!!»

هزت رأسها كأنها تدادى طفلان:

- «حا.. ضر! من عيني الاثنتين!»

وأشارت بإصبعها إلى عينيها، واستدارت ماضية نحو الباب.

يا أرض احفظى ما عليك. قوام منحوت بأزميل إلهى.. رنت فى أذنيه كلمات بيرم التونسي التى يحبها: ولك قوالب فى الأجسام، غلب الرسام، يقلدك بحجر ورخام، يلقاك أخطر، عادت بعد هنية مكثرة ما بين حاجبيها، قالت فى اكتئاب:
- «أسف! لقد أغلقوا على كل شىء بالقفل، الكبريت والسكاكين، والأكواب والبوتاجاز!! لا أعرف لماذا يفعل هؤلاء المجانين هكذا!!»

ثم ارتكنت بظهرها على حافة السرير، انعوجت نحوه قليلا، اندلق صدرها كله فى مرمى عينيه يشع بالضوء والعطر والموسيقى، قالت بصوت يقطر حنانا:

- «مازلت متعبا يا حبيبى!!»

شوح بيديه مندهشا:

- «من يراك يصحو ولو كان ميتا!!»

أشرقت على شفتيها بسمة كالفنديل البهيج، وكأنها أرادت أن تكافئه على هذا الإطراء الذى أطربها، فمالت عليه أكثر قائلة:

- «أرنى إنن صدق ما تقول!!»

وضعت يدها على جبهته لتختبر درجة حرارتها. شعر هو بمس كهربى يكاد يصعقه، صارت تتحسس جبهته بيد تضخ فى عروقه الحنان والحيوية والفتوة

والبهجة. مد يده على الرغم منه ولامس رسغها المبطط، فسلمته يدها الثانية، فأمسكها. تراخت بها نحو فمه، صار يطرها بوابل من القبلات. صار هذا الجسد النازف حيا وحنانا يتراخي شيئا فشيئا، إلى أن استوت جالسة على حجره، طوقت عنقه بذراعيها العاريتين، أراحت خدها على كتفه، تدفقت جدائل شعرها الفاحم على وجهه حتى غمرته، صار ينتفض من أعماق أعماقه. مع ذلك كانت ذراعه اليسرى تحيط بخصرها فكأنه يحيط الدنيا كلها، تمنى لو يظل على هذا الوضع وقتا لا ينتهى. كانت هذه أول مرة فى حياته يلامس فيها جسد امرأة، جسد الأنثى. إذا بها ترفع رأسها مصيخة السمع ناظرة فى الفراغ نظرة شاردة شاحبة، صارت تنتفض، ثم نهضت واقفة وقد بدا أنها منشغلة بما يحدث فى الخلاء الخارجى، إذا بها تقول له فجأة:

— «هل يمكن أن تصنع فى ثوبا؟»

قال بصدق وحماسة:

— «تحت أمرك طبعاً»

قبلته فى شفتيه بحرارة:

— «أريد أن أهرب من هذا البيت!! إنهم يحبسوننى فيه ليل نهار! لا أرى وجه

الدنيا نهائياً!!»

بكت بدموع هطال:

— «تستطيع أن تساعدنى على الهرب؟ ألبس ملابس أخرى وانتظركم على

الطريق الزراعى! أترككن فى طنطا وأنا أتصرف!! ولو عملت فى هذا الثواب، أبقى

خادمة لك طول العمر!! أرجوك!! شف لى أى حل أهرب به من هذا البيت!!

أرجوك!! أقبل قدميك!! المجرمون يديرون لقتلى ظلما وعدواناً!!»

دهمه الرعب القاتل، تذكر الله فاستغفر، ثم أخذ إلى صمت عميق حائر، جعل

يستعيز فى سره بالله من الشيطان الرجيم. كشرت هى فجأة، انقلب وجهها إلى

وجه آخر، عيناها تقذفان حمما حمراء. قالت فى عدوانية:

— «جيان مثلهم!!»

وصفغته على وجهه صفعة منوية أطارت الشرر من عينيه، لكنه لم يفضب، بل أمسك يدها التي ضربته وقبلها:

- «لكن لماذا يقتلونك؟ لا بد أنك فعلت فعلا سيئا!!»

عنوية الدنيا كلها فى صوتها فى وجهها فى هدوء أعصابها، لوحت بذراعها فى ثقة:

- «فشر!! أنا سمعتى مثل الجنيه الذهب!! المسألة وما فيها؟ أنى أحب الفن وأتمنى أن أكون مطربة وممثلة!! مثلت وغنيت كثيرا جدا فى حفلات الجامعة! حصلت على جوائز وميداليات! نشرت صورتي فى الجرائد كثيرا!! من يومها انقلبت الدنيا ضدى! أبى كان يوافقنى على احتراف الفن لأننى وأختى الصغيرة نيفين ورثنا حلاوة الصوت عنه! لكنه سافر فى رحلة عمل فلم يرجع منذ سنوات طويلة! عمى الآن هو رب البيت ويدير لزواجى من ابنه ليث نصيبى فى ثروة أبى أرضا زراعية ورصيда كبيرا فى البنك!! أولاد الحرام نبهوه إلى أننى قد أذهب ذات يوم إلى الجامعة فلا أعود! منعنى عن المدينة الجامعية وحكم على بالسفر والعودة كل يوم حتى ارتبكت حياتى وتوالى رسوبى وهو فرح بذلك حتى أقبل الزواج منه ابنه مكسورة العين!! وأخيرا حبسنى فى البيت نهائيا منذ عامين!! عقلى شت وأعصابى تلتف وهم يزيئونها إتلافا بقولهم إنى مجنونة!! على فكرة! عريس الليلة ابن عمى لزم! وعلى فكرة! هل دريت بالطبيب الذى جاء وكشف عليك فى السرير؟ إنه ابن عمى أيضا! ساعتها أختى الصغيرة فتحت لى بابى لكى أدخل دورة المياه! لكنهم انشغلوا بك ونسونى! خرجوا جميعا وتركوا باب حجرتى مفتوحا!»

ثم أصاحت السمع هنيهة، وانتفضت قائمة تجرى إلى فناء البيت، وبعد هنيهة أخرى سمع بابها يفتح ويغلق، كان ثمة لفظ يقترب من البيت، سمع صوت المفتاح ينور فى القفل، ارتدى سترته، هزدم نفسه، أشعل سيجارة عادية، وضع ساقا على ساق، دخل عليه الرجال يتقدمهم كهل ملتجئ تشنى ملامحه بأنه عم الفتاة، قال له فى نبرة اعتذار:

- «كيف حالك الآن؟! هل شعرت بالحقنة التي أعطيناها لك؟ هي التي أراحتك!!»

قال عبد البصير:

- «الحمد لله! لم أشعر طبعاً بالحقنة! واضح أنها خفضت حرارتي!»
كان يشعر بأن هذا الرجل مراوغ ألبان كما يظهر في عينيه الثعبانيتين.
وكان قلبه يتمزق حزناً على هذه الغادة الحبيسة التعيسة، ويتمنى لو أن كان في استطاعته مساعدتها إذن لما تردد: نهض واقفا يريد الخروج من هذا الحبس فورا:
- «بنا إلى الحفل!»

مضى خلفهم وقد مثلت في عينيه صورة مزدوجة، وجه منقسم إلى نصفين: سعدية وأفراح، ثم انفصل النصفان وابتعد كل منهما عن الآخر ليكمل بمفرده، وجه سعدية يجسدها يقبل نحوه، ورأس أفراح بظهرها وقيمص نومها يبتعد.. ثم ينعكس الوضع، فيرى سعدية في قميص نوم أفراح، وأفراح في ثياب سعدية واقفة أمام الميكروفون. ارتفع في صدره هدير موسيقى عنيف يصم أذنيه عن صخب الفرع:

أدخلوه إلى البوفيه ليتعشى، فاكل بشهية، ثم أشعل سيجارة محشوة وجلس في الهول الكبير يواصل الاستماع للهدير المتدافع في صدره، لما رفع رأسه فوجيء بالمتعهد واقفا أمامه وبجواره رجل في حوالى الستين من عمره يرتدى بذلة سوداء، نهض واقفا وسلم عليهما. قال المتعهد:

- «سلامتك يافنان!»

ضحك عبد البصير وقال إنها دوخة أدت إلى إغماء طويل وكل ذلك من الإرهاق النفسي. حمد المتعهد ربه أن جاءت سليمة، ثم أشار إلى الرجل الأنيق:

- «أقدم لك والد العروس! انشغل بك حتى كاد يقع من طوله! لقد سمع عنك منى ومن صديقه إبراهيم أفندى غطاس وكان حزينا لأن يحدث لك مكروه في فرح ابنته! كان مستعداً لأن يستدعى لك أكبر طبيب في مصر!!»

ضحك عبد البصير في امتنان وجعل يشكر الرجل. دخل عليهم رجل أكثر

أناقة، أشيب الشعر طويل السوالف مستدير الوجه، تلقاه والد العروس بحفاوة،
قدمه إلى عبدالبصير:

- «ابن أخى! مدير مكتب مدير عام البرامج فى الإذاعة! وهو إذاعى قديم
وليس إداريا! اشتغل فى الإخراج وتقديم البرامج سنوات طويلة!!»
سلم عليه عبدالبصير بحرارة، قال الرجل:

- «المتعهد كلمنا عنك كثيرا كلاما كبيرا!! ومنذ بضعة أيام كان عندى مطربة
هاوية اسمها سعدية المليجى فكلمتني عنك أيضا! فعجبت من هذه المصادفة
واندهشت لما سمعت بما أصابك!!»

الرمشة والشحوب واضحان على وجه عبدالبصير، لكنهما شحوب ورعشة
العاشق الذى أيقن أن سره قد فضح ولم يبق إلا الاعتراف به، فسأل بلهفة
فاضحة:

- «سعدية المليجى كانت عند حضرتك؟! وما المناسبة فى أن تتكلم عني؟»

قال الرجل الأشيب:

- «إنها بنت نظيفة ومحترمة جدا! لجنة الاستماع تترك صوتها وتتغزل فى
جمالها! البنت مصابة بعقدة نفسية من جمالها! تكره جمالها ولا تطيق كلمة
إطراء واحدة فيه!! لديها اعتقاد بأنه يلفت الأنظار عن صوتها! تقول إنه يهدد
مستقبلها فى عالم الغناء! وهى محقة بصراحة! الغريب أنك تسمعها على شريط
فتعتقد أنها من كبار المطربات بلا شك! لكن أن تسمعها وأنت تراها وجها لوجه
فإن كل انتباهك لابد أن ينصب على جسدها!! البنت بخلت لجنة الاختبار عدة
مرات ويسوء حظها من الربة التى تعثرها فلا تحسن الأداء أمام اللجنة! واللجنة
لا تعترف بالشريط أو الاسطوانة! تحب أن تسمع الشخص بنفسه!! آخر مرة
اشتكت لى من سوء حظها فواسيتها وطمأنتها خيرا!! لكنها فى انفعالها قالت إن
المواهب الحقيقية فى البلاد محرومة من ميكروفون الإذاعة بل إن الميكروفون هو
المحروم منهم! قلت لها مثل من؟ قالت فى الحال عبدالبصير الصوفانى كعارف
كمان!! وذكرت بعض المطربين والموسيقين والمؤلفين لكنها تكلمت عنك كثيرا فى

حماسة كبيرة!!»

من فرحته أطلق ضحكته البلهاء الصفيحية، ثم جعل يردد كالأبلة كان يحدث نفسه:

– «غريبة والله مع أنها لم تسمعنى!!»

قال الرجل الأشيب:

«من سوء حظنا ألا نسمعك!!»

ضحك عبد البصير فى حرج، ثم تلثم قليلا، لكنه ما لبث حتى اندفع فى نبرة غرور حميمة قوامها الثقة والزهو عند الموهوبين موهبة غير عادية، مما يجعل غرورهم محببا إلى نفس من يراه. قال:

– «بصراحة إن ما حدث لى خير وفضل من الله! كنت سأحتقر نفسى إلى الأبد إذا اشتغلت مع هذه الفرقة! لقد صدمت حين رأيتهما! وتقززت من منظرهم على المائدة! خوفى من الفضيحة شل مخى عن التصرف فوقعت مغشيا على! خفت أن يرانى أبى بطريق الصدفة فيشمت فى مدى الحياة!!»

قال المتعهد كالمعتذر:

– «أعرف! وأنا مضطرا! لم أجد سواهم! وقلت هذا لإخوانى أصحاب الفرح! إنى غير راض عن الفرقة لكنهم كانوا قد حددوا الموعد وانتهى الأمر! وعلى كل حال رينا فرجها!!»

أوضح والد العروس مشوفا فى ابتهاج:

– «جئنا لك بإبراهيم أفندى غطاس! فى ظرف ثلث ساعة ذهبت بعربتى الفورى الأصلية فجئت به، وهو فى الطريق مر على اثنين من كبار مطربى طنطا فأتى بهما: محمد صيام وسميرة الشافعى!! المطرب وزوجته، تصور أنهما أنعشا الفرح بالفعل!!»

ابتهج عبد البصير، هتف:

– «حلو! لو أن إبراهيم أفندى معى فإننى أسمعكم ما تشاعون! وضارب الرق! فقط لاغير!»

قال المسئول الإذاعي:

«بسيطة.. تعال معي!»

اجتازوا حديقة النادى، مروا بسرادق الفرح الصاخب الهازل المبثذل، فمن الواضح أن العاهرة تقرض وجودها بقوة الغوغائية والصفافة وقلة الحياء، ومن الواضح أيضا برغم ذلك أن جمهور الفرح مبسوط ومنبجع على الآخر، فيا لها من مفارقة، إنه إذن ليس جمهوره فالحمد لله أن حيل بينه وبينه، ثم تبسم قائلا لنفسه: أصحاب الفرح يتنوقون الفن الرفيع، والفرقة التى تحيى فرحهم من أحط الفرق، والجمهور أشد انحطاطا منهما معا!!

وهنا انطلقت ضحكته الصفيحية جزلة مزهوة كأنه اكتشف إحدى النظريات الرياضية العميقة. وحينما سأله المتعهد عما أضحكك، شوح بيده الغليظة حول رأسه قائلا: الدنيا!! فلم يعلق المتعهد، ومضى مهرولا.

عند خروجهم من النادى اتجه المسئول الإذاعي إلى سيارته الفيات الصغيرة المسماة بالقردة، وأوماً لوالد العروس أن هات الشلة وإبراهيم أفندى والرفاق وتعالوا ورائى إلى البيت، ثم فتح السيارة وركب، وفتح الباب المجاور له فركب عبد البصير، فى حين اتجه المتعهد إلى السرادق لاستدعاء إبراهيم أفندى والرفاق، واتجه والد العروس إلى سيارته الفورد ففتحها وأدار المحرك وجلس فى انتظارهم.

(٢٢)

كان بيت المسئول الإذاعي جميلا، يقع على الطريق الزراعى مباشرة، وخلف ظهره - لصقه - بيت العروس للبيتين ملاحق صغيرة كالعشش والأكواخ. من الواضح أن الأرض الزراعية المحيطة بالبيتين تتبع العائلة فيما يشبه العزبة الصغيرة التى يملكها أعيان التجار وأصحاب مصائد الغزل ويستأجرون من يزرعها من الفلاحين والتملية. كانت عناقيد اللمبات الكهربائية الملونة تزين البيتين والطريق المؤدى إليهما، إذ ان العروس ستتقل من هذا البيت إلى ذاك، فالعريس ابن عمها وزيتهم فى دقيقتهم كما تجرى عاداتهم منذ سنوات طويلة.

لصق الجدار الخلفى لبيت والد العروس، الغارق فى المزارع المحاطة بأشجار الكافور والجوزرين والصفصاف والجميز، فرشت الحصائر والأكلمة والمساند والثلث. جرى بعدة الشائ والجوزة بكل ملحقاتها، ويسلال الفاكهة الطازجة، وصوانى الهريسة والبسيمة والشكلمة، نشط خدم كثيرون على قيام القعدة فى دقائق معدودة.

الأنوار خلف ظهورهم تكاد تختفى، اعتادت عيونهم الظلام الذى بدأ يرق ويألفهم فصارت القعدة تنير نفسها بنفسها فى اكتفاء ذاتى، كل شئ فى القعدة يضىء نفسه، الأوانى النحاسية والأكواب الزجاجية وعلب السجائر والقداحات وبصائص النار والأوتار والأفكار والمشاعر. كان عبد البصير ينوى أن يسمعهم إحدى ثلاث قطع من تأليفه يحفظها إبراهيم أفندى جيدا: [نداء]، [موسيقى الشباب]، [أبتهالات]. صار يوزن أوتاره وإبراهيم أفندى يضبط عليه، فصارت الانغام العشوائية المقطومة تطرق أذان العشب ووبر عباءة الليل وشواشئ الأشجار وأحمال الحطب والقش على الأسطح المتناثرة على امتداد البصر، فاستيقظ كل ذلك وتحفز وانتعش.

ما أن تحرك القوس حتى بدا كلاعب الكرة وهو يتقهقر قليلا ليندفع جريا يشوط الكرة بكل عزمه. بضع سحبات عشوائية من القوس أظهرت مدى فتوته وطغيانه، حتى إذا ما انطلق لم يعد، كهداف ساحر علق الكرة فى قدميه واخترق الملعب لا يابى بمدافع أو محاور أو منافس كل أولئك يتراقصون أمامه وحوله فاقتى الإرادة والرشد، حتى أن إبراهيم أفندى ظل متجمدا فى استعداداه فاغر الفم ينتظر عودته دون جدوى.

كان الهدير المضطرب فى صدره فى قلبه قد راح يemor بعنفوان ياحثا عن منفذ للخروج، فإذا بالقوس يملأ على أنامل يسراه حركة جديدة تماما. فى الأنة الأولى للأوتار اعتدل جميع الجالسين فى قعدتهم، اتخذوا وضع إنصات مهيب، من الأنة خرجت الآهة المتناعة، فى صرخة متنامية حومت على روس المنصتين كروح

إنسانية تعافيتهم بالعافية قبل أن تبث شكواها إليهم. قالوا فى تشكيلات سيمفونية
منتشبة:

- «يا سلام! الله الله الله! يا عينى! يا حنين يا حنين! قل يا جبار! يا شيطان!
سبحان العاطى!!»

ومصمصوا بشفاهم فى نبرة استعبار، على أن الصرخة الوترية عادت تحوم
من جديد على استحياء.، تلو ثم تخفت، تقترب وتبتعد، كوجه عذراء خفير يحاول
أن يطل من فتحة المشربية لكن الحياء سرعان ما يواريه عن الأنظار، قال المسئول
الإذاعى:

- «لكن القمر يطل من خلل السحاب فيخفيه السحاب كأنه يخاف عليه منا أو
يخاف علينا منه!!»

نظر بعضهم فى السماء قبل أن يدركوا مغزى العبارة، ثم ابتسموا حينما
أشرق المعنى فى مخيلتهم. لحظتئذ اندلعت صرخة الكمان كمارد حطم القمم
وانطلق، صارت تزغرد بالآلم، تبوح شيئا فشيئا بلواعج مشتاق إلى الحرية يكاد
يحطم أسوار سجنه يوصل صوته إلى أعلى نروة فى السماء. البوح يتصاعد فى
انتشاء، كالطير يرقص منبوحا من الألم، يشف، يحكى تفاصيل عشق عذبه النوى،
أضناه الجوى، أمجنون ليلى يلف على الديار ديار ليلى يقبل ذا الجدار وذا
الجدار؟ وما حب الديار سكن قلبه ولكن حب من سكن الديار؟ أبائع سريح من
أولاد البلد يقف تحت شباك محبوبته مناديا على بضاعته واضعا فيها كل صفات
وأوصاف محبوبه المحتجب؟ أشهرزاد جمعت صوحيباتها يرفلن فى الدمقس وفى
الحريير يحملن الدفوف والمزاهر يطربن بها شهریار حتى يستلبه الوجد فيؤجل
موعد إراقة الدم يوما آخر؟ ربما، وربما، وربما.

صور عديدة لا نهاية لها راح المسئول الإذاعى وأبناء عمومته يرددونها
يشرحون بها ما أحدثه العزف فى مخيلاتهم من تصورات ومشاعر، بعد أن ألهبوا
أكفهم بالتصفيق الحار، وضع أنهم جميعا لم يتوقعوا أن يكون العزف على هذا

المستوى الجبار غير الطبيعي من عازف أمى، قال والد العروس مشوحا بذراعه فى غبطة كبيرة كطفل عجوز مرح :

- «فعلا! أنت لا يصح أن تعزف مع هؤلاء الأرزقية! أنت من طبقة أخرى! أنت قطب وهم رعا ع! أنت جعلتني لأول مرة فى حياتي أتمنى أن أكون عازفا على هذه الآلة التي أراها الآن صوتا من أصوات السماء!!
قال المسئول الإذاعي:

- «العجيب يا أستاذ عبدالبصير أنك جعلت هذه الآلة الغريبة مصرية صرفة! هل تدريت على هذه المقطوعة كثيرا؟»

ضحك عبدالبصير ضحكته العالية الساذجة الشبيهة بصوت صفيح يخبط فى بعضه. قال:

- «عمري ما عزفتها قبل الآن! لقد ارتجلتها فور اللحظة! من واقع اضطراب عاطفي أعيشه الآن!!»

شد والد العروس طوق سترته بيديه تعبيرا عن ذهوله، أما المسئول الإذاعي فقد شوح صارخا:

- «لايمكن! قل كلاما غير هذا يارجل، أأنت ارتجلت هذه المقطوعة الآن؟ إنك إذن لجبار جبار جبار!!»

ثم استدرك ليثبت خبرته بالتنوق الموسيقى:

- «أظنها من مقام ال...»

أنقذه عبد البصير من ورطته:

- «حجازكار كورد!!»

قال المسئول الإذاعي:

- «جميل! جميل جدا!!!»

قال عبدالبصير بكل براعة ويساطة:

- «مارأيكم لو سميتها: المشريية؟!»

صفق المسئول الإذاعي طربيا وإعجابا بالاسم، وأضاف:

- «أصبحت! ليس لها اسم آخر! فعلا! المشربية!»

قال عبدالبصير:

- «خلاص! فلتكن المشربية!»

عادت الدهشة إلى المسئول الإذاعي:

- «واكن! أستاذ عبده! هل يعقل أنك ارتجلتها كلها الآن من المذاكرة من وحى

اللحظة؟

قال عبدالبصير مشيرا إلى صدره:

- «لكنها كانت موجودة هنا من وقت طويل!»

مط المسئول الإذاعي شفثته مستغرقا فى تأمل عميق.

دارت الجوزة عدة دورات، ودارت أكواب الشاي، دارت كذلك رأسه من النشوة.

عزف لهم - يشاركه إبراهيم أفندى والرقاق - موسيقى: الشباب، نداء،

ابتهالات، ثم المشربية ثانية، فخامسة تحت إلحاحهم، ثم انخرط فى تقاسيم

حرة، ثم غنى بالكمان أغنيات، على بلد المحبوب ودينى، الأمل، الليلة عيد،

فى نور محياك.

انهالت النقوط على حجره من كل ناحية، أوراق من فئة الخمسة جنيهات،

تتساقط أمامه وهو لاه عنها تماما، كل متعته وسعادته أن تستمر قدرته على

إسعاد هؤلاء والاستحواذ على إعجابهم، هذا منتهى طموحه فى الدنيا، وكانت

سعدية المليجى حاضرة فى أفراح، وأفراح ماثلة أمامه لاتريم، مرة بقميص

النوم، ومرة فى ثياب سعدية، فى غمرة الحماسة ولغط الاعجاب كان الهم الذى

يكبل رأسه هو الدعاء إلى الله أن يلهمه طريقة جهنمية - غير مباشرة - ينقذ بها

أفراح من حبسها فإن إنقاذ أفراح من هذه المحنة القاسية البشعة يعادل زواجه

من سعدية المليجى، هكذا خيل إليه.

انتبه إلى كومة النقود المبهرة على حجره، جفل كأنه لم يرها من قبل، حاول

إزاحتها قائلا فى حرج حقيقى صايق:

- «ما هذا؟ لا لا! لا داعى!! أنا لست ألتايا يا أسيادنا!!»

لكن والد العروس حلف بأنغظ الأيمان ألا يردّها، تطوع المتعهد بجمعها وتطبيقها بعناية، حاول وضعها فى يد عبدالبصير، فراح يبعد يده فى إصرار، فمد المسئول الإذاعى يده قائلاً: هاتها، سلمها له المتعهد فى كثير من الحسرة ظناً منه أنه سيردّها لأصحابها، إلا أن المسئول الإذاعى سحب صندوق آلة الكمان ففتحه، وحشر المبلغ فى العلبة الصغيرة الملحقة بركن فى أعلى داخل الغطاء، ثم أغلق الصندوق وتركه بجواره، فعل ذلك بشكل رصين فيه حسم باتر، فلم يعترض عبدالبصير على هذا التصرف الكريم، لكنه قال بشيء من الحرج:

«يا أسيادنا! أولى بهذا المبلغ إخواننا»

وأشار إلى إبراهيم أفندى والرفاق، فهزّ والد العروس رأسه فى موافقة وأضاف:

«لا شأن لك بهم! سنرضى الجميع أربعة وعشرين قيراطاً، هذا المبلغ البسيط لك وحدك هدية منا! ولك مع المتعهد حساب آخر، لا فلوس تكفى سعادتنا بك الليلة!»

فامتثل لهذا رأى، وعدل القوس بين أصابعه، شرع يعزف أغنية: [فى نور محياك] لأم كلثوم. ومنها إلى أغنية [ياصباح الخير ياللى معانا]، فراح اللحن يعانق ملاء الضوء اللبنى الهفافة وأكواب الطيب التى امتدت أمامهم مع أطباق القشدة والفطير السخن ذى الرائحة النفاذة.

وكانت شمس الصباح الخضراء قد اشتد حيلها فعمرت الأفق كله حينما شرع عبدالبصير يضع كمانه فى صندوقها، عندها أخرج المسئول الإذاعى محفظته، تناول منها بطاقة تحمل اسمه وعنوانه، وأرقام هواتفه، قدمها لعبدالبصير، رجاء أن يمرّه عليه كلما سافر إلى القاهرة، قال له إن مستقبله الحقيقى فى القاهرة، وأنه يجب أن يعجل بالرحيل إليها.. وكان الخبر قد وصلهم بأن الفرقة ركبت وغادرت منذ أكثر من ساعتين، فأصر والد العروس أن يقوم بتوصيل عبدالبصير والمتعهد وإبراهيم أفندى والرفاق حتى أبواب بيوتهم.

فيما هم يستعدون للرحيل جاء فلاح يهرول متهدل الوجه شاحب الملامح يبدو

عليه الكثير من الاضطراب لكنه يبذل جهدا كبيرا لكي يبدو طبيعيا.. مال على أذن والد العروس، همس بشيء تهدلت له ملامح والد العروس واضطرب وشحب. اقترب منهما المسئول الإذاعي واستفهم بالإشارة، مال عليه والد العروس هامسا فإذا به يضطرب هو الآخر ويتمتم:

«لاحول ولا قوة إلا بالله! وهل هذا وقته؟!»

ثم قال لوالد العروس:

«ظلك أنت أوصلهم أنا بسرعة!!»

شعر عبدالبصير أن فى الأمر شيئا محرجا للغاية، تقدم منهم قائلا فى

إصرار:

«لا أنت ولا هو! سنأخذ عربة من عربات الأجرة!!»

إلا أن المسئول أسكتته بإشارة حاسمة من يده، شفعتها بقسم غليظ أن لا أحد يوصلهم سواء، ثم أشار إليهم أن يتبعوه نحو سيارة والد العروس باعتبارها أكبر من سيارته.

السيارة راحت تنهب الطريق بسرعة جنونية، وزع عبدالبصير السجائر عليهم، استوعب نفس الدخان بعق ثم قال للمسئول الإذاعي برجاء حار:

«أمانة عليك يارجل أن تصارحنا! هناك شيء خطير حصل! ما هو؟ أرح

قلوبنا أراح الله قلبك، لا نتركنا مشغولين عليكم بعد أن أحببناكم من كل قلوبنا!!»

شوح المسئول الإذاعي بذراعه فى فروغ بال يخفى به ما فى داخله من أسف:

«حادث سخيف أخطأ التوقيت!!»

سأله عبدالبصير بلهفة:

«خيرا إن شاء الله؟!»

«بنت عمى مثقفة! وفنانة! فى السنة الثالثة بكلية الآداب بالاسكندرية قسم

اللغة الانجليزية! متفتحة كالوردة طول عمرها متفوقة!! جاعا خلل مفاجيء فى

عقلها كما يزعم عمى الذى هو أكبر من عمى والد العروس وهو شديد قاس! والله

أعلم بالحقيقة لكن عمى عامل البنت بقسوة شديدة لجرد أن لها ميولا فنية!! منعها

من الجامعة حبسها فى البيت!! الللية نسوا باب غرفتها مفتوحا لأول مرة بعد ثمانية أشهر من الحبس! لحظات! خرجت فيها إلى المطبخ فنقلت منه الجاز والكبريت! وحينما أعادوا إغلاق الباب عليها لحظة الاتيان بك من البيت أشعلت النار فى نفسها! ماتت طبعاً»

ومسح دمعة تحدرت على خديه..

— «ماتت؟!»

هكذا صرخ عبد البصير بغير وعى صرخة فزعة من قلب مكلوم وكاد يستطرد: ماتت أفرح؟! لكن الله ألهمه فسكت، انكمش فى المقعد مضطرباً ينتفض من الغيظ والغضب يريد أن يبكى يملأ الدنيا صراخاً يعود إلى عمها فيطلق عليه الرصاص، لكنه جاهد ليحتفظ بتوازنه.

حينما فتحت له خالته باب شقتها دلف إلى حجرة الصالون صامتاً مكبوساً يجز على أنيابه يصادر دمومه التى تتدافع فى مقتلته بعنف وحرارة. قالت خالته:

— «مالك يا حبيبى؟ مزود وكاتم فى روحك؟!»

قال بصوت محتبس:

— «إرهاق! كنت فى فرح وتعبت!!»

ريبت على ظهره:

— «تشرب شاي بالطيب؟!»

قال: «القهوة أفضل!»

فمضت.. اختفت فى المطبخ، فتح صندوق الكمان ليأخذ المبلغ بغير حماسة، لكنه أبقى الكمان فى يديه شاردا مشتت الفكر مضطرب الأعصاب، كان يريد أن يبكى بحرقة أعنف وأحر بكاء، فبكت بدلا من الأوتار.

(٢٣)

كانت الأسرة كلها تستعد لفرح أخته الكبرى.. ماعدا زوجة أبيه التى انجبت للمرة الثالثة فازدادت حدة وتأمراً عليهم وتسلطاً على أبيه. بقدر استيائه من

ضياح هيبة أبيه وكسر شوكته كان يشعر بعدالة السماء تنتقم لأمه من العذاب الطويل الذى عاشته مع أبيه، إنما كان الاستعداد للفرح يشغل أباه بالدرجة الأولى، وأمه على البعد، كلاهما يطلب فرحا يليق بلؤلؤ البخت فى الانجاب، البكرية، وكان عبدالبصير قد اتفق مع جميع اصدقائه من العازفين والغنين على إحياء الفرح بالمجان، بات يكثر من زيارة أمه فى بيت زوجها، فكانت تفرح بمجيئه فرحا عظيما، وتهيئ له الكتبة الاستانبولى فى الحجرة الجوانية المكنونة ذات الشباك البحرى الرائع، ليجلس وقت الأصيل يداعب أوتاره، حيث يكون زوج أمه قد استيقظ من نومة القيلولة صافى المزاج فيشربان القهوة معا، والسجائر الملقومة بالحشيش، فيسحب زوج الأم النفس بعمق ويعقب:

- «لا حشيش أروع من حشيشك يا عبدالبصير حين تملس هذه الأوتار: إنها تسكرنى وتسطلنى معا! أنت والله ابن حلال! رح ياشيخ إلهى ربنا يأخذ بيدك ويفتحها فى وجهك!!»

تهز الأم رأسها مزهوة باسمعة مشيرة بيدها إلى صدرها فى كثير من المرح قائلة:

- «صنعة إيدية وحياة عينية. أنا التى ربيت! شجعت! تحملت وصبرت من أجله!!»

يقول عبدالبصير:

- «طبعاً! لولاك ما نفعت! أنت وهذه الكمان كل شىء فى حياتى! أحبك مثلها وأحبها مثلك!! أنت وهى شىء واحد فى دماغى لا أستطيع الفصل بينكما!!»

تشوح فى وجهه بإصبعها الطويل الجميل كأصبع من الحلاوة العلف من صنع طنطا المتخصصة فيها، تردد كأنها تبتهل:

- «أنا قلبى راض عنك! طلبت من الله أن يفتحها لك أينما ذهبت! وعندى إحساس بأنك ستكون فى السماء إن شاء الله!»

هذه الكلمات كانت تستقطب الدموع فى عيني عبدالبصير تزلزل مشاعره، يجد

فى الحال أصداءها فى مقام الراسـت، يروح يلعب فى الراسـت جـيركاه مستسلما
لـحلاوة تسرى فى بدنه مستمدة من أطـياف من ذكريات الماضـى البعيد: ما أـجمل
القـديم دائـما، هل هو جميل لأنـه قـديم؟ أم لأنـه كان جميلا بالفعل؟ غدا يصـبح الـيوم
قـديما فهل تـراه يصـبح جميلا برغم شقائـه؟ إن أطـيافا ساحرة من ماضـى الزمان
تـتـنـاثـل عـلى مـخيلـته تحرك مشاعره فتـحرك أنامله فـوق الأوتار. يرى الآن أشـياء
تـنـتـسـب إلى الماضـى مع أنه لم يـكن رأـها من قـبل، أمـه وهى فتاة صـغيرة، وهى
عروس تزف إلى أبيه، الزفاف عـلى طـريقة زمان، موسيقى زمان، غناء زمان، بيوت
زمان، مـلابـس، أوانى، رجال، نساء، مدارس، طراييش، مـلاءات لف.. الخ.. ربما
كانت حلاوة الماضـى هى أننا أصـبـحنا نستطيع رؤيتـه كاملا عـلى الحـقيقة، عـكس
الحاضر والمستقبل بالطبع؟ حـتى ما كان فى الماضـى شقاء وبؤسا أصـبح له الآن
طعم خاص.

أـدمن الطـلـوس فى بـيـت أمـه، أصـبـح صـديقا حـميما لزوجها ذى القلب الطيب.
ارتبط وجدانه بهذه الكـتـبة تحت هذا الشباك المـطل عـلى التـرعة والخلاء المتباعد. لم
يـعد يـذكر نـفسـه جالسا عـلى هـذه الكـتـبة إلا والـكـمان بـين يـديه والخواطر والمـشاعر
تـنـثـال عـليه، الخلاء المتباعد يـرجع أصداء أنغامه، فى هـذه الحـجرة يشـعر
بـالاستقرار، بالنظافة، يحلو له أن يـدخل عـلى أمـه بأكياس الفاكهة النادرة من ثمرة
كـدحـه وكـدحـه، يسألها دائـما:

«نفسك فى إيه يا أمـه؟»

«ما اتـحـرمش منك أبدا يارب!»

كان يـعرف أن الطـلب المـلح عـليها الآن هو إقامـة فرح لأختـه يـصدح فى الرقص
والغناء، يعنى لا بد من العـوامـل والـالاتية، الأمر الذى يرفضه أبوه ورفضاً قاطعا،
لـدرجة أن العريس قد تحير صار عاجزا عن اتـخـاذ القـرار الحاسـم، إنه شاب
مـتـدبـن من مـئات الدراويش الذين يقبلون يد أبيه، وهو مـيال إلى الأخذ برأى حميه
وعـدم إغـضابه ولا يـمانع أن يـكون الفـرح عـلى القـد، يتولى أهـل العروسين إحياءه
بأنفـسـهم، والاكتفاء بـراقصة واحدة للزفة لكنـه حينما يلتقى حماته يصير مـيالا

إقامة فرح بمعنى الكلمة يحضره العوالم والالاتية، فالإنسان لايفرح كل يوم، وفرحة العرس هي فرحة العمر.. إلخ..

بقى العريس على هذه الحال حتى قيل الفرح بيومين، ليفاجأ بأن عبدالبصير قد دبر كل شيء ومع أمه، صباح يوم الفرح فوجيء العريس بعمال الفراشة، يدقون للسرايق أمام بيته، فوقف يتفرج عليهم في فرح مشوب باحتجاج صامت. عندما انتهوا من إقامة السرايق والمنصة وجد نفسه يسألهم:

— «كم حسايكم يا أسيادنا؟»

رد عليه كبيرهم:

— «الحساب وصل!»

حمد الله في سره بشدة، ليس لأنه أعفى من الدفع، وإنما لأنه سيكون صادقا مائة في المائة حينما يحلف لحميه بأغلظ الأيمان أنه لا شأن له فيما حدث ولم يدفع مليما ولم يتفق مع أى أحد. فى الواقع لقد تصرف عبدالبصير هكذا تحسبا لهذا الموقف المتوقع، فإنه لم يشأ إعطاء أبيه فرصة للغضب من زوج ابنته بأى سبب، كان يعرف أن أباه سيركب رأسه العنيد ويشتط فى علاج الموقف، لكنه ترك الأمور تجرى حسبما اتفق.

بالفعل حدث ماتوقعه: اصطحب أبوه العروسين لعقد القران فى المسجد الأحمدى عقب صلاة العشاء، ثم عاد بالعروس إلى البيت حيث قامت الماشطة بتزيينها وإلباسها فستان الزفة، ثم استدعى أم بهيجة فحضرت مع لفيف من بناتها وصويحاتهن فقمن بالمهمة على أكمل وجه: غنن ورقصن حتى زلزلت الحارة زلزالها من ضجيج البهجة الصاخبة، وبعد أكثر من ساعة قمن بزف العروس من البيت إلى البيت فى مجموعة من عريات الحنطور لسنايك خيلها وقع بديع على الأسفلت صنع خلفية جميلة جدا لأغنية: اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوة جنينة. فلما وصلن إلى بيت العريس تسلن من خلف السرايق كأنما لا شأن لهن به، وضمن العروس على مقعد فى حوش البيت حيث جلست أختها

الصغيرة بجوارها من اليمين، وبنت من سنايير أم بهيجة من الشمال، استأنفن الغناء والرقص بشكل هادر.

كان العريس قد ذهب ليستحم فى بيت خاله فى كفرة الجاز، خلف محطة السكة الحديد، ثم انتقل ورفاقه فى ثلاث سيارات مزدانات بأشرطة ملونة. ما أن وصلوا إلى البيت حتى تسللوا به هو الآخر خلف السراديق، بمجرد وصول نبأ حضوره حمل النساء العروس إلى الطابق الثانى حيث غرفة نومها وتسلمن العريس فأدخلنه على عروسه.

بقى الحاج مصطفى وزوجته السابقة واقفين فى ردهة الشقة حيث انتحى كل منهما ركنا بعيدا عن الآخر كأنما لا يعرف أحدها الآخر، والقلق باد عليهما رغم ما يشعر كل منهما من تشف فى الآخر لأنه نفذ رأيه ومشيبته بالنسبة لنظام الفرح. فلما تناهت إليهما صرخة البنت عالية ومكتومة معا، تمطعت الهانم ولوحت بذراعها فى زغردة رجت البيت رجاء، ثم شقت طريقها بين كتل اللحم حتى وصلت إلى باب الغرفة فطرقته ثم فتحته ثم مرقت داخله وردت الباب خلفها، ثم خرجت بعد برهة ممسكة بالحرمة البيضاء التى تبقت بآدم المحترق الداكن، والزغاريد تتدافع من قمها متلاحقة متلاحقة.

لحظتها استدار الحاج مصطفى ماسحا لحيته بأطراف أصابعه فى شىء من الرضا عن النفس. مضى يهبط السلم متمتا ببعض آيات الحمد والثناء. ألقى على السراديق الصاخب نظرة رثاء وسخرية، جانبه بحذر كما يشمر الشيخ جلبابه انقاء للنجاسة، متعثرا فى خطوه، ثم ما لبث حتى استقام فى الطريق إلى بيت الشيخ سند ليكمل السهرة عنده بين رفاقه الطيبين.

كل ذلك والسراديق لا شأن له بما حدث، الغناء والرقص شغال على سنجة عشرة، وأهل العريس وصحابه يستفزون الحضور لتقديم النقوط كلما هبط حماسهم، إذ يطلع واحد منهم إلى المنصة فيقدم النقوط تحية لفلان وعلان، فيرسل فلان النقوط ردا على هذه التحية بأحسن منها.

وكانت الساعة قد دخلت فى بداية النصف الثانى من الليل حينما اقتحم السرايق موكب من الزغاريد يقترب شيئا فشيئا، لحظتذاك كان عبدالبصير جالسا بين العازفين يوزع اهتمامه بين العزف ومراقبة الجو، فإذا به يرى أمه تظهر فى مقدمة الموكب القادم من خلف السرايق من البيت، ثم ظهر العريس متأبطا عروسه التى تزينت هذه المرة بيد أمها بعد أن أشرفت على تطهيرها من دم البكارة الذى خلد وسامه على محرمة من قماش الدبلان فى حجم الفوطه ستبقى أبد الدهر بين الثياب ويعد أن أطعمت العروسين برام الاتفاق الذى صنعته بنفسها.

ابتسم عبدالبصير لاكتشافه دليلا جديدا على أن عناد أمه أقوى من عناد أبيه. قال لنفسه إن السبب فى تقوية عنادها هكذا شدة العناد فى أبيه. ثم قام من فورهِ فأعد مقاعد للعروسين فى زاوية بارزة للمصورين، ثم اتخذ مجلسه. عزفت الفرقة عشرات السلامات والتحيات ابتهاجا بقنوم العروسين، انهار النقوط من جديد،، نشطت الفرقة، سخن الفرح بدأ بدايته الحقيقية، كانت الفرقة مختارة من نماذج محترمة للغاية انتقاهم عبدالبصير من غير المحترفين، من هواة على شيء من العلم والثقافة، دربهم طوال بضعة أيام على بعض مقطوعاته بمساعدة إبراهيم أفندى غطاس.

بدأ الصحاب يلحون فى طلب التقاسيم من عبدالبصير، فأولم إبراهيم أفندى غطاس، الذى أمسك بالميكروفون وقدم للحضور ابن طنطا النابغة عبدالبصير الصوفانى صاحب القوس المعجزة والأوتار الشاعرة، تم انزال الميكروفون إلى مستوى الجلسة، شرع عبدالبصير يعزف مقطوعاته الثلاث. فلما ضج السرايق بالتصفيق والتهليل والاستحسان كان هو قد توهج بصورة نادرة، فأمسك بسماعة الميكروفون وشكر الحاضرين على حسن استماعهم، ثم قدم التهنئة للعروسين، وأضاف قائلا إنه - تحية للعروسين - سيعزف مقطوعة جديدة انتهت من تأليفها اليوم بعنوان (ليالى زمان) فضج السرايق، ولعلت زغاريد أمه مشرقة طروية نشوانة.

ضاقَتْ به الحياة فى طنطا أكثر من ذى قبل. شهور طويلة مضت لم يلق خلاها دعوة لحفل محترم، كل الدعوات لإقامة أفراح فى القرى، والقرى ميدان فسيح أمام المتعهدين يمارسون فيه النصب والاحتفال دون رادع، يصعدون إليه حثالة مقاهى الفن. والشئ الوحيد الذى يحرق دمه حقا هو اضطرابه للعمل مع أدعياء عاطلين من المهبة، بحر التفاهة مفتوح أمامه، وصحراء الضجر والفراغ من خلفه، فماذا يفعل ؟ أين يذهب وقد باتت مدينة طنطا أضيق من خرم الإبرة؟!

لا يدري لماذا حضر «الكافورى» بالذات إلى ذهنه مع أنه كان أوشك على نسيانه تماما فى الفترة الأخيرة. الكافورى يعيش فى بلدة أبى حماد بالشرقية. هو عازف بيانو منفاخ، موهوب لاشك فى موهبته، يحترم نفسه بقدر الإمكان، يعتبر الموسيقى أرفع الفنون قاطبة، وأن المتتمين إليها - تبعاً لذلك - لابد أن يكونوا على درجة كبيرة من الاحترام والصدق والنزاهة أن يكونوا أشرف الناس ليكونوا جديرين بشرف الانتماء إلى الموسيقى.

كان الكافورى مدرسا للموسيقى يعطى الدروس الخصوصية، يعزف فى الحفلات الخاصة، ولكى يضمن وجوده فى محيط من العازفين المحترمين قرر أن يكون مقاولا وفنانا: المضطر يركب الصعب بإصاحبى، مرغم أخاك لاشره ولاطماع، إنه فعلا لا يطمئن لأى متعهد، ولا يقبل أى دعوة للعمل إلا إذا دس أنفه فى تفاصيل الحفل، من الذى سيفنى، من سيعزف على الكمان، وعلى القانون وعلى العود وعلى الناي وعلى الإيقاع فلان أفضل من فلان فى العود، وفلانة إذا كلفتنا جنيهاً أزيد فإنها أكسب لنا، دك من هذا الطبال القرداتى وهات الولد فلان من طنطا، فى دسوق ولد ناياتى يسحرك، هاك رقم هاتفه.

دأب المتعهدون على تبليغه الطلب هكذا: مطلوب مغن ورقصة وخمسة آلاتية ومنولوجست، مطلوب قعدة عيد ميلاد فى منزل، مطلوب حفل فى ناد، فى سرادق، على سطح .. إلخ. فيقوم هو تبعاً لذلك بانتخاب المستوى اللائق.

إذا كان فن الفنان ينضج على مظهره كما تنضج معظم المهن على مظاهر أهلها فإن شكل الكافورى يقول بأفصح بيان: أنا فنان .. وجهه مستطيل شاحب بعينين شارديتين على النوم، نظراتهما هادئة ولكنها تشي بعمق ونفاذ. العينان فيهما خضرة البرسيم، جبهته ضيقة مقلوطة كالزلطة، تمتد فوقها فروة الشعر الغزير المهوش المتكور فوق بعضه بصورة فوضوية لاتسمح لأى مشط بالمرور فيها، طويل السوالمف أشيب الفودين، غزير شعر الحواجب، غزير الشارب، طويل الأصابع طويل القامة، نحيل البدن، بارز الصدر، رقبته دائما فى حالة انكسار خفيفة حتى وهو ينظر إلى بعيد، فكأنه فى حالة جلوس دائم إلى البيانو، ودائما أبدا فى حالة إنصات، فى محاولة استرجاع لازمة موسيقية ينددنها فى صمت مع هزات من رأسه ويديه وتوقيع بقدميه. أحيانا يرفع صوته فجأة ناطقا بالحروف الموسيقية سريعة منغومة.

يرتدى جلبابا من البويلين الأبيض ذى ياقة وأساور طالما هو فى البلد، فكأن البلدة بيته الذى يتحرك فيه على راحته فى قدميه شبشب عمولة متين الصنع بنعل وكعب، كنصف حذاء أمامى، أما إن تأهب للخروج من البلد - ولولمسافة عبور ترعة - فإنه يرتدى البدلة الكاملة برياط العنق والمنديل على شكل الأهرامات الثلاث فى جيب الصدر.

حضور الكافورى فى ذهن عبدالبصير أشعره بابتهاج كبير . إنه يستريح لهذا الرجل، يحترمه، يائتس بمحضره بل يستفيد علما ومعرفة، إذ الرجل ملم بكل أخبار الموسيقى والغناء فى العالم أولا بأول، يعرف أن مؤتمرا للأغنية سينعقد فى النولة الفلانية يوم كذا وسوف تشارك فيه مصر بوفد مكون من فلان وعلان، يعرف أن مؤتمرات مشابهة عقدت فى مصر سنة كذا، يعرف - ويمتلك - كتباً عن الموسيقى العربية، لديه أيضا - وهذا ما أدهش عبدالبصير - مجلة خاصة بالموسيقى يصدرها الدكتور محمود الحفنى بانتظام، لديه كذلك نوت موسيقية مطبوعة فى كتب ومجلدات ثمينة التجليد بعضها من ألمانيا وبعضها من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، اشتراها من على سور الأزيكية ومن المكتبات الأجنبية فى

القاهرة والاسكندرية . هو حتما لا يقرأ هذه اللغات لكنه يجيد قراءة اللغة الأهم، لغة الحروف الموسيقية المدونة بها هُفم النوتات . يشرح لزواره من الهواة كيف أن هذه - تصوروا - هى السيمفونية السادسة، وأما هذه - حذروا فزوا - فإنها إنها، إنها الأوبرا التى ألفتها فيردى باسم عابدة لتعرض على دار الأوبرا المصرية، وأما هذه النوتات المجموعة فى كتاب فإنها أغنيات شعبية مصرية جمعها فرد فرنسى يدعى ماسبيرو كان من العلماء المرافقين للحملة الفرنسية، جمعها كلاما ولحنا، صفحة فيها الكلام بالعامية المصرية والصفحة المقابلة فيها النوتة الموسيقية هل تحبون أن أعزفها لكم على البيانو؟ هكذا، أنظروا كيف كان أجدادكم الحفاة يغنون منذ مائة وخمسين سنة أو أكثر، أه لو ضرب الحظ معنى فوجدت أميراً يرعانى وينفق على منزلى إذن لوضعت كتابا عن الملحنين المشهورين أين فيه كيف سرقوا هذه الألحان العظيمة ووضعوا عليها أسماءهم، ولكن من أين يجيء الحظ؟ إن الحظ لو اقترب من بلدة أبى حماد فسوف يموت مقهورا من الصدمة.

غير أن بهجة عبدالبصير كانت عظيمة حقا حينما تذكر أن الكافورى من الشرقية، وهو يشعر أن للشرقية وقعا حميما فى قلبه، إن هاتفا قويا يشده للقيام بهذا المشوار . إنه فعلا فى شوق كبير للكافورى، ولو أمضى عنده يوما بليلة فلاشك تتجدد نفسه، وقد يجيئه رزق، بل قد .. قد .. قد يعرف شيئا من أخبار سعدية المليجى التى سكنت قلبه فلم يعد فيه مكان لغيرها، وهكذا ركب القطار متوجها من فوره إلى أبى حماد .

بيت الكافورى نسخة طبق الأصل من الكافورى نفسه؟ بيت جميل الشكل ومهوش فى آن، مزيج من الفوضى والنظام، متسق مع ذلك للغاية، غرفة الاستقبال وإن حوت صالونا كاملا من الشغل الدمياطى على الطراز الملكى، اتسعت مع ذلك لكراسى إضافية متناثرة الأشكال والألوان والأنواق، كان كل كرسى استعير من مكان بعيد، منها الكلاسيكى المحنق الدقيق الصنع والطلاء كائنه بقايا أسرة عريقة غارية، ومنها المصنوع من القش، ومنها الخشب، ومنها ماهو من مواشير

الحديد الخردة، بعضها منزوع المسند، بعضها الآخر منزوع القرص ويستعاض عن قرصه بلوح خشبي يوضع كيفما اتفق، تتسع الغرفة أيضا لآلة البيانو المنفاخ، وآلات أخرى عتيقة فى حاجة إلى إصلاح، اشتراها قطعة بعد أخرى من بائعى الرديابيكيا واختار لها زوايا فى الغرفة يطلقها فيها على الحوائط بمسامير وأسلاك. بوفيه الأطعم الصينى الضخم ذو الأرفف الزجاجية والبطانة الداخلية من المرايا، يقبع هو الآخر فى ركن، ترتص فوقه تلال هائلة من الكتب والمجلات والصحف. صور كثيرة على الحوائط لعبده الحامولى، وسلامة حجازى، والشيوخ درويش الحريرى، وزكريا أحمد، وسيد درويش، ونجيب الريحانى، ويوسف وهبى، تتوسطها صورة مبروزة بإطار من الأرابيسك فى حجم صفحة الجرنال، لرجل معمم ممتلىء الخدين يشبه إلى حد كبير صورة الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى، مع أن الاسم المخطوط أسفل الصورة يشير إلى أنه الشيخ الكافورى الأب، الذى كان صبيتا مشهورا وقارئ قرآن وعالما فى التفسير والحديث، ويشيع الكافورى أنه كان يجيد العزف على أكثر من آلة موسيقية، فى مواجهة هذه الصورة على الحائط المقابل صورة بنفس الحجم للكافورى نفسه فى عز شبابه يرتدى البذلة والطربوش ويقف ممسكا بيمناه العصا الأبنوس ومستندا بيسراه على كرسي عباسى قديم الطراز عليه إصيص نحاسى صدئ تطلع منه أعواد الزهور. بجوارها صورة زفاف الكافورى واضعا ذراعه اليمنى على كتف زوجته التى بدت جميلة الوجه سميئة مبطرخة من كل ناحية وشعرها مفروق من المنتصف ومجموع فى ضفيرتين تتسدل إحداهما على ظهرها والأخرى على صدرها ومن فوقها طرحة الزفاف يتاجها المزين بالورود. على ترابيزة الوسط صور مبروزة بحوامل لأولاده وهم أطفال، ولحفيدته الجديدة، إلى جوارها طفاية سجاير كبيرة من البللور ممثلة بأعقاب السجائر الـ «جولد فلاك» الساخنة التى يدمنها الكافورى.

الغرفة مطلة على الشارع، يفصلها عنه فراغ عرضه متر ونصف تقريبا، مسور بزوايا الحديد ودعامات أسمنتية، وباب حديدى متين قصير القامة يسهل فتحه من

الخارج بأن يمد الواحد يده عبر الشبكة الحديدية لينزع الترياس ويدفع الباب، لكن أحدا لن يفعل ، لأن تكة الترياس تدق رأس الكلب الرابض فى الأرض الرطبة فى مكان خفى، فيدب فيه الهياج الشرس، ويلا أى تفاهم ينقض على بطن الداخل فيمزقها، إلا أنه كلب نكى القلب كالكاפורى مغرم بالموسيقى مثله، يترنم لها وتهدا أعصابه ويبتهج، يحب كل الموسيقيين يعرفهم جيدا وعلى صداقة وطيدة ببعضهم ، ما أن يشم رائحة الواحد منهم حتى يأتى فى قفزة واحدة فيشب على الباب من الداخل معلقا أماميته فى فتحات الشبكة الحديدية كأنه يريد أن يمد يديه مسلما أو متلقفا بالأحضان، يروح يعكرش فى موضع الترياس وذيله منخرط فى رقص بديع نشوان.

استقبله لعبد البصير كان حافلا، كاد يقول له: أين كنت منذ مدة وعندما فتح الترياس اندفع الكلب عنتر نحوه فتلقفه فى حضنه. من الباب الحديدى إلى سلم البيت خطوة واحدة، ثمة سلم بمدخلين متقابلين، يوصل إلى بسطة ترتفع عن الأرض حوالى مترين، من يقف عليها يصير فى شبه إيوان مسجد فى قلبه باب، إذا طرقة برفق سيرد عليه من الأعماق البعيدة أى صوت قائلا: تفضل، فعليك أن تدفع الباب وتدخل لتجد الكراسى كلها فى انتظارك! اجلس، قلب فى المجلات والصحف، فإن هى إلا برهة حتى يجيئك فلاح شاب هو أصغر أشقاء الكافورى، حاملا صينية عليها براد ملائ بالشاى وعدة أكواب من الزنك الأبيض، تأخذ واجبك أولا، ثم تسأل إن كان صاحب البيت موجودا أم لا؟ فإن كان موجودا فإنك لن تضطر للسؤال لأنك قبل انتهائك من شرب الشاى تراه ماثلا أمامك فى بشاشة وترحيب، فإن لم يكن موجودا فإن الشاب الذى دخل بالشاى سيجلس معك.

شعر عبدالبصير باحباط حينما جلس الشاب معه، خاصة أنه لاحظ أن آلة البيانو غير موجودة. سرعان ما أخبره الشاب أن الأستاذ سافر بالأمس إلى أنشاص لإحياء مواد هناك مع الصييت الشهير عبدالوهاب النجدى.

كان الوقت ما بين الظهر والعصر، فرأى عبدالصير أن السفر الآن إلى انشاص قد وجب، منها فرجة على المولد ومنها لقاء مع الكافورى. عند أذان العشاء كان يدخل مدينة أنشاص التى يحبها ويلتقى فيها شبانا كثيرين يحبون الشعر والموسيقى، مضى فى شوارع المدينة فإذا هى تحتفل بمولد أحد أوليائها الصالحين، السراذقات منصوبة فى الساحة العريضة الكبيرة، تياترات وسيركات ومنصات ألعاب نارية، راح يستطلع سرادقات التياترات يتفرج على صور نجومها يقرأ برامج سهراتها، على باب أول سرادق خفق قلبه وتسمر فى مكانه محاولا السيطرة على نفسه حتى لاينفجر من الفرحه مزقا متناثرة، ذلك أن صورة سعدية المليجى كانت تنصدر صف الصور كنجمة أولى فى البرنامج لهذا التياترو.

كان الوقت مبكرا، فبادر بقطع تذكرة فى الصف الأول، احتمل الكثير من «النمر» السوقية السمجة، خاصة تلك التى يؤلف أصحابها لأنفسهم شخصيات نمطية وثنائيات فكاية مبتذلة ولزجة: الزعيلوى والشنكاوى ، زعيط ومعيط، رفيعة هانم والسبع أفندى، حمص وحلاوة .. إلخ.

أخيرا، وبعد أن تيقنت إدارة التياترو أن جمهورا جديدا لم يعد محتملا فى أفق الليلة، وأن منظر صفوف المقاعد قد صار مبهجا إلى حد ما، ظهر الأفندى النحيل المفرط فى الأناقة والعطور، فقدم للجمهور نجمة السهرة، المطربة ذات الصوت الملائكى سعدية المليجى، وارتفع صوته بالاسم فى صيحة حماسية طنانه، ثم مالبت القمر حتى شق طريقه بين الستائر الرديماية، وأقبل يتبختر فى خطو هين رشيق.

شعرت سعدية المليجى أن نوى التصفيق تشويه الليلة نبرة دافئة لم تلمسها فى الليلتين السالفتين، فثمة يد عفوية تقود موجة التصفيق عند لمسات بعينها لايتنوقها إلا حريف متودك فاهم للأداء وأصوله، تمشت الفرحه فى أوصالها كبيب النمل وحمدت الله كعاداتها كلما قولت من الجمهور بحفاوة تؤكد موهبتها

وتضعها في المكانة اللائقة، قررت أن تشبع هذا الجمهور بأعلى ما في صوتها من نبرات، ومالت على أخذتها، تبادلنا الهمس لبرهة كنهما تتشاوران في الأغنيات التي تكشف أكثر من غيرها عن جمال صوتها، أغنية وراء أغنية، تاکد لديها أن الحفل متغير عن كل ليلة، ثمة أنفاس جديدة وحميمة بين جمهور الليلة، ومن الصف الأول تجيء تعليقات ذات مغزى فني خبير، فانشدت نظراتها تطوف على الصف في حركة استطلاعية متلهفة إلى أن التحمت العين بالعين، فعرها ارتباك عظيم، تدفقت عصائر الورد في خديها، صارت من فرط الخجل والارتباك يضل صوتها عن النغم الصحيح لولا أنها سرعان ماتتصرف بلباقة وذكاء، انسلت عن اللحن إلى رحابة الموال فراحت تصول وتجول بمطلق حريتها تستجيب الأنغام لحالتها الشعورية الطارئة.

أنهت الوصلة على خير مايرام، هرولت إلى الكواليس لحقت بها أخذتها:
- «الجو غير طيبعي ! ما الأمر؟!».

لكن سعادية نادت خادمها الخصوصى عثمان. عبد أسود ضخم الجثة كبوابة الدار، ثاقب العينين غليظ الشفتين غليظ الصوت، له يد كالفأس، ورقبة كجذع الشجرة، يربط على زنده خنجر، وتحت إبطه بندقية مكسورة إلى قطعتين، شغلة عثمان أن يرافقها في كل مكان تذهب إليه، لا يتركها تغيب عن عينيه برهة واحدة، فإذا دخلت حجرة مكتب مغلقة لإجراء اتفاق فمن حقه أن يكسر الباب ويدخل إن غابت أكثر من عشر دقائق، مالم تخرج هي إليه من حين لآخر كي تطمئنه قائلة:
حالا ياعم عثمان، فيهز رأسه في امتثال: براحتك ياست هانم.
قالت له:

- «في الصف الأول على الشمال في الكرسي الخامس شاب يضع على كتفيه لاسه حمراء! هاته وتعال!».

أوماً برأسه ومضى. كان لطيفاً جداً، رقيق الحاشية، جميل اللفظ مختصر العبارة واضح النبرات في حسم، مال على أذن عبدالبصير وهمس في أدب جم:

— «فيه ناس عايزين حضرتك! تعال ورائى» .

تعرف عليه فى الحال، مضى وراءه يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ليسبقه، وكان عثمان قد تعرف عليه هو الآخر، تذكر أنه التقاه فى مولد البدوى، تذكر ما كان بينه وبين سيدته من ملاطفات وود، فصار يببالغ فى احترامه وتوسيع السكة له، يردد فى كل خطوة:

— «اتفضل يابيه ! من هنا يابيه» !!

كانت سعيدية وحدها فى انتظاره فى مكان قصى من خلف الكواليس، كاد يرتدى فى حضنها، يصيح بأعلى صوته:

— «أحبك ياسعدية ! أحب الدنيا كلها من أجلك، مرينى أفعل ماتشائين حتى تكونى راضية عنى، لم أحب أحدا سواك! أنت أول وآخر حب فى حياتى».

هى الأخرى كانت تحاول أن تخمد فى قلبها كتكوتا ينبش قشرة البيضة يلح فى الخروج إلى الحياة، ورغم أنها قد تدرت منذ برهة على كيفية اعتقال عواطفها والسيطرة على مظهرها، فإنها عجزت عن الامساك بالصوت المحايد الذى انتوت أن تكلمه به، ثلثت يده الكبيرة بيديها الاثنتين بصوتها الذى خانها بارتعاشة الحب الدافئة المحتشدة بالشوق والحنو والأمومة قالت له:

— «لماذا فعلت هذا؟».

أجمته الدهشة، وقف مبلولا يبحث فى ذهنه عن هذا الذى ربما يكون قد فعله بون أن يدري، انتشلتة هى من ورطته قائلة كأنها تشرح عبارتها السابقة:

— «كيف تجيء ورائى إلى هنا!»

قبل أن يفتح فمه ربتت على كتفه براحة يد تضخ الكهرباء فى أوصاله، كأم تدادى طفلها الشقى العايب، قالت فى حسم:

— «ارجع ! عد إلى طنطا فى الحال أرجوك وأتوسل إليك!! لاتعارضنى!! لاتفتح فمك بكلمة! عد حالا إلى طنطا بأى شكل !! لاتبق هنا دقيقة واحدة !! إنى خائفة عليك!! حياتك فى خطر!! إعمل معروفًا لاتجعلنى أقضى بقية عمرى معذبة بذنبك!! أرحنى أراح الله قلبك!!».

كان همسها يعكس حرارة وضراعة أدهشتاه بقوة . لم يعرف ماذا يقول سوى
أن جعل يردد:

- «ما كل هذا الخوف، ما كل هذا الخوف»

ضغطت على كتفه بغمرة فيها شيء خصوصى استشعره، حيث أودعتها كل
ما فى قلبها من حب وإنسانية دافقة:

- «إياك أن تفكر أننى سائبة أتحرّك كيف أشاء؟! لا!! إن الله أعطانى الموهبة
وحرمنى متعة الحرية!! إننى أشدّ يؤسا من السجينة فى زنزانة!! يتحرّك وراء ظلى
أشكال وألوان من خلق الله!! عمد ! فتوات! بكوات! تجار أثرياء ! قطاع طرق!
أصحاب مناصب فى الدولة ! عيال صياغ! كل واحد منهم يريد أن يأخذنى بأى
شكل وبكل شكل! كل واحد منهم يدبر للآخر مكيدة ومصيبة!! إن طال أحدهم
الآخر قتله. الجميع يتربص بى! إن غيت لحظة عن واحد منهم ظن أننى وقعت فى
يد الآخر فيبحث عنه وعن! الشر كله يحيط بى! طريقى كله دم ولولا عم عثمان
القوى ماجرؤت على الخروج من البيت! أنا أيضا عنيدة! لا أحد فى الدنيا يأخذنى
من فنى الذى نذرت له حياتى! الناس فى بلادنا يطمعون فى أى فتاة تدخل طريق
الفن! يظنونها ضائعة لاتجد من يحكمها. لقمة طرية يخطفها الأقوى ! وأنا لن
أكون سريرا!! أنا فنانة!! ولابد أن أثبت لهؤلاء الناس الظالمين أن طريق الفن
شريف!! طولت معك فى الكلام وهناك ألف عين تقيس الآن طولك وعرضك!!

أنت لاتتخيل حجم الكارثة التى يمكن أن تحدث بعد دقيقة واحدة إذا استمر
وقوفنا هكذا!! أرجوك أقبل يدك أن تخرج من هنا على المحطة رأسا».

ثم نالت:

- «عم عثمان!!».

فإذا هو أمامها فى الحال، فتحت حقيبة يدها، أخرجت منها ورقة نقد كبيرة ،
أعطتها لعم عثمان!

- «خذ الأستاذ واذهب به إلى محطة أتوبيس طنطا! اقطع له تذكرة، لا تتركه
إلا بعد أن يتحرّك الأتوبيس ! فاهم ما أقوله يا عم عثمان».

- «حاضر يا ست هانم!!».

ريقه نشف، فى مزيج من الحرج والصدمة قال:

- «وفرى فلوسك! فأنا معى على الأقل أجرة السفر!!».

قالت بحسم:

- «لا ! أنت ضيفى وتسافر بناء على رغبتى فلا بد أن يكون سفرك على

حسابى! إنها فضلة خيرك فى طنطا مع السلامة! سنتقابل، لا تتعجل! أشوفك

بخير» .

واستدارت ملوحة له بذراعها فى سرعة واضطراب.

تسلمه عم عثمان ومضى به فى اتجاه محطة الأتوبيس بعد مغادرتهما ساحة

المولد مال على عم عثمان قال فى ود :

- «عد أنت ياعم عثمان فأنا أعرف الطريق وحدى! خذ هذه لك!!».

غمزه بخمسة جنيهات، فنزع الرجل يده بعنف كأنما لسعته عقرب:

- «عيب يا أستاذ أنت تريدنى أخالف أوامر الست وهذا لا يكون أبدا ولو بمال

قارون !! أنا عينى ملانة يا أستاذ !! الست هانم قالت إنك ترجع إلى طنطا يعنى

ترجع إلى طنطا!!».

لم يجد بدا من الامتثال، فمضى بجواره صاغرا منكسرا، يشعر كأن الخيمة

التي كانت تظله وتستره قد عبثت بها الرياح فاقتلعتها وبعثرتها ليصير هو فى

العراء.

كطفل مغلوب على أمره أخذ التذكرة من المحصل وجلس يرقب عثمان الذى

وقف أمام باب الأتوبيس كجدار ثقیل من الليل، ظل واقفا هكذا حتى تحرك

الأتوبيس بالفعل وقطع شوطا، فلما خرج الأتوبيس من المدينة واستلم الطريق

الزراعى صار عبد البصير، بحركة تمثيلية متقنة، يتحسس جيوبه، يشير بأصبعه

إلى رأسه فى محاولة للتذكر، أخيرا هب واقفا:

- «لو سمحت يا أسطى! نسيت حقيبة هدى فى البيت، أسود الوجه الملعون

استعجلنى!! أنزلنى هنا!!».

تمهل السائق ثم توقف، قفز عبدالبصير الى الأرض، اتخذ طريقه على مهل إلى ساحة المولد من جديد، ليبحث عن الكافورى الذى جاء خصيصا من أجله.

(٢٦)

بعد بضعة أسئلة فى بضعة محلات اتضح أن الكافورى لم يكن فى حالة شغل، إنما كان ضيفا على «خدمة» والخدمة مصطلح يطلقه أصحاب الطرق الصوفية على المكان الذى يستأجرونه أو الخيمة التى ينصبونها فى أحد الموالد، والمعنى أنهم جميعا خدم لأهل الله ورجال الطريق، فلقد جاؤا من بلادهم لخدمة زوار هذا الولى الصالح، وقيل إن السبب فى تسمية الخدمة بالخدمة كونهم يخدمون أنفسهم بأنفسهم.

وصل إلى الخيمة التى استضيف فيها الكافورى، فوجىء به جالسا فى رهط من الرجال يوحى سمتهم بأنهم مهمون، حيث تجرى خلال الحديث عبارات من قبيل: يا حضرة العمدة ويا شيخ البلد ويا مولانا.. إلخ ما أن رآه الكافورى يدخل عليهم حتى هب واقفا، فاتحا أحضانه فى فرح وتهليل كبيرين. وقف الجميع، تلقوه بترحاب مهيب قال الكافورى:

- «جئت فى وقتك يا عكروت! متى تفتتح أننى مكشوف عنى الحجاب!! طلبناك ففى الحال أتيت!!».

قال عبدالبصير:

- «الحمد لله أنا أيضا مكشوف عنى الحجاب أتانى الهاتف فحركنى لهذا المشوار المفاجيء الذى جلب على قلبى السعادة كلها! يكفى أننى رأيتمكم وهذا وحده مجلبة للسعادة! اشتقت إليك فلم أصبر فجئت إليك فى الحال!!».

قدمت له أطباق الفتة وهبر اللحم.. تعشى وشرب الشاى ودخن الجوزة مع مدخنيها من الدراويش. بعدها قال الكافورى وهو يشير إلى رجل يجلس بجواره يرتدى عمامة وجلبابا من الصوف وعباءة:

- «حضرة العمدة يطيلك بنفسه!! من ساعة ماحدثته عن مواهبك وهو رأسه وألف سيف أن تشترك معنا فى شغل الأسبوع القادم بإذن الله!!».

قال عبدالبصير بأريحية صديقة:

- «أنا تحت أمر حضرة العمدة!».

هز العمدة يده على صدره:

- «تعيش يا ابن الأصول يا أمير!».

سأل عبدالبصير ببراعة:

- «والفرح فين بإذن الله؟!».

قال الكافورى:

- «ياسيدى كل سنة وأنت طيب!! مولد الشيخ جودة فى منيا القمح فى

الأسبوع المقبل وعليك خير!!».

- «مولد؟!!».

هكذا هتف عبدالبصير بصوت ينضح بعرق الصدمة والاحباط، بل وبنوار الغضب، فضحكوا رغما عنهم. فأضاف عبدالبصير بكثير من الحرج، موجها كلامه للكافورى:

- «أنت تعرف أن الموالد ليست مجالى!! شغلى نفسه ليس ينفع فى الموالد!!

جريت شغل الموالد وأنا صغير ! أى نعم تعلمت منه ولكن أهم ماتعلمته أنني لا أصلح له كما أنه لا يصلح لى!! عدم المؤاخذه يا حضرة العمدة!! أنا خدامك ومستعد للخدمة مجانا فى أفراح الأنجال كلهم! أما الموالد - «صدرت عنه حركة اشمئزاز غير مقصودة» فإنها والعياذ بالله بهدلة!! أقصد أن لها أهلها وناسها!!».

قال الكافورى باسمًا:

- «تعرف أن سر احترامى وحبى لك هو احترامك لنفسك، فمن يحترم فنه

يحترم نفسه بالضرورة!! هذا ماأعتقد، ولكن أنت تعرف أيضا أن الكافورى فنان يحترم نفسه ! أظنك غير محتاج لمن يشرح لك من هو الكافورى!! مقصودى أنه لو

لم يكن الشغل الذى أدعوك إليه محترما فمن باب أولى أن أمنع نفسي عنه!! تعرف هذا أم لا؟».

يعرف عبد البصير هذا بالفعل، ولذا فقد بدأ ضعيفا بعض الشيء وهو يقول:
- «لكننى أخذت على نفسي عهدا بأن أمتنع عن شغل الموالد!! شغلى الآن أصبح معقدا!! التقاسيم الحرة لجرد التقاسيم لم تعد تروق لى!! التقاسيم نفسها لم تعد تجيء إلا من داخل فكرة معينة!! لقد أصبحت أؤلف للكمان مقطوعات! أخذت الأشكال الأجنبية وملائها بشغل مصرى صرفا! لونها وكنتشرتو وكذا!! اسم الشكل ليس يهمنى! إنما يهمنى مافى الشكل من مشاعر وأخيلة!! واشتياقى إليك هو اشتياق لمعرفة رأيك فيما فعلت!!».

هتف الكافورى فى ابتهاج طاغ:

- «أنت الآن جعلتلى لن أتنازل عن اشتراكك معنا!! على فكرة! الفرقة التى ستشتغل معها نقاوة! كلهم من الهواة الدارسين المحترمين يعرفون قراءة النوتة! أما المغنين فهم سعدية المليجى وأختها والمنولوجست حسان شرارة ومحمد القيم وهنيات شعبان!!».

ما أن سمع أسم سعدية المليجى حتى تغيرت ملامحه، تدفق الدم فى وجهه مشعا بالابتسام أشعل سيجارة باستمتاع هائل، استسلم لنوار لذئذ: أخيرا سيجلس خلف سعدية المليجى عازفا، إن وجودها وحدها كفيل بحمله على الترحيب حتى ولو كانت بقية الفرقة ملمومة من فوق أكرام القمامة، شوح بذراعه فى مرح شديد، قائلا بصوت عال مليء باليشاشة والحماسة:
- «خلاص يا عم!! أنا لا أستطيع أن أؤخر لك أو لحضرة العمدة أى طلب! سأحضر!!».

مد الكافورى يده طالبا يد عبد البصير، طرقت السلام بين الكفين طرقة مدوية. مد العمدة هو الآخر يده وسلم عليه شاكرا. شرعوا يتكلمون فى موضوعات شتى، ولكن ذهن عبد البصير كان قد انحبس فى صدره، راح ينصت إلى ما صار يهدر فيه من أنغام تطوف به فى عوالم ساحرة.

جمهور سعدي المليجي في منيا القمح كبير؛ فهي من بلدة مجاورة. كل أهالي المنطقة يحبون صوتها، يفخرون بأن الشرقية أم الفن؛ أبناءها كثيرون بين النجوم: عبدالحليم حافظ ومرسى جميل عزيز وسيد اسماعيل وعبدالغنى السيد ورشدي أباطة؛ وفي القريب العاجل - يقولون - تنضم سعدي المليجي إلى نجوم القاهرة؛ هل هي أقل من أحد فيها؟.

لم يكن غريباً أن يمتلئ السرداق عن آخره؛ لاسيما وأن الكافورى أشرف على نظام الدعاية بنفسه فصاغها بأسلوب محترم بعيد عن المبالغات الرخيصة؛ فكانت اللافتات المعلقة على جوانب السرداق وبعض شوارع البلدة تحمل عبارات محددة على هذا النحو؛ عازف الكمان الموهوب ونجم طنطا عبدالصير الصوفانى؛ المطربة المتميزة نجمة الشرقية سعدي المليجي؛ المنولوجست السكندري الشهير حسان شرارة، إلخ.

وقف الكافورى على باب السرداق يمتع بصره بالزحام الذي يعشقه يستمد منه حماسة ساخنة ونشاط لا يهدأ، إنه لا يحيا بحق ولا يتوهج إلا وسط زحام. فإن كان الزحام فى مكان عام فإنه يحب اختراقه ميتها مبهوراً رائق المزاج يوزع البسمات العريضة على كل من يحتك به أو يلامسه عقوا. وإذا استوقف بائع العرقسوس ليشرب منه جرعة فلا بد أن يعزم على من حوله سواء كانوا من معارفه أم من الغرباء، فإذا كان الزحام خاصا فإنه يصل به إلى ذروة الوهج سواء فى العزف على البيانو أو فى الحديث الطلى الشائق.

جعل يتفرج على منظر السرداق مفتونا باللافتات المكتوبة - بخطه - بالفرشاة على شرائح من القماش وراح يرقب حركة الجمهور الوارد بكثرة، يتخرج إذا أغلظ العمال فى معاملة الجمهور؛ يتدخل فى الحال ينهر العامل يطيب خاطر الزبون؛ قد يصطحبه بنفسه إلى المقعد، فى نفس الوقت لا تغفل نظراته عن مراقبة وصول

الفنانين والالاتية. اتسعت ابتسامته حينما رأى سعدية المليجي وأختها مقبلتين نحوه ومن خلفهما عم عثمان واضعا يده فى جيب جلبابه.

كان الفرح الشديد واضحا على وجه سعدية؛ فرح ممزوج بخجل أنثوى عريق جبار؛ كأنها مقبلة على موكب زفافها. ركضت نحو الكافورى كطفلة علمت أن أباهما اشتري لها مفاجأة هائلة؛ صاحت كأنها لم تصدق اللافقات:

— «حقا؟! عبدالصير الصوفانى معنا؟!»

هز رأسه وهو يحيط يدها بيده:

— «طبعاً!! أم ترين أننا نكتب ذلك فى الاعلانات فحسب؟! هذا يكون غشا

تجاريا يعاقب عليه القانون!!»

صدرت عنها حركات طفولية تعبر عن الابتهاج والاعتباط؛ كادت تدبب بقدميها على الأرض راقصة مهللة؛ بل لعلها فعلت شيئا من ذلك فى لحظة سريعة؛ ثم شوحت بذراعيها:

— «أين هو؟! أموت وأشوفه! أحب أن أتلق معه على الألمان التى سأغنيها!

سوف أتسلطن الليلة على الآخر بإذن الله!!»

تلقت الكافورى حوالية:

— «كان هنا منذ دقيقة!!»

رمى بصره إلى بعيد؛ انخطف بصر سعدية وراء عينيها؛ حيث وقف شاب أسمر الوجه ربعة القوام يرتدى قميصا حريريا شفافا أبيض اللون على سروال من الصوف الفاتلة الأسود، وحذاء أسود على أبيض. كان مندمجا فى مشاهدة الجموع التى تلقى بنفسها فى الصخب. انعصر قلب سعدية وشحب وجهها؛ وقال الكافورى مشيرا بأصبعه إلى ذلك الشاب:

— «هو ذا!!»

تراجعت ظهرها قليلا لتتمكن من رؤية وجه الشاب جيدا؛ ثم بدأت تسمع دق قلبها. اهتزت فى وقفاتها؛ صاحت فى غضب مبالغ فيه:

— «هو ذا!! من قال هذا!!»

قال فى دهشة شديدة:

« أنا؟! ألم يعجبك منظره؟! »

صتاحت وقد جف ريقها:

« هذا هو عبد البصير الصوفانى؟! »

« هو بعينه!! »

قالت فى ثقة وقد هبط حماسها من قمة الاغتراب إلى حضيض الاحباط:

« لا يمكن!! هذا ليس هو! إننى أعرف هذا الشاب إنه من طنطا! وشكله ليس

فنانا!! »

ضحك الكافورى:

« طبعاً لا يصح أن نأخذ الناس بأشكالهم!! »

صاحت فى ضيق من نفسها:

« لكنه ليس عبد البصير الصوفانى!! »

اغتاظ الكافورى، تلفت حواليه؛ وجد الناياتى سليمان أبوشفه مقبلاً يهرول.

تلقفه الكافورى بترحاب:

« ياسليمان يا بوشفه! تعال! من يكون ذلك الشاب الواقف هناك بقميص

حرير أبيض وسروال أسود؟! »

نظر فيه سليمان أبوشفه فى ارتباك:

« إيه؟! ألسنت تعرف عبد البصير الصوفانى؟! الكمنجاتى الطنطاوى؟! إنه

تربيته!! »

« قل للأئسة!! »

ثم نادى بأعلى صوته:

« يا عبد البصير يا صوفانى!! »

فالتفت الشاب على الفور نحو الصوت. رأى سعيدة؛ ارتجت الأرض تحت

قدميه؛ تحول إلى بسمه هائلة؛ ركض نحوهم ماداً يده للسلام.

سددت سعيدة بصرها فى وجهه وقد اتسعت عيناها كأنها تريد أن تفرقه

فيهما؛ ثم ازداد وجهها شحوباً؛ شدت طوق جلبابها بحركة من يريد أن يخرج من
هدومه؛ بصقت في عباها، مجرد نفخة تعكس توتراً لذيذاً، أتبعتها:

«باسم الله الرحمن الرحيم! دستور!!»

ثم عادت تنظر فيه وقد بدأ البريق الصاعد من عينيها يتخذ لونا جديدا فيه
إشراق وإعجاب وفرح وعتاب ودهولة؛ ثم زامت بلهجة ذات معنى:

«هكذا إذن؟! أنت عبد البصير الصوفاني!! لماذا لم تقل هذا من الصباح؟»

انتبعت إلى يده التي كانت لا تزال ممدودة للسلام؛ فاحتوتها بيديها الاثنتين
في حنان دافق؛ ضغطت عليها بقوة وحرارة. وصلته الرسالة؛ كاد يذوب يترنج من
فرط التشوة التي سرت في كيانه كله. سحبته ومضت، دخلت به إلى ما وراء
المنصة وهي تردد:

«وإذن فأنت عبد البصير الصوفاني! يا حويط يا غويط يا مكار!! تختبر عندي

شخصيتك معزولة عن شهرتك؟!»

أرادت أن تقول له: أنت نورتي؛ هذه أسعد ليلة في حياتي. لكنها ضغطت على
يده مرة أخرى، قالت بأسمة في مرح:

«نتقابل على المسرح!»

ثم هزلت مبتعدة كأنها تهرب من نفسها..

البرنامج كان معداً بحيث يكون لعبد البصير الصوفاني نمرة خاصة؛ إذ يقدمه
مذيع الحفل في فاصل من العزف على الكمان، يستغرق ثلث أو نصف ساعة؛ بعده
مباشرة تدخل سعدية المليجي. لم يكن مذيع الحفل سوى الكافوري نفسه؛ الذي
أمسك بالميكروفون وأفاض في وصف عبقرية هذا العازف الذي شرف حفلهم به.

رأى على الجمهور صمت عميق مشوب بالترقب والتحفز. في خجل شديد قرب
العازف فمه من الميكروفون المائل نحوه بزاوية حادة وراح يحدث الجمهور قائلاً إنه
من شدة فرحته بهذه الليلة ألهمه الله مقطوعة موسيقية جديدة من وحي هذه الليلة
اسمها: النيل؛ ثم بدأ العزف؛ فما أن انتهى حتى ضج السرايق كله بالتصفيق
والصياح؛ لكن الذي أطريه حقا تصفيق أكثر حرارة كان يجيء من بين ممرات

الكواليس، ممزوج بصوت سعدية هاتفا في وجد حقيقي: الله الله الله. ثم عزف مقطوعة جديدة أيضا بعنوان: سماعي كونكورد؛ فمقطوعة جديدة بعنوان: سماعي شوري؛ ثم صار ينتقل بين المقطوعات؛ وفي كل مقطوعة يلهمه الله تقاسيم تذهب به وبالجمهور إلى أخيلة طازجة؛ والأكف تلتهب من التصفيق؛ والحناجر تصيح طالبة الإعادة. اضطر الكافوري إلى أن يمسك بالميكروفون ويحدث الجمهور قائلا إن الأستاذ عبدالبصير باق معهم طوال أيام الأسبوع؛ وفي الحال قدم لهم مطربة الحفل سعدية المليجي.

نخلت كالفنديل المشتعل. فوجيء عبدالبصير بأنها غيرت ملابسها فارتدت تاييرا صوفيا أبرز كل مفاتنها بشكل يفقد المرء عقله؛ تزينت كالعروس ليلة الزفاف؛ صارت تخطر في مشيتها كالبطة؛ رشيقة أنيقة مشرقة؛ صار عبدالبصير يلاحقها بنظراته كفنان يتأمل لوحته بعد وضع اللمسات النهائية. ردت على تحية الجمهور الصاخبة بانحناء متقنة مثل كبار الفنانين؛ ثم اعتدلت في تيه ودلال تعيد جدائل شعرها التي تهدلت على صدرها إلى ظهرها؛ ثم خطت نحو الفرقة، بالتحديد نحو عبدالبصير، همست بيديها في حركة ذات معنى فيما ترفع رأسها إلى السماء كحركة مكملة للمعنى. فهم عبدالبصير ما تريد ، فتهامس مع رفاقه؛ فانطلقت الآلات تعزف أغنية: هلت ليالي القمر؛ سرعان ما ركبها صوت سعدية المليجي كالفرس المدرب على القفز فوق الحواجز واختراق الصعاب بمهارة فذة؛ لدرجة أن الجميع - جمهورا وعازفين - نسوا أن هذه الأغنية في الأصل لأم كلثوم؛ واكتشف عبدالبصير أن الألحان العظيمة يحكم عليها بالسجن المؤبد حينما ترتبط بصوت واحد يحتكرها إلى الأبد: اللحن الذي يعجبنا على صوت من الأصوات ربما ارتفعت قيمته على صوت آخر كأن الآن تكتشف عمقه لأول مرة، لجرد أن الصوت الجديد يملك قدراً من الإحساس والذكاء والفهم يستطيع به إبراز جماليات اللحن وأبعاده المضمرة. تداعت في رأسه الأفكار والخواطر: إن الغناء لا يشترط صوتا قويا مدويا كصوت أم كلثوم أو صالح عبدالحى مثلا؛ بقدر ما يشترط إحساسا مرفعا وذكاء في الأداء كما عند المطرب الجديد الصاعد

عبدالحليم حافظ؛ قصوت أخيه إسماعيل شبانة أقوى وأجمل فى الجرس والنبرات؛ لكنه لو غنى أغنيات عبدالحليم فريما لا يتقبلها منه الجمهور بقبول حسن؛ وليس غريباً أن العامة فى بلادنا يصفون المغنى الجيد بأنه «حسه حلو» ، ولا يقولون مطلقاً إن «صوته حلو»؛ فكلمة الصوت - كما فى التراث العربى - تطلق على اللحن لا على المطرب؛ وصوت سعدية المليجي - فوق ما فيه من قوة جرس وعمق رنين وجلجلة - يمتلك حساً رهيفاً عالياً؛ إن غناها الليلية يختلف تمام الاختلاف عن غنائها فى طنطا؛ إنها الآن تخاطب قلبه مباشرة؛ هذا ما يشعر به ويتأكد منه. لقد نسيت نفسها؛ استغرقت فى حالة من الوجد كأنها تغنى لسنوات قادمة؛ كأنها كانت طول عمرها فى انتظار هذه الفرصة الحميمية. استمرت الأغنية ساعة كاملة، كرحلة ممتعة فى عالم من الأحاسيس والمشاعر. فما أن انتهت حتى وقف جميع من فى السراى يصرخ يهلل يطلق الصفير الحاد. أما هى فلم تحفل بكل ذلك؛ إنما استدارت على موجات الهدير متجهة إلى عبدالبصير شاحبة الوجه مبهورة الأنفاس؛ قالت كأنها فى امتحان عسير:

«هيه؟ إيه رأيك يا عبده؟»

إذا به قد هب واقفاً، فاتحا ذراعيه. فى لمح البصر وجدها بين أحضانه؛ لا يدرى إن كان هو الذى اندفع إليها أم أنها ارتمت عليه. فجأة وجد نفسه يطوقها بذراعيه فى حرارة يكاد يذيبها فى ضلوعه. كانت بين أحضانه كتلة من الذهب تنزل على صدره برداً وسلاماً. وإذا وقعت عينه فى عينيها رأى وجهه فى صفاتهما؛ فإذا هو يقبلها فى خديها. شعر كأن خديها تركا على شفثيه بصمتين لهما طعم حريف عبقري. صار يلحق شفثيه خلسة طوال السهرة؛ يشعل السيجارة من السيجارة ليستحلب فى الأنفاس رحيق الخدين.

عندما تأهبت للانصراف آخر الليل مسافرة إلى بلديتها عنيت بالسلام عليه وحده ضاغطة على يده فى حرارة:

«أراك غدا إن شاء الله!!»

فكانها قالت له: أنا لك وحدك منذ الآن وإلى الأبد. وحينما رد عليها بكلمة إن شاء الله كانت أصدق إن شاء الله قالها فى حياتها.

(٢٨)

كل أعضاء الفرقة ، بل وبعض الجمهور الأذكىاء ، باتوا على يقين من أن سعدية أصبحت لعبدالبصير. إن الحب كالغطر لا يخفى نفسه مطلقا؛ سلطانه أقوى من أن يقاومه أحد.

هذا الاكتشاف داعب غروره فى طريقه من السرايق إلى الاستراحة التى سببت فيها وهى تابعة لمجلس المدينة. وقد حرص الكافورى على مرافقته؛ فكانت الغبطة واضحة فى كيانه كله فيما يتأبط عبدالبصير قائلا فى لهجة راقصة تنضح بالكثير من الحسد الواضح وضوحا يستل سموه الحاقدة يبطنه بالحنو:

- «يخرب بيتك!! سعدية المليجى لم يحضنها مخلوق فى حياتها! فما بالك بالقبلة؟! يخرب بيتك! هذه أول ليلة أرى فيها سعدية المليجى على طبيعتها! على سجيته بدون كبرياء حاد مبالغ فيه!! يخرب بيتك!! ماذا فعلت فى البنت يامضروب؟! البنت تحدث كل القوى!! أه لو كنت تعرف الشوارب والاكثاف والجباه العالية التى تجرى وراء سعدية المليجى وتفرض عليها حراسات مشددة تتقاتل من أجلها! لو عرفت هذا لعرفت إلى أى حد ضحت البنت بحياتها!! هى الليلة قالت للجميع بالقم المليون: موثوا بغيظكم فئنا اخترت حبيب العمر!! يخرب بيتك ياطنطاوى ياسهن!! أنت يطلع منك كل هذا؟! البنت كانت تقنى لك وحدك!! كانت تقنى فى آخر زادها!! رينا يستر! رينا يستر! من غد لابد أن أذهب إلى قسم الشرطة أطلب حراسة على السرايق وإلا فوجئنا بمن يطريقه على رؤسنا!! رينا يستر! صدقنى أننى فرح وخائف ومندesh!! لقد ظننت ذات يوم أن سعدية المليجى لا قلب لها يرميها على الحب! الليلة اتضح لى أنها حبيبة درجة أولى وهذا ما يفرحنى! لكنى أخاف من عشاقها حسادك! ومندesh من تهورها هكذا ومن قدرتها على قذف التراب فى وجهه كافة العوازل والحساد!!»

ظل الكافورى طوال بقية الليل يطلب خراب بيت عبد البصير. ويعلن خوفه مما هو متوقع. أما عبد البصير فكان فى عالم آخر، عالم الحب الذى طالما سمع به نون أن يجربه، الليلة فحسب بدأ يدرك معنى هذه الكلمة: حب؛ ويقف على أسرارها الغامضة الساحرة. الليلة فحسب أيقن أن جميع المحبين الذين خلدتهم التاريخ كانوا بالفعل محقين فيما فعلوا. يشعر الليلة أنه مستعد للموت، للمقاومة، لفعل أى شىء يمكنه من احتواء الحبيب وامتلاكه. فعلاً فعلاً كان لروميوجولييت أن ينتحرا تحدياً للتقاليد التى حالت بينهما كما شاهد فى السينما؛ الجنون يليق بقيس فى حب ليلي؛ لحسن المغنى أن يدفع عمره فداءً لنعيمة؛ الملك الإنجليز أن يتنازل عن عرشه مقابل وفائه لحب واحدة من عامة الشعب. غفل سويغات قليلة رأى فيها نفسه يمشى بين حدائق مورقة تزغرد فيها كل الزهور والألوان والعطور. فى الليلة التالية جاءت سعيدة المليجي كالملكة ترفل فى ثياب جديدة على درجة رفيعة من الأناقة والنوق الرصين؛ كانت قد أخذت زخرفها وازينت. بمجرد وصولها إلى السراى بحثت عن عبد البصير؛ وجدته فى انتظارها خلف البوابة. تلاقت الأيدي فى حرارة. كان منظرهما بديعاً تحرسه عين الرضا من الشقيقة ومن عم عثمان الذى غير ثيابه هو الآخر فصار كالعمدة؛ وظهر المسدس منبعجاً فى جيب الصديرى. سألها عبد البصير وهو يتقدمها إلى الداخل:

— «ماذا ستفنين الليلة؟»

— «الليلة عيد»

كانت ليلتئذ أروع منها بالأمس. كانت كأنها تقول بأعلى صوت وأفصح عبارة ليسمعها الكون كله: لقد أحببت! لقد أحببت! وكان الهدير الذى ينفجر أمامها من جميع الأركان يكاد يصيح هو الآخر بأعلى صوته: مرحباً بهذا الحب طالما أدى إلى هذا الوهج. وكانت هى تشعر بهذا الصدى فتمتاحت من قلبها دفقات لاتنفد من المشاعر المجلجلة تملأ الجمهور بهجة وتجدداً وعاطفة جياشة.

باتت تظهر كل ليلة بثوب جديد؛ تعلن عن مواهبها الفياضة من جوانب متعددة، ما أروع الفن؛ لا حين تسنده الموهبة بل حين يضمخه الحب. لا فن بغير حب على

الإطلاق حتى ولو كان مستكملاً لجميع المواهب والقواعد والأصول المرعية، الفن الذي لا يشعله الحب ولا يشعر بالحب ولا يوقظ في الناس طاقة الحب ليس فناً حقيقياً بل مضیعة للجهد والوقت فيما لا طائل من ورائه.

الحب الحقيقي عبء للثرثرة؛ فله لغة أخرى غير لغة الكلام؛ هذا ما اكتشفه عبد البصير طوال هذا الأسبوع الساخن البديع الذي يساوى عمراً بأكمله. لقد ولد الحب ونما وترعرع دون أن يقول أحدهما للآخر كلمة: أحبك. اكتشف أيضاً أن الكلام في الحب يبدأ عندما يجف الحب ويموت. والحب الذي يبدأ بالكلام يظل يتغذى على الكلام إلى أن يتساقط زيفه ويظهر خاؤه.

(٢٩)

آخر ليلة في أسبوع مولد الشيخ جودة في منيا القمح كانت بوتقة انصهرت فيها كل القلوب على المسرح أو في الصلاة. بدوا كأنهم جميعاً غرقوا في الحب الحقيقي لأول مرة في حياتهم. صار الجميع عشاقاً في حالة وصل ساخنة رائعة ذاب فيها حقد العوازل ضاعت مرارتهم في مذاق عسل مصفى.

خرج عبد البصير من السرايق آخر الليل حاملاً صندوق الكمان في يسراه؛ وفي يمينه حقيبة ملابسه. كان موزع القلب مشئت الخواطر؛ يظن أن سعدية قد لحقت بالقطار بعد انتهاء نمرتها قبل ختام الحفل بنصف ساعة كالاعتاد. كان يحاول التركيز في التفكير فيما ينبغى عليه أن يفعل بعد أن أخذت سعدية قلبه وانصرفت. لكنه ما كاد يخطو خارج السرايق بعد أن ودع الفرقة ونال أجره من الكافوري؛ حتى لحق به من أمسك بالحقيبة يحاول نزعها منه. التفت؛ رأى عم عثمان يتشبث بالحقيبة لكن يحملها؛ تركها له. ما كاد يستفهم منه حتى وجد سعدية وأختها مقبلتين نحوه. قالت سعدية بلهجة ذات معنى:

— «عم عثمان لم يطاوعه قلبه أن يتركك تمشى إلى المحطة وحدك»!!

نبرة صوتها تقول إن قلبها هي - لا قلب عثمان - هو الذي لم يطاوعها على تركه وحده. معنى هذا، كما توقع، أنها خشيت أن يتعرض لمكروه من عشاقها؛

وكأنها أرادت أن تؤكد له هذه الهواجس مضت بجواره؛ أشارت لشقيقتها أن تجاوره من الجانب الآخر؛ ومن خلفهم عم عثمان يحمل الحقيبة بيسراه تاركا يمينه متحررة على أهبة نزع المسدس من جيب الصديري لدى أى بادرة شعور بالخطر. مضت فى أعقابهم زفة كبيرة من الرجال والصبيان يرشقونهم بالتحية وعبارات الإعجاب، وعبارات أخرى كثيرة تشى بمدى ذكاء المصريين وخفة ظلمهم واتساع أفقهم الإنسانى؛ فبعض العبارات كانت تبارك هذا الحب بصريح القول:

— «ياسلام! كل منهما مخلوق للآخر! فليحيا الحب! من قال إن الحب أعمى؟! ربنا يتم بخير! ربنا يهنئ سعيد بسعيدة! الطيور على أشكالها تنقع»!!
عم عثمان كان أخف ظلاً من الجميع؛ إذ راح يغمغم معقبا على كل عبارة بقوله:

— «إه! طب ما احنا عارفين! مضبوط! قل يارب!»
إلا أن غمغمته لم تتجاوز أسماع محروسية؛ مما أضفى على الطريق بهجة وضحكات صافية. فما أن وصلوا إلى المحطة حتى هرول عم عثمان إلى شباك التذاكر؛ مد يده بفلوس كانت مجهزة، فى وقفتهم على الرصيف سمعوا ماكينة الختم تنك أربع مرات متعاقبة فيما كان القطار يقبل من بعيد كشبح أسود داهم، جلسوا فى القطار على دكتين متقابلتين فى عربة الدرجة الثانية.

كان عبدالبصير فى نشوة أنسته حتى أنه راكب فى قطار. لقد ارتاع فجأة إذ فوجئ بأن رفاقه جميعا قد نزلوا من القطار ومعهم حقيبتهم وكمائنهم؛ وعم عثمان على الرصيف يستحثه أن ينهض بسرعة وينزل. هب واقفا؛ إندفع إلى باب القطار ونزل لحظة شرع القطار يتحرك. بقى واقفا لبرهة كالأبله يتلفت حواليه باحثا عن محطة طنطا. لكن عم عثمان دفعه برفق؛ فمضى بينهم متردداً بعض الشيء فى حرج. فلما تبين له أن سعدية المليجى تستضيفه فى بلدتها الصغيرة شعر بأن الظلام المتأخم لرصيف المحطة قد أضاعته شمس الضحى. جاءه صوت عم عثمان ووداً خفيف الظل:

- «أنسيت أن أهلكنا هم الذين عزموا القطار على الغداء؟ كيف تكون في بلدتنا ولا نعزمك؟»

قال عبدالبصير:

- ولكنى لست القطار!!

رد عم عثمان مازحا:

- «أنت سكة حديد بحالها!! يارجل أنت أثرت في نفسي حتى قتلتنى جعلتنى أبكى من كل عين حقان!! ما كل هذا الفن الذي فيك يارجل؟! أنت والله كهريت الست سعدية وكهريت الخلق كلهم . رح ياشيخ إلهي ربنا يعطيك الصحة والعافية!!»

ضحكات سعدية الطروية النشوانة المجلجلة تتناثر فوق الحلفاء على شاطئ التربة. جسدها السمهري اللفوف المبروم يتهادى بالكعب العالي فوق الأرض المتربة؛ وبيوت القرية تبدو من بعيد كعيون عمشاء ينبعث منها ضوء شاحب خافت، ثمة سواق دائرة، من حين لحين يترامى إلى أسماعهم أصوات طنايير، ونعير جاموسة، وصياح ديك.

حودوا في وصلة بدت عمودية على قلب البلدة. خفراء يحملون البنادق، فلاحون يركبون الحمير خارجين من البلد. سعدية لاتنى ترد: «مساء الخير ياعم فلان؛ والأصوات تشيعها في كل خطوة:

- «مساء النور ياست سعدية! أهلا بالرجال! شرفتوا بلدنا! يا مرحب!»

تطوع خفير بالسير وراءهم حتى عتبة البيت.

بيت سعدية المليجي من البيوت الجميلة المعنودة في القرية؛ مبنى بالطوب الأحمر من طابقين على طراز ينتمى للقاهرة الفرنسية؛ القاهرة وسط المدينة؛ نفس طابع الشرفات والنوافذ والزخارف. البيت ليس شاذا عما حوله؛ إنما هو متميز ولكن في محيط من بيوت نظيفة جميلة؛ مما يشير إلى أن هذا المحيط المتميز كان صاحبة مستقلة خارج البلدة في زمن لعله أواسط هذا القرن أو أوائله. قالت سعدية حينما رأت عبدالبصير يتأمل منظر البيت في إعجاب:

«جدى هو الذى بناه! كان صبيتنا كبيرا تعلم على يدى الشيخ على محمود!!
عجائز بلدتنا يقولون إننى ورثت حلاوة الصوت عنه!! أبى رحمه الله كان هو الآخر
جميل الصوت لكنه كان يغنى لنفسه فقط!! فرض عليه جدى أن يكون فلاحا
ليزرع قطعة الأرض التى اشتراها من عرقه وشقاؤه!! أه لو سمعت صوت أبى ! أنا
لا أجد فيه شعرة واحدة !! كان أهل بلدتنا يغضبون عليه كى يغنى فى أفراحهم
على سبيل التحية فإذا غنى تتمايل جدران هذه البيوت كلها من شدة الفرح! أمى
كانت تقطع نفسها من البكاء حين يغنى بصوته الحزين! فإذا سكنت تقبل قدميه
ليستمر فى الغناء! تصور أننى كثيرا ما أبكى حينما أتذكر غناؤه؟! إنما هو بكاء
يريح النفس ويروق العين!!»

شرفة مفتوحة فى الطابق الثانى كانت مضاعة؛ تتدلى من سقفها نجفة ضخمة
ثمينة عريقة الطراز. فلما تراجع قليلا ليتمكن من رؤيتها كاملة ضحكت سعيدة
وقالت:

«طبعا هى نجفة كريستال تليق بمتحف الآثار! ماذا تقول لو علمت أنها لمبة
جاز؟! عندنا الكثير من هذه الأثريات من مخلفات جدى!!»

صفت بيديها، أطل من الشرفة فتى فى حوالى السادسة عشرة من عمره؛
صورة طبق الأصل من سعيدة . سرعان ما اختفى وسمعوا صوت هبوطه على
سلم خشبى ندى صرير، قالت سعيدة:

«إنه أخى بهادر! الوحيد! أسماه أبى على اسم رجل هندي مسلم كان
يزورنا كثيرا! بهادر فى الثانوية العامة ويجب التمثيل لكنه لن يدخل معهد التمثيل
إلا بعد حصوله على ليسانس الآداب لأنه لودة قراءة! يحب تأليف القصص
والأشعار ومع هذا صوته أحلى من صوتي!!»

انفتح باب الشارع، خرج بهادر فى جلباب بياقة وأساور أبيض اللون شفاف،
سلم على عبدالبصير فى حرارة؛ جذبته بترحاب إلى داخل البيت؛ ثم إلى السلم
الخشبى، بعد البسطة الأولى فوجيء أنه وبهادر وحدهما يواصلان الصعود إلى
الطابق الثانى. السلم مفروش بكلمة صوفية، البسطة الأخيرة من السلم تدخل فى

رحاب ردهة مربعة فى وسطها باب، وعلى الجانبين شباكان طويلان فى جدارين متقابلين. دخلا من الباب. ردهة أخرى كبيرة، مليئة بالواليب متخمة بالكتب والمجلدات الفاخرة: اللواليب من خشب ثمين، مدهونة بالألوان، لها أبواب زجاجية، فوقها تماثيل صغيرة، وتحف، ومروحة، وجهاز راديو ماركة فيليبس كبير؛ وجرامفون بنفير فوق ترابيزة برخامة بيضاوية تتناثر حولها اسطوانات كثيرة داخل أغلفتها العتيقة من الورق المقوى. قال بهادر:

— «هذه مكتبة جدى! وجرامفون جدى ! أبى رحمة الله لم يشتر شيئا سوى هذا الراديو! حتى العفش الذى دخل به على أمى هو عفش جدى!!»

شعر عبد البصير أنه لا يريد الخروج من هذا المكان على الإطلاق. جلس فى الحال على أول كرسي صافيه، كرسي منجد بالقטיפه وثير، أرسنقراطى الطابع؛ له نظائر وأنداد كثار فى الردهة. على الأرض سجادة ثمينة فاخرة. يطل على الردهة بابان داخليان على كل منهما ستارة مخملية ثقيلة تحتها أخرى حريرية خفيفة. ثمة ممر أنيق علقت على حوائطه براويز عتيقة فيها صور يرجع طابعها لأوائل القرن العشرين. أدرك عبد البصير أنه ممر يؤدي إلى دورة المياه والمطبخ. الباب المواجه له كان مفتوحا؛ برزت محتويات الغرفة: سرير من الخشب بعمدان فستقى اللون ذو ناموسية بمببىة؛ إلى جواره بوريه من نفس الطراز تغلوه مرآة بعرضه تحتل معظم الجدار. ثمة جرائد ومجلات وكتب حديثة ملقاة على الطقاطيق والكراسى؛ مما يشى بأن بهادر بالفعل قارئ مثابر. ثمة أوراق بيضاء معدة للكتابة.

السلم الخشبي راح يئن ويتوجع، أنات قصيرة خافتة لكنها عميقة الصدى، كائنات اللذة النسوانة تحت جسم صاعد... ما لبثت سعدية حتى ظهرت على البسطة الأخيرة، مرتدية ثوبا منزليا فضفاضاً من حرير الشوريجى المشجر؛ رغم شدة اتساعه كانت تبرز من خلفه تموجات جسد ينتفض بالحيوية فى أشكال بيضاوية متداخلة متناسخة مراوغة كخيال مرآة مواجهة للشمس. كانت تحمل على ذراعها الأيسر جلبابا أبيض اللون فلما دخلت عليهما أدرك أنه جلبابه هو، أى أن

سعدية فتحت حقيبتها وأتت به منها؛ فتفجر في قلبه بركان من الإشراق غمره بمشاعر دافقة من اللذة والتطامن؛ كأن خصوصياته قد أصبحت خصوصيتها ولم يعد بينهما حاجز من التحرج أو الخجل. يساعد بض مرصع بالأساور الذهبية أشارت إلى الغرفة ذات الستارة المنفرجة والسرير الخشبي الفستقي وسلمت الجلباب قائلة: حجرتك. وأكملت الإشارة بما يعنى أن يقوم الآن ليغير ثيابه فيها. عندما أزاح الستار وخرج من الغرفة مرتديا جلبابه الأبيض وجد في انتظاره «ست الحاجة»، كما قدمتها له سعدية. سبحان فائق الإصباح فائق الحب والنوى؛ ست الحاجة أم سعدية تكاد تكون أختها الكبرى على الرغم من الطرحة البيضاء الملفوفة حول رقبتها، سماعة الوجه والملامح المسترخية على بحر من الذكاء الفطري اللامح، وروعة التكوين في قوامها السمهرى الضخم، ورصانة الحركة. نهضت واقفة في استقباله بحركة أشعرته أنه في بيت عريق الاحترام واضح الأصالة. داخله الشك لبرهة في أن يكون جديراً بالانتساب لهذا البيت. شعر كأنه تجاوز حدوده وتناول فطلب أن يسكن الجنة وهو بعد لم يكتمل ورعه .

لفت أم سعدية يدها في طرف الطرحة وسلمت عليه قائلة في ترحاب أمومي مشرق:

«أهلا بك يا أستاذ عبده! نورت بلدتنا!»

جلس مبتسما، تكاد دموع الفرح تطفرف من عينيه تعطل صوته. غمغم ببعض كلمات مضغمة، منكسا رأسه في الأرض لا يدرى أبفعل الخجل والحياء أم لفقدان القدرة على مواجهة هذه الفتنة الصارخة القوية الشخصية. لكنه بعد برهة وجيزة وجد نفسه منطلق اللسان مقبلا على الكلام في لطف وظرف وحيوية. ما أن سألته ست الحاجة عن أحوال طنطا وأخبار البدوى حتى انبرى يتحدث عن كل صغيرة وكبيرة في طنطا، وفي حياته الشخصية، وأضحكهم كثيرا على طرائف شخصية أبيه الذى جمع في شخصيته بين الفنان والدرؤيش؛ فكأنه نون أن يدرى يعطيهم تقريراً ضافياً عن أصله وفصله ومشاريعه المستقبلية وطموحه الفنى؛ حتى علاقتة المتوترة بأبيه، وعلاقة أبيه بأمه، وزوج أمه اللطيف الذى أصبح صديقه الحميم،

وأخته الكبرى زينب التى تزوجت وأراحها الله من زوجة أبيه الصلغة السليطة، وفرحها وما حدث فيه من تصادم بين جيلين هما أمه وأبيه. حكى طرفا من نواير طفولته الشقية المعفرة؛ عن الفلاحين المجاذيب الذين يطبعون القبلات على ظاهر يد أبيه شيخ الطريقة الورع، وكيف كان يتصدى هو لهؤلاء الفلاحين السذج حينما يسألون عن أبيه فى البيت فينكر وجوده لتطفيشهم تنكيلا بقسوة أبيه التى تحرمة من العزف على الكمان؛ كيف كان يتسلل إلى «الخدمة» التى يقيمها أبوه فى ساحة الببوى، فيبول بين أجساد الفلاحين المستغرقين فى النوم على الأبراش بأقواه مفتوحة عن آخرها .

لا يدري كيف واثته الشجاعة على حكي كل هذا دون أدنى حرج؛ ربما لطبيعته المفتوحة؛ وربما بتشجيع من ضحكاتهم الصافية العميقة المنطلقة وعدم استنكارهم لشيء مما يحكيه.

وإذ رفع رأسه ليستمتع بأثار الضحك على وجوههم رأى شقيقة سعدية ومعها امرأة ريفية صرفة قد انتهتا من إزاحة الجرامفون وتنظيف الرخامة. فى دقائق امتدت المائدة: بطة كبيرة محمرة، سلطانية الشورية، طبق الأرز على شكل القارب، ملوخية، سلاطة، أرغفة. قالت ست الحاجة وهى تجفف دموع الضحك الغزير:

— «قم يا أستاذ عبده لتتعشى! سعدية حدثتني عنك كثيرا ولكن لم تذكر أنك خفيف الظل هكذا! ياه يا أستاذ عبده! أنت صافى القلب حقا وليس فى صدرك أى كلمة»!! عقت سعدية:

— «أنا نفسى والله يا أم ما كنت أعرف أنه هكذا! لم أر فيه غير الفنان المعجزة!!»

ثم ناولته فوطه مائدة؛ فنحاهما جانبا؛ كذلك نحى الشوكة والسكين واحتفظ بالملقة . تحلقوا المائدة، قامت ست الحاجة بتفسيخ البطة وتكريم لحمها أمامه:

— «كل يا حبيبى! أنت والله دخلت قلبى!»

اندمجوا فى الأكل بحبوبة وحميمية ومرح. قالت سعدية:

— «على فكرة! أنا صممت على أن أجيء بك إلى هنا لأمنع وجع الدماغ عن

رأسى ! الآن قد عرف الجميع أننى أحببتك على عينك ياتاجر! إن الزمار لا يغطى
ذقته!! لم أتعود الكذب على نفسى! فبدلاً من الكتمان وانتشار الإشاعات!!
ثم نظرت فيه كأنها تكمل العبارة بالنظرة. فقالت أمها فى تلقائية بريئة رائعة:
- «زين ما عملت!!»

أثناء تناولهم الشاي دخلت المرأة الريفية حاملة صندوق الكمان متقدمة به
نحوه. قالت ست الحاجة باسمه:

- «أنا وبهادر إبني نموت ونسمعك! بهادر يحب الموسيقى كعينيها! كان ينوى
أن يسافر إليك ليسمعك! لكن هذا الولد المضروب لا يحب الظهور فى الأماكن التى
تغنى فيها أخته ولا يحب السير معها إلا فى البلدة!!»
قال بهادر وحمرة الخجل تتدفق فى وجهه:

- «دمى حامى وأخشى العراك!! لو علق أحدهم بكلمة سخيفة! لو عاكسها
أحد - وهذا لا بد منه - فلن أسكت بالطبع! وأنا على قدر هدوئى شرس فى
العراك خصوصاً بسبب سعدية!! أصل الشراسة موت أبى ونحن صغار! أتصور
دائماً أن الأخساء سيستضعفوننا!!»

تبسمت الأم راضية موافقة:
- «عمك عثمان فيه البركة على كل حال!! تربية المرحوم يشتغل عندنا وهو طفل
لا يعرف الكلام!! أثمر فيه خبزنا! لا مثيل لوفائه ورجوليته! إنه واحد من الأسرة
وأولادى كلهم تربيته!!»

قال بهادر بنبرة احتجاج:
- «سنسمع أم نتكلم؟!»
- «نسمع طبعاً!»

هكذا قالوا! وتوجهوا بأبصارهم فى اتجاه عبد البصير، الذى أخرج الكمان
بالفعل! وكانت أوتارها لا تزال ساخنة منضبطة جاهزة للبوح. عزف لهم
مقطوعتين: (سماعى كونيورد) و(سماعى شورى)! وتوجه فيهما كما لم يتوجه فى
حياته من قبل. كان يشعر أنه داخل فى رحم الفن، فى قلب عش الإلهام ومصدر

الوحي المباشر، كان يشعر كأنه يكاد يرى نور الله بذاته يحيط برأسه وذقنه المرتكزة على فرس الكمان؛ والقوس يصعد ويهبط مغترفاً من طاقة الضوء إشعاعاً حاداً مبهراً. أثناء العزف حانت منه لفظة سريعة على وجه ست الحاجة، فخليل إليه أنها تكاد تتحول إلى هيكل ضوئي، كتلة من الذرات في قبس الإشعاع تجري مندفعة نحو الأنغام تتماوج معها.

ما أن انتهى حتى صاحبت الحاجة في وجد حقيقي:

- «اللهم صل وسلم وبارك عليه!! يا أرض احفظي ما عليك! لا! لا! أنت يا ولدي خسارة في البهدة!! كيف تسكت على نفسك حتى الآن؟! مكانك ليس هنا! إنما هناك مع أم كلثوم وعبد الوهاب! آه لو سمعتك المرحوم! لأخذك من يدك وأف بك الدنيا كلها!!»

وقال بهادر وقد شعر أن الكلام كله لن يساوي نغمة واحدة مما سمع:

- «مستواك رفيع جداً يا أستاذ! بصراحة ما كنت أتصور أن تكون هكذا!!»

حتى المرأة الريفية القمح ربدت مسحورة:

- «دانت واعر قوى يادي الجدع!!»

ضحكوا في صفاء؛ فاستطردت:

- «النبى أشرف خليفة الله مانى عارفه أثلّم على روحى! أنت بعثرتنى! قل لنا

شوية كمان إلهى ربنا يسعدك دنيا وآخره!!»

قالت ست الحاجة:

- «لا تكسف إنعام! إنها سمعية لا تستهزئ بها! هى الأخرى تربية

المرحوم!!»

عدل الكمان تحت ذقنه؛ عزف تحميلة (ليالى زمان)؛ فاتسعت جميع الأحداق

من فرط الروع، من ليالى زمان انتقل إلى مقطوعة (المشربية)، فمقطوعة (النيل)،

كل ذلك وسعدية تحيطه بعينيها فى حنو وإشراق بون أن تعثر على كلمة واحدة

تليق بما شعرت به نحو موهبته الطاغية الجبارة. نهض بهادر وقبله على خديه.

فهمت ست الحاجة :

- «أضف قبلتين نيابة عني!!»

فعل بهادر. أوشك عبدالبصير أن يقول لهم إن كل هذا الذى أطار لبهم من الإعجاب إنما جاءه كله من وحى سعدية منذ أن اهتز قلبه بحبها من أول نظرة؛ وإن لحظة انفتاح قلبه على حبها كانت هى نفسها لحظة اكتشافه سر الفن لأول مرة فى حياته منذ بدأ يغرم بالعزف على آلة الكمان؛ إن لحظة وقوعه فى بحر الحب هى شهادة ميلاده كفنان. غير أن الحياء اعتقل لسانه فلم يقل شيئاً. كان ضوء الصباح التريكوإزى قد غمرهم حينما انتبهت ست الحاجة فنهضت واقفة:

- «سيبوا الجدع ينام! كفاكم هذا!!»

تقدمتهم خارجة. مضوا خلفها. أشار له بهادر إلى طريق دورة المياه؛ ثم انتظر حتى دخل عبدالبصير إلى السرير واحتجب خلف الناموسية، فأغلق باب الحجرة برفق؛ راحت خطواته على السلم الخشبي تعزف لحنا بديع الخشونة فيه أنس كبير. راح عبدالبصير يهبط مع الإيقاع المتباعد إلى قاع النوم السحيق، فى اطمئنان لم يعهده فى حياته مطلقاً.

(٣٠)

وإفقههم على أن يسافر بعد الغداء مباشرة. ويعد الغداء وافق على الانتظار للعصر حتى تخف حدة الحر. على مقعدين كبيرين من الخيزران فى الشرفة المطلة على الشارع ظهرت أمامهما الحقول الخضراء تحفها أشجار الكافور والجزورين. منذ ما يزيد على الساعتين وعبدالبصير يحاول استجماع شجاعته ليترك الحديد وهو ساخن.

لاحظت سعدية ارتباك وإفراطه فى التدخين، وشروعه فى الكلام ثم عدوله عنه.

ابتسمت:

- «فى نفسى شىء!!»

– «شيء واحد»!

– «توكل على الله وقل»!

غطى تردده بضحكته السانجة الخشنة كصفيح يخطب في بعضه. ضحكت من ضحكته. أخيرا نجح في أن يتلعثم:

– «أريد أن أقول.. مادمت أنت اعترفت بأنك.. أحببتني.. وإذا كنت أنا فهمت معنى قواك بالضبط!.. فلماذا لا»..

– «ننزوح»!

– «مثلا»!!

– «يوم المنى»!!

– «صحيح»؟

قالها كطفل تلقى من أمه وعداً مبالغاً فيه. كررت هي:

– «يوم المنى فعلاً!! أصبحت أشعر أن مستقبلي الغنى»..

– «قولي مستقبلاً معا»!

– «مضبوط ! مستقبلاً يربطنا الآن بعد الحب ! عمري ما تعجلت الوصول إلى شيء إلا الآن! عمري ما فكرت فيه بجد إلا من لحظة ما عزفت لى! شعرت أننى وصلت بالفعل! صرت مغنية بحق وحقيق! عزفك أشعل فى النار! أمس وأنت تعزف لى ! تاكدت أنه لا حياة لى بدونك! اسأل ست الحاجة ! طول النهار أكلها فى الموضوع! هى أخذت على نفسها عهداً بأن تتركنى أرسم مستقبلى وحدى أختار من أحبه حتى ولو كان شحاذاً!! أمى ست تعجبك ! مثقفة! صاحبة مفهومية ! علمتنى أن الوصول بشرف هو النجاح الحقيقى الدائم! إذا اعتمدت الواحدة منا على فنها وحده تضمن أن الزمان لا يخونها أبداً !! قالفن هو الصاحب الوحيد الذى لا يغدر بصاحبه ! هو السند! أما الجمال والمال والوسايط فكلها أسباب زائلة مهما طال عمرها!! نصائحها حلق فى أذنى! أتذكرها كلها تقدم لى عريس غني يعشمنى بأنه مستعد لأن يفتح لى شركة اسطوانات خاصة بى!! ياما قابلى

ناس استعدوا للصرف على من جنيه للمليون لكنى لم أحب أحدا منهم! كلهم كنت أشعر أنهم غرباء! أما أنت فأشعر أننا من طينة واحدة! التفاهم بيننا على أتم ما يكون»!

التمعت فى عينيه نظرة بلهاء غبية:

- «يعني أنت موافقة على أن نتزوج»؟!

ضحكت حتى تمايلت:

- «نقرأ فى سورة عبس؟ ماذا أقول أنا من الصبح»!!

- «إذن فأنا الآن أسعد مخلوق فى الدنيا كلها»!

- «علينا الآن أن نكمل هذه السعادة بأسرع ما يمكن!! لا أعرف ماذا جرى

لى؟! أريد أن أغمض عيني وأفتحهما فأرانى على مسرح أضواء المدينة وأنت من

ورائى تقود الفرقة الموسيقية!! لا أعرف لماذا أشعر الآن أنني ضيعة الكثير من

عمرى فى الإنتظار وقد حانت الفرص الكثيرة للتفاهم مع لجنة الاختبار لكننى

كنت دائما أهرب من الاختبار فإذا عدت إليه شعرت أنى مرغمة عليه فأرتبك

فأسقط فى الاختبار!! تصور أننى الآن متأكدة أنني لو تزوجتك فسأغنى أمام أى

لجنة بقلب جامد وأعصاب هابطة! سوف تندesh طبعاً إذا قلت لك ابعث من يأتى

بالمائون ليعقد قراننا!! قلبى يدق بعنف مخيف!! قلبى يقول لى أسرعى ياسعدية!!

هل أنا جننت ياترى؟! يجوز!! ويكل صراحة أنا الآن أستمع لهاتف يقول لى إن

الطرق كلها ستضيع من تحت قدمى إذا لم نبدأ مشروع مستقبلنا ابتداءً من هذه

اللحظة»!!

شعر عبدالبصير كأن الحياة قد أعطته أكثر مما يستحق! كاد يشك فى كل ما

سمع يظنه محض مزاح. إلا أنه قال:

- «لا يصح أن نتعجل فى هذا الأمر بالذات!! يجب أن نؤسس بيتنا متينا

كخطوة أولى لتتفرغ للفن بقلب خال من أى هم غير هم الفن وحده!! أعطنى فرصة

أشهر قليلة»!!

– «لماذا بحق الله؟»

– «أدبر أمرى! أجهز الشبكة أولا! ثم المهر! وأيضا يجب أن أستأجر شقة محترمة فى حى محترم فى القاهرة نفسها مرة واحدة»!!

– «شف يا عبده! أنا مبسوطه والحمد لله! عندى أموال كثيرة! أرضنا كلها حديقة تروينا بالمال طول أيام السنة وأنا أكسب الكثير جدا من الحفلات والأفراح ولا أصرف شيئا!! دع كل شىء لى فانا أحببت وسوف أضحى فى سبيل حبنى ففرحتى لا تقدر بمال»!!

رفع يده فى حركة احتجاج حاسمة:

– «لا! كله إلا هذا! لا شأن لى بمليم واحد من أموالك فانا لست أكتع أو أعمى! أنا الآخر أكسب الكثير ولا أسمح لسيدة حتى ولو كانت حبيبة قلبى أن تنفق من جيبها على زواجى!! أنا الرجل ولا بد أن أحقق رجولتى كاملة مما جميعه وإلا فلن أحترم نفسى لن أشعر بلذة الزواج وسأبقى طول عمرى مكسور العين»!!
لمسة من الضيق عبرت وجهها:

– «تاهت ولقيناها! استلف منى أى مبلغ تشاء! يكون دنيا عليك تردده لى وقتما تتيسر أحوالك! لا تضيع الوقت فانا ملهوفة على الفرح والسفر! زفانى أصبح هو السفر! أشعر أنى منذ شاهدتك أصبحت على سفر!! ومن كان على سفر فالانتظار يقتله»!!

– «صديقنى أننى أشد منك لهفة! وأعدك أن الوقت لن يطول! ثلاثة أربعة أشهر بالكثير»!!

– «راحتك!! أنا فى انتظارك على أحر من الجمر! عليك أن تتذكر هذا دائما»!!

– «كله على جناب الله»!!

أوصلوه إلى محطة القطار فى موكب لطيف! هى وشقيقتها وأخوها بهادر وعم عثمان. لم ينصرفوا إلا بعد أن تحرك القطار. كان رسغها المرصع بالأساور الذهبية يلوح له تلويحة الوداع بحركة ذات معنى، كأن الحركة تقول له: رينا معك!

إياك أن تطيل الغياب! تذكر دائما أنني في انتظارك. فلما انسلخ القطار عن الرصيف واندفع يشق الحقول الخضراء في تصفيق متتابع جهير الصوت؛ سألت على خديه قطرات دمع يارد مريح، شعر أنه يستقر في جلسته؛ والأشجار وأعمدة التليفونات تندفع نحوه لتختفى خلف ظهره. سرعة القطار أشعرته بقرب المسافات. استقرت نظراته على صندوق الكمان وحقيبة ملابسه فوق الرف؛ هذا كل ما يخصه؛ فهو إذن ليس في حاجة ماسة إلى طنطا؛ لا شيء يربطه بها على الإطلاق؛ كل مدخراته في جيبيه.

اعتزته لذة فائقة حينما رأى من شباك القطار لافتة محطة طنطا على حاملها فوق الرصيف تزحف إلى الخلف. حلا له أن يوهم نفسه بأنه لم ينتبه؛ ثم ابتسم ساخرا من نفسه إذ هو موقن أنه قد تجاهل محطة طنطا عن عمد. ثم تبين له شيئا فشيئا أنه قرر أن يلقى بنفسه في البحر دفعة واحدة وليكن ما يكون؛ أن يسافر إلى القاهرة فيقتحم الوسط الفني ليقرض وجوده عليه مهما كانت الصعاب والعوائق، ليصبح جديرا حقا بأن يكون عريسا لسعدية المليجي.

(٣١)

أيام طويلة وأسابيع كثيرة مضت على وجوده في شارع محمد علي، دون أن تبزغ في أفق الليالي الطويلة المملة بارقة من أمل. في كل ليلة يأتي إلى قهوة التجارة التي يتركز فيها الموسيقيون والمطربون والمتعهدون، ورقم هاتفها مدون في مفكراتهم جميعا؛ الجرسون نصفه جرسون ونصفه سمسار حفلات؛ طول النهار والليل يتلقى مكالمات من فنانين يسألونه إن كان قد سأل عنهم أحد؛ ومن متعهدين يتركون أخباراً لفنانين عن مواعيد حفلات، أو يسألون عن بديل ينقذهم من ورطة. وقد يزور المقهى رجل طيب غشيم يريد أن يستدل على كيفية تأجير من يقومون بإحياء فرح لديه؛ فليسوء حظه - وحظ الفنانين بالطبع - يقع فريسة في يد الجرسون؛ يظل به حتى يملأ دماغه، يلقى في روعه أنه - خدمة له لأنه رجل طيب

وابن حلال كما يبدو عليه! - سيقم له أقضم فرح بتراب الفلوس يحييه أشهر الفنانين.

- «عندى لك أكبر مطربة زفة فى مصر! هى التى زفت الملك فاروق على الملكة ناريمان!! سأجىء لك براقصة كالمهلبية! أهديك أشهر وأحدث مطرب دخل الإذاعة! أختار لك من الآلاتية من يشرفك ويشرفنى! دع كل هذا لى! ولكن معك كم؟ ما حدود المبلغ الذى تنوى أن تنفقه على الحفل؟ قل لى لكى أجهز لك فى حدوده حفلا يسترك أمام المدعوين!!»

سواء كان المبلغ كبيراً أو صغيراً فإن الجرسون سيلفق له فرقة من المتسولين تظهر عليهم أعراض - مجرد أعراض الفن ليس أكثر. فإن استشعر وعى وقوة شخصية الضحية فلا بأس أن يطعم الفرقة باسم أو اسمين ممن لهم بعض الشهرة فى وسط العوالم. ولابد أن يقبض أولاً؛ ثم يمسح المقهى بنظرة استطلاعية يختبر فيها نوعية الزبائن. ولأنه ملم بأخبارهم جميعاً فإنه يختار من يعرف أنه فى حالة قحط منذ شهور طويلة وفى أشد الحاجة إلى ملهى؛ ينتحى به جانباً، يتودد إليه، يلح له أن أحد أقاربه - ربما ابن خالته أو ابن أخت زوجة، سوف يتزوج وقد قصده فى خدمة، وهو محرج فى الواقع لأنه مفروض عليه مجاملة قريبه ومن جيبه الخاص وأمره له. الفنان المتعطل منذ شهور ما أن يسمع هذا حتى يداعبه الأمل فى فلوس تكفى ولو لسجائره وحشيشه وتسديد جزء من حساب المقهى؛ يجد نفسه قد تورط فى مجاملة لصديقه الجرسون بأجر أقل من رمزى. أما الفنان الحق، المشهور فى الوسط، فإن الجرسون لا يستغفله، إنما ينتفع منه بطرق لطيفة، كأن يحرص على تبليغه أى خبر؛ وهذا الحرص على درجات تحددها درجة أريحية الفنان ومدى كرمه فى دفع البقشيش؛ فقد يقتصر الحرص فى التبليغ على رؤية الجرسون للفنان، إذ يتذكر فجأة فيهدف قائلاً: على فكرة فلان سأل عليك من أجل كذا؛ وقد لا يتذكر إلا إذا سأل الفنان بشكل مباشر؛ وقد يهم بتبليغه الخبر على الفور فيكلمه فى تليفون جيرانه أو يبعث له بمرسال خاص يبحث عنه.

وثمة فرصة أخرى يهتبلها الجرسون؛ تلك هى وقوع المتعهد فى ورطة مفاجئة ؛ إذ كثيرا ما يتغيب أحد الفنانين عن الحضور لسبب مفاجئ أو لآخر؛ فمن مقر الحفل يتصل المتعهد بالمقهى ليسأل الجرسون فى تلقائية: من عندك الآن من المغنين؟ أو الالاتية؟ أو المثلوجست؟ عندئذ تتجلى براعة الجرسون وسرعة يديه؛ فربما كان المقهى فى تلك اللحظة يفص بالفنانين الجالسين فى انتظار فيض الكريم؛ لكن الجرسون اللئيم يتفاوضى عن هذا الزحام قائلا: عندى فلان؛ ويذكر من يعجبه ويرتاح إليه، من يستفيد منه أكثر من غيره، فإن سئل عن غيره ذكر من يليه فى درجة السخاء؛ ثم يتوقف عند ذلك؛ فيقول المتعهد: إذن ابعثه لى على العنوان التالى. يأخذ العنوان بسرعة يقوم بقليل من التمويه؛ فلذكائه يدرك أن مجرد رنين التليفون فى المقهى فى مثل هذه اللحظة يدق له قلب الجميع فنزوع أعينهم - خلسة تراقب الجرسون وهو يسرع إلى السماعه سيما وأنه - كاهن لشقيقة صاحب المقهى والمستول عن إدارتها - ينبه على الجميع أن لا شأن لأحد بسماعه التليفون غيره حين يرن. كل منهم يتوقع أن يكون هو المطلوب، أو يتعشم فى حركة جدعنة من الجرسون. إلا أن الجرسون أنذاهم جميعا، ابن خاطئة بل ابن زانية، يتكلم بهنوء وبصوت واطىء نون أن يظهر عليه أدنى اهتمام؛ ثم يضع السماعه ويمضى إلى النصبه منهمكا فى عمله كأن شيئا لم يكن. فإذا تحلك به أحد المتطفلين فى مشروع مساومة فإنه - والبراءة الشديدة فى عينيهِ - يوضح له أن بيت المعلم هو الذي كان يتكلم، أو أن تاجر الفحم يسأل عن المعلم. ولربما أطل فترة التمويه حتى ينسى الجميع فى خضم الطاوله والدومينو والورق أن الهاتف قد رن؛ والجرسون خبير بعد ذلك فى النقاط مطلوبه، بغمزة عين؛ ثم بغمزة يد، تتلوها غمزة يد مقابلة؛ واحدة تغمز بورقة العنوان والثانية تغمز بورقة البقشيش أو بوعد مؤكد فى آخر الليل.

كل هذا أصبح عبدالبصير يفهمه جيدا؛ فشىء شبيه به يحدث فى قهوة الحلى بطنطا ولكن على نطاق ضيق جدا و غير متقن. ومنذ بداية ارتياده لقهوة التجارة

بشارع محمد على بالقاهرة وحاجز من الأنفة والكبرياء يقوم بينه وبين الجرسون؛ لا يريد أن يقع تحت طائلته ولا أخذ فى الانحدار إلى ما لا نهاية.

اكتفى بالظهور فى المقهى عدة ليال حاملا صنوبر الكمان؛ وتعرف على الكثير من قدامى الفنانين الذين انتصح أنهم يعرفون أباه؛ فكل رواد قهوة التجارة ليسوا من العوالم والآلاتية، بل يؤمها أيضا رهط من قدامى الملحنين الذين حققوا بعض المجد وبعض الشهرة فى مطلع حياتهم ثم خبت عنهم الأصواء إما لتخلفهم وإما لانتشار أنواق جديدة لم يتواسوا معها. يؤمها كذلك عدد من المطربين الذين اشتهرت لهم بعض أغنيات فى الراديو ولم يحالفهم النجاح فى غيرها. إضافة إلى هؤلاء وأولئك يؤمها عدد من الموهوبين الأصلاء تقدم بهم العمر دون أن يفلحوا فى إيجاد فرصة تضعهم فى منطقة الضوء وظلوا مع ذلك محتفظين باحترامهم لأنفسهم ومثابرتهم على التحصيل والتدريب؛ ومنهم من يصل إلى مستوى مدهش يضارع غناء كبار اللامعين؛ ولهذا يأنفون من شغل العوالم لشعورهم المتضخم بأنهم أنداد - وزملاء سابقون - لفلان وفلان من النجوم الكبار؛ ومنهم من سحقه الزمن وسوء الحظ فكسر رغيف العيش أنفه فأصبح يبيع ألحانه من الباطن للمشهورين يضعون عليها أسماءهم لقاء ثمن بخس؛ ومنهم من تحول إلى مجرد مرجع حتى يلجأ إليه المحترفون للتعرف على ألحان تراثية يدرسونها أو يسرقونها. هناك إلى ذلك كله طائفة من الموهوبين الشبان الأذكياء لجأوا إلى قهوة التجارة لتحصيل الخبرة واكتساب الشجاعة فى مواجهته والتمرين على التعامل معه فى حفلات وأفراح يستكشفون فيها مواهبهم يجربون ما لديهم من أفكار وأساليب. هناك أيضا طائفة كبيرة من أنصاف وأرباع الموهوبين، مجانين الشهرة، الغارقين فى أحلام يقظة لا خروج منها، مرضى الإحساس المفرط بالوسامة، خاصة أولئك الذين تحمل وجوههم شبها من نجوم لوامع. هؤلاء وحدهم هم مصدر الضجيج والصخب والإزعاج؛ هم كذلك معرض تحف لمن يراقبهم، ومثار تسلية وفكاهة وربما كلفة ومرارة؛ إذ ترى ألوانا شاذة وغريبة من تسريحات الشعر، والملابس

الفتنازية المبالغ في ألوانها وموديلاتها الصارخة، والسلوكات الميلانخوليا الفاقعة، والنماذج المتخشبة، المتورمة، المهرجة؛ هي في النهاية شخصيات مستعارة، معظمها فضفاض على من استعارها. وفي جلسة واحدة لمدة ساعة مثلاً ترى مسوخاً شوهاء من فريد الأطرش ومحمد عبدالوهاب ومحمد فوزى وكارم محمود وعبدالعزیز محمود وعبدالحليم حافظ وصباح وشادية وإيلي مراد ونور الهدى وعبدالغنى السيد ومحمد قنديل ومحمد عبدالمطلب وجلال حرب ومحمد أمين، وفريد شوقي وشكري سرحان ويحيى شاهين وكمال الشناوى ورشدى أباطة.

قد يصادفك وسط هذا الركام الهائل من الشخصيات الكانتو نسخة عتيقة باهتة من صالح عبدالحى أو عبداللطيف البنا أو عبده الدمرداش أو محمد العربي من أعمدة الغناء البلدى.

عبدالبصير يشبه هذه المقهى بسوق الكانتو الذى تباع فيه الملابس المستعملة؛ إذ ترى في هذا المقهى خلع الوسط الفنى من كل قديم الطراز وبال ومرقع، إنهم رجال تم غسلهم وبكهم جيداً لإخفاء ما فيهم من عيوب، كما أن من يتعامل معهم يعرف سلفاً أنه يشتري سلعة مستعملة قديمة نصف عمر؛ سيما وأن سوق الكانتو الفعلى الخاص بالهدوم القديمة يقوم على مرمى حجر من هذه المقهى في أول شارع الموسيقى، ومن المؤكد أن تعاوناً كبيراً يتم بين السوقين؛ فبقروش زهيدة يستطيع الواحد من هؤلاء أن يخطو - وهو جربوع - بضعة أمتار إلى سوق الكانتو ليخرج منها بعد دقائق أفندياً محترماً يغتر فيه البصر.

يعرف عبدالبصير بأديء ذى بدء أنه لن يبرج في مثل هذه السوق لكنه مع الأسف برزخ لابد من عبوره في البداية إلا أنه مع ذلك منزلق صعب وخطير؛ فمن يعبره إذا لم يكن على موهبة حقيقية ووعى وحرص وصحوة دائمة فإنه قد يبقى محشوراً فيه إلى الأبد فتتضغط موهبته وتجف من فرط الابتذال تصبح سلعة رديئة في سوق الكانتو.

بداية الانحدار - كما يعرف - تبدأ عادة بالتقريط في الكبرياء الفنى بالذات،

وقبول التنازلات بجميع أنواعها ودرجاتها. إن فقدان الكبرياء يقود إلى قبول أى شئ؛ لتبدأ درجات الهبوط من تنازل إلى تنازل؛ وبذلك يكون المرء قد حكم على نفسه بأن يظل طول عمره فنانا من الدرجة الثالثة فى أحسن الأحوال، تلتصق به كلمة «أرتيست» ، التى - برغم شرف أصلها - باتت قرينة للعوالم والآلآتية.

(٣٢)

القعدة فى قهوة التجارة أمست ملة سمجة مثيرة للكآبة والقرف. المشكلة أنه طول عمره لم يتعلم أى لعبة من اللعب المسلية؛ حتى القراءة جريها كثيرا؛ فاكتشف أنه عاجز عن نطق المفردات نطقا صحيحا؛ أعاقته إشكالية التشكيل فلا يعرف متى ينكسر الحرف أو ينفتح أو ينضم أو يسكن؛ الألفاظ متشابهة والمعانى تلتبس فى ذهنه تلبيل أفكاره تشوشها تنزل عليها ثقيلة كالكايبوس؛ فلقد ترك المدرسة قبل أن يجيد فك الخط أو رسمه جيدا؛ حتى توقيعه يرسمه على الورق بأصابع عاجزة مرتعشة؛ وحينما أخذ كتاب الأغانى من البحراوى بك كان يظن أنه سيتمرن فيه على القراءة ، فما كاد يفعل حتى خيل له أنه يغوص فى غابة شائكة موحلة ظلماء؛ حاول وحاول بإصرار لكنه بعد دقائق معدودة يدوخ ويكس عليه النوم، فيرمى الكتاب ويستريح؛ إلا أنه نجح فى النهاية فى القدرة على قراءة خبر فى جريدة، شرط أن يقرأه فى سره ويفهمه بالفهولة؛ أما الآيات القرآنية التى يؤدى بها صلواته الخمس فإنها معدودة على الأصابع من قصار السور حفظها من كثرة ترديدها فى الراديو وسراقات العزاء. هو مع ذلك يجيد التحدث، لسانه طلق، يعرف حصيلة من الألفاظ الفصيحة التى يرددها الخاصة فى حديثهم اليومى من الفنانين والموظفين. فى حديثه قد يخدع العامة بأنه مثقف؛ لكن من كان على درجة بسيطة من الوعى والثقافة لا يمكن أن يقتنع بهذه الشخصية؛ وآخر ما يتصوره أن يكون صاحبها له أدنى علاقة بالفن؛ سيما وصوته ملء بالتطجين البلدى حتى ليبدو كأنه سباك أو ميكانيكى أو بائع كرشة. لم تبهره السينما كأبناء

جبله من المدن الإقليمية؛ لكنه كان يدخل السينما من حين لآخر، خاصة الأفلام الغنائية الاستعراضية؛ فإذا كان الفيلم متحذلقا يعتمد على عمق المشهد وفنية اللقطة على حساب الحوتة فإن النوم سرعان ما يعقد أجفانه؛ العجيب أنه كان مشهوراً بين أصحابه بأنه من عشاق السينما إذ يلتقونه كثيراً أمام بابها في انتظار الدخول؛ ولا أحد منهم يعرف أنه اعتاد أن يدخل السينما كلما شعر برغبة في النوم العميق.

كل هذا بدأ يعيه مؤخراً بسبب طول القعدة في المقهى التجارية. مع ذلك فالمقهى شكله بالفعل مثير للفرح ابتداءً من ساعة الأصيل؛ حيث ترتص الكراسي والمتاضد على الرصيف داخل البواكى؛ تمتلئ بمهرجان حقيقي من الأفندية بمختلف ألوان الملابس الزاهية، الجرسون وصبياناه في حركة دائبة؛ صوت الراديو وزهر الطاولة وطرقعات النرد يمتزج بأحاديث الجالسين وضحكاتهم ومطارحاتهم الفكاهية؛ بأصوات أجراس الترام المجلجلة على الدوام في قلب الشارع تحتك عجلاته بالقضبان الغائصة في الأرض.

يحب قهوة التجارة في هذه اللحظات فحسب؛ إذ يرتدى وينزل من لوكاندة البرلمان أشهر لوكاندة في ميدان العتبة على بعد خطوات قليلة من المقهى. اعتاد أن يخرم من قلب سوق الخضار ليجلس على إحدى غرزه - وما أكثرها - ليشرب حجرين من الحشيش المتوفر في السوق بكثرة. يصل إلى المقهى مع احمرار شمس الأصيل المنعكس في احمرار عينيه. يجلس على الرصيف؛ الأرض أمامه مرشوشة بخراطوم المياه؛ زحام وحركة في الشارع لا تهمد ليل نهار؛ كأن شارع محمد على هو معدة المدينة وأمعائها. يشعر بلذة فائقة لأنه أخيراً يجلس على مقهى الفنانين في القاهرة منتظراً قرصته في اللعنان. يسرح به خيال الحشيش في دروب وردية؛ وكلما شعر بأن خياله سيهبط على الأرض سارع بإشعال سيجارة وطلب فنان من القهوة السادة. يظل في هذه النشوة منفرداً بنفسه متصلاً بالآخرين في آن معاً. في حوالى التاسعة مساءً تتعري الكراسي شيئاً

قشينا؛ تلك هى الساعة الحرجة، ساعة أن يكون كل واحد من الجالسين قد عرف له طريقا للسهر فى حفلة فى فرح ملهى فى تسجيل إذاعى. لا يبقى فى المقهى سواه وبعض التجار والسابلة؛ حينئذ يحس بالكآبة ثقيلة سمجة متسلطة كضابط شرطة مصرى من أصل وضيع، ينهض عائدا إلى لوكاندة البرلمان؛ يغلخ على نفسه باب الحجرة الصغيرة ذات السرير الواحد، التى كانت فى الأصل مطبخا مجاورا اسلم الخدم قبل أن يحولها صاحب اللوكاندة إلى حجرة للنوم؛ يلوذ بكمانه، يظل يصول ويجول فوق الأوتار حتى الصباح، يناجى طيف سعادىة الملىجى؛ كأنه يكتب لها الرسائل؛ يبلفها على البعد همومه وأحزانه وإصراره على خوض التجربة حتى النهاية مهما كانت مجهد؛ لقد جاء لينجح وانتهى الأمر وسوف لن يعود إلى طنطا ثانية إلا زائرا؛ سوف يحقق لسعدىة كل ما وعد به؛ هو يدرك من الأول أن الرحلة لابد أن تكون مضنية؛ ويقدر ما يشقى فيها الآن يوفر على سعدىة وعلى نفسه متاعب كثيرة.

كان يلتقط الخاطرة الموسيقية التى تعبر خياله كبرق نجوم تنهاوى فى الأفق البعيد؛ يتصيدا بمهارة فائقة؛ يحاصرها بالقوس فى كل المقامات حتى يمسك بها من تلاييبها ينحت ما حولها من ثرثرة نغمية كمن ينزع الورق عن قلب الضساية ليصل إلى لبها؛ يبرزها، الخاطرة تجىء بالخطرة؛ مجموعها يصنع شكلا من الأشكال الفنية التى تعلمها واستوعبها جيدا من حفلات الكنائس فى طنطا ومن مناقشات الهواة الخبراء فى الاستماع؛ فهذه لونجا وتلك تحميلة وتلك سوناتا أو بشرق أو كونشرتو... إلخ؛ حتى الفروق الدقيقة بين هذه الأشكال الفنية أدركها بجهد الذاتى من خلال التمعن فى نماذج من كل شكل على حدة؛ حتى أصبحت الأشكال فى حد ذاتها لا تعنيه؛ إنما يعنيه ما تحويه هذه الأشكال من مضمون شعورى نغمى؛ فإذا كانت الفكرة سريعة عابرة للشعور فهذه لونجا، وإن كانت عريضة عميقة تحتمل عدة آلات مشاركة للكمان تستطيع كل آلة إثبات وجودها بتقاسيمها الخاصة النابعة من الفكرة الأصلية فهذه تحميلة؛ وإن كانت الفكرة

كمانية صرفة تحتل الحوار مع الآلات الإيقاعية والأوركسترا فهي كونهن شرتو... إلخ. لكن حتى متى ستستمر هذه البطالة؟ لقد أوشكت كل مدخراته على النفاد؛ وإذا لم يجد حلاً في خلال أيام قليلة فإن وضعه سيصبح مؤلماً جداً وقد لا يحتمله. فكر في أن يحتجز أجرة القطار وحدها في مكان خفى ضماناً للرحيل إلى أي مكان آخر؛ لكن هل ثمة من مكان آخر؟! حينئذ عجزت الأوتار عن مجارة ذهنه الشارد المشتت؛ فحنى القوس جانبا؛ أشعل سيجارة ملفوفة؛ قام فتوضاً صلى الفجر؛ بعد الصلاة تبين أن موعد الأذان لم يحن بعد؛ ذهب ليصلي الفجر ثانية جماعة في مسجد الحسين.

في طريق العودة إلى اللوكاندة حرف طريقه تلقائياً إلى شارع محمد علي. على مقربة من المقهى استوقفته لافتة كبيرة على دكان: تصليح الآلات الموسيقية. أحس بفرح شديد؛ أشرقت الفكرة في رأسه كأذان الفجر المفاجيء دائماً. في تلك الليلة نام مطمئن البال يردد قولاً ماثوراً سمعه كثيراً: ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج.

(٣٣)

صاحب محل تصليح الآلات الموسيقية لم يصدقه حين قال له إنه ابن الحاج مصطفى الصوفاني من طنطا. فصاحب هذا المحل زبون قديم لأبيه، يعرفه معرفة جيدة وإن كان لم يره منذ بضع سنوات. اطمأن صاحب المحل لعبد البصير وسلمه المحل ليتفرغ هو لمشاوير خاصة.

انتظم العمل في المحل بصورة مفرحة، أصبح يقبل الوارد الكثير الذي كان يعتذر عن عدم قبوله سابقاً بحجة الندرة في اليد العاملة المدربة الخبيرة؛ بل أصبح يقبل الحالات المستعصية؛ فكثيراً ما كانت تجيئه آلات خربة تماماً لا تصلح إلا لبائع الروباييكيا فيفاجأ بأن عبد البصير يقبلها فيبرك عليها يومين أو ثلاثة فيخلق منها آلة ثمينة يرتفع سعرها إلى أرقام شاهقة، مما يتيح له أن يطلب لقاء

تصليحها ما يشاء من أجور عالية ربما أغلى من ثمنها جديدة لأن قيمة الآلة فى الواقع فى قدم صنوقها . ثم إن الرجل كان متخصصا فى آلة الكمان وحدها؛ فإذا بعد البصير لديه خبرة عميقة وواسعة بالآلات الكمان والعود والقانون؛ الآلات التى برع أبوه فى تصنيعها وإصلاحها على السواء.

انتعش المحل انتعاشة واضحة. وكان عبد البصير ذكيا، إذ انفق مع صاحب المحل على العمل بالنسبة؛ تبلغ النصف؛ كل آلة يصلحها يتقاضى نصف أجرها. ولأنه كان يطلب أجورا عالية جدا فقد عم الخير وفاض. بات الرجل حريصا على بقاء عبد البصير معه؛ سيما وقد استرد المحل سمعته وأضيئت لأفئاته وفئارنيه. قال له ذات ليلة:

– «أين تبيت؟»!

– «فى لوكاندة البرلمان»!!

استنكر الرجل هذه الرفاهية الشديدة:

– «سائح ياخى؟»!

ألقه باثنين من الموسيقيين الشبان فى مثل سنه؛ هما سامى دوير ومدكور أبوحليمة؛ فى حجرة واسعة فوق سطح عمارة عتيقة فى مواجهة القهوة التجارية. سامى عواد ومدكور ناياتى وكلاهما يدرسان فى معهد الموسيقى العربية ويعملان فى الأفراح مع العوالم.

شهر واحد أمضاء معهما، شعر أثنائه بأنه على غير وفاق معهما. كان النفور فى الواقع متبادلاً؛ فهما فى نظره محض آلائي من طائفة العوالم حتى ولو كانا يدرسان فى معهد الموسيقى فضلا عن أن مستوى المهوبة والخبرة عندهما قليل وفج. لشدة استهائته بهما لم يفتح آله أمامهما مطلقا. فى المقابل هو فى نظرهما محض صنايعى يعمل فى إصلاح الآلات كما أنه لا يجيد القراءة والكتابة. حين شعر باستعلائهما الأجوف عليه لم يحاول تحسين صورته فى نظرهما بأية وسيلة؛ فهو فى شغل عنهما وعن نفسه؛ شغله الشاغل الآن هو سعيدية المليجي: كيف يدبر

لها بيتا يؤسسه فى هذه المدينة؟ كيف يسرع بشراء الشبكة التى لابد أن تكون تحفة ذهبية نادرة؟ كيف يعقد قرانه عليها ويشبكها فى حفل واحد ثم يعود ليستأنف الكدح حتى يؤسس البيت ليجىء بها عروسا تتلأل فى هذه المدينة تخسف نجومها الزائفة الصدئة؟ عليه أساسا أن ينتهى من كل هذا فى شهور قليلة؛ أما هذان الفران الأحمقان فغداً يعرفان من هو على الحقيقة.

فى يوم جاءه مطرب عجوز يحمل عوداً خربا تماما؛ حتى القصعة تحتاج إلى ترميم دقيق حرج. قال له وهو يبتسم فى خجل إنه ماكان ليأتى له بهذا العود ذى الخشب الثمين العتيق لو لم يكن قد سمع عنه وعن مهارته فى التصليح وإنه مستعد لدفع أى مبلغ فى سبيل استرداد هذا العود لصحته الأولى. بنظرة أولية سريعة أدرك عبدالبصير أن إصلاح هذا العود أمر فى غاية اليسر وإن بدا لسوء منظره غير قابل للإصلاح؛ لكنه كعادة الصنایعى الحويط لابد أن يصعب المهمة كى يرفع أجره. نحى العود جانبا فى صمت باسم؛ أتت يده بحركة ذكية بليغة كأنه يقول: يحى العظام وهي رميم. علق المطرب العجوز بقوله إنه يدرك هذا مقدماً ولكن عشمه فى خبرة الصنایعى كبير. وجد عبدالبصير نفسه يسأله فجأة دون أى مقدمات:

— «ألا تعرف طريق شقة خالية للإيجار؟! بشرط أن تكون محترمة فى مكان محترم تصلح للزواج؟!»

بدا كأن هذا السؤال بمثابة بداية للفصال فى أجر إصلاح العود؛ فأشرق وجه العجوز، صاح على الفور:

— «إن أصلحت لى هذا العود جيدا فلك عندى شقة معتبرة فى هذا الحى خلف قهوة التجارة رأساً!! أنظف وأجدد عمارة فى الحى كله!!»

الشقة كانت فوق شقة المطرب العجوز؛ مكونة من حجرتين وصالة ومطبخ ودارة مياه؛ لا تغادرها الشمس طول النهار؛ لها بلكونة بحرية هوائية يرد الروح.

لم يحدثه المطرب العجوز عن ظروف هذه الشقة؛ لم يخبره بأنها مشنومة؛ ماتت فيها عروس في شهر العسل صعتها تيار كهربي وهي تسمح بلاط الشقة بالمياه المتخلفة من غسيل الثياب حيث دلقت الطشت كله دفعة واحدة وكانت بريزة الكهرباء قريبة جدا من الأرض وأسلاكها عارية متآكلة ، فبقيت الشقة من ذلك التاريخ البعيد خالية يخيم عليها شبح الموت الكئيب. يوم تسلم العود صاغا سليما كاد يطير من الفرح، اصطحب عبد البصير وفرجه على الشقة؛ نزل معه إلى صاحب البيت في الدور الأرضي؛ شهد على العقد؛ ذهب معه إلى السوق لشراء سرير سفرى وحشية من السفنج ويطانية وكرسیين ومنضدة من النوع الذي يفتح ويطوى. ولكى يريح العجوز ضميره أتى بالكهربائى وأشرف بنفسه على إصلاح شبكة الكهرباء وتبديل أسلاكها كلها ورفع برايز التوصيل عن الأرض.

أول ليلة يبيت فيها، صعدت ابنة العجوز تحمل صينية العشاء الحافلة بأكل شهى. ليلتها جلس على الكرسي فى مواجهة العجوز الذى جلس فوق السرير ممسكا بكراسة وقلم؛ راح يمليه خطابا لسعدية المليجي يبلغها نبأ الحصول على عش الزوجية المؤقت فى عمارة فى قلب العاصمة؛ ويطمئنها بأنه لا بد قائم إليها فى القريب العاجل مجبور خاطر يائز واحد أحد.

(٣٤)

الأستاذ جميل كريم اسم لامع جدا فى القهوة التجارية وشارع محمد علي، يتردد كثيرا فى أوساط الموسيقيين من ملحنين وعازفين ومغنين. هو عازف قانون مخضرم؛ يشاع أنه عزف وراء كثير من مشاهير المطربين القدامى أمثال منيرة المهدية وصالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا؛ لكنه يفخر دائما بأنه عزف وراء مطربة القطرين فتحية أحمد فى حفلاتها الخاصة، كما أنه رأس فرقة إبراهيم حمودة واشتغل كثيرا مع محمد عبد المطلب وحسيبه رشدى وغيرهم أيام كانوا يؤدون نمرا ليلية ثابتة فى كازينو بديعة فى وسط البلد؛ وحتى هذه الأيام لا يزال الكثيرون من

مطربى ومطربات سوريا ولبنان يراسلونه ويقومون بزيارته فى منزله كلما نزلوا إلى القاهرة.

منزلة عبارة عن شقة عريضة واسعة فى آخر طابق فى عمارة على ناصية شارع الجمهورية بينها وبين قلب شارع محمد على خطوات قليلة، مما جعله محسوبا بين أهل شارع محمد على ووسط المدينة معا. تحفل شقته بأثاث عتيق على شئ كثير من الفخامة يليق باستقبال زواره الأجانب؛ ترى فيها الكثير من التحف الثمينة؛ كساعة حائط على شكل آلة الكمان تطلق أنغاما موسيقية كل ساعة وبدلا من البندول امرأة عارية هى فينوس تتمايل راقصة فى نشوة كلما أتمت العقارب ساعة مضت من العمر. وهناك اسطوانات بدائية قديمة على شكل الكيزان؛ وآلة بيانو كبير مثبت فى الردهة الكبيرة؛ و امرأة بلجيكية مستطيلة مثبتة بعرض الحائط داخل برواز فوق بوابة المدفئة المبنية فى الحائط بالطوب الحراري؛ ومطحنة بن من خشب ثمين مزلاط؛ وسجادة عجمى، وصور مبروزة لشخصيات ذات طابع تاريخى مهورة بتوقيعات أصحابها.

الواضح أنها شقة فنان، كلاسيكية الطابع، تنبعث منها رائحة القدم مضمخة بعطور مخزونة، تمتزج برائحة التوابل العطرية التى تتصاعد دائما من مطبخ الشقة القريب من بابها.

يخطو الأستاذ إلى عتبة الثمانين من عمره لكنه يبدو كأنه لم يغادر عقد الستين؛ أسنانه كلها سليمة متينة؛ بشرة وجهه مشدودة خالية من التجاعيد؛ قامته مستقيمة كالعود صلبة مرنة فى آن. هو رجل اجتماعى بطبعه، أليف، مرح جدا، إذا مشى أو جلس أو تكلم تشعر كأنه يتحرك وفقا لايقاعات موسيقية. منضبط غاية الانضباط فى كل شئ كالنغم المحكوم بإيقاع محدد؛ إذا عزمك على كأس فكأس واحد بالبعد؛ عايزك فى كلمتين فلا تتوقع كلمة ثالثة. مقتصد لا بخيل، قليل الكلام، حتى نكاته لا تزيد على كلمة واحدة؛ ربما نصف كلمة وبقيتها حركة غمزة إيحاء. مع ذلك فنكتة عميقة حريفة تستلج الضحك من أعماق المحزون المكتئب؛ أما

هو فلا يضحك على نكاته أبداً؛ ومما يعطيها عمقا وطرافة أنه يقولها بوجه متجهم جاد.

إنما الفيض كل الفيض يتدفق بغير حساب حينما ينحنى على آلة القانون يوشوشها بتأمل؛ فإذا بالسموات تنفتح والشموس تشرق والمطر ينهمر بغزارة، أي شرير يجلس أمامه حينئذ فلا بد أن يصير في غاية الرقة.

لأن التسجيلات والحفلات أصبحت قليلة في حياته فإنه دائم العزف في بيته. ذلك أن بيته قاعة مفتوحة كل ليلة لجمهوره الخاص وما أكثره وأغناه؛ من جميع الأحياء والبلدان، ومن البلاد العربية، مشايخ نفط وكبار تجار اعتادوا دعوته لإحياء سهرات خاصة بهم في شققهم وعواماتهم وقصورهم وعزيمهم. ولهذا فهو في تدريبات دائمة، يضم إليه بعض العازفين الشبان الموهوبين. يتقاضى مكافآت مجزية ثمينة؛ فلا يستأثر بها وحده بل يوزع الكثير منها على عازفيه. مبدؤه في الحياة أن الجميع يجب أن يناله من الحب جانب.

زوجه نواره حياته. هي أصغر منه بعشرين عاما على الأقل، سميحة بعض الشيء؛ جميلة خضراء العينين تشبه فتيات أغلفة المجالات الفنية في عشرينات هذا القرن؛ تحتفظ بحيوتها كاملة رغم أنها أصبحت جدة؛ تشيع في البيت أنساً ومودة وكرماً، دائماً أبداً عندها ما يؤكل في آخر الليل، وما يشرب في الزنقات الحرجة المفرحة. بفضل تدبيرها لم يفلس الأستاذ أبداً؛ إذ يجد لديها على الدوام مدخرا يقتضض منه.

طويلة القامة مثله، شهية رغم كبرها في السن؛ ضاحكة بشوشة، غزيرة الشعر الكستنائي الملموم في حزمة واحدة علي ظهرها. أنجبت له ثلاثة ذكور وبنتين، تزوجوا جميعا وانتقلوا إلى بيوتهم الخاصة؛ منهم المهندس والحكيمة والمدرسة والمحامي وأستاذ الجامعة؛ لا يجتمعون إلا في المواسم والأعياد؛ أما فيما خلا ذلك من أيام فجميع رواد البيت هم أبنائها بالتبني مهما بلغوا من أعمار. بهذه الخصيصة وحدها - ربما - ظلت الشمس مشرقة عليها وعلى بيتها. لم

تشعر فى أى وقت من الأوقات أن زوجها غابت عنه الشهرة أو انحسر عنه الضوء؛ أن صوت الموسيقى لم يخفت فى هذا البيت أبداً؛ لدرجة أنها وهى تقوم بتنظيف النوافذ والأبواب فى غياب الزوار، تزيج إحدى الستائر فتتساقط أنغام موسيقية كانت عالقة بطيات الستائر؛ وإذا مسحت سطح البيانو بخرقه لامست يدها الأوتار فتقهقه أو تصيح أو تزغرد؛ ناهيك عن ساعة الحائط تمسك الزمن وتضبط إيقاعه.

الهاتف فى بيت الأستاذ لا ينقطع له رنين. هى تعرف جميع الأصوات على الطرف الآخر؛ ترد على كل واحد باللهجة التى تناسبه من المرح أو الجدية أو الرسمية: أهلاً ياروح قلبى، مرحباً يا أستاذ، عاش من شافك يامولانا، حاضر يا أفندم... إلخ. ورغم أنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياة كل واحد ومدى عمق أو سطحية علاقته بالأستاذ فإنها تبدو دائماً كأنها لا تعرف شيئاً. تعرف كذلك أن جرسون قهوة التجارة ألعبان محتال يختلس عرق الفنانين؛ ومع ذلك تكلمه باحترام إذا طلب الأستاذ فى الهاتف؛ بذكائها الخارق تحلل كلماته التى سأل بها عن الأستاذ فتفهم ما وراءها وما الذى يريده بالضبط رغم أنه لم يصرح؛ وتقول لزوجها:

— «الواد فلان سأل عليك اليوم ويظهر أنه يريدك فى كذا أو كيت»!!

فى الغالب يجرى توقعها صحيحاً مائة فى المائة . وإذا ذهب الأستاذ إلى قهوة التجارة يأخذ مجلسه على الرصيف ولا يعنى بسؤال الجرسون عما كان يريده من السؤال عنه فى الهاتف؛ بل يتركه حتى يتكلم هو؛ وفى النهاية لا يعنى بالرد عليه إلا بتلويحة من يده تعنى أنه الليلة مشغول؛ وحتى لو كان الجرسون يريد إبلاغه بأن المتعهد فلان سأل عنه؛ ففى اعتقاد الأستاذ أنه على آخر الزمن لا يصح أن يتلقى أمر الشغل من جرسون؛ كما وأن جميع المتعهدين يعرفون هاتفه؛ ومن لم يكلمه بنفسه ويذهب إليه للاتفاق معه فليس له عنده سوى الإهمال، إياً كانت شخصيته.

كان الأستاذ متوجها ذات عصرية إلى قهوة التجارة ليشرب القهوة والنارجيلة على الرصيف مستمتعا كعادته بشكل الحياة والزحام ساعة الأصيل، بمجرد ما حود في شارع محمد على تسمر في مكانه، شدته من أذنيه كالخفاف أنغام تحلق فوق رأسه تغمره بالبهجة تهز كيانه هزا، صابرة عن آلة كمان في مكان ما، أنغام أشد صعوبة في عزفها من أنغام بجانييني الإيطالي أكبر عازف كمان في العالم في عصره، لأول وهلة خامره الظن بأن الراديو في واحد من هذه المحلات مفتوح على إذاعة أجنبية، لكن الأنغام فيها نكهة شرقية صرفة، فمن يكون هذا العازف الجبار ياترى؟، إنه يعرف أساليب عزيز الشوان وأنور منسى وأحمد الحفناوى وعطية شرارة وليس لأحد من هؤلاء هذه الإمكانية البهلوانية، الأنغام تقتحمه بقوة، تحفر لنفسها مجرى في أعصابه، أبدا ليست تنزلق على الأعصاب وتمضى لحال سبيلها كمعظم الأنغام التى يسمعها من عازفى الكمان الشغاليين فى السوق، هذه الأنغام تقول بالعربى الفصيح إنها صوت جديد طازج، إنها إحساس جديد بآلة الكمان، إنها لمهارة شيطانية فى الركوزات والنقلات واللعب بالقوس وبالحروف وامتطاء المقامات.

توقف فى مكانه شاهرا أنفيه يتلفت حواليه كالتائه الموتر المسلوب اللب، سرعان ماتمكن من تحديد المكان الذى تأتى منه الأنغام، محل تصليح الآلات الموسيقية، مالبث حتى رأى الأنغام رؤية العين تخرج متطايرة من باب هذا المحل.

يا عجباً، طول عمره يمر كل يوم أمامه فهتى انتعش هكذا وامتلات الفترينة بكل هذه الآلات الثمينة!!.

وقف على باب المحل فاغرا فاه كطفل يتفرج على أعجوبة من الأعاجيب، لا يكاد يصدق أن هذا الشاب المتواضع الكحيان هو الذى يعزف هذا العزف الحريف المشتعل بأصالة وموهبة كبيرتين.

ابتسم له الشاب عن أسنان كبيرة، ورقه بعين حواء قليلا، فتقدم منه الأستاذ واضعا يده على كتفه:

– «من أنت يا حبيبي؟».

– «أنا الصنایعی!! أعمل في هذا المحل!!».

– «وما هذا الذى كنت تفعله الآن؟».

– «أجرب هذه الآلة بعد أن أصلحتها إكان مفقودا فيها الأمل! كانت

مهشمة!!».

– «وأنت الذى أصلحتها أيضا؟ إنك شيطان إذن!! ومن علمك الموسيقى؟».

– «أنا!!».

– «يا ولدى أنت عبقري!! أتعرف من الواقف أمامك يقول لك هذا الكلام؟».

– «أتشرف!».

– «جميل كريم! القانونجى! هل سمعت به؟».

– «طبعاً! طبعاً! أهلاً يا أستاذ!».

وسلم عليه بحرارة، قال له إنه ابن الحاج مصطفى الصوفانى صانع الآلات الموسيقية فى طنطا، فاندesh الرجل بالغ الدهشة من هذه المصادفة العجيبة؟ لأن القانون الذى يعزف عليه الآن ومنذ مايزيد على ثلاثين عاما سبق لأبيه أن أصلحه بعد أن كان قد تخرب تماما!، احتضنه الرجل وقبله، أعطاه عنوان منزله ورقم هاتفه، أوصاه بضرورة أن يزوره فى منزله كل يوم لو أراد.

مضى الأستاذ جميل كريم إلى قهوة التجارة منتشيا كأنه قد أنجب على الكبر ولدا جديدا، أول خاطر داعب رأسه كان الصيغة التى ينقل بها الخبر إلى زوجه أم فريد، ثمة جمل موسيقية كاملة مما عزفه الشاب قد علقت بأذنيه واستقرت فى صميم صدره، وحتى يثبتها ويتمعنها فى الوقت نفسه جعل يردد لها بقمه مرات عديدة فى استمتاع شديد، وفي كل مرة يتضح له إلى أى حد هى جملة مكثفة مركبة، شديدة الغرابة رغم أنها مألوفة وحميمة، فانتابه مايمكن أن ينتاب الصياد

الذى اكتشف أخيرا أنه أنفق العمر فى الجرى وراء بحار بعيدة بينما الخير كله فى مصرف ملاصق لبيته.

لم يتخذ مكانه المعتاد فى ركن قصى على الرصيف، بل اتجه إلى نفر فى الركن المقابل فالتحق بهم، انبرى يحدثهم عن هذه المفاجأة التى أذهلته الآن وهو فى طريقه إليهم، ويمط بوزه فى اندهاش عظيم، مرددا:
- «صحيح يا أولاد! مصر ولادة بالفعل ما فى ذلك شك!».

(٣٦)

جرت العادة أن يمر على قهوة التجارة كل يوم وهو فى طريقه إلى شقته، فيشرب القهوة السادة، يستمع إلى طرف من أخبار الفنانين، يتفرج على النماذج التعيسة ممن يعيشون فى وهم انتظار الفرصة للشهرة ولو من أضيق الأبواب. فى تلك الليلة فوجئ بأنه صار محط أنظار جميع من على المقهى، عامله الجرسون باحترام شديد، جاء له بالقهوة قبل أن يطلبها، مزودة بالماء المثج على غير العادة، وبغير مناسبة راح يمدح كرمه وأخلاقه، يبلغه من طرف خفى أنه منذ رآه أول مرة أدرك أنه ليس شخصا عاديا فإنه بحكم تودكه فى المهنة يفهم الناس بمجرد رؤيتهم، زميلاه السابقان فى المسكن أتيا فسلما عليه بحرارة واشتياق وجلسا إليه وقد ظهر عليهما تواضع مفاجئة تجاهه، جاءه أكثر من واحد وطلب عنوانه.

فيما هو يتأهب للقيام بخل المقهى رجل ضخم الجثة ذو كرش كبير يرتدى بذلة فاخرة على قميص حريرى ياقته مزينة بالعرق والغبار، ورباط عنقه مبروم بطريقة همجية، سعى إليه الكثيرون يستقبلونه بترحاب مبالغ فيه، بطريقة يبدو فيها الملق والنفاق، وهو يكتفى بمد يده الرخوة فيسلم على الجميع بغير حماس كأحد أصحاب الألفاد الأباطية فى رهط من رجال ضيعته، حينما وقع بصره على عبدالبصير أثناء مروره التفت نحوه ثانية، فلما رآه يسلم على زميليه تمهيدا للانصراف أشار نحوه بنزاعه:

- «عايزك يا أستاذ لحظة واحدة!».

نظر إليه عبد البصير فى توجس واندهاش، قابلته من زميليه نظرات لمس فى ظلها بعض الحقد والحسد، قال سامى نوير:

- «ابسط ياعم!! إنفتحت لك أبواب السعد!!».

سأله فى همس مضطرب:

- «من الرجل؟!».

شوح مذكور أبوحليمة النياياتى بحركة سوقية:

- «ألا تعرف من هذا الرجل؟!».

فكانه يلومه بقسوة على جهله بمعرفة رجل ينبغى له أن يعرفه جيدا، ثم أضاف كأنه يهديه سواء السبيل:

- «يا مغفل! هذا هو نجيب السلحدار!! أكبر متعهد حفلات فى مصر!! يظهر أنه سمع الأستاذ يتكلم عنك!!».

إن هى إلا برهة حتى رأى نجيب السلحدار يتدحرج قادما نحوه، ماذا يده الرخوة، تلقاها عبد البصير بحماسة المعهودة فشعر كأن يده تحتوى على أرنب ميت، قال نجيب السلحدار بلهجة شبه رسمية:

- «أود أن أراك غدا هنا، أو تتكرم بالمرور على مكتبى لأتكلم معك كلمتين!».

نزع من جيب قميصه بطاقة صغيرة فيها عنوانه ورقم هاتفه، تناولها عبد البصير فوضعها فى جيبه:

- «إن شاء الله!».

سلم عليهم ومضى إلى بيته، يستجمع فى ذهنه - ببهجة فائقة - تفاصيل الخطاب الذى سيمليه الليلة على جاره ليكتبه إلى سعدية المليجى يبلغها فيه آخر أخباره وأخبار مدخراته التى تنمو باطراد محروس بعين الله وعنايته، ثم شعر بأن الله يوشك أن يغضب منه لسبب غامض، فانتوى أن يثقل على جاره بكتابة جواب لأمه فى طنطا يطلب رضاها ودعواتها.

تردد كثيرا فى الذهاب إلى نجيب السلحدار، ليس احتقارا لشأنه، وإنما تحديا للحسد الذى لحقه فى عيني سامى نوير ومدكور أبوحليمة، كان فى أعماقه يريد التنكيل بهما ليعرف أمثالهما أنه ليس متكالبا على القرص الرخيصة مثلهم لأن مستواه الفنى أرفع منهم بكثير، ظل الصراع محتدما فى نفسه حول أن يذهب أو لا يذهب، إلى أن فات موعد إغلاق المكتب، فاستراح لذلك بعض الشيء وإن شعر بغصة فى حلقه، إمعانا فى التنكيل بحقد الزميلين رأى أنه يجب أن يكون موجودا فى القهوة التجارية لحظة ذاك ليعرف زميلاه أنه لم يذهب كما توقعوا، لم يتكالب مثلها.

فى قهوة التجارة وجد نجيب السلحدار فى انتظاره مع الأستاذ كريم، هبا واقفين فى استقباله، قال الأستاذ:

— «تشرب قهوتك عندى فى البيت! بينا يانجب!».

خجل من الاعتذار، فمضى معهما إلى بيت الأستاذ.

استقبلتهم الست أم فريد ببشاشتها المعتادة، قبل أن تمضى إلى الداخل أمسكها الأستاذ من ذراعها.

— «انتظري! أنا كلمتك عن من؟».

نظرت أم فريد تلقائيا إلى عبدالبصير وقد اتسعت عيناها بنظرة استطلاع شغوف:

— «عبدالبصير الصوفاني! أهو؟».

سلمت عليه مرة ثانية بحرارة أشد:

— «الأستاذ طول الليل يكلمنى عنك! قال إن مافيك ليس علما ولا صنعة بل هو

فيض من نور الله، لماذا لم تأت بالكمان معك؟».

ضحك ضحكته البلهاء كصفيح يخط فى بعضه، فضحكوا جميعا بمرح، وقال

لها الأستاذ كأنه أمسك بدليل قاطع:

— «أرأيت؟! أقول لك إنه فيض إلهي!!».

امتدت أمامهم أكواب مستطيلة من عصير الفراولة الثلج. ناوله الأستاذ كوبا:

– «حقاً أين الكمان؟ نريده الآن للأهمية! أين هو؟».

– «فى البيت!».

– «وأين هو البيت؟».

– «خلف قهوة التجارة بعمارتين!».

– «قم هاتها!!».

– «ضرورى؟».

– «طلب الأغلبية!».

فيما لايذيد على عشر دقائق عاد بالكمان، كانت رائحة الشواء تعبق فى البيت، وتراييزة السفرة مفروشة بالأطباق، وصوت أم فريد يرن فى المطبخ متحدثة مع أحد، بعد برهة ظهرت فتاة هيفاء تحمل طبق اللحم المشوى، نهض الأستاذ:

– «حى على الطعام!!».

وسحب عبد البصير من كتفه:

– «هذه العزومة على شرفك أنت! ليكون عيشا وملحا بيننا!!».

ضحك عبد البصير ولم يعلق، لم يكن قد عرف بعد أن الأستاذ يتبع هذا الأسلوب مع كل الشبان الذين يستقطبهم ليأسرهم بالعيش والملح ليكونوا طوع يمينه حين يطلبهم فى أية سهرة خاصة، أو على الأقل لجذبهم إلى بيته باستمرار، حتى لاينطفئ صوت الموسيقى فى البيت طالما هو حى.

خلال تناولهم للطعام رن الهاتف، ردت أم فريد بصوتها الودود، صارت ترسل التحيات وعبارات الشوق والترحيب، ثم وضعت الساعة قائلة لهم:

– «إنها قادمة فى الطريق!».

قال الأستاذ:

– «على بركة الله!».

وقال السلحدار:

– «ربنا يستر!!».

جىء بالشائى، ثم جاءت أم فريد فجلست عاقدة نراعيها على صدرها، سحب عبدالبصير كمانه من خدرها، ضبط أوتارها، إن هى إلا برهة حتى غاب هو عن أنظارهم تماما، لم يبق منه سوى الأنغام القوية الطاغية، ولم يبق منهم سوى: الله الله يا سلام سلم! يا عيني! يا مفتري! معقول؟ ده إعجاز، عزف لهم ثلاث لونجات فى خيط واحد، نهاوند واحد ونهاوند اثنين ولونجا دوما جبر، فلما رفع القوس قامته عن جسد الأوتار وغادرها شيعته الأوتار بأنة شبكة مكتومة، دوى التصفيق لبرهة طويلة ختمها الأستاذ هاتفا:

— «أنت لايد أن تتربع على عرش الكمان!!».

قالت أم فريد فى وجد مشبوب:

— «فعلا! لانظير له فى مصر الآن!!».

وقال السلحدار:

— «هذا طعم مصرى صرف!».

واستطردت أم فريد:

— «فعلا يا أبوفريد! اختلط على الأمر وهو يعزف! لم أقدر على التفريق بين

الخواجة والمعلم البلدى!!».

أخذ نجيب السلحدار إلى الصمت مسلطا عينيه عليه فى دهشة بالغة كئنه

يريد أن يفك لغز هذا المخلوق العجيب الذى يبدو لمن يراه أميا لا علاقة له بالفن،

أحس عبدالبصير بسطوة نظراته، فابتسم:

— «لاتندهش هكذا!! ففى داخلى شيطان يعزف لى ثم ينصرف!! وهو مطيع!

يحضر وقتما أستدعيه!!».

قال السلحدار:

— «وهذا هو العجيب!! كل الشياطين تحضر وتنصرف وقتما تشاء إلا

شيطانك! فالحمد لله على كل حال!!».

لحظتها رن جرس الباب، هبت أم فريد واقفة:

— «جاءت!».

تبخترت نحو الباب ويدها تلف حزام الروب حول جسدها المحتفظ بتناسقه،
فتحت الباب فى مواجهتهم تماما، ظهرت سيدة ترتدى تاثيرا رماديا محبوبكا على
جسدها الرشيق المبروم يعطى لقامتها الطويلة بعض الأرستقراطية، عانقت أم
فريد، تبادلتا القبلات، أفلتتها أم فريد واستدارت تنظر إلى السلم كعادتها دائما
قبل أن تغلق الباب، خلعت السيدة قبعتها الصغيرة ثم خلعت القفاز الحريرى
الأسود، وسلمت عليهم.

حلق عبدالبصير فى وجهها، ملامحها مألوفة، تذكر أنه رأى صورتها كثيرا فى
مجلة الإذاعة، ما أن تكلمت بعبارات الاشتياق حتى عرف من صوتها أنها المطربة
الإذاعية الشهيرة نادية فهمى.

تحفز السلحدار:

«ما الأخبار يا مدام نادية؟!».

لوحث برأسها فى يأس:

«لأبد من تأجيل موعد الحفل عشرين يوما على الأقل!!».

شجبت الابتسامة على شفتى السلحدار، تهيأ للرد، لكن الأستاذ كان أسرع

منه:

«قال الله ولا قالك! لماذا التأجيل؟!».

هى نفسها كانت مستاعة من فكرة التأجيل، غير مرحبة بها، إلا أنها نفخت،

واقشعرت ملامحها فى ألم:

«عازف الكمان الأول عندى مريض وملازم الفراش بأمر الطبيب!، إنه عصب

الفرقة كما تعرف!!».

شوح فى وجهها بعشم أبوى:

«أعرف أنه مريض ربنا يشفيه ولكن هل خربت الدنيا؟ عندنا من هو أفضل

منه! بريقته!!».

تراجعت برأسها فى استهوال:

– «لا يمكن ! أغنيتي فيها صولو كمان لا يقدر عليه إلا حريف! أنت تعرف ألحان محمود الشريف! إذا لم يكن الصولو متقنا ضاع اللحن كله!!».

هز الأستاذ أصابعه فى وجهها:

– «سأريحك!».

ثم نظر إلى عبد البصير:

– «أخ عبده! تحفظ لحن أغنية مدام نادية فهمى! يا سلام ع الهوى!».

قال عبد البصير:

– «أظن أنى أحفظه! أحتاج فقط لمن يذكرنى به مرة واحدة!».

قالت هى فى ضجر:

– «اللحن ليس هو المشكلة ! المشكلة فى الصولو! آلة الكمان تتسلم منى بعد

قولى يا سلا... ا... م ع الهوى الأخيرة لتكمل هى الجملة!!».

هتف عبد البصير:

– «بس بس! تذكرته! أهذه هى العقدة فى نظرك؟ إنها أسهل من شرب الماء

عندى!!».

وأمسك بالآلة الكمان، فسحب الأستاذ آلة القانون ثبتها على ركبتيه وداعب

الأوتار بمقدمة اللحن قائلا:

– «تفضلى يا هانم! غنى!».

كانت قد سلطت عينيها على عازف الكمان الذى وضع من أول سحبة قوس أنه

أبرع مما قدرته، لم يخطئ فى حرف واحد من مقدمة اللحن فضلا عن أنه طغى

على صوت القانون واحتواه، شرعت تغنى: يا سلام ع الهوى، يا سلام، يا سلا...

ا... ا... م ... ع الهوى، فإذا بالكمان تخطف منها الحرف مكمل الصولو كأروع

ما تريد، ظلت ترشقه بنظرة ثاقبة لاتكاد تصدق، وهو لاه عنها مستمر فى عزف

اللازمة مرة أخرى، أكملت، أعادت، ثم أعادت، ثم نهضت، أخذت رأس عبد البصير

بين يديها، قبلته فى جبينه قبله امتنان.

«الحمد لله ربنا بعثك لى من تحت الأرض! أين كنت من زمان؟ أنت ياذن الله
معى إلى الأبد! خلاص يا جماعة! على خيرة الله! لا تأجيل!».
وهكذا كان على عبدالصير أن يوجد غدا فى نقابة الموسيقيين فى شارع
البستان فى الخامسة مساء لإجراء التدريب مع الفرقة استعدادا للحفل الذى
سيقام بعد غد فى نادى الجزيرة.

(٣٧)

أعادت سعدية المليجى قراءة الخطاب للمرة العاشرة، وفى كل مرة تطويه
بعناية وتدسه فى صدرها منه للحم مباشرة، قرأته صباحا، وظهرا، وعصرا،
ومغربا، وعشاء، فى الشرفة، فى المطبخ، فى الردهة، فوق سريرها، قرأته على
نفسها، على أختها، على أمها، على أخيها، فى كل هذه القراءات تجددت
مشاعرها، كأن يثرا من الصفاء يضخ السعادة فى نفسها، لمحت الرضاء والغبطة
فى عيون الأسرة كلها، كانت تتشام من عمق الشعور بالفرح، قالت متممة
لنفسها:

«اللهم تمم بخيرا».

جاوبها صوت أمها من مكان خفى:

«يارب! يارب يا أختى يارب!».

شعرت برعدة قوية، رفعت عينها اليمنى، عبرت عينيها سحابة داكنة، كانت هبة
ريح قد اقتحمت النافذة المطلة على الحقول البعيدة أطفأت المصباح أطاحت
بالستارة على رأسها فلفتة، خلصت رأسها من لفة الستارة، نهضت تتحسس
الأمياء، تمضى فى حذر إلى الكوميدينو تتلقف فى الظلام مقبض درجة، فتحت،
قبضت على علبه الثقاب أشعلت عودا، كورت قبضتها فوق شعلته متجهة نحو
رمانة المصباح المتدلية من السقف، بحثت عن كرسي تقف عليه، انطفأ العود،
أشعلت فما كاد يشتعل حتى انطفأ، بغيظ أشعلت الرابع ففرقع ثم انطفأ،
فأشعلت الخامس فالسادس فالعاشر فالعشرين، طاردها الريح حتى نفذت علبه

الثقاب كلها فانقبض قلبها وقطنت إلى أنها كان يجب أن ترد باب الشرفة أو النافذة قبل الإشعال فتقمت على نفسها، ألقت بنفسها فوق السرير في الظلام، لحظتئذ تذكرت أن عبد البصير نام بجسده فوق سريرها هذا، فاقشعر بدنهما وخفق قلبها خيل إليه أنه نائم بجوارها، وكان صوته يطل من الخطاب المطوى في صدرها يملأ الغرفة يترنج في صوت عواء الريح:

إمسكى الخشب ياوجه السعد! نعم أنت وجه السعد كله، قبلما أعرفك لم أكن أعرف سر الفن، واليوم أعرف أن الفن هو أنت، حبك هو القوس وأنا الوتر، بالأمس كانت أمى واليوم أنت، وأنت غدا وبعد غد وإلى مالا نهاية، إمسكى الخشب، الحفلات أصبحت تطاردنى في كل مكان، لا أجد وقتا للنوم، فى الليلة الواحدة أنتقل من حفل فى الهيلتون، إلى حفلة فى شارع الهرم، إلى حفلة فى صحارى سيتى، نفخ الله فى صورتي، زرع حبى فى قلوب المغنين كلهم، كل واحد منهم يطلبنى أنا بالذات، لايرضى بغيرى، يؤجل نمرته حتى أجيء إليه، حتى الراقصات يحبيننى أكثر وهذا هو العيب، فأنت تعرفين أننى لا أحب الفتنة ولكن الله يمتحننى فى هذه الأيام وأنا بعون الله ناجح، محنتى الوحيدة أن الظروف تضعنى كل ليلة أمام أنثى جديدة يتلوى جسدها فى عيني مباشرة كالحية والتي تتلوى هى الأخرى تنفضها على الأرض نفضا تكاد تبعثر لحمها، أنت طبعاً تعرفين راقصات مصر الألبانيات، وأنا والله ياوجه السعد شاعر بالذنب لكن الهاتف يقول لى: هذا أكل عيشك يا ولد وأنت مجبور على فعل هذا فإن عزفت للراقصة بغير مزاج استغنت عنك بغيرك قادر على شغلتها، ثم إننى لا أستطيع تنفيه فنى، لو قلت لك - مثلاً مثلاً - إجعري ونشزى فهل تستطيعين؟ أنا كذلك لا أستطيع أن أوقف لهب الفن عن السريان فى حطب عظامى!، على كل حال هى شدة وتزول عن قريب بإذن الله. المهم أننى الآن لست بقادر على أن أتدل على أحد ممن يطلبونى للشغل، لا أريد البطر بالنعمة بل أريد مزيداً منها لكى أبنى لك بيتاً قويا، اللهم لك ألف حمد وألف شكر، أرجع كل ليلة إلى بيتنا وجيوبى محشوة بالورق الأحمر والأخضر، هل تصدقين؟ إشتريت خزانة نقالى صغيرة لأضع فيها

الفلوس الكثيرة، وأخفيتهما تحت السرير، تمت عليها بالأمس فرأيتها ملأته لثمها، فسحبت منها رزمة تخينة رحت بها للصايغ في خان الخليلي، قاولته على شبكة عمولة مخصوصة، أسورة مببطة ومزينة بالفصوص واللاكيء عرضها ثلاث قراريط، مع حلق يشبه شكل الفانوس يليق بأذنك العظيمة، وسلسلة فيها علبة بداخلها مصحف على قدها، ودبلتين مبططتين على الموضة، أيكفيك هذا أم أن لك طلب معين؟ نحن مازلنا فيها، وعلى العموم لو طلبت طلبا معيناً سأضيفه إلى ما تقاوت عليه، دفعت المقاوله كلها إلا قليلا، وكله في حبك رخيص مهما غلا، سأسلم هذه الشبكة بعد جمعة واحدة وعلى فكرة، كان عندي حفلة في طنطا يوم الخميس الماضي مع شفيق جلال، مررت على القمامشي فقطعت منه بدلتين من الصوف الإنجليزي للفرح، أعطيتهما للترزي ودفعت له العريون ويوم الخميس القادم عندي حفلة في طنطا أيضا مع كارم محمود وسأمر على الترزي لأعمل بروفة، الود ودي لو أقيم الفرحة الليلة قبل بكرة، ولكن لماذا العجلة مادمننا عقدنا النية وإطمأن بالنا؟ لابد أن يكون فرحنا حدوتة يحكيها الناس سنوات طويلة، سلمى لى على أمك وأختك وبهادر وعم عثمان، والسلام ختام، من طرف خطيبك الذي يحبك: عبدالبصير الصوفاني.

تحسست ورقة الخطاب المطوية في صدرها وابتسمت، وتمطت فوق الفراش مستديرة نحو الحائط، حيث ثبت فيه دولا ب صغير محندق ذي باب خشبي منقوش بآيات قرآنية، مدهون بلون بني غامق، سحبت ورقة الخطاب من تحت ثديها الأيسر، مدت ذراعها عن آخره، فتمطت قناة ظهرها كأنها انفصلت عن عجيزتها العالية المتكورة، فتحت الدولا ب، وضعت الخطاب فوق الخطابات السابقة، أغلقت الدولا ب، لمت جسدها متمددة على ظهرها مغمضة العينين، سرعان ما غابت عن الوجود وانتظمت تنفسها ثم عاد فاضطرب.

رأت نفسها تمضي ذاهلة حائرة وحيدة، وسط جمع هائل من البشر داخل سرادق كبير جدا، كان قلبها منقبضا بعض الشيء إلا أنها كانت تمشي بين كتل من الجالسين على مقاعد تشبه مقاعد السينما، سرعان ما تنبّهت إلى أنها ماضية

فى الواقع نحو خشبة المسرح لكى تعطيها وتغنى، فلا بد إذن أنها مدعوة للغناء فى هذا الحفل الفرح، كانت شبه غاضبة لأنها جاءت إلى الحفل على هذه الصورة المهينة التى لا تتناسب مع مكانتها الفنية، أين شقيقتها التى لاتغادرها؟ أين عم عثمان، أليس من واحد على الأقل أو اثنين من أصحاب الفرح لاستقبالها؟ كيف رضيت بالمجئ إلى هنا هكذا؟! إنها لاتذكر كيف تم الاتفاق، فلا بد أنها قد غرر بها بشكل من الأشكال لعلها تكتشفه حالا، فى الحال رأت نفسها واقفة فوق خشبة المسرح ومن خلفها الفرقة الموسيقية ووراءها مباشرة عبدالبصير بكمائه الساحر، على عكس ماتوقعت رأت نفسها مترددة فى الغناء لخوفها من الفشل، تنبتهت فجأة إلى ضجة مقبلة، مالبثت حتى تجسدت فى زفة عريس، فإذا هى فى الحال ترى نفسها جالسة فى قلب الكوشة مرتدية فستان الزفة بين فتيات لاحظت أنها لم تعرفهن من قبل، جمع من النسوة يرتدين الطرح البيضاء الناصعة وقد اندمجن فى غناء وزغاريد وطبول، غطت الضجة واقترب موكب العريس الذى بدا كالقمر جمالا وشبابا وقيافة، كان موكبه مقبلا نحوها، يعمن فى الاقتراب، انفصل العريس عن الموكب وتقدم منها فاحتضنها وقبلها فى خديها ثم جلسن بجوارها فى الكوشة وقد ارتفع ضجيج الفرح إلى ذروة عالية، بدت سعيدة بعض الشيء، نظرت بطرف عينيها خلصة إلى العريس فإذا هو.. أبوها، نعم هو أبوها بلحمه ودمه، لم تندش، كانت فى قرارة نفسها تعلم أن أباه قد توفى منذ سنوات بعيدة، لكنها مع ذلك لم تستغرب، وبدا كأن ماهى فيه الآن طبيعى وعادى تماما، ها هى ذى فى ثوب الزفة واقفة يتأبطها العريس - أبوها، وآلات التصوير تلتقط لهما العديد من الصور، راحت تببتسم وترفع يدها لتسوى شعرها على الجبين بحذر حتى لاتتفسد أصابعها ما على بشرة وجهها من زينة، أخيرا مضى بها العريس فى خطوات بطيئة وقد بدأ الصخب يتلاشى فلم يبق سوى مزهر واحد راح يدق بإيقاع أغنية الزفة المعروفة: اتمخطرئ يا حلوة يا زينة ياوردة من جوه جنينة، ثمة موسيقى كونية خافتة جدا تردد نغم الأغنية نفسها فى إيقاع بطيء جدا، لكن صوت المزهر أخذ يشتد ويشتد فيما هى تحت إبط العريس يدخلان فى

أفق من الظلمات الحالكة، تعاظم الخوف فى نفسها، تسارعت دقات قلبها فى عنف، صدرها يحبس الأنفاس عن أنفها، والأفق المظلم يطلق أشباحا غامضة فصلت بين ذراعها وإبط العريس، وسمعت صوت أبيها يناديها من قلب الظلمات هاتفا: سعدية! تعالى ياسعدية!، تحاول الرد عليه لكنها لاتجد صوتها، لاتستطيع تحريك ذراعها أو ساقها، تطلق زئيرا حادا، حينئذ شعرت بيد تلامس ذقنها، فارتعبت، انفلت صوتها صارخا، فوجئت بعيني أمها مفتوحتين فى قلب عينيها:

— «مالك ياقلب أمك؟!».

هدأ لهاثها، زفرت:

— «اللهم اجعله خيرا !! خير يارب!!».

قالت أمها:

— «كابوس!! أنت لاترحمين نفسك! سهر وشغل سهر وشغل! خذى اجازة! أنت

محتاجة للراحة!!».

— «فعلا! عندك حق!!».

وكانت تريد أن تحكى ما رأته، لكنها خشيت من مجرد ذكره، فاعتذلت فى

رقدتها، وطلبت من أمها أن تنام بجوارها.

(٣٨)

عقد الذهول والفرح لسانه أمام بنك الصائغ ، الذى راح يعرض عليه المشغولات قطعة قطعة . لم يصدق أن هذا الرجل الواقف أمامه هو الذى أبدع هذه التحف . صار يتأمل فى الأسورة المرصعة بفصوص من الأحجار الكريمة فى تشكيلات زخرقية جذابة . تخيلها فى معصم سعدية ؛ فأشرقت على وجهه شمس الضحى المتسللة من نافذة مجاورة للبنك ، رأى وجه سعدية مشرقا والقرط الفانوس يتدلى من أذنيها ، والسلسلة تتوسطها علية المصحف ملتفة حول جيدها . ثم أمسك بالدبقتين ؛ بحث فى داخلهما عن اسم سعدية المليجى وأسمه ؛ وجدهما منقوشين وبجوارهما التاريخ الذى حدده لتقديم الشبكة وعقد القران معا

فى ليلة واحدة توافق ليلة مولده من تسعة عشر عاما مضت .

لم يشبع من الفرز والتقليب والانبهار .. مع ذلك طوى كل المشغولات فى علبتها الحمراء المبطنه بالقطيفة ؛ قدم للصائغ بقية حسابه عن طيب خاطر . لف الصائغ العلبه فى ورقه مفضضة حزمها بورق لاصق شفاف ؛ قدمها له : « مبروك» دسها فى جيب السترة الداخلى وخرج من الدكان إلى شارع خان الخليلى لا تكاد قدمه تلامس الأرض من فرط البهجة ؛ يكاد يعانق جميع الناس ؛ يكاد يستوقفهم ليبلغهم أنه بعد عشرين يوما سيدخل على سعاديه وأنه سيجىء بها إلى القاهرة لتلقى بنفسها العفش والمفروشات على نوقها .

ذهب إلى نقابة الموسيقيين بشارع البستان ، أمضى على قهوة الجمهورية الوقت المتبقى على بداية موعده مع التدريب لحفل فى صحارى سیتی .

عندما عاد إلى البيت فى آخر الليل سحب الخزنة وفتحها ليضع المجوهرات فيها ، تحسس رزم النقود المقدسة فوق بعضها ؛ كاد يشرع فى عدها لكنه تشام من العد فتركها . وبعد أن أغلق الخزنة فتحها وأخذ علبه المجوهرات فأعادها إلى جيب السترة ، كما كانت ؛ قال لنفسه : يجب أن أفرح بها فى جيبى وربما فرجت عليها بعض الأصدقاء . تذكر موعده مع الترزى فى طنطا ليتسلم البدلتين الجديدتين ؛ فإذا هو يبتسم ؛ إذ تبين له أن موعد استلام البدلتين يوافق موعد حفل له فى طنطا مع كارم محمود وسعاد مكاوى وشهرزاد . تبين كذلك أن يوم شراء البدلتين وتفصيلهما كان أيضا يوم حفل ؛ فأحس بكثير من التفاؤل ؛ فاستلقى على الفراش راضى النفس مطمئن البال قرير العين .

(٣٩)

طوى الترزى البدلتين واحدة فوق الأخرى ؛ لفهما معا فى فرخ من الورق الأصفر ، سلمهما له :

- « ربنا يتم بخير ! لابد أن تدعونا فى الفرح ! » .

شكره ؛ قال إن هذا لابد أن يحدث بطبيعة الحال وأن عليه أن يكون مستعدا لتشريف الحفل الذى سيقام فى غضون عشرة أيام على الأكثر . دفع بقشيشا سخيا للصنایعية بقدر بحجم سعادته ؛ طوى البدلتين فوق ذراعه اليسرى؛ حمل صندوق الكمان فى يمينه ؛ مضى نحو مسرح بلدية طنطا ليشترك فى الحفل الذى سيبدأ بعد ساعة تقريبا ؛ يحييه كارم محمود وسعاد مكاوى وعمر الجيزاوى والراقصة نعمت مختار ؛ وتقيمه محافظة الغربية لصالح مرضى الدرن الرئوى .

كان سعيدا كطفل يحمل ثياب العيد ، يتعثر فى شعور غامر بالوجل فلا يفلح فى تنظيم وقع خطواته ، لا يننى يلقى السلام بين خطوة وأخرى؛ يتوقف برهة يهز رأسه شاكرا لمن يشدد عليه فى العزومة أن يتفضل الشائى؛ معظمهم أصحابه وزملاء طفولته وجيرانه فى المنزل فى المحل فى الورشة . أوشك أكثر من مرة أن يدعوهم لفرحه لكنه تذكر أنهم جميعا لابد أن تصلهم بطاقات مطبوعة تحمل التاريخ والموعد والمكان الذى سيقام فيه الفرح . تصور شكل البطاقة ؛ قرر أن يصرف النظر عن مطابع طنطا البدائية وأن يطبعها فى القاهرة بشكل يليق بسعدية . شعر بأن جسما صلبا يضغط على ضلوعه تحت ذراعه المعقوف تحت لفة البدلتين ؛ فتذكر بابتهاج عظيم أنها علبة الشبكة فى جيب سترته الداخلى فوق قلبه تماما .

سطلعت أضواء الحفل على واجهة مسرح بلدية طنطا مقبلة نحوه على شكل أقواس النصر . أسماء نجوم الحفل مكتوبة بالنيون وجمع غفير يحتشد أمام باب الدخول وشباك التذاكر ؛ وعرية الإذاعة واقفة على مقربة لكى تسجل لقطات من الحفل . جنود الشرطة يصطفون على الجانبين فى الميدان العريض والشارع المواجه له ما أن اقترب من المسرح حتى تلقاه رهط كبير من الجمهور بالتحية وحب الاستطلاع ؛ بعضهم سلم عليه ، بعضهم هتف باسمه . صار يفلت من الزحام بصعوبة حتى لا تنهدل اللفة . ودخل مهرولا إلى قاعة المسرح ، ومنها إلى الكواليس ، حيث نادى رئيس عمال المسرح وسلمه البدلتين يشيلهما فى مكان

أمين لنهاية الحفل ، وغمره ببقيشيش سخى ؛ فاخفى الرجل وعاد بعد قليل يحمل فنجان القهوة وعندما مال ليصب القهوة فى الفنجان تمهل قليلا فى انتظار الحركة المعهودة بينهما ، حيث تمتد يد عبدالبصير خلسة بقطعة من الحشيش تحت علبة السجائر ، إذ ينزوى فى ركن قصى ويفرك قطعة الحشيش على مجموعة سجائر ويعيد لهما ثم يحتجز لنفسه اثنتين ويعيد الباقي لعبد البصير يصبغ بأنفاسها دماغه ليتوهج فى العزف كما اعتاد .

انتهى الحفل فى الرابعة صباحا . كل فنان ينهى وصلته يستقل سيارته عائدا إلى القاهرة . رتب عبدالبصير نفسه على أن يعود إلى القاهرة فى قطار الصحافة، ليمكث فى القاهرة أسبوعا على الأقل ينتهى فيه من ثلاث حفلات متفق عليها؛ ثم يتصل بسعدية ببرقية يطلب تحديد موعد الفرح ليطيعه فى بطاقة الدعوة وهكذا ودرع زملاؤه ؛ حمل كمانه وإلفه البديلتين . قال له رئيس العمال إن فتاتين ينتظرانه على الباب منذ وقت طويل . خفق قلبه بعنف ؛ ببت الرعشة فى ساقيه ؛ توقع أن تكون سعدية جاءت مع أختها للسؤال عنه . قال للرجل : ما شكلهما ؟ قال الرجل : هما تقريبا تلميذتان فى الاعدادية . اندهش عبدالبصير بكثير من اللذة ؛ أياكون قد صار نجما تطارده المعجبات من الفتيات ؟

كانتا واقفتين فى انتظاره على الرصيف بجوار الحائط . ما أن وقع بصره عليهما حتى خيل إليه أنه رأهما من قبل ، فشعر بكثير من التوجس . تقدمت إحداهما مسلمة عليه . عرفها فى الحال : إنها ابنة رجل تاجر حمص كبير من عشاقه ، كثيرا ما عزمه فى بيته ليسمعه هو وضيوفه وجيرانه . قال لها :

« أهلا يا تهانى ! والدك بخير ؟ »

قالت وقد فرحت لأنه تذكر اسمها :

« يسلم عليك ! كان ينوى الحضور لكنه اضطر للسفر أمس لتخليص طلبية

بضاعة من سوريا فى الاسكندرية ! » .

« يأتى بالسلامة إن شاء الله ! » .

ثم أرسل نظرة إلى الفتاة الثانية التى وقفت بعيدا . كانت نحيفة الجسد

مفسرة الملامح والتقاطيع مبرومة ناهدة الصدر مقببة العجيزة ، لوزية العينين
فيهما لمسة ضوء من عيون عاتلة طنطاوية مشهورة بجمال النساء ؛ عينان
واسعتان قويتا النظرة قويتا الشخصية ، رصينة النظرة ، تعكسان قوة عزيمة
وتحد إلا أنها كانت تبدو مرتبكة بعض الشيء ، ما أن نظر لها حتى تبسمت
وأقبلت نحوهما فى خطوات واثقة . سلمت عليه :

« أهلا يا أستاذ عبده ! » .

قالت تهانى :

« فأكرها ؟ »

أعاد النظر فيها؛ تذكرها بالفعل ؛ سبق له رؤيتها فى بيت تاجر الحمص
والدتهانى ؛ حيث قدمها له صديقه التاجر قائلا إنها تهوى الغناء وتريد مشورته إن
كانت تصلح أو تستمر فى المدرسة ؟ ليلتها ضبط لها أوتار الكمان وقال : غن ؛
فغنت أغنيتين لنجاة الصغيرة . عطشان يا اسمرانى ، وأوصفولى الحب ، وهما
من أجمل ما لحن لها محمود الشريف . يذكر أن صوتها كان فيه بعض الإحساس
، بعض نبرة حلوة بشجية ، إضافة إلى أنن موسيقية لا قطة ، وحماسة كبيرة ؛ إلا
أنها تحتاج لتدريبات هائلة مضمنية ؛ وفى النهاية لن تكون قادرة على الاحتراف
اللهم إلا أن تشتغل مع العوالم . وقد صرح لها بذلك دون مجاملة ونصحها
بالاتفات لدروسها ؛ خاصة أن الفن طريقه شائك وغير مأمون بالنسبة للرجال فما
بالك بالفتيات ؟

تسأل فى نفسه : ما الذى تبغيه الليلة يا ترى ؟ أأتكون مصرة على الالتحاق
بأهل الفن عن طريقه ؟ أأتكون قد تدريت جيدا وتريد أن تعرض عليه إمكانياتها
الجديدة ؟ شعر بإشفاق كبير عليها ؛ راح ذهنه يعمل بسرعة فى كيفية التخلص
منها بلباقة بأى شكل .

فأجأته تهانى :

« حضرتك مسافر الآن إلى القاهرة مباشرة ؟ » .

« إن شاء الله فى قطار الصحافة ! » .

قالت فى رجاء حار ، لدرجة أن ملامحها تقلصت فى رسم ملامح الاستعطاف والاستجداء :

« أرجوك أن تأخذ منال معك لحد القاهرة ! مسافة السكة فحسب !! » .

« لماذا ؟ » .

قالت منال :

« لابد أن أقابل خالى لأمر ضرورى !! وأنا لا أعرف القاهرة عمري

ماشقتها !! » .

صار يبحث عن مخرج من هذه الورطة ؛ وضع حقيبة الكمان على الأرض ؛ أشعل سيجارة . بدأت بنور الشك تقوم فى ناظريه . يبدو أن تهانى شعرت بترده وتشككه فى الأمر كله ؛ فربتت على كتف صديقتها بحنو كأم صغيرة :

« قولى له الحقيقة كلها يا منال ! صارحيه بكل شىء فهو ليس غريبا !! » .

فى طلاقة وثقة أعطتا كلامها مصداقية ، قالت :

« الحكاية وما فيها أن أمى تملت علينا أنا وأختى وأخ صغير منذ أكثر من

ست سنوات !! هى الآن تريد أن تتزوج !! لف عليها رجل مكار عينه زائفة ! أنا

وأختى لا نريد زوج أم !! خصوصا أنه سيقم معنا فى الشقة التى اشتراها أبى

بفلوسه من أجلنا !! سينام على فراش أبى !! هو فى الحقيقة يريد أن يتزوج

الشقة والفرش ومعاش أبى القليل !! أمى لا تريد أن تسمع كلامى وأنا ابنتها

الكبيرة !! قلت فلأذهب إلى خالى فى القاهرة وأجىء به ليمنعها !! هو الوحيد

الذى يستطيع أن يمنعها من الوقوع فى هذه الغلطة الشنيعة . ويبعد هذا الرجل

الكالع عنا !! كل ما أطلبه منك يا أستاذ عبده أن تأخذنى معك للقاهرة وتتركنى

أذهب لخالى وحدى !! » .

الحرارة كانت بادية فى كلام البنت ، ونظرات عينيها لا تنشئ بأى كهن أو كذب

. انعطف فى الحال إليها . سألها فى اهتمام وجدية :

« وهل تعرفين عنوان خالك جيدا ؟ »

« نعم ! هو فى حدائق القبة شارع الصهاريج نمرة خمسة وستين أ شقة

رقم ثلاثة !! خدمتك الوحيدة أن تنزلنى فى باب الحديد وتدلنى على الأتوبيس الذى يروح حدائق القبة وتتركنى وكل حى يروح لحال سبيله ! ويكون لك الشكر!!».

قال فى حماسة :

— « لا ! إذا كان الأمر كذلك فأنى ملزم بتوصيلك لحد البيت ! قولى يارب !

تعالى معى !! » .

سلم على تهانى تاركها معها السلام إلى أبيها ؛ حمل الكمان بيمنها ، أشار برأسه لمئال ، فسلمت على تهانى ومشى بجواره . حاولت أن تحمل عنه شيئا لكنه رفض بشدة وزجرها . ثم أوقفها على الرصيف وهرب إلى شبابك التذاكر ؛ قطع تذكرتين للقاهرة ، فيما كانت أجراس المحطة تدق لقطار الصحافة إذانا بالرحيل..

(٤٠)

بينما كانت سعيدة المليجى تجلس فى الشرفة المطلة على الطريق الزراعى ، مرتدية ثوبا منزليا كاسيا حتى الركبتين من طراز شائع يسمى البرميل إذ يصير شكل لابسته كالبرميل ضيقا من أعلى منبعجا مدحوا من الوسط منسابا إلى ضيق حتى الكعبين وبينما كانت شمس الضحى العالى قد خرجت لتوها من الحمام مغتسلة بمياه المطر ملتفة فى خمار رقيق من سحب سماوية اللون ، كان ذهن سعيدة قد بدأ ينشغل بمهمة ترتيب حقيبة سفرها ؛ إذ أن سيارة من طرف المتعهد القاهرى ستأتى لتأخذها مع اختها وعم عثمان إلى القاهرة ؛ ومن هناك تسافر مع الفرقة إلى مكان بعيد لم يذكره لها المتعهد بالضبط لاحياء فرح كبير ستكون هى نجمته . ابتسمت فى قليل من الزهو ؛ طاف بذقنها صوت المتعهد مؤكدا لها أن صيتها وصل إلى أبعد مكان تتخيلها ، حيث أن عريسا من آخر الدنيا طلبها بالاسم وسيرسل لها سيارته الخاصة لتنتقلها وحدها — مع أختها وحارسها — إلى مكان الفرع ، ولم يشأ أن يخبرها بالمكان لتكون مفاجأة سارة ،

ثم إن سيارة العريس ستتكل بإعادتها إلى البيت معززة مكربة ، كما أن حجم النقط سيكون ثروة طائلة ؛ خاصة أنها ستمكث ليلتين : ليلة الحنة وليلة الدخلة حيث تقوم هى نفسها بزفة العروس مع راقصة شهيرة من راقصات القاهرة .
فيما كانت تستعرض فى ذهنها ألوان الثياب التى يجب أن تلبسها فى هذه المناسبة لمحت الولد بسطويسى العامل فى السنترال فى محطة السكة الحديد يقبل مهرولاً نحو البيت ببذلة الميرى الصفراء المترهلة ؛ يلوح لها بذراعه من بعيد ، ممسكا ببطاقة ملونة . نهضت منحنية على حافة الشرفة بمرفقيها . ما أن اقترب حتى هتف :

- «تليغراف يا ست هانم !» .

انخلع قلبها من مكانه ، شحب وجهها ؛ تمتمت :

- « خير يارب ! اللهم اجعله خيراً!!» .

ذلك أن أهل الريف كلهم ينزعجون من كلمة تليغراف انزعاجاً مدوياً ، حتى بعد أن يتضح لهم أن البرقية لا تحمل نبأ سيئاً تظل قلوبهم تنتفض لمدة طويلة وقد يعقبها صدمة غير مضمونة العواقب .

قبل أن تسترد قلبها صاح الولد بسطويسى فى غبطة :

- « عايز الخلوة يا ست سعدية ! خلوة كبيرة !!» .

هدأ قلبها عن الخفقان السريع ؛ انتظم تنفّسها ؛ أشارت له بذراعاها البضة المغمورة بالأساور الذهبية : اطلع ، ولم تشأ إيقاظ اخوتها من نومة الضحى ، كما أن عم عثمان ذهب يشتري طلباً ، خرجت إلى بسطة السلم ؛ سحبت حبلاً مربوطاً فى درابزين السلم ينتهى بعقدة فى أكرة الباب؛ فانفتح باب الشارع ؛ فدخل بسطويسى قافزاً إلى السلم كالبهلولان ، سلمها البرقية :

- « أيدك على الخلوة !! قبل القراءة !!» .

هى نفسها كانت ميالة لتأجيل فض البرقية حتى تهدأ أعصابها لتستوعب ما يمكن أن تحويه من مفاجآت . أعطته ورقة بعشرة قروش ، نبهت عليه أن يفلق الباب وراءه ، صار يرسل لها الدعوات ؛ أضاف :

- « لم أتأخر دقيقة واحدة ! يعنى من مصر إلى المكتب إلى هنا فى خيط واحد ! أنت تأمرين يا ست سعدية !! » .

عادت إلى الشرفة ؛ رآته يهرول على الطريق بين صفين من أشجار الجوزين ممتدة على طول مدخل البلدة إلى الطرق الزراعى البعيد . جلست ؛ فتحت البرقية بحذر ؛

- « خطيبتي العزيزة سعدية المليجي ! من محطة مصر أثناء عودتى من حفل طنطا أرسل لك قبل ذهابى إلى البيت لأقول لك إنى تسلمت الشبكة وبدلة الفرع ! وأطلب منك أن تحددى يوم الفرع وتبلغينى به وك منى السلام .. عبده ! » .

ضمت البرقية إلى صدرها ؛ انفتحت كل خلاياها ومسامها تستنشق فرحة الخبر . فكرت فى أن تقوم فى الحال لترد عليه ببرقية عاجلة ؛ فليكن فرحنا اليوم لكنها رأت أن تتمهل قليلا ؛ فمادام يطلب فرحا تقليديا كئى عريس شاب يتزوج من بنت بنوت ، فليكن إذن فرحا بحق ، يقام فى هذه الساحة أمام منزلهم بدلا من طنطا ؛ شبكة وعقد قران وبخله ؛ أم تراه سيتمسك بكل التقاليد فيقيم ليلة للحنة وليلة للدخلة .

هى شخصيا لا بأس عندها من ذلك ؛ هى أساسا تحب الحنة فى حد ذاتها ؛ كما أن ليلة الحنة أساسية فى أفراح كل الفتيات فلم لا تستمتع بها هى الأخرى ؟ إنها يجب أن تجلس فى الكوشة ليلتين متتاليتين وبالمرة يكون لها حفل زفاف يلف البلدة من بيتها إلى بيتها ، وللعريس كذلك من بيتها إلى بيتها ، ما أطرف أن يتقابل الموكبان عند باب البيت فيندمجان فى هذه الساحة الواسعة لتقوم السهرة التى لا بد أن يحييها كل من له صلة بالفن ممن تعرفهم ويعرفهم عبد البصير ، لسوف تقول- هذا لعبد البصير فى رسالة عاجلة فإذا لم يوافق عليه فعلى الأقل يضحك ويبتهج .

تكسرت ضحكاتها الجذلة المفتبطة ، واختلطت بفتايت ضوء الشمس المبعثرة على أرض الشرفة ؛ إنه بالطبع سيدخل عليها فى هذه الغرفة نفسها على هذا السرير نفسه ويعد أسبوع ترحل معه إلى القاهرة حيث تشرف بنفسها على

اختيار العفش والفرش وقطع النحاس ؛ ستراعى أن يكون كل شيء رفيع الذوق ومؤقتاً في نفس الوقت ؛ فطالما أن الشقة التي ستسكنها في شارع محمد على مؤقتة فليكن الفرش هو الآخر كذلك وحينما يوفقا في إيجاد شقة فاخرة شرحة في مصر الجديدة أو المعادى تفصل لها فرشاً على قدها يليق بها بقية العمر .
عندئذ رأت ضرورة أن توقظ أمها وأختها ؛ حيث لم تعد قادرة على احتمال الفرحة وحدها .

عانقتها أمها . عانقتها أختها . بكين ثلاثهن من شدة الفرح . قالت ست الحاجة :

« صدق الجدع فياله من رجل محترم ! قد بعثه الله لك من السماء يا سعدية ! هذا الجدع من النوع الذي يأمن له القلب لأنه محب عفيف طاهر !! »
قالت الأخت في غبطة :

« وموهوب ! وابن كارها ! ويحبها وتحبه ! » .

قالت سعدية في نبرة امتنان :

« تصورى يا أم أنه بعث البرقية بمجرد نزوله محطة مصر قبل طلوع الشمس ! ووصلت في الضحى !! »
علقت ست الحاجة :

« سالكة بإذن الله ! اللهم اجعل طريقك سالكا مدى الحياة يا سعدية يا بنت بطنى!! » .

قالت الأخت :

« رينا يتمم بخير ! يا ترى ماذا سأفعل من بعدك !؟ »

بلمت سعدية ؛ فوجئت بمالم تكن قد فكرت فيه من قبل ؛ بلعت ريقها :

« ستبقيين معي بالطبع ! سافرى معي ونعمل معاً كالعادة وعبدى لن يضيق بك ! أنا واثقة أنه سيفرح بك !! » .

كانت الأم على أهبة الكلام ؛ لكنها انتظرت حتى تعرف رأى ابنتها ؛ فإذا بالأخت باسمه في لهجة حكيمة :

« لا يا أختي ! أنت طريقك الآن اختلف ! وجودي معك سيعطلك !! شوفي
أنت مستقبلك واشتغل أنا وحدي هنا في حراسة عم عثمان ! فلما تستقر سفينتك
على الشاطئء وتصبحين قادرة على خدمتي ابعثي لى !! » .

ابتهجت الأم :

« عين العقل يا قلب أمك ! كلامك زين ! » .

قالت سعدية :

« خلاص ! أنا موافقة !! » .

هتفت الأم :

« رينا يفتحها في وجهك أنت وهي ! » .

نظرت الأخت في ساعة يدها :

« نتغدى ونلبس هديونا ! » .

قالت الأم :

« اكتبى خطابا لعبده ! » .

قالت سعدية :

« بعد أن أرجع من هذا المشوار ! خطاب لعبده لابد له من قعدة طويلة

ومزاج رايق !! » .

فى حوالى الثالثة بعد الظهر أنهت سعدية زينتها أمام المرأة ؛ مضت خطوات ؛
ناظرة من فوق كتفها لظهرها ، ثم استدارت وأقبلت على نفسها . لاحظت أنها
فى أبهى زينة كأنها العروس لا ينقصها سوى الطرحة . ألقت نظرة شاملة على
الثوب الطويل المنقرج الذيل . خفق قلبها ، فهذا الثوب مرتبط بذكري مجهولة
غامضة . سرعان ما تذكرت الحلم الذى رآته منذ شهور قليلة ؛ خيل لها أنها كانت
ترتدى فى الحلم فستانا مثله بالضبط ، لعله هو ؛ حينما رأت نفسها عروسا تزف
إلى أبيها ، شعرت بانقباض مفاجيء ؛ همت بخلع الثوب لاستبداله بثوب آخر ؛
لكنها تشامت من خلعه ، ثم إنه أغلى وأشيك ثوب عندها يليق بنجمة حفل تقف
على المسرح كأنم كنجوم .

حانت منها التفاتة عبر الشرفة ؛ رأت السيارة الغربية مقبلة تنتهادى فى بطن
شديد ؛ وثمة من يشير لها بأصبعه على شرفة البيت ؛ فصاحت :
- « يلا يا عم عثمان طلع الشنطة » .
وأخذت طريقها إلى السلم .

(٤١)

فى تمام الساعة صباحا كان القطار القادم من طنطا قد دخل رصيف
محطة باب الحديد؛ فمضى عبد البصير من فوره إلى مكتب تليفراف المحطة ؛ حرر
البرقية لسعدية واستراح ؛ خرج حاملا البديلين على ذراعه اليسرى ، والكمان فى
يده اليمنى ؛ ثم اقتاد منال إلى موقف الأتوبيسات . رأى الزحام خانقا إلى حد
التوحش؛ صعبت عليه البنت ؛ تأكد له أنها لا بد ضائعة لا محالة . هرب إلى
الشارع والبنت فى أعقابه ؛ تاكسى . أركبها فى المقعد الخلفى ويجوارها علبة
الكمان والبديلين ؛ وركب بجوار السائق :
- « حدائق القبة يا أسطى! » .

ثم استطرد بعد برهة :

- « شارع الخزان ! » .

ضحكت منال ، صحت :

- « الصهار .. ر .. يج ! شارع الصهاريج ! » .

فمضى السائق كأنه لم يسمع شيئا ..

بالبدلتين على ذراعه ، والكمان فى يده اليمنى ، والفتاة من ورائه ، داخ
الدوخت السبع فى شوارع حدائق القبة وحواريها ، حتى تصيب العرق فعرقت
ثيابه كلها؛ اتضح أن شارع الصهاريج هذا ليس مثبتوتا فى خريطة البلدية وليس
يعرفه الا سكانه ، ينس ، فكر فى الانسحاب ، لولا أن الفتاة صارت كالمسئولية
المعلقة فى رقبتة لا يستطيع منها فككا ، دار فى دماغه شريط سينمائى سريع :

البنت تاهت فى مصر ، التقطها أولاد الحرام ، أمها تبلغ الشرطة : بنت صديقة تدلى بشهادة تقول فيها إنها سافرت مع عبدالبصير الصوفانى : الشرطة لابد أن تستدعيه ؛ الفضيحة . توقف فرعا ، تلفت حواليه باحثا عن الفتاة بلهفة ، طلب منها أن تمضى بجواره .

أخيرا اتضح أنهما مرا على شارع الصهاريج أكثر من مرة ؛ رأهما طفل نكى لاحظ حيرتهما ، سألها عما يريدان سأل عبدالبصير :

- « تعرف شارع الصهاريج ؟ » .

قال الطفل :

- « هوذا » .

وقادهما إليه رجوعا إلى الخلف بضع خطوات ، قرأت منال العنوان كله على الطفل وذكرت اسم خالها واسم أطفاله . قادهما الطفل إلى المنزل العشوائى فى نهاية الشارع العشوائى ، قيل لها إن هذا الساكن قد عزل منذ أقل من شهر ، ولا أحد يعرف عنوانه الجديد أكثر من أنه فى الوايلى . قالت منال :

- « نسأل عليه فى الوايلى !! » .

قال عبدالبصير :

- « نبحث عن إبرة فى كوم من التراب ! الوايلى هذا حى بحجم طنطا كلها ! أقصد محافظة الغربية كلها !! فهل نمشى كالمجانين تنادى يامن يعرف فلان الفلانى ؟! يمكننا أن نفعل هذا ولكن فى كم شهر ؟! » .

انفجرت منال فى البكاء ، صار منظرها مؤلما جدا وهى تبكى ، تغيرت معالم وجهها ثم اختفت كل الملامح فبدأ وجهها قطعة من الكبد مغمسولة بسيل من الدموع ، شعر عبدالبصير بمدى قهرها . قال له منظرها إنها كانت تأمل فى بضعة أيام تقضيها فى بيت خالها تنعم خلالها بأكلة طيبة نومة طيبة ، فالواضح أنها تعاني من الحرمان ، سيما وأنها من لحظة نزولها ميدان رمسيس وهى تتطلع إلى كل شىء معروض ، تكاد تتوقف وتتفرج فرجة المشتري ؛ تلفت كثيرا لتعيد النظر فى الأشياء يلمع فى عينيها بريق الرغبة ؛ ذلك البريق الذى سرعان ما يخبو

على حسرة القانع رغم أنفه ، بدأ عبدالبصير يفكر فى تقدير قيمة المبلغ الذى يجب أن يعطيه لها كى تعود به ؛ تطوع بأن يقطع لها تذكرة القطار ، وأن يعشيها عشوة دسمة ، بل ويشترى لها ولو شيئاً واحداً مما تتطلع إليه هذه التطلعات التى مرقت قلبه من الألم .

ما لبث حتى شعر بالضيق ، فها هو ذا الليل فوق دماغ النهار يفرد ثوبه الأسود المطرز بأصواء شاحبة ، فكيف يتركها فى الليل وحدها إلى طنطا ؟ هل يغامر ويعود معها حتى يضمن وصولها لأمها بسلامة ؟! ولكن كيف يزوغ الليلة من حفل قبض عربونه منذ أيام ؟! مستحيل طبعاً أن يفعل . إنها إذن لابد أن تبث الليلة فى القاهرة ولكن أين ؟! هو لن يجرؤ على الذهاب بها إلى شقته ، فالشيطان شاطر وهو طول عمره يهرب من مواجهته خصوصاً فى علاقته بالجنس الآخر حتى ولو تمثل فى طفلة فمابالك بعروس كاعب مثلها ؟!

وجد نفسه يسألها :

« - قلت لى أين يشتغل خالك ؟ ما وظيفته ؟! » .

ميز فى صوتها الباكى كلمة :

« - فى البلدية ! » .

رغماً عنه سقطت الضحكة الفلتانة من بين أسنانه الكبيرة ، لعت لها عينه الحولاء فبدا لمن لا يعرفه كعتاة المجرمين فى السينما حينما ينظرون للفريسة بطرف العين نظرة ارهاب مستهترة :

« - هكذا فحسب ؟! فى البلدية ؟! فى أى مكان فى البلدية ؟ فى أى حى ؟! » .

صار واضحاً أنها لا تعرف أكثر من هذا . فلم يضيع وقتاً ، أشار لها أن

تتبعه : « تاكسى! » عند بيته سلمها الكمان :

« - انتظرينى هنا دقيقة واحدة ! » .

صعد إلى شقته ، رمى البلدتين على السرير ونزل فى الحال . مضى بها إلى

بيت الأستاذ جميل كريم ، حيث أشرقت الفكرة فى نفسه .

الترحيب الشديد من أم فريد شجعه على أن يحكى لها الحكاية بالتفصيل .
صارت تصادر حكايته أولا بأول :

- « باسم الله ما شاء الله ! ثوبك سليم مائة فى المائة !! فعلا فعلا عرفت
تختار !! اللهم زد وبارك !! يارب تم بخير !! أنت ابن حلال حقا ! وعقل !
مادمت فكرت على هذا النحو فأنت ولد غير قابل للفساد !! » .

هو لاينى يحرك ذراعه بهم بمقاطعتها كى يوضح حقيقة الموقف . وأخيرا تدخل
الأستاذ جميل كريم لأول مرة :
- « عندك كلام ؟! » .

حكى الحكاية كلها بالتفصيل كأنه أمام محقق يحسب عليه كلماته؛ حتى
تفكيره فى أن يجعلها تبين عندهم مسافة الليل عرض عليها كيف جاءت الفكرة
وكيف تردد وكيف لم يجد مفرًا فتشجع .

زام الأستاذ بنبرة من يقول ساخرا : أهذا يستأهل كل هذه اللفة ؟! وقالت أم
فريد فى بشاشة :

- « تبين فى عيني ! حجرات الأولاد مازالت باقية كما هى ! حتى ملابسهم
وهم فى سنّها تركوها فى دواليبهم !! قومى يا عروس لتخلعى ثيابك المدرسية هذه
فعندى لك فستان من الحرير الساتان مثل الفل !! » .

سحبته من يدها ، مضت بها فى طريقة على يسار الداخل ممتدة . سألته
الأستاذ :

- « عندك الليلة شغل بالطبع ! » .

- « ساعتان أو ثلاثة بالكثير ! » .

- « يعنى أنتظرك على العشاء ؟! » .

- « لا داعى لعشاء أو غيره لكنى سأجىء حتما ! » .

نظر فى ساعة يده ثم نهض :

- « إلى اللقاء ! نمرتنا فى أول البرنامج من حسن الحظ ! » .

مضى بون أن يسلم ، علامة على أنه عائد بعد قليل ، وكان الأستاذ يرتب

لسهرة دعى إليها اليوم من تاجر كويتى ثرى يملك نصف رأسمال جريدة كويتية كبيرة ويكتب فيها عمودا يوميا وهو متزوج من مصرية ويسكن فى شقة بعرض سطح عمارة يملكها فى شارع قصر النيل تطل على ميدان مصطفى كامل ، وأما الحفل فإنه بمناسبة عيد ميلاده الثمانين ، وقد وعده الأستاذ بفرقة من خيرة العازفين ومطربى الإذاعة . أما مطربو الإذاعة هؤلاء الذين يقصدهم فإنهم كثيرون فى دفتر القيد فى الإذاعة وإن كان المستمعون لا يذكرون اسم أو صوت أحد منهم ، فيما عدا قلة قليلة كان لهم بعض أمجاد غابرة وانسحبت عنهم الأضواء تماما كإبراهيم حمودة وحامد مرسى وفأيد محمد فأيد وعبد السروجى وعبد الفتاح راشد وغيرهم فأصبحوا لا يمارسون الغناء إلا فى مناسبات متباعدة وخاصة مقابل بقشيش سخى يضع مانحه فى اعتباره اشفاقه واحترامه لسمعتهم القديمة . وثمة مطربون تم اعتمادهم فى الإذاعة لكنهم لم يذع لهم أكثر من أغنية على مدى سنوات طويلة يعيش الواحد منهم على حسنها محترفا فى شارع محمد على ؛ إذ هى تعطيه الحق فى أن يقدمه المتعهد باعتباره من مطربى الإذاعة . على أن هؤلاء لم يكن الأستاذ يميل إليهم فلا يدعوهم فى السهرات التى يدعى إليها خاصة إذا كانت ثمينة . إنه يعمل وفق مبدأ يؤمن به فى مثل هذه الأحوال : اكرموا عزيز قوم ذل ؛ ويشعر بسعادة غامرة كلما رأى أحد هؤلاء القدامى يتوجه فى السهرة مستعيدا بعض ذكريات الوجه القديم .

(٤٢)

سالم أبو شفه النياتى وزعرب لاعب الدريكة وسيد عزب عازف التشيللو ومحمود السرياقوسى عازف الأوكورديون ، كانوا فى انتظار عبد البصير منذ رأوه آخر الليلة الماضية فى حفل طنطا ، حيث رأوه أثناء خروجهم واقفا مع فتاتين على الرصيف ، ورأوه فى القطار مع فتاة واحدة ، فابتعدوا عنهما وقد تهامسوا بأنها لابن خطيته ؛ فقد سبق أن فرجهم على الشبكة والبدلتين الجديدتين ، فلما سأله

عمن تكون خطيبته تبسم قائلا إنها ستكون مفاجأة يستحسن ألا يكشف عنها الآن ، ولقد تمنعوا في الفتاة جيدا بنظرات مختلطة فأعجبته وقالوا لبعضهم إنها تناسبه وهو أيضا يناسبها ، بقى أن يحتفلوا به الليلة ؛ إنها فرصة للسكر الليلة على حساب المحل ؛ فإذا كان مسموحا لكل واحد منهم بكأس واحد في الليلة على حساب المحل فإن المحل لن يمانع في منحهم سكرة مجانية إذا أقاموا حفلا صغيرا على شرف زميلهم صوليست الفرقة ، بمناسبة إعلان خطوبته .
هكذا تقدم سالم أبو شفه باقتراحه لمدير المحل ، الذي عرضه بدوره على صاحبة المحل - وهي مطرية قديمة ذات أمجاد غابرة - فوافقت بشهامة غير متوقعة ؛ هكذا هي بارعة في جذب العاملين في محلها واستقطاب حبيبهم .

دهش عبد البصير حين نأثته صاحبة المحل وهو يدخل . سلمت عليه بحرارة :
- « مبروك الخطوبة ! » .

وقبلته في خديه بأومة مبطنة بعهر شائخ ، قال في حياء شديد :
- « الله يبارك فيك ! » .

- « انتظرك بعد خلاصك من شغلك ! » .

حياها ودخل ، فإذا الفرقة كلها قد تناقلت الخبر في شغف ، سلموا عليه جميعا بحرارة ؛ بعضهم احتضنه ؛ انهالت عليه كلمة مبروك من كل ناحية . شاع جو من الدفء والتفاؤل والبهجة ؛ بدأ أنهم يبخرون الشرب لآخر الليل . تناثرت تعليقات غابرة وغمزات لطيفة :

- « حلوه ! مربوبة ! عرفت كيف تنتقى ! نونك عالي ! يا واخذ الصغير يا حرامى السوق ! ربنا يتم بخير ! المهم كيف يربيه على يديه .. الخ الخ » .

رغم أنه سرعان ما فهم حقيقة اللبس الذي وقع فيه وأشاعه من رأوه بصحبة الفتاة المسكينة فإنه لم يشأ وفضل أن يتركهم على عماهم لتكون مفاجأة حفل الفرح كبيرة وصادمة حينما يتضح لهم أن عروسه لاتقارن بمثل هذه الفتاة التي تبدو بالمقارنة بها قردا أمام غزال ، فضلا عن أن خطيبته معروفة لهم وجميعهم

ينفطر أمامها ؛ كما أنها فى القريب العاجل لابد أن تصبح نجمة غنائية وربما سينمائية لامعة .

ظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد؛ لكنه حين تأهب للانصراف على عجل ليعود إلى الأستاذ كما وعده ، تحلقه أعضاء الفرقة وزحفوا به خارجا إلى مقصورة المدير ، الذى أشار لهم على ركن قصى تم اعداده بشكل ملحوظ ، حيث ضمت عدة ترابيزات صانعة شكل بوفيه مستطيل ارتصت على سطحه الكئوس والزجاجات وجرادل الثلج وأطباق المزة المتنوعة الأصناف .

جاءت صاحبة المحل فقادتهم إلى المائدة ؛ أجلستهم :

« العقبى لأولادكم جميعا ! رينا يجعل كل أيامنا أفراحا ! إن عبده عزيز على وهذا المحل محله ! وهذه الحفلة البسيطة عنوان محبة فحسب لكنها لا تليق بمقامه عندي لكن إن شاء الله تكون حفلاتى الحقيقية يوم دخلته على عروسه!!» .

ثم نادى على الجرسون أمرته أن يقف على رأسهم تلبية لأى طلب يطلبونه ؛ ومضت ، تلفت عبدالبصير حواليه :

« ما هذا الذى فعلتموه يا أولاد الأبالة ؟! أنتم تعرفون أننى لا أشرب الخمر ! لو كنتم اشتريتم لى ربيع قرش حشيش فقط لكان أبرك وأهم عندى من كل هذه اللوشة !!» .

شخر بعضهم فى احتجاج ؛ وحلف بعضهم بالطلاق إلا ما شاركهم الشرب هذه المرة ويتوب بعدها . حدث صياح غوغائى . صبوا له الكأس ؛ زينوه بمكعبات الثلج ؛ اقترب به سالم أبو شقه :

« هذا ويسكى بلاك آند هوايت فلا تكن حمارا» .

عمره ما كنت تحلم أن تنوقه !! هذه فرصة لأن تجلو صدرك من الهباب الذى تشربه !!» .

قال فى قليل من التراجع :

« أخشى أن أسكر ويكون منظرى مضحكا !!» .

هتف سالم أبو شفه :

- « هذا ويسكى بلاك أند هوايت وليس طافية من منقوع البراطيش !!
سيغرفشك ولا يسكرك ! وحتى لو سكرك ! جرب ولو فى العمر مرة ! فى
صحتك!! » .

ورفع الكأس إلى أعلى ؛ فرفعوا جميعا كنؤوسهم ، علقوها فى الهواء فى
انتظار أن يرفع هو الآخر كأسه . فما أن رفع يدا مرتعشة حتى اصطكت جميع
الكنؤوس بكأسه فى مرح حقيقى :
- « فى صحتك ! هيا !! » .

ودلقوا الكنؤوس كلها فى جوفهم دفعة واحدة . ثم سقطت الرهبة التى كانت
قائمة على الدوام بينه وبين الكأس ؛ زالت القشعريرة ؛ اضمحلت الغربة . فوجئ
بعد وقت أنه يجاريهم كأسا بكأس ، وأنه انتشى ؛ نشوة تختلف عن سرحات
الحشيش ، فيها جرأة واشراق وصراحة وانطلاق وسخونة مشاعر ، وفيها كذلك
خيال وردى بهيج ، فعلا ؛ كان عليه أن يجرب هذه النشوة ولو على سبيل
العلم بالشئ .

سرعان ما تنبه - بكثير من الزهو الذى طالما انتظره فى طنطا لأعوام طويلة
- إلى أنه مركز الضوء فى القعدة ، فالجميع ما بين مبارك على الخطوية ومادح
لفنه ومواهبه . الجميع وصل إلى حالة الشفافية التى تستحب فيها المكاشفات ؛
فراح كل واحد منهم يعترف بمدى ما لعبد البصير من قيمة فنية فى نظره ؛ حتى
الذين كان يلمس فى علاقتهم به ظلا من الاستعلاء والازدراء والحق لمجرد أنهم
يحملون شهادات من المعاهد وهو لا يحمل - حسب تعبيره - سوى شهادة أن لا
إله إلا الله ، الآن يعترفون له بتفوقه على جميع الأساتذة قديما وحديثا !! ينبهونه
إلى مافى مواهبه من جوانب تدخله فى عداد العباقرة الافذاذ ، يقترحون عليه أن
يولف لنفسه فرقة خاصة ، وأن يتخصص فى تأليف السمفونيات والكونشترات
والأناشيد الموسيقية ، توقعوا له مستقبلا مدويا ، بعضهم - بقليل من الخبث
الشرير المقنع بالمدح - نعى عليه حرمانه من «الدراسة الأكاديمية» على الأقل

ليضع الشهادة فى أعين «الحاقدين» سيما ونحن بلد تركع للشهادات لا للموهبة .
على أن سالم أبو شفه - الفاجومى - أفحمهم بقوله إن البلاد فيها ملايين
الشهادات العالية وليس فيها سوى عبد البصير واحد فقط . استدرك عليه
عبد البصير :

« - ليس كل من يحمل شهادة عالية يكون عبد الحليم نويره أو عبد الحليم على
أو جمال عبد الرحيم أو إبراهيم حجاج أو فؤاد الظاهرى !! » .

لحظتُ نذ هبط عليهم أحد المطربين العاملين فى برنامج المحل ؛ استسمع
عبد البصير أن يصاحبه فى وصلته لأنه سيغنى أغنية قديمة يطلبها الجمهور
باستمرار وفيها صولو كمان عقده .

هز رأسه موافقا فى أريحيه ؛ لكنه تذكر ضيفته الطنطاوية وموعده مع الأستاذ
؛ فانتفض واقفا ينظر فى ساعته :

« - ياه ! لابد من انصرافى فورا !! خطيبتى فى انتظارى عند أحد أقاربى !
تأخرت عليها كثيرا !! آسف ! لكن غدا يمكن أن أكون تحت أمرك ! اعف عني
الليلة !! » .

تولى الصحاب توضيح الموقف للمطرب الذى اقتنع ، وقنع بواحد منهم ، أما
عبد البصير فقد انطلق مهرولا إلى الباب وعنه إلى الشارع . رمى بنفسه فى سيارة
أجرة ؛ اندفع خياله يسابق السيارة : يشعر الآن أنه ممثلىء بنفسه ، بذاته ، بكيانه
، هاهو ذا الخط قد بدأ يحالفه ، وغدا يحالفه النجاح الكامل فى خلق تأليف
موسيقى مصرى الجنسية حينما تسمعه أية أذن فى العالم تهتف فى الخال: هذه
موسيقى مصرية وإن عزفتها آلات غريبة .

وإذ كان يصعد الدرج إلى شقة الأستاذ كان يخيل إليه أن ساعة يده مخرفة ،
فهو يشعر أن زما طويلا جدا قد مر عليه منذ كان هنا أول المساء ؛ لكن موسيقى
نشرة أخبار الحادية عشرة أكدت له صدق ساعته ، تصور ضيفته الطنطاوية وهى
مستغرقة الآن فى نوم عميق ، شعر تجاهها بكثير من الشفقة؛ بدأ يتشكك فى
نواياها ، مال إلى الترجيح بأنها لا تزال تحلم بعالم الغناء والفن والفنانين، وأن

مجيئها إلى القاهرة بهذه الحيلة ليس إلا محاولة تختبر فيها ما تسمعه عن هذا الوسط الغامض المفضوح فى آن؛ تصورها وقد أصبحت نهبا لحيثاته ووحوشه المفترسة يبيعونها لبعضهم البعض بيع الشياه ، فاقشعر بدنه ؛ أحس كأنه المسئول عما يمكن أن يحدث لها من ضياع مروع ، فارتعدت يده وهى تضغط على زر جرس الباب .

(٤٣)

الست أم فريد كالأخطبوط ، لكنه أخطبوط الحنان والإنسانية ، إنها من ذلك النوع الذى يفرض خدماته بأى وسيلة ؛ تخلق لنفسها دورا من أضيق الأبواب . هوايتها الوحيدة فى الحياة أن تتسلل إلى ما تحت جلد جليساها ، تتحسس جروحه بأنامل ملساء تطيب وجعها ، وأنت لابد واجد فى مجرد الحديث إليها راحة كبرى اذ هى تستمع اليك باهتمام وتركيز شديدين يذكرانك باهتمام أمك ، تتأثر بكل ما تقول تأثرا حقيقيا يظهر عليها فتجدها تعلق :

- « ياروحى ! يا قلب أمك ! يا حرام » .

وربما بكت بحرقة أم موجوعة الكبد على وليدها المعذب ، ثم إنها لابد أن تفعل شيئا ، تضع نفسها فى الحال موضع المسئولة عن علاجك مما أصابك . إن كانت الأزمة فلوسا نهضت وفتشت فى أدراجها وربما فى جيب أبى فريد عن فلوس تعطيها لك : « ولا يهكم ! بتحصل فى أحسن العائلات ! خذ منى فائنا فى مقام والدتك والله ما تكسفننى ! » إن كانت مشكلتك لدى أحد المسئولين فإنها تسحب الهاتف تبحث بين معارفها عن شخص يعرفه ؛ وكثيرا ما تجد ؛ وحينئذ تدهشك براعتها فى عرض مشكلتك ، تذهل كيف استوعبتها هكذا بكل هذه الدقة فعرضتها فى صورة أفضل مما لو عرضتها أنت مضيفة اليها انفعالها ومدى احساسها بفداحة المصاب . بل إنها ربما لبست هدومها ونزلت معك تشتترى لك شيئا أو تصطحبك إلى موقع المشكلة لتكون واسطة خير بينك وبين بقية أطرافها

وفى هذه الحالة لك أن تضمن حلا مريحا ؛ لأنها تعويت أن تقتحم المشكلة فى قلبها ، لبها ، عقدتها ، فتروح تعمل على فك هذه العقدة بحيل لا تنتهى وصبر لاينفد ، يساعدها على ذلك صوت رخيم منضبط ملئ بالهدير الموسيقى الغنى بالمشاعر . لا عجب فقد كانت فى الأصل مطربة من خامة أم كلثوم وفتحية أحمد ، قبل أن تقتنع بأنها لن تضيف إليهما شيئا مهما فامتنت بعد نشاط وانعزلت بعد شهرة لكنها ظلت من ذلك النوع من المغنين الذى يغنى مشاعره فى رصانة تستقطب احترامك وتقديرك . لغتها أيضا سلسلة ، ارستقراطية الطابع مبطنة بشئ من تطحين أولاد البلد . طلباتها رجاء يصعب رده ؛ وشكرها دعوات طيبة تدغدغ القلب إذ هى تدعو لكل واحد بما تشعر أنه يتمناه ، دعوات تكاد تكون شعرا موزونا ومقفى أحيانا ، بكلمات سخنة مليئة بالأمثال ، والشفافية ، والسحر القادر على إشعارك بتفاهة الدنيا ورخص كل ما هو زائل مهما غلا ، فى مقابل عظمة الإطمئنان وروقان البال .

بهذه الروح اقتربت أم فريد من ضيقتها الصغيرة منال ؛ أخذتها على حجرها ؛ أدخلتها الحمام وبيدها دعت لها ظهرها بالليفة وعاينت كل تفصيلة فى جسدها ؛ سرحت لها شعرها ، زينتها . ثم انقربت بها ففتشت فى كل ثنية من ثنايا مشاعرها عن أى حشرة من حشرات الوجع النفسى ؛ تاکدت من عفتها ، بكارتها ، سلامة قلبها ، طهرها ، خلوها التام من اللوع ، من الطموحات الخرقاء . عرفت كل صغيرة وكبيرة فى حياتها وحياة أمها وأخوتها . رأت بعينيها كل شئ مائلا أمامها من فرط صدق الفتاة ، قالت فى نفسها : والله إنها لأصلح عروس لابنتنا عبدالبصير ؛ لو كان عندى ولد ما تركتها تفلت من يدي ولكنى أحببت هذا الجذع الفنان كابنى والخدمة الوحيدة التى أقدر على تقديمها له أن أهديه هذه العروس ؛ نعم وحق الله ليس أنسب له منها ولا أنسب لها منه ؛ لسوف تحاول على كل حال فإن رضى تكون أمه راضية عنه وإن ركب رأسه وراء بنت مزوقة من بنات هذه الأيام فذنبه على جنبه يتلقى وعده .

على أن أم فريد ليست بالتى تدخل فى أمر ولا تنهيه . تتوى شيئا ولا تفعله ،

أر تمضى فى مشوار وترجع عنه مهما صادفت من معوقات . وهكذا ركزت عينيها الحانيتين على عيني البنت ، سألتها مباشرة :
- « مارأيك لو ز وچناك من عبدالبصير ؟! » .

ارتبكت البنت ؛ احمر وجهها كالجزرة ، ارتخت جفونها . كررت أم فريد سؤالها بنبرة فيها من الثقة أكثر مما فيها من العرض ؛ فارتعشت البسمة على شفتي البنت وانكمشت على نفسها فى قشعريرة هى مزيج من الحيرة والغبطة . حينئذ نهضت أم فريدة سحبت الباطو الفرو الثمين فوضعتة على كتفها وأمسكت بمحفظة نقودها الصغيرة؛ وخرجت . سمعت منال صوتها فى الردهة يبتعد قائلة للاستاذ:

- « طالعہ الدور القوقانى وراجعه »!!

لم يستغرق غيابها أكثر من عشر دقائق . رمت الباطو والمحفظة على السرير؛ نادتها:

- « قومى ساعدينى فى تحضير العشاء فعريسك على وشك الحضور »!!

لم تكد تنهى عبارتها حتى سمعت رنين الجرس فهتفت فى زهو يشبه الابتهاال:
- « اسم الله على ! أحمذك يارب وأشكر فضلك »!

وتوقفت فى صدر الردهة تتابع خطوات الأستاذ نحو الباب . فما أن فتحه ودخل عبدالبصير حتى فردت كفها فوق قمها وأطلقت زغرودة بلا صوت؛ وأضافت:

- « يلا ياعروسة على المطبخ »!!

كان عبدالبصير قد جلس منجعصا بفعل نشوة البلاك أند هوايت؛ فما أن رأى البنت تعبر الردهة بفستانها إلساتان البرتقالى اللون حتى ففر فاه دهشة وذهولا: أهذه هى ضيفتة؟ لا يمكن! ألها كل هذه الجدائل الحريرية من الشعر الفاحم؟ أمخروطة هى هكذا كالبلطية تتلعبط تحت تموجات الحرير؟ ألها هاتين العينين اللاهبتين؟ كيف لم ينتبه لجمالها طول النهار؟! إن ملابس المدرسة كانت تخفى كنوزا رهيبة . اختفت داخل المطبخ لكنها بقيت ماثلة فى عينيهِ المسلطتين على

البقعة التى رآها تعبرها ناظرة إليه نظرة جانبية فيها شئ جديد لم يره طول النهار، شئ يشبه الشوق الملهوف، تكاد النظرة تقول: وحشتنى.

أشعل سيجارة، شعر بقلبه يسقط بين ركبتيه حينما عبرت خياله صورة أحمد فارس مقال الكومبارس الذى لم يقلت من أنيابه لحم فتاة مرت على مكتبه، تمتم: اللهم استر على ولايانا، ثم فوجئ بأمر فريد تقبل نحوه، تجلس بجواره تتحسس كتفه:

«إسمع منى ما سأقول لك يا ولدى وارمه فى البحر إذا شئت!! إن كانت أمك دعت لك فى ليلة قدر واستجاب الله لها! وإن كنت تريد أن تفتح بيتاً مبنياً على الشرف وصون العرض! وتشوف مستقبلك وانت مطمئن اليال تجد من يخدمك بإخلاص يسهر على راحتك لتسهر على فنك مثلما فعلت أنا مع أبى فريد! فلتتزوج من هذه البنية!! إسمع كلام أمك التى لم تلدك!! فوحوق النبى أشرف خليفة الله لو بقى عندى ولد بغير زواج ما تركتها تفلت من يدى!! إن كنت تحط عينك على واحدة بيضاء مزوقة ملونة العينين فاعلم أن الجمال الحقيقى الذى لم تفهمه بعد هو جمال البراعة والصفاء والماعون والنظيف ولون الطبيعة الربانية!! هو هذه البنت باختصار!! وإن كنت تحط عينك على فنانة فأنت عدم المؤاخذه قصير النظر لأنك ستعيش عمرك كله خادماً لها!! سيكون فننا أهم عندها منك ومن كل الرجال! ويحى يوم تجد نفسك فيه منفياً مقابل حفل فى برنامج أضواء المدينة أو فيلم مع حسن الإمام!! أنت فلاح متدين لن تقبل مرمطة زوجك بين أحضان الطواويس الكذبة الفجرة!! لن تقبل فتح بيتك لشلل الفرشة والقمار من أصحاب الحل والريط فى هذا الوسط الموبوء!! فنان وفنانة يعنى خلاف قائم ليل نهار! فلا بد لواحد منهما أن يكبر على حساب الآخر! والتضحية دائماً على من أحب أكثر!! ولانى واثقة أن حبك لفتك قوى فإبنى غير واثقة أن الطرف الآخر لن يكون حبه لفته هو الآخر أقوى!! فالصدام أت لا محالة ربما قبل انتهاء شهر العسل!! اسمع نصيحتى فقد عشت فى هذا الوسط اللعين أربعين عاماً فأصبحت أعرف نهاية كل قصة من أول سطر فيها!! علمتنى التجربة أن زواج الفنان الموهوب من فنانة هو زواج فاشل

وجحيم أرضى حتى لو كان فى الظاهر ناجحاً!! يقول لك الأستاذ كريم: إننى كنت المنافسة الوحيدة القوية لكبر ثلاث أو أربع مطربات فى الدول العربية كلها لكنى فهمت نفسى مبكراً وفهمت قيمة زوجى فعشت له ولأولاده!! عشت سيدة بيت من الدرجة الأولى الممتازة بدلاً من أن أعيش فنانة من الدرجة الثانية ولهذا ربيت أولادى أحسن تربية وحفظت لزوجى فنه وكرامته!! أما إن كنت تحط عينك على واحدة غنية فإنك تبيع نفسك برخص التراب فى حين أنك الأغنى بفنك وموهبتك إذا كان وراءهما عقل وحكمة!! وإن كنت تختار عروساً لمركز أبيها فى الدولة فإنك المتنازل فى حقيقة الأمر لأن مركزك كفنان أصيل سوف يعلو على كل المراكز إذا ما كانت شخصيتك قوية لأن كل المراكز والكراسى زائلة إلا مركز الفنان!! يا عبدالبصير يا صوفانى إنى أمرك أن تتزوج هذه البنت!! ليس لأنى أحببتك حب الأم لولدها النابغ بل لأنى طامعة فى ثواب يمنحه الله لى! وأن تظل طول عمرك تذكرنى بالخير تطلب لى الرحمة!! هذا ما أردت قوله لك وأنت بعد ذلك حر تفعل ما تشاء ولن تلومن فى النهاية إلا نفسك! فماذا قلت؟».

بقى هو فى حالة الإنصات التى كان عليها فى تركيز وانتباه لكل حرف نطقت به، مفتر الثغر عن بسمة بلهاء تنفجر وتتقبض تبعاً لتواتر العبارات الصادمة. غرق فى بحر متلاطم من الحيرة لا شيطان له. لقد نبهته إلى مسائل خطيرة جداً لم يناقشها مع نفسه من قبل. رأى نفسه يؤيدها فى كل ما قالته، خاصة مادار حول مستقبله الفنى، وبالأخص الارتباط بفنانة ذات طموح معين. لم يكن من السهل عليه قول كلمة نهائية فى الموضوع، ليس قادراً على الرفض أو الموافقة، كما أن حبه لسعدية المليجي كالطود لا يتزعزع. يا لها من امرأة داهية، هكذا تتمم لنفسه فيما هو متجمد فى جلسته ككمثال، حتى لسعه عقب السيجارة فانتفض ثم رمى العقب فى الطفاية وأشعل سيجارة جديدة جذب أنفاسها بشراة فهبجت الأنفاس أبخرة الويسكى فى سقف دماغه فنظر إلى السيجارة فى خجل ملحوظ بعد إذ تبين أنه أخطأ فأشعل واحدة من اللعبة المحشوة سجانها بالحشيش.

رصد الأستاذ هذه الحركة، فرسم على وجهه قناع الجدية الجهم وهتف في غضب مصطنع:

— «تسمع تدينى السجارة دى؟!»

فسلمها له فى الحال بحركة تلميذ مذب، متوقفاً أن الأستاذ سيدوس السجارة بقدمه، إلا أنه فوجئ بالأستاذ ممسكاً بالسجارة فى حفاوة، يدسها بين شفتيه يجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، ثم يردها له شاكراً. انفجرت الضحكة بين ثلاثتهم تضرمر شيئاً من التواطؤ الحميم ويتناثر هشيمها الصاخب فى أنحاء الردهة فنبزقش الصمت الرهيب الذى كان جاثماً عليهم قبل برهة. قالت أم فريد:

— «ماذا قلت فيما سمعت منى؟!»

قال فى مرح:

— «قلت لا إله إلا الله!!».

هتفت بنبرة فرح رنانة:

— «إذن فأنت موافق!!».

تلجلج، راح يفتش فى رأسه المخمور عن ربود حاسمة موجزة لبقة. لم تسعفه البديهة المعطلة عنده من الأصل، إلا باحتجاجات خائبة:

— «نعم ولكن!! إنها لاتزال صغيرة وتلميذة فى المدرسة الإعدادية!!».

عاجلته أم فريد:

— «تزوجنى أبو فريد وأنا أصغر منها!! هى الآن فى عزها يا غشيم!!».

— «ولكن يا أم فريد...».

أراد أن يقول شيئاً عن القانون والشرعية لكنه اختصر الأمر فى كلمة:

— «المأثون!!».

— «لا مشكلة من هذه الناحية!! اطمئن!!».

— «ومن يدريك أنها توافق!!».

ثم استدرك:

— «من يضمن أنها تكون سعيدة معى؟! أو أنا سعيد معها؟!».

اعتدلت أم فريد صائحة فى ثقة:

«قل إنك موافق ولا شأن لك بالباقي!!».

أخذ إلى صمت عميق، قطعه بأن قدم للأستاذ سيجارة من اللعبة المدسوسة،
أخذها الأستاذ قائلاً:

«هيه! أشوف شغلى؟ أحب أن ألعب دورا أنا الآخر!!».

تلاقت نظراته بنظرة زوجه، فنهضت فى الحال. أتت بسلة الهاتف ذى اللعبة
المذهبة بالنقوش والمخروطة على هيئة جذع نخلة والسماعة تشبه جريدها. أمسك
الأستاذ بالسماعة، أدار القرص على رقم يحفظه:

«ألو! يا شيخ عمران! ماذا تفعل الآن يا ترى؟! ما رأيك فى عشوة سَقْع؟!

تعال فوراً قبل أن يبرد!! اسمع! هات عدة الشغل معك! وإسمع! فت على المقهى
فى طريقك هات الولد سالم أبو شفة والواد زعرب! هات من تجده! سلام».

وضع السماعة:

«وسعى الثوب يا أم فريد!!».

«الخير كثير والحمد لله! قلبى دلىلى دائماً كما تعلم يا أبو فريد!! بدمتك يا
أبو فريد: الديك الرومى فى الثلاثجة منذ كم يوم؟ كل يوم ننوى طبخه ويزرقنا الله
بعزومة برانية!! شف النصيب!! إن الله هو المدير الحقيقى! هذه البنية وهذا الولد
كلاهما ابن حلال!! بدمتك يا أبو فريد منذ كم يوم وأنا أقول لك إننا ننتظر فرحاً
يقام فى بيتنا؟! قل! هذه الشقة مكتوب عليها الفرح! سبحانك يارب أقمنا فيها
فرحنا وأفراح أولادنا كلهم وفرح بنت أختى هدى! والليلة وكل ليلة إن شاء الله
تمتلى حياتنا بالأفراح!! لا والأكادة انت يا أبو فريد لما حكيت لك المنام الذى رأيت
أول أمس تقول إننى لم أنفط جيداً! كل الناس ترى الأحلام بعكس تفسيرها إلا أنا
ما أراه يتحقق بنصه!! أحمداك يارب! اللهم أوقف لأولادى أولاد الحلال وكن لهم
فى الغربة حامياً ونصيراً!!».

السعادة كانت تغمرها تضفى على وجهها نضارة فتاة فى العشرين من عمرها
حتى ليشتتها الشباب اشتهاً تزكية فخامة جسدها المشدود. مضت إلى المطبخ

تتهادى، فيما نهض الأستاذ فتأتى بآلة القانون، فتحها، أوماً لعبدالبصير أن يفعل مثله، ففعل. راح الأستاذ يضبط أوتاره على أوتار عبدالبصير. فجأة توقف الأستاذ قائلاً له:

«ضبطة كمانك غريبة»!

قال عبدالبصير باسمًا:

«ضبطة مصرية! تعلمتها من أبى»!!

«أعرف أن أباك عازف عود أصلاً»!

«وضبطة كمانى ضبطة عود»!!

«غريبة»!!

«الخواجات يضبطون الكمان: صول - رى - لا - مى!! والأتراك

يضبطونها على: صول - رى - لا - رى»!!

«نعم ولكن الضبطة العامة فى مصر هى: صول - رى - صول - رى»!!

يعنى ما بين التركي والأفرنجى»!!

«أما كمانى فقد ضبطتها ضبطة العود على: صول - رى - صول - نو»!!

«ولماذا اخترت هذه الضبطة بالذات»؟

«لأن منهجنا كمصريين منهج غنائى بحت!! نحن كما تعلم ليس عندنا تراث

موسيقى بحت كالأجانب!! كل ثروتنا غناء فى غناء!! وحتى المقطوعات الموسيقية

التي ألفها محمد عبدالوهاب ومحمد فوزى وفريد الأطرش لم تكن تأليفاً موسيقياً

بحتاً كما عند الغرب أمثال بيتهوفن وموزارت وهندل وبياخ وغيرهم!! كانت كأنها

أغنيات تغنيها الآلات بدلاً من الأصوات البشرية!! وأنا أحلم بأن أطور هذا الغناء

الموسيقى وأطوعه لمنطق التأليف الموسيقى على الطريقة الغربية! وإذا نجحت فى

ذلك أكون نجحت فى تطويع الطريقة الغربية فى التأليف الموسيقى لمنهج الغناء

المصرى! وآلة الكمان هى أداتى الوحيدة»!!

«أنت ولد ملهم على كل حال»!!

جاءت أم فوزية مزهومة:

- «طب بزمك ودينك ياأبو فريد! ألم أقل لك هذا الكلام نفسه يوم استمعت إليه أول مرة؟! تذكر؟ قلت لك هذا غناء موسيقى مصرى ولكن على الطريقة الأفرنجية»!!

- «حصل»!!

هكذا أوماً أبوفريد برأسه فيما يرمقهما معا فى إعجاب؛ ثم بدأ يداعب الأوتار بمدخل مقطوعة: (لونجا دو ماجير) التى استمع إليها من عبدالبصير أكثر من مرة وخطبته. كان فى الواقع يريد أن يتمرن معه على عدة مقطوعات من مقطوعاته لكى يعزفها فى سهرته المرتقبة.

غير أن عبدالبصير وهو مندمج فى العزف كان ثمة ما يشاغل عينيه ويستقطب اهتمامه: كانت البنت مثال قد بدأت تروح وتجىء بين المطبخ وترابيزة السفرة تفرش وترص الأطباق والملاعق والشوك فى نشاط وحيوية. كانت عروسا بالفعل تبدو شهية؛ ويبدو أن هذا البيت قد أضفى عليها مزيدا من الأنوثة أو لعله كشف عنها.

سمعوا وقع أقدام كثيرة تصعد السلم، ولغط الشيخ عمران ونكاته وقفشاته يصل إليهم بوضوح. ترك عبدالبصير آلة الكمان، وقام ليفتح الباب.

(٤٤)

دخل الشيخ عمران مهلا؛ ومن خلفه سالم أبوشفه وزعرب وزميلا عبدالبصير فى السكن القديم ونجيب السلحدار المتعهد. امتلأت الشقة بالزئيط؛ راحوا جميعا يتكلمون فى آن واحد؛ إلى أن هتفت بهم أم فريد:

- «العشاء جاهز يا جماعة»!

تقدمهم الأستاذ نحو الترابيزة. اتخذ كل منهم مكانه. بدأت سمفونية الغزل فى أنفاس أم فريد العطرة؛ قادها الشيخ عمران بكفاءة يحسد عليها.

الشيخ عمران فى الأصل صبييت مشهور بين قطاعات كبيرة من جماهير

الموالد وبعض القرى؛ إلا أنه ليس يتخصص في الغناء الدينى فحسب؛ بل يجيد الغناء بجميع ألوانه؛ حريف جدا في أداء أغنيات أم كلثوم ومحمد عثمان وعبد الوهاب وكذلك الشيخ على محمود والشيخ درويش الحريرى ومواويل الشيخ محمود صبح وعبد الدرداش القهوجى؛ بحساسية مرهفة وبراعة شديدة، يلبس لكل حال لبوسها؛ فهو تارة بالجبة والقفطان والعمامة إذا كان الحفل دينيا محضاً؛ وتارة أخرى بالجلبات البلدى والطربوش إذا كان الحفل فرحا فى حى بلدى؛ وتارة ثالثة بالبدة الأفرنجية إذا كان الحفل فى حى أفرنجى وفيه منصة وتخت موسيقى. له مع ذلك شغلة رسمية بحكم حصوله على شهادة «العلمية» من الأزهر الشريف: مأذون شرعي؛ هكذا كتب على لافتة مستطيلة بالخط الثلث العريض، تمتد على جدار شرفة شقته فى الطابق الثانى من عمارة بارزة فى ميدان باب الخلق. هى شقة كبيرة ذات باين على السلم؛ واحد لأهل منزله مغلق لا يفتح إلا لهم؛ والآخر يفتح على الصالون المزود بمكتب ودولاب كتب وملفات؛ وعلى هذا الباب لافتة نحاسية لامعة ورصينة تصيف إلى شغلة المأذون مهمة القيام بإحياء الأفراح والليالى، ولقد يستقبل العميل لعقد قران فيأخذ منه مقالة الفرح كله من بابه. لهذا فالمكتب لا يكف عن استقبال العملاء. الشئ الوحيد الذى يرفض القيام به هو الطلاق.

بعد العشاء قالت له أم فريد:

«إفرد ورقك يا شيخ عمران وأسمعنا صلاة النبى حتى أتاكم بالشربات!!»

فى لمح بالبصر فوجيء عبد البصير الصوفانى بيده تعانق يد الأستاذ جميل كريم - الذى وكلته العروس - تحت منديل مفرد فوق الديدن؛ وقد راح يردد خلف المأذون كلماته. أطلقت أم فريد سربا من الزغاريد الرنانة الرائقة؛ ثم قدمت لهم عصير المانجو، ويجواره زجاجة كاملة مبرشمة من الويسكى تلقاها أبوفريد هدية من صديقه شيخ النفط العربى. وكانت قد أعطت الشيخ عمران شهادة تسنين البنات أتت بها من طبيب تقع عيادته فوق شقتهم مباشرة؛ وكانت ورقة الشهادة منتفخة لأن أم فريد لفتها على خمسة جنيهاً دفعتها - مؤقتا - من جيبها لكى

ينكسف الشيخ منها فلا يطمع فى عبدالبصير ومن ثم لا يحدث أى شقاق يعطل سير مشروعهما الأثير.

سرعان ما انشدت الأوتار، وسخن الشيخ عمران فصرح منجلبا بفعل الموسيقى وسجائر الحشيش وور محمد عثمان: كيد العوازل كايدي. أطال بغير إملال فى مقطع: أه يا مالك، فيردون عليه جميعا: قلبى بالمعروف؛ حبك كوانى، تعالى شوف؛ وهو يعيد ويزيد فى الآهات والليالى.

أصرت أم فريد على إقامة زفة أيا كان منظرها؛ فالبنت - ياقلب أمها - بنت بنوت، وحرام أن نحرهما من ليلة عمرها.

وكان لها ما أرادت؛ حيث نزل على صوت الزغاريد وقد من نسوان الجيران، شاركن كلهن فى تزويق العروس والباسها فستان زفة أخرجته من دولاب إحداهن. ثم نزل العريس متأبطا عروسه.

فى غبشة الفجر؛ فى شارع محمد علي، مضى العروسان يحوطهما لفيف من نجوم الشارع المعروفين لكل كبير وصغير فيه؛ جميعهم فى حالة من المرح الحقيقى، تخلوا فيها عن كل وقار؛ صاروا يغنون ويصفقون ويعزفون؛ إتمخضوا ياحلوه يازينه ياوردة من جوه جنينه، وسالبة الطريق ينعطفون عليهم؛ فيتضخم الموكب؛ يزداد طربا وهياجا وجنونا. يقطر بهجة ومرحا؛ حتى إذا صاروا أمام قهوة التجارة وكانت أضواؤها الخارجية مطفاة خرج من أوكارها كل من فيها؛ فلما ميزوا بين الموكب الشيخ عمران ونجيب السلحدار وسالم أبوشفه وزعرب انخرطوا فى ضحك وصخب وتهريج؛ فلما تبينوا أن العريس هو عبدالبصير انضموا إلى الموكب عن طيب خاطر ورغبة صادقة فى المجاملة. خرجت من المقهى دفوف ونايات وطبلات. كلهم كانوا سكارى يستنفرهم المرح فاندفعوا جميعا على سجيتهم.

توقف الموكب أمام البيت الذى يسكنه عبدالبصير. تكفل شبان الحارة من باعة السمين والفاكهة السهرانيين بتوسيع دائرة فى قلب الموكب؛ ثم تحزمو باللاسات وأمسكوا بالعصى وهات يارقص كأنهم جوعى للفرح ما صدقوا أن رأوا أنفسهم

على مائدة شهية، استيقظ الشارع كله وانفتحت الشبابيك فاصطكت الدرف بالحيطان فى إيقاعات متتابعة؛ وتطايرت منها زغاريد مقطوعة.



لحظتذاك كان ثمة موكب آخر أضخم وأكثر احتفالا وصخبا، ولكن على بعد آلاف الأميال؛ فى ساحة كبيرة فى مدينة بنى سويف؛ حيث امتد السرادق على طول الساحة وامتلا بعناقيد اللمبات الكهربائية الملونة، واحتشد بالمعويين الصاعدة حملة البنادق والرشاشات والنباييت، ومجاميع الحشاشين والباعة من جميع الأنواع. فى آخر السرادق منصة عالية جلس فوقها العريس مطبق اليدين والقدمين على عجينة الحنة؛ ومن حواليه فرقة موسيقية كبيرة وصل بها التجلى والسخونة حدا عظيما؛ ومطريتان وراقصة فى حالة وجد وامتنان وامتزاج بنشوة جمع النقط المنهال عليهم من أول الليل بغير حساب؛ الجماهير المخمورة المسطولة الهاجة تهز الأرض بصياحها الملىء بالشبق وجنون الرغبة فى الانعتاق من الثياب، مابين شوط راقص وآخر يصعد أحدهم على المسرح شاهرا ورقة البنكوت الخضراء يمسى بها على معازيم جدد؛ يستنفر ردهم على التحية بأحسن منها؛ تنهال الفلوس والأسماء على نبطشى الفرقة؛ تتجاوب مع صوته فى الميكروفون طلقات الرصاص فى غزارة كأنها حرب السابع والستين.

بجوار المنصة تماما تكلكأ رهط من أقارب العريس وأبناء عمومته وأصهاره على استعداد لتلبية أى طلب من الفرقة أو العريس؛ كل منهم يحمل سلاحه المعبأ بالخيرة أبرعهم جميعا فى استخدام السلاح هو «هادى» ابن أخت العريس؛ قصير القامة سفروت؛ عجوز الملامح رغم صغر سنه؛ يشتغل فى تجارة المحاصيل الزراعية بنجاح كبير؛ مشهود له بالجدعة والفروسية؛ مرهوب الجانب حتى من المطايرد نزلاء الجبل، لبراعته فى التنشين وحده بصره وجسارة قلبه.

راحت طلقات هادى تتدافع فى سرعة ورشاقة ترج الفضاء رجاء؛ فينظر الجميع حوالهم بحثا عن مصدر الطلقات فلا يجدونه. قليلون هم الذين كانوا يرون

هادى فى جلسته متقرقفا لصبق المنصة، يكاد جسده الضئيل يختفى فى ظلها وظل الزحام فوقها. المدفع الرشاش الآلى فى حصنه، ماسورته موجهة إلى السماء بزاوية محكمة منضبطة بيدين صلبتين. وكان قد عبأ الخزنة لتوه من جديد حينما لمح خاله الأكبر مقبلا نحو المنصة لكى يقدم التحية لمعازيم وفدوا لتوهم. تحفز هادى للإطلاق بمجرد سماعه اسم أحد من المدعويين الجدد. غير أنه لم ينتبه لمجموعة أطفال أشقياء بجواره - تحت كوعه مباشرة - يتناحرون للاقتراب من المنصة. ضغطت أصبع هادى على الزناد فى اللحظة التى انتفض فيها أحد الأطفال واقفا؛ فاصطدم جسده كله بكوع هادى؛ فاهتز المدفع الآلى فانحرفت ماسورته انحرافة حادة صبت كل محتويات الخزنة دفعة واحدة على المنصة؛ تهاوت الأجساد فوق بعضها كأشجار اقتلعتها ريح صرصر عاتية؛ المطربون والراقصات والعازفون والعريس والخال الأكبر، واندفعت نوافير الدم تعانق الأضواء الحمراء تزيدها احمراراً.

اشتعل السرداق بالصراخ والطم والعويل. انكب الجميع على المنصة يرفعون الجثث الهامدة عن بعضها. بحر من الدم القانى تخوض فيه الأحذية وتصطبغ به الأيدي والوجوه والثياب. انطرح البطاطين والملامات فوق الجثث التى أشير ببقاؤها على المنصة حتى تجيء النياية للمعاينة. على مقربة منهم - فوق الأرض - جثة قزم سفروت غاب عن الوعي محتضنا مدفعه فداسته الأقدام بططته تماما. سرعان ما راح اللون الأسود يخترق السرداق فى أشباح لاطمة صارخة. صار اللون الأسود يتزايد، والأشباح تلوح بالآف الأذرع تشعل فى الأفق حريقا هائلا من الصوت المتتابع.



تقدم الشيخ عمران ففتح بجسده ثقباً فى جدار الموكب السميك؛ فتمكن عبدالبصير من سحب عروسه، وزرق بها إلى عتبة البيت؛ صعد بها السلم. كان الصداق يذق رأسه بمطارق عنيفة فيشعر بألم حاد فى رأسه وفى جنبه. تحسس

جنبه فاصطدمت أصابعه يوم وكلكة فى جيب سترته الداخلى. قبض عليها بقلب واجف؛ سرعان ما تبين أنها لعبة الشبكة التى أعدها لخطيبته سعدية المليجى؛ فشعر كأن سكيناً تخترق قلبه كما تخترق قلب البطيخة. كاد يصرخ من عمق الألم؛ لكنه مد المفتاح فى ثقب الباب؛ أضاء نور الودهة؛ سحب عروسه إلى الداخل فى رفق مبالغ فيه يخفى به حقه العارم عليها.

رفع لفة البديلين رمى بها على المنضدة. رفع البطانية عن السرير؛ فرشها على الأرض؛ أخذ إحدى الوسادتين رمى بها فوق البطانية؛ خلع سترته فعلقها فى سمار مثبت فى ظهر الباب؛ قال لعروسه بلسان ثقيل وعينين كابيتين:

— «نامى على هذا السرير»!!

نظرت إليه مندهشة كأنها تقول: وأنت؟! لكنها لم تتطرق بحرف؛ ولعلها استراحت لهذا المسلك. أما هو فقد أشار إلى البطانية فى حركة متهافئة:

— «سأنام هاهنا حتى الصباح فأنا متعب ونومى ثقيل»!

لم ينتظر ردها، فتمدد ببقية ثيابه على الأرض؛ طوى الوسادة تحت وفوق رأسه ليسكت بها ألم الصداق المتزايد. وكان صخب الموكب فى الشارع لا يزال قائماً؛ فيما يشعر هو كأن الأرض تدور به؛ وسقف الحجرة يكاد يهوى فوق جسده. ثم راح كل شيء يبتعد، ويمعن فى الإبتعاد، ثم يضمحل تماماً.

(٤٥)

.. كان يمشى فى قلب أدغال من البوص والطفاء وأعواد التيل، فوق أرض موحلة كما يحسها ولا يراها ولا يتبين موطئ قدميه؛ يدوس على شوك وضفادع؛ يشعر بضيق شديد إذ يبدو الطريق بلا نهاية بلا أمل فى وضوحه. سأل نفسه: إلى أين أنت ذاهب على وجه التحديد وما الذى رمى بك فى هذه الوحلة؟! وقر فى ذهنه أنه لا بد ذاهب إلى حفل فى قرية لاشك تقع هاهنا؛ ومن المحتمل أن يكون قد سبقه أحدهم بألة الكمان كما يحدث أحياناً. فوجيء بقناة تعترض طريقه، وأنه صار فى

مفترق طرق. إنحاز تلقائيا إلى طريق بدا سهلا محفوفا بأشجار الجزورين. أرسل البصر حواليه يستطلع الأفق البعيد بحثا عن معالم تشير إلى بلدة لكن الليل كان ينكفيء على الأرض وليس ثمة من ضوء سوى بريق نجوم ترقد على خد الأفق كثقوب دقيقة، تنحج، لعله أراد التأكد من صوته فصاح: ها .. ا .. ا .. ها. ارتد إليه صوته فى موجات متلاحقة: ها .. ا .. ا .. ا .. ها؛ وإذا به يشعر بدبيب خطوات ثقيلة ترج الأرض من خلفه تقترب منه. استدار مذعورا؛ رأى قزما ضئيل الحجم يمسك مدفعا رشاشا يصوبه نحوه:

– «قف مكانك لا تتحرك! ياخائن ياغبان!! طننت أنك تقدر على الإفلات بعملتك وتهرب؟»

ارتعد:

– «أهرب؟ هذا والله لم يخطر ببالي!!»

– «فلماذا جئت إلى هنا إذن؟»

– «لأبد أنتى مدعو لإحياء فرح فى بلدة قريبة من هنا!! ولكن قل لى أنتى:

أهرب من ماذا؟ وماهى عملتى التى تقول إننى.»

– «ألا تعرف ياغبان ياخائن؟ ألم تكن على موعد مع فرح آخر؟»

– «ربما ولكن أين؟»

– «أنت تعرف جيدا!!»

– «يظهر أنى نسيت فاعذرنى!! إن مشاغلى كثيرة ووقتى قليل!! ومع كل فائنا

مستعد للذهاب معك إلى أى موعد تشاء!!»

– «أين الكمان؟ أنت وحدك لا تكفى !! ثم إن الوقت فات وانتهى الأمر!!»

– «فماذا أفعل فى رأيك؟»

ضحك فى مرح صبيانى:

– «تظن أنى أردت قتلك؟ لا يامسكين!! إنما أنا اغتظت منك لا أزيد ولا أقل !

كنت أحمل هذا المدفع لأطلق الرصاص فى الهواء تحية للفرح فلما لم يعد هناك

فرح جريت أبحث عن صيد فرأيتك فعرفتك!!»

أيقن عبدالبصير أنه اصطدم بمعتوه عليه أن يأخذه بالسياسة انقاء لتهوره.
قال له بشيء كثير من الحذر:

— «هل من خدمة أؤديها لك»؟!

فى لهجة من يعفو عند المقدرة قال القزم:

— «اتكل على الله! لقد عفوت عنك»!!

ما أن استدار لينصرف حتى تناهت إلى أسماعه قرعة عجلات سيارة فوق طريق مليئة بالقلقل؛ ففى الحال اختفى القزم بمدفعه الرشاش؛ وظهر شبح السيارة التى كانت من طراز عتيق جدا، عبارة عن صندوق مقفل، يجرها جوادان؛ وعلى جانبى مقعد السائق فانوسان يبعثان ضوءاً مرمداً. توقفت العربة أمامه. خيل إليه كأنه كان على موعد معها وأنه كان ينتظرها فى هذا المكان الغريب النائى. مال نحوه السائق ماداً يده ليسلم عليه؛ فإذا هو عم عثمان حارس حبيبته سعدية المليجي؛ كان مكفهر الوجه عابسا؛ سحب من جواده صندوق الكمان وقدمه إليه؛ فخيّل إليه أنه كان يعرف أنه ترك كمانه أمانة لدى سعدية ريشما يعود من مشوار قريب؛ وأنها استغيبت حضوره فبعثته له مع عم عثمان. حين أمسك بيده الصندوق فوجىء به قد انفتح لأن الغطاء فيما بدا لم يكن محكم الإغلاق. سقطت آلة الكمان مع القوس على الأرض. انكب عليها بسرعة فرفعها وهو يتوجس بشدة من أمور غامضة. رأى الأوتار كلها تقطعت، والرقبة انكسرت، وبعض مفاتيحها غائبة فى حين بدأ القوس كأنه عود من الحطب وأوتاره نساثر من خرق بالية. شعر بأن قلبه هو الآخر كذلك، صرخ صرخة أليمة. هم بالصعود إلى العربة ليمسك بتلابيب عم عثمان يسأله: من المسئول عن هذا الفعل الشنيع؟ لكن العربة كانت قد مضت، وبدت من بعيد مجرد صندوق فاحم السواد يخترق أحشاء الليل ببصيص من الضوء. وقف يلطم خديه باكيا؛ ومع أنه كان مدركا أن قدرته على إصلاحها تصل إلى حد تجديدها أفضل مما كانت فإنه لم يعرف بالضبط علام كل هذا البكاء الحارق؟ فتح عينيه من خلل الدموع الغزيرة الساخنة؛ فرأى القزم واقفا

أمامه مستندا على المدفع الرشاش المنكفىء على الأرض كالعصا؛ تلمع فى عينيه بوارق مخيفة؛ قال له:

«لا جنوى من البكاء!! داوى جراحك بنفسك!! هل تعرف السباحة»؟!

«لا! ولكن لماذا»؟!

«يتعين عليك أن تعبر ترعة عريضة بعض الشيء فإن وفقك الله فى عبورها تجد فى مواجهتك حديقة كبيرة اخترقها ولا تخف!! ستوصلك إلى المدينة التى تسكنها!! وعموما! تعال اركب فوق ظهرى وأنا أعبرك»!!

سحب من طرف سترته بحركة خشنة؛ فجمع عبدالبصير أشلاء كمانه ومضى بجواره، حتى لاح لهما خط أبيض تبرق فيه النجوم كرموس من الدبابيس؛ كلما اقتربا منع اتسع كشريط من الدانتيل الأبيض يعترض الطريق؛ ثم ظهرت الحديقة من خلفه؛ وظهرت بقعة سوداء على الشاطئء الآخر تترنح تتحرك؛ سرعان ما توقع عبدالبصير أن تكون هى العرية التى يقودها عم عثمان. نظر حواليه باحثا عن القزم فلم يجده؛ فشعر بوحشة مرعبة؛ انطلق منه صراخ وعويل. صارت البقعة السوداء المتحركة تقترب منه ويتضاعف حجمها كلما اقتربت. اتضح أنها سفينة أشبه بالأتوبيس النهري تقترب من الشاطئء. توقفت؛ امتد منها لوح خشبى ثقيل يبطها بالشاطئء. رأى نفسه يمشى تلقائيا فوق هذا اللوح، حذراً يترنح. على سطح السفينة استقبله رجل أحمر الوجه؛ قدم له كرسيًا. جلس متعبا ينظر إلى الرجل الأحمر الوجه فى استطلاع وجل. اتضح أنه أجنبى يتكلم بلغة غير مفهومة على الإطلاق؛ ولكن عبدالبصير فهم من إشاراتة أنه يريد تطيب خاطره وتهدة نفسه المضطربة؛ ثم تركه وغاب فى الداخل برهة وعاد ممسكا بآلة عود وكرسی؛ جلس أمامه؛ دوزن الأوتار؛ راح يعزف أنغاما شرقية صرفة؛ سرعان ما تبين عبدالبصير أنها أنغامه هو، من تأليفه هو، جمل ومقاطع مختارة بعناية من مقطوعاته؛ المشربية والنيل وأيام زمان. شعر لذلك بابتهاج عظيم جدا. وكانت السفينة قد راحت تتهادى بين الموج فى سلاسة النغم؛ والحديقة صارت على الجانبين البعيدين. نبت القلق فى صدره، أشار بيده إلى يمينه قائلا للخواجة إن

الشاطيء هاهنا . هز الخواجة رأسه أن نعم؛ ثم أشار بيده المسكة بريشة العود فى حركات فهم منها عبدالبصير أنهما سيقومان برحلة قصيرة يعودان بعدها إلى الشاطيء. داخله شيء قليل من الطمأنينة فرأى نفسه يفتح علبة الكمان ليشارك الخواجة فى عزف مقطوعاته لعله ينسى القلق، تذكر الأوتار المقطعة فدى قلبه بعنف ورأى نفسه يخطر فى بكاء غامض محزون؛ صار يهذى بصوت عال، يسب يلعن يدق سطح السفينة بقدميه حتى أصيبت إحدى قدميه بالآلم شديد فوق احتمال؛ فانتفض قاعدا ممسكا بها بيديه الاثنتين متوجعا

(٤٦)

كان قلبه لا يزال يدق بعنف. بذل جهداً كبيراً فى تخليص جفنيه من عماص علق بها كالصمغ. شعر بفرحة كبيرة حينما اكتشف أنه راقد فى فراشه؛ لكنه استغرب رقاذه هكذا على الأرض؛ نومة لم يعتدها أبداً؛ فهل تراه وقع عن السرير أثناء استغراقه فى النوم بون أن يدرى؟ فمن عساه إذن يكون قد افترش له هذه البطانية ووضع الوسادة تحت رأسه؟ نظر إلى السرير بعينين مجهنتين؛ فوجىء بفتاة ترقد فوقه معطية وجهها للحائط ملتفة بملاءة أحكمتها حول جسدها. دار بعينه فى أنحاء الحجرة؛ تأكد أنها شقته؛ رأى لفة البديلين الجديدتين ملقاة على المنضدة. نهض واقفا تطرق أطرافه بطقطقات عالية الصوت. تتأب فى صوت كالعواء. تقلبت الفتاة؛ نهضت جالسة؛ سلطت عليه عينين عميقتين صافيتين كحورية خشنة. تذكرها فى الحال؛ إنها ضيفته التى علقت به عند سفره من طنطا؛ ولكن كيف تأتى لها المجرى إلى هنا والنوم فى سرير؟ كانت كالمسئولية الجسيمة قد جثمت على صدره. قالت له مبتسمة فى وجل:

- «صح النوم»!

- «صح بدنك»!

- «ماكل هذا النوم يارجل؟ نومك ثقيل كالموت»!!

«منذ متى وأنا نائم؟»

«من بعد الزفة مباشرة!!»

«قلت زفة؟»

«نعم زفة!!»

قالتها خفيفة الرأس؛ ونطقت الكلمة الأخيرة بنبرة مطابقة لنبرته تماما، بقصد الاستنكار لما فى تساؤله من غباء غريب صادم.

«كنا معا فى فرح؟»

«كنا الفرح نفسه! والزفة كانت زفتنا!!»

أطياف مما حدث جعلت تطوف برأسه كحلم باهت الصور والمناظر، جلس على حافة السرير منقبض الصدر معقود الجبين. بقى منكس الرأس لبرهة طويلة يستوضح شريط الصور فى رأسه حقيقة ما حدث، أخيرا رفع رأسه:

«هل حدث بيننا شىء؟! أقصد من لحظة أن جئنا إلى هنا؟»

داهمتها الكآبة؛ ارتعش صوتها، صارت تغالب دموعها:

«لم يحدث أى شىء! نيمتنى هنا ونمت أنت على الأرض كالقتيل!!»

«أسف! كنت مرهقا؟ كم الساعة الآن؟»

نظرت فى معصمها:

«الرابعة بعد الظهر!»

«إنن فقومى بنا!!»

قام؛ فك حزام السروال وأعاد ربطه بإحكام حول القميص الذى تكرمش وتهدلث ياقته. لبس حذاءه؛ خرج إلى بورة المياه فغسل وجهه، وعاد حاملا الفوطه فقدمها لها: اغسلى وجهك. دفعت الملاء عنها ونهضت عن السرير؛ فإذا بها كانت تنام بنفس القستان الذى جاءت به من طنطا بعد أن خلعت فستان الزفة المعار إليها ورمت به على الكرسي. لبست حذاءها وخرجت إلى بورة المياه. إنتهز الفرصة وغير قميصه بقميص أقل نظافة؛ لبس فوقه السترة وأشعل سيجارة وجلس فى انتظارها يكح بشدة ويصق فى منديل ورقى.

اخترق بها ميدان العتبة إلى محل عمر افندى؛ اشترى لها فستانا جديدا ثمينا وأنيقا، عاد بها إلى بيت الأستاذ كريم لكى ترتديه هناك لأنها ستسافر اليوم إلى طنطا، رمت بنفسها فى حضن أم فريد منقجرة فى بكاء صامت، سحبتها أم فريد إلى حجرة النوم؛ فيما جلس هو مع الأستاذ فى الردهة يستمع منه إلى تفاصيل ما جرى ليلة أمس. وقد أبلغه الأستاذ أن الشيخ عمران سارع بتوثيق القسائم وأتى بها مختومة منذ الضحى، قرأها عبد البصير بصعوبة بالغة؛ لكنه ميز اسمه واسم منال وأسماء شهود عقد القران، قال بصوت عال لتسمعه زوجته وأم فريد إنه سيسفرها اليوم إلى طنطا لتبلغ أمها بما حدث حتى لا يقلقوا عليها مزيدا من القلق بعد ليلة ونهار كاملين خارج البيت.

وجدوا جميعا أنه حل ضرورى، وحينما علمت أم فريد أنه لم يقربها اطمأنت إلى نواياه ووافقت بحماسة. دخلت عليهم منال مرتدية فستانها الجديد وقد مشطت شعرها وتطيبت وتزينت، فبدت كسيدة من علية القوم تليق بفنان مشهور يدخل بها الأماكن العامة، كانت تحمل حقيبة يد أعارتها لها أم فريد.

فى ميدان المحطة اشترى لها بعض الفاكهة وعلمة من الطلويات، كان فى أعماقه يمتنى ألا تعود، أن تحتجزها أمها، أن تقع كارثة تمنعها من المجيء. كاد يقول لها بصريح العبارة إنه كان غائبا عن الوعي ساعة أن عقدوا قرانه عليها بهذه الطريقة الهزلية الارتجالية الطريفة كلعبة يلعبها الصبيان للتسلية؛ وإنها ليست الزوجة التى يمتناها كما أنه شخصيا لا يصلح لها بل إنه فى الواقع يحب واحدة غيرها حبا ملك عليه قلبه ومصيره وكل حياته وبدونها لا حياة له ولا مستقبل وإنه ليلة التقاها فى طنطا كان يحمل بدلة الفرح وهامى ذى شبكتها لا تزال فى جيب سترته واسمها مكتوب على البدلة التى سيضعها فى أصبع يده اليسرى إلى الأبد؛ أما إن كان قد أخطأ وجرى أم فريد والأستاذ فى عبثهما فإنه مستعد لدفع ثمن غلطته هذه مهما غلا سيما وأنه لم يأخذ من عفافها أى شىء بل إنه لم يلمسها.

كاد ينطق بهذه العبارات التى راحت تتواتر فى رأسه تهدر فى صدره؛ لكنه -

ربما لطيفة فى قلبه - لم يجد الشجاعة الكافية لأن يصدمها بهذه القسوة. ذلك أن مظهر الطفلة البريئة الطاهرة لم يغادرها بعد رغم أن الفستان الجديد يحمل طابع السيدات لا نوق الفتيات؛ فاكفى بأن قال لها - كأنه يعجزها :

- «بلغى أمك بما حدث وعودى فى الحال!! لا مبيت هناك!! من الآن وحتى موعد قطار الصحافة لديك متسع من الوقت لإبلاغ أمك!! إن جاء الظهر ولم تحضرى فخير لك ألا تحضرى لأنى لن أفتح لك الباب!! هذا كل ما عندى ولن أتردد فى تنفيذه»!!

قطع لها تذكرة السفر؛ غمزها بخمسة جنيهات. ردتها له قائلة إن أم فريد أعطتها واحدة مثلها . قال لها وهو يطبق كفها على الورقة:

- «إذن فيكون معك ورقتين أفضل من واحدة!! وإذا فاضت واحدة عن حاجتك رديها لأم فريد»!

حشرتها فى عبا؛ هتف متذكرا:

- «أه! خذى هذه الورقة فهى أهم من هاتين الورقتين كى تراها أمك»!!
سلمها قسيمة الزواج الخاصة بها . حشرتها فى حقيبة اليد. انتظر حتى ركب بجوار الشباك فيما هو واقف يرتكن بكوعه على حافة الشباك يكرر عليها إنذاره:
- «إن جاء الظهر ولم تحضرى فاعتبرى نفسك طالقا ولا تعودى»!!
هزت رأسها موافقة. وتحرك القطار.

(٤٧)

تجنب الظهور على قهوة التجارة ؛ فكلما اتضحت فى ذهنه صورة مما حدث بالأمس شعر بخجل كبير، ويائه يجب أن يتوارى عن الأنظار؛ فما كان ليتزوج على هذا النحو؛ أو ينفك هكذا بشكل هزل؛ أو تكون ليلة عرسه نوما على الأرض وسط كوايبس مزعجة لا معنى لها كهذا الزواج الفجائى الغريب. لم يكن ليحدث شئ من هذا كله مالم يكن هو فى الأصل طيب القلب أبله، لا شخصية له ولا إرادة.

يحبس الآن أنه ناقم على أم فريد أشد النقرة؛ لعن ديك معرفتها؛ ثم استترك فلعن نفسه، وأباه، وظروف تربيته التي جعلت منه ذلك الإنسان التواكلى الذى يسلس قياده للآخر يصنع مصيره على هواه.

تحسس علبة الشبكة فى جيب سترته الداخلى؛ قرر أن كل شىء لابد أن يمضى كما رسمه وتمناه. أما هذه التى ألقى بها فى طريقه فلن يعترف بها مطلقاً. ثم تذكر أنه لم يتلق رداً على برقيته من سعدية؛ ويبحث فى ذهنه عما يكون قد أعاقها عن الرد عليه كل هذا الوقت؛ لم يجد سوى أن تكون خارج البلدة فى عمل، وأن البرقية لم تصلها بعد؛ ثم توقع أن يكون الإهمال فى مكتب البرق هو السبب؛ فانتوى أن يمر عليه يسأله السبب.

كان يمشى كالمذهول؛ تتكشف له شوارع وحوارى لم يطرقها من قبل، ذات أسماء طريفة يسمعها لأول مرة، وأجواء شعبية لذيذة، ومقاه خفيفة الظل تضج بالحياة، كلها كانت كفيلة بفتح نفسه على الروح الشعبية المصرية التى اعتاد أن يكتشف فيها كل يوم بعداً جديداً؛ لولا أنه كان منقبض الصدر منحرف المزاج؛ يلح على رأسه مشهد واحد فى غاية البشاعة: الكمان وقد تقطعت أوتاره وتكسرت مفاتيحه، العربة السوداء التى يقودها عم عثمان فى أحشاء ليل أسود، القزم المسك بالدفع الرشاش، الأتوبيس العائم فى نهر بين حديقتين تفج منهما الوحشة، الخواجة الذى سرق أنغامه وأوهمه برحلة إلى الشاطئ الآخر المجهول.

هذا المشهد يطغى على مشهد زواجه؛ وكلامهما يبيت فيه الكآبة وانقباض الصدر. تذكر أن حفل الليلة سيبدأ فى وقت متأخر من الليل فى كازينو المطربة المعتزلة؛ ازدادت كآبته. فكر لأول مرة فى حياته أن يتخلف عن الحضور؛ هو ليس فى حاجة لادعاء المرض فلا بد أنهم سيفطنون إلى أنه عريس من حقه أن يستريح ليلة على الأقل. إنه لن يقوى على النظر فى عيني أحد من زملائه الذين لاشك أنهم سيسخرون منه. هؤلاء السفلة الملاحين هم الذين أوقعوا به فى شر أعماله باستدراجه إلى شرب الويسكى حتى السكر وفقدان الإرادة. الآن فحسب يدرك

لماذا لعن الله الخمر وشاربيها وحاملها . لسوف يكون لسعدية المليجي الدور الأكبر في انضباط حياته وشخصيته؛ هو أيضا لابد أن يلتزم جادة الصواب ونظافة المسلك حفاظا على كرامتها وسمعتها حتى لا تصبح مطمعا لنوى الأنياب المفترسة.

تنقل بين عشرات المقاهي في عشرات الحوارى والنواصى البديعة؛ شرب عشرات الشايات والقهوات. أكثر من مقهى تبين له بعد الجلوس فيها أنها غرز لسقيا الحشيش، فحشش أكثر من مرة؛ حتى التهب خياله فالح عليه المشهدان الكريهان كادا يكتمان أنفاسه. تلقى تمسية من أحد المعلمين تعاطف مع شكله البائس وعينيه المرهقتين بالألم؛ ظنه الرجل مدمن أفيون؛ ولكن العدساية التي سربها إليه على ظفر إبهامه روقت دمه بالفعل، زحفت به نحو حالة من التوافق مع النفس والاستسلام للمقادير. نظر في الساعة فإذا هى بالكاد تطرق باب المساء؛ فأين يذهب بقية الليل وهى طويلة مملّة؟ لا مفر إذن من الذهاب إلى الكازينو لينسى إلحاح المشهدين الكريهين، مشى؛ لكنه شعر فجأة باشتياق عظيم لأوتاره؛ فحول طريقه إلى البيت.

نحى بصره عن لفة البدلتين؛ اتجه مباشرة إلى علبة الكمان، فتحها، رفع الكمان، تحسسها برفق، داعب الأوتار وترا وترا، احتضن الآلة فى صدره، ثم انطلق القوس يجرى على الأوتار كالرهبان، يصعد جبالا ويهبط إلى وديان خضراء مزهرة، يحلق فوق أحواض من الورد، والأوتار تزفر تزغرد تغنى تطلق أصواتا كصفير القطارات كنعير السواقى، كوقع سنايك الخيل على الأسفلت، ما بين جولة وأخرى ترجع به الأوتار إلى نفس الجملة التى انطلق منها بون أن يدرى، جملة موسيقية يتجسد فيها ديبب خطو ملهوف متعجل موتور جزين، تنساب منها الأوتار إلى حالة من البكاء الحار العنيف بنشيج عال. كان فى أعماقه يريد أن يبكى بحرقة، فبكت بدلاً منه الأوتار. ما إن تحرر القوس من الأوتار حتى تبين له أنه قد اكتشف الخطوط المبدئية لمقطوعة جديدة فذة، لسوف يعود إلى هذه الأنغام مرة ومرات حتى تتشكل المقطوعة فى صورتها النهائية، لسوف يسميها: السفر،

نعم، إنها توحى له بالسفر، بناس راحلين، بحركة وداع، بحزن غامض أشبه بحزن
الفراق المؤلم، أخيراً تأبط كمانه ونزل.

قابلته الفرقة بحرارة شديدة، الكل يقول له: مبروك يقولها من قلبه بنبرة جد
واضحة لا لبس فيها. بحث فى عيونهم فى نبرات أصواتهم عن أى ظل من
السخرية فلم يجد إلا الحب الحقيقى والمباركة الحقيقية، بل إنه فوجئ بأن الجميع
معجبون أيمًا إعجاب بمنظر الزفة التى كانت فى نظرهم غاية فى الأبهة. ما من
واحد بارك له إلا وامتدح الزفة وجمال فكرتها كشئ بديع أصيل مبتكر. فلما أجمع
الكل على ذلك خيل إليه أنها المؤامرة المدبرة لفضحه والتنكيل به، صار يتوقع
لحظة تنكشف فيها المؤامرة عن حفل تهزئ وتجريح له. فاجأته المطربة المعتزلة
بشئ لم يكن يتوقعه، أبدت ندمها على أنها لم تشاهد هذه الزفة «المودرن» التى
يتحدث عنها «الوسط الفنى» كله، ثم أضافت بغبطة:

«أصبحت نجماً تكتب الجرائد خبر زفافك!!».

صاح منزعجاً:

«ماذا؟!!»

نظرت فيه باستنكار:

«ما قرأت الجرائد؟!!».

«عمري ما قرأت جريدة!!».

رمت أمامه جريدة الأخبار مفتوحة على صفحة أخبار الناس، وضعت أصعبها
على خبر يحتل مساحة بحجم كف اليد، ثم قرأته عليه فإذا به يحكى تفاصيل الزفة
بكل دقة. تحت هذا الخبر مباشرة خبر آخر يحكى عن فرح آخر فى بنى سويف
تحول إلى مأتم فى نفس الليلة فى نفس السرايق إذ أن أحد أقارب العريس أراد
المجاملة بإطلاق النار من مدفع رشاش فاختل المدفع فى يديه فصعدت رصاصاته
كل من كان على المسرح. طوى الجريدة وفسها فى جيبه. وفى هذه الليلة صوتت
كمانه وحلقت بالوهج المشتعل فى نروات بعيدة جداً.

خيمت التعاسة على البلوك الثالث فى صف البلوكات الممتد على مساحة كبيرة فى مدخل حى قحافة بمدينة طنطا . كل البلوكات شكلها وردى باهت جريبان ، تبدو كعلب واقفة تفصل بينها حارات عريضة ؛ الجدران الخلفية كلها تنتضج بماء المواسير الصدئة المتلوية فى أضلاعها ؛ الشرفات كلها مليئة بأقفاص الدجاج وينانى الحمام ؛ ومناشر الغسيل تتدل منها خرق وأشباح مصلوية ؛ بصيص من الضوء ينبعث من خلل شيش النوافذ المطلقة ؛ أكثر من جهاز راديو مفتوح على قرآن وأغنيات ونشرة أخبار . إلا البلوك الثالث ؛ غرق فى الظلام والصمت ؛ ولكن العين الوافدة يمكنها ملاحظة النوافذ المفتوحة وقد أطلت منها رعوس تستطلع فى الظلام تميل ناظرة فى كل شبح يظهر على الطريق . فجميع سكان شقق البلوك الثالث يتعاطفون مع جارتهم الأرملة أم جمال ، القاطنة فى شقة فى الطابق الثالث ؛ حيث أمضت ليلة أمس ونهار اليوم فى لطم وصراخ جذعا لغياب ابنتها منال التى خرجت فى الصباح إلى المدرسة الإعدادية فلم تعد ، وقد ذهبت أم جمال إلى صديقة ابنتها وسألتها فقالت لها إن منال سافرت إلى خالها فى القاهرة . لم تصدق الولية ؛ اعتقدت أن البنت طفشت منها ولئن تعود .

تطوع رجال كثيرون من سكان البلوك بالذهاب إلى أقسام الشرطة والمستشفيات ؛ لفوا حول دور السينما ومسرح البلدية ؛ سألوا فى كل مكان ؛ لكنهم عادوا جميعا منكسى الرعوس أسفا وحسرة على الولية الغلبانة التى نكبت بموت عائلها ثم باختفاء ابنتها الكبرى .

كانت قد يئست من وقفة الشباك تارة والبلكونة تارة أخرى ؛ فتريعت فى الردهة الضيقة تبكى وحدها بحرقه ، تشكو إلى الله ضعفها وسوء بختها . ثم سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فأسرعت ابنتها الثانية الصغيرة بفتحه ؛ فإذا

بعروس مجلوة تقف بالباب مرتدية فستانا ثمينا ؛ وثمة رعوس كثيرة تتحنى على درابزين السلم فى الطوابق العليا تمنع النظر فى هذه الزائرة الأنيقة كالأميرات . صرخت الأخت فى فرح طاغ :

« منال !! منال يا أمى !! خلاص ! كفى عن البكاء !! »

رفعت الأم رأسها ناظرة فى فتحة الباب غير مصدقة ، نفضت جسدها السمين الضخم هبت واقفة ؛ أسرعت بإغلاق الباب ؛ أخذت البنت فى حضنها بقوة ولهفة ، صارت فى توتر تتحسسها فى كل موضع ، تنظر فى عينيها تريد اختراقها تبحث فيهما عن وشاية بالخطيئة ، أجلستها ، فتحت حقيبتها أخرجت ملابس المدرسة وكيس الفاكهة وعلبة الطوى متوقعة أن يكون خالها قد لقيها بالفعل ؛ لكن التوجس لم يفارقها وهى ترص كل هذه الأشياء أمامها :

« ما هذا ؟! أين كنت يا بنت ؟! كل هذا يطلع منك يا مفعوصة ؟! تعملين فى أمك كل هذا ؟! صبرك بالله حتى أفيق ! ولكن ما هذا ؟! انطقى يا بنت !! » .

قالت منال :

« بصراحة ! تزوجت بالأمس !! » .

كتمت الأم صرختها بوضع يدها على فمها :

« تزوجت ؟! ما شاء الله ! تزوجت من يا فاجرة ؟! » .

قالت منال فى ثقة :

« عبد البصير ابن الحاج مصطفى الصوفانى ! يشتغل فى مصر ! تزوجنى

على سنة الله ورسوله ! وهذه قسيمة الزواج !! » .

لطمت الأم خديها مولولة ؛ شوحت بيديها فى صوات بغير صوت ، صارت

تفح :

« انطقى ! ماذا فعل بك هذا الولد ؟! قولى يا فاجرة !! » .

صاحت منال فى احتجاج وغضب :

« لم يفعل بى أى شىء ! اكشفى على عند الطبيب . لو أردت !! الجدة قدم

لى كل خير !! وهو ابن حلال وأمين وأنا أحببته وتمسكة به !!» .
زامت الأم فى حسرة :

- «هيه ! وهريت معه إلى مصر فضحك عليك وطردك لأحمل عارك ؟!» .
هتقت البنث بجرأة وقوة:

- «لم أهرب معه! صاحبتى طلبت منه أن يوصلنى إلى بيت خالى! وجدنا خالى
عزل من بيته إلى بيت فى حى الوايلى! ودخل علينا الليل فتركنى أمانة عند سيدة
محترمة زوجها زميل له فى الشغل ! الست أقنعتة أن يتزوجنى !! وأنا لمست فيه
الرجولة فوافق! فاتوا بالمأنون وعملوا لنا زفة كبيرة لكن الرجل لم يلمسنى!!
وقال لى اذهبى إلى أمك بلغيها الخبر وطمئنى بالها وتعالى فى الحال!! وأنا
خلصت ضميرى وجئت وسأعود إليه فى قطار الصحافة كما طلب منى لن أتأخر
عليه ساعة واحدة!! هذا كل ما فى الأمر والذى يحصل يحصل!!»
قالت الأم وقد أطمأن بالها بعض الشئ:

- «لكن يا ابنتى ! هذا شخص لا نعرفه ولا يعرفنا!! فلماذا تسرعت؟! أما كان
الأولى أن نسأل عنه؟! والمدرسه !! أليس وراك مدرسة؟!»
قالت منال:

- «المدرسة ملحق عليها ! هو لن يمنعى من التعليم! وهو رجل مشهور وكل
الناس تعرفه وتحبه وسمعته كالطبل هنا وفى مصر!!»

- «كيف وأنا لم أسمع به؟!»

- تعرفين إبراهيم افندى غطاس ؟ الساعاتى؟»

- «بتاع العوالم !! طبعاً ! كل أهل الحى يعرفونه!!

رجل محترم ومؤدب لم نر منه إلا كل خير!!»

- «اسأليه عنه ! إنه صاحب أبيه وصاحبه!!»

- «والله لأفعلن!»

وسحبت ملاعقتها فى الحال، دب فيها نشاط حاد بعد موت محقق، لفت نفسها
فى الملاعة: تعالى معى فنهضت منال ومضت معها بنفس الحماسة، تشيعهما

أنظار الجيران فى الظلام من كل نافذة ويكونه ويسطة سلم.
رسم إبراهيم أفندى علامة الصليب على صدره بأصبعه كأنه يعزف نشيدا
قدسيا ، قال لأم جمال:

- «الله وكيل ! قلت عبد البصير الصوفانى؟»

- «سمعت أنك تعرفه!!»

- «ابن الحاج مصطفى الصوفانى؟»

- «نعم هو!!»

- «صاحب محل الآلات الموسيقية فى شارع أحمد ماهر؟»

- «هو عينه!!»

- «تزوج ابنتك هذه؟»

- «على سنة الله ورسوله!!»

- «إحمدى الله يا وليه !! بوسى يدك وجها وظهرا لأن الرب رضى عن ابنتك!!
عبده نابغه! ومؤمن بالله! تقى كآبيه شيخ الطريقة ! أظهر من الطهر ! كان المنتظر
أن يتزوج إحدى الأميرات لكنه النصيب الغلاب!!».

- «إذن فأنت تعرفه جيدا؟»

- «تربيتى يا وليه !! عيب عليك أن تسأل عمن هو الأجدر بأن يسأل عنك أنت!
لا تؤاخذينى فى ذى الكلمة فأنا صريح!! لو كنت منك لظلت أزغرد مدى الحياة!!
أما أنت يا ابنتى فمبروك عليك! ألف مبروك! اعتبرينى حماك! أى شئ يضايقك
منه تعالى لى فورا وأنا أخلص لك أذنيه!! كل ما أطلبه منك أن تكونى فى مستواه
!! وإمسكى فيه بيديك وكل أسنانك! لأنك لا تعوضينه ! كونى له أما وزوجا وعشيقا
لو أراد فإنه قيمة كبيرة ! دعك من أمك فهى لن تفهم قيمته أبدا! نفذى ما طلبه
منك !! إتكلى على الله!!»

عادت الأم بابنتها راضية مع قليل من الشك والتوجس إذ أن مبالغة إبراهيم
أفندى غطاس فى وصفه جعلتها تتوجس من مستقبل ابنتها معه، تخاف أن

يهجرها عن قريب حينما يعلو شأنه، لكنها تذكرت وصفه له بالإيمان والتقوى
فسلمت أمرها لله.

البيت الذى ضج بالصوات والطم والبكاء يوما بليلة ارتفعت فيه الزغاريد
الرنانة فجأة، فالتم الجيران كلهم وقد التبس عليهم الأمر. شرحت لهم الأم حقيقة
الموقف بحماسة وفرح استمدهما من منظر الرضاء الواضح على ابنتها، ثم
وزعت بعض الفاكهة وبعض الطوى على الموجودين قالت إن ابنتها يجب أن
تبقى معها يومين أو ثلاثة حتى تتمكن هى من تدبير أمرها وتجميع أقاربها
لمرافقتها فى السفر حتى يعرف العريس أن عروسه ليست مقطوعة من
شجرة، وحتى تشرف بنفسها على تجهيز بيت ابنتها مما جميعه وتطمئن
على وضعها وتعود بقائمة العفش تحتفظ بها عندها للزمن لكن منال
هتفت فى حدة وإصرار:

— «لا!! لايد أن أعود إليه فى قطار الصحافة كما أوصانى لأنه سينتظرنى !
تعال أنت على مهلك أما أنا فلن أنتظر لن أخلع هدومى! سأبقى جالسة هكذا حتى
موعد القطار !! خذى العنوان واحضرى وقتما تشائين!!»

احتدت الأم، وصفتها بأنها طفلة عبيطة لا تعرف مصلحة نفسها. ردت عليها
منال بأنها أعرف منها بمصلحتها كما أنها تفهم شخصية زوجها وتعرف أنه لن
يفغر لها تكسيرها لأوامره من أول العلاقة الزوجية.

انغلبت الأم على أمرها نظرت إلى الجيران تستطلع رأيهم. أفتت أم أمينه بأن
البنات محقة، وصرحت أم فريال بأنها عاقلة، وهتفت أم وائل بأن بنات هذه الأيام
يختلفن عنهن وخير للأمهات أن يأخذن بناتهن على راحتهن لأنهن لن يفعلن إلا
مافى روعسهن. وهكذا ظلت القعدة منصوبة حتى أذان الفجر، فنهضت منال
ساحبة الحقيبة فنهضن جميعا وقبلنها واحدة فواحدة بكن جميعا رافقتها أمها
وأم فريال إلى المحطة، وأثناء عودتهما فى لعة الضوء الفضى كشبحين مفضوحين
كانت الدموع تنسكب على وجهيهما بغزارة توردت من تحتها الوجنات بشعور من
الحنن البهيج.

آخر صورة رآها كانت صورة سعدية المليجي مرتدية ثوبا أشبه بثوب الزفاف الأبيض، وعلى رأسها طرحة بيضاء مشغولة بالدانتيل، تطل من شباك قطار سريع، منظره غير مألوف بين القطارات التي رآها طول حياته، أسود كئيب، لولبي كثعبان صحراوي كالحج، وكان هو واقفا على أطراف أرض زراعية متاخمة للقضبان، فيما راحت هي تلوح له بيديها في حركة غمضت عليه، فلم يعرف إن كانت تعنى الوداع أم الوعد باللقاء، كذلك لم يعرف إن كان وقوفه ها هنا صدفة أم بتدبير سابق لكنه ما كاد ينتب إلى وجودها في فتحة الشباك وحركة يديها حتى كان القطار قد ابتعد مندسا في الأفق البعيد. بعدها مباشرة تقلب في فراشه، وانتفض جالسا يدعك في عينيه.

نظر في ساعته، كانت الحادية عشرة إلا الربع ضجة شارع محمد على كأنها في قلب شقته، قال لنفسه إنه لابد وأن يسافر إلى سعدية، اليوم الآن ليعرف لماذا لم ترد على برقيته فلربما اتضح له أن البرقية ضاعت في الطريق ولم تصلها ربما وقعت في يد أحد من عشاقها الكثيرين فأخفاها نكاية فيها.

رمى بنفسه على الأرض واقفا تمطع متثابئا في طريقه إلى المطبخ أشعل وابور السبرتو وضع فوقه الكنكة ملأته بالماء، رمل فوق الماء تلقيمة شاي، إتجه إلى الحمام قضى حاجته العاجلة غسل وجهه وتجفف بالفوطة جيدا، دلق الشاي في الكوب فوق نصف ملعقة من السكر، أشعل سيجارة جذب منها نفسين عميقين وكبح بشدة ثم ركنها بجوار الكوب وجعل يرتدى ثيابه فكر في ارتداء واحدة من البدلتين الجديديتين لكنه تذكر أنهما لابد لهما من قميصين جديدين ورباط عنق ثمين، قرر أن يشتري هذه اللوازم فور عودته من عند سعدية. ثم فكر أن يشتريها الآن ويذهب إليها مرتديا ثياب الفرح ومعه الشبكة لعله ينهي المهمة بالمرة لكنه سرعان ما لام نفسه على هذا الاستعجال المهين لسعدية وله، فلقد سبق أن عاهد

نفسه على إقامة فرح طيب صحيح أن حفل الشبكة يكون فى العادة من مهمة أهل العروس، ولكن ما المانع أن يكون هو من أهل العروس؟!...

ربط الحذاء وارتدى السترة، صار يشرب الشاي فى رشقات سريعة، وإذا به يسمع طرقة على الباب، فانقبض قلبه فى الحال، لكنه مضى يفتح الباب ..

- «سلام عليكم!!»

تجمد فى مكانه ولم يرد، إلا أنه تراجع بعد قليل عن فتحة الباب. دخلت منال:

- «تأخرت عليك؟!»

اتجهت مباشرة إلى حجرة النوم، حيث ألقت بالحقيبة على المنضدة وجلست على الكرسي:

- «من ساعة ما تركتك حتى الآن لم أنم!»

رغم ضيقة الشديد من حضورها شعر بشئ من الارتياح لأنها احترمت أمره وعادت فى موعدها. جلس فى مواجهتها على حافة السرير: «هيه!» قالت ببساطة طفولية:

- «نفذت ما قلته لى بالحرف!!»

حكى له ما دار بالتفصيل استمع إليها بإمعان فلما تبين أنه ليس ثمة من مشكلة البتة خبط ركبتيه بكفيه ونهض واقفا:

- «خذى إذن كفايتك من النوم حتى أعود!! إن غبت لا تقلقى!!»

وخرج دون أن ينظر إليها.

بقيت جالسة فى مكانها ما يزيد على الساعتين شاردة مرهقة مكودة الذهن. تشعر الآن أنها تطلعت على حياة هذا الرجل فتزوجته رغما عنه فى غيبوبة منه ومنها فحتى لحظة عقد القران لم تكن تظن الأمر على سبيل الجد، إذ لم يكن فى نيته أن تتزوج أصلا فمسألة التعليم بالنسبة لها كانت حتمية لاحبا فى العلم بل استعجالا للحصول على مؤهل دراسى يتيح لها عملا تقنيات منه أسرتها المدممة، أما وقد نبهتها أم فريد لمسألة الزواج من هذا الرجل على وجه التحديد فقد استهجنّت الفكرة فى بادئ الأمر، ثم سرعان ما استحسنتها، ثم تحمست لها

عندما بينت مدى سهولتها وأهميتها، على الأقل لأن الزواج سيبعدها عن محيط الفقر، سيجنبها محنة الصدام الدائم مع أمها، وهي محنة قائمة منذ أصبحت هي فتاة ناهدة الصدر مرتفعة العجيزة تشاغبها النظرات فى الطريق، ومهما يكن من أمر - هكذا فكرت - فإن زواجها هذا رغم كل شئ يعتبر أفضل بكثير من زواج كان مديرا لها فى ظل أمها كأرملة تريد الانتهاء من مسئولية ابنتها بأى شكل الأهم من كل هذا أنها تحب الفن طول عمرها وتتمنى أن تعيش بين أهله خاصة فى القاهرة العاصمة فأن تتزوج من فنان أمامه مستقبل مفتوح وذاهر، أمر لا يخلو من بهجة قلبها دليلها يقول لها ان هذا الرجل شديد الطيبة بقدر ما هو فنان موهوب و لقد عاملها بشهامه ورجولة منذ أن التقاها ونظرة العطف عليها قائمة فى عينيه لم تنطفئ بعد إنها الآن أصبحت تحبه بالفعل ولا تبغى به بديلا، لسوف تعمل بقدر ما تستطيع على إسعادة راحته كما أوصاها إبراهيم افندى غطاس كل ما تروجه أن يصفو قلبه تجاهها، أن يحبها كما أحبته. هل تراه يحبها فى قابل الأيام ؟ أم تراه يظل يذكرها أنها انتزعت من حبيبة قلبه التى حدثها عنها؟! عليها إذن أن تنسيه هذه الحبيبة بأى شكل، أن تحل محلها فى قلبه تثبت وجودها فى حياته .

زفرت، إذ شعرت بأن المهمة أمامها شاقة وعسيرة، وأنها لابد أن تنفرغ لها، ناسية أمر التعليم مؤقتا، عليها أن تتعلم الآن فى مدرسة جديدة هى مدرسة الزوجات الفاضلات وبالأخص زوجات الفنانين، أعظم معلم لها فى هذا الشأن أم فريد طبعاً لا أحد غيرها. عند هذا الحد شعرت بالارتياح تركت الباقي على الله، فطالما أنها لم تخطئ، لم ترتكب أى حرمانية فإن الله سوف يجازيها بالخير. هنا بدا لها أن زوجها أسهل من أن يثير كدرها وأيسر من أن تحمل هم انضوائه تحت لوائها فى المستقبل سيما بعد أن تمنحه الولد.

قامت فخلعت ثوبها، علقتة على مسمار خلف الباب، بحثت عن شئ ترتديه فتحت الحقيبة وجدت فستان البيت فيها، لبسته ، تمددت على السرير السفري، لفت نفسها فى الملاعة، ما لبثت حتى استغرقت فى نوم عميق.

فى حوالى الثالثة صباحا عاد عبد البصير ، دس المفتاح فى ثقب الباب محاولا عدم إحداث أى صوت تسلل فى هدوء إلى حجرة النوم، انزلت عينه على السرير، رآها مستغرقة فى نوم عميق خرج إلى الردهة صاحبها الكرسي معه. صنع كوب شاي وجلس يدخن مستعيدا ما حدث : لقد ذهب إلى مكتب البرق فى باب الحديد واستعلم عن برقيته بموجب الإيصال الذى يحمله، فاستعلم المكتب بدوره وتأكد له أن سعدية المليجى بنفسها هى التى استلمت البرقية ووقعت بإمضائها، فعاد غاضبا مروراً إلى قهوة التجارة، جلس وقتاً طويلاً، ثم دخل السينما المواجهة لدار الأوبرا، ثم خرج إلى قهوة التجارة ثانية، لم يكن عنده أى حفل، فمكث فى المقهى فترة المساء كلها لعل أحدا يطلبه لأى فرح، إلى أن طب عليه سالم أبو شفة فدعاه لسهرة تحشيش لدى صديق لهما يسكن فى العباسية الشرقية، استوجه الفكرة لرغبته الشديدة فى نسيان أنه عريس، فى الانعتاق من هذا السجن الغريب الذى وضع نفسه فيه باختياره دون أى مبرر على الإطلاق، بل كان يريد الانعتاق من نفسه؛ الخروج من جلده، من هذا الجسد الوضيع، من هذه النفس الضعيفة المتخبطة الساذجة الأمانة بالسوء. كان يتمنى لو استطاع أن يشطب على كل ماضيه من لحظة الميلاد حتى هذه اللحظة ليبدأ من جديد إنساناً جديداً تماماً تمنى لو أنه لم يقابل سعدية المليجى غير أن أنفاس الحشيش وأنفاس الأصدقاء قد عمقت فى نفسه الشعور بالكآبة والغىظ من نفسه إلى حد الرغبة فى إيذاها بأى شكل، أن يفرض عليها عقاباً قاسياً على هذا الاستهتار، أن يجعلها تشرب من كأس المرارة علماً دون محاولة منه لتحطيتها أو تخفيفه رفض أن يركب سيارة الصديق العائد بها إلى ميدان العتبة، شعر بلذة فى أن يمشى فلعلم المشى يذيب هذه الجبال من الثلج المتراكمة على صدره ورئتيه صار يمشى بهمة ونشاط كالذهاب إلى موعد مقدس، يتجنب الطرق المستقيمة البسالة، يتعطف على السكك اللولبية البعيدة . وكانت قهوة التجارة قد أرخت جفونها وانكششت على بصيص من الضوء الداخلى حينما أقبل نحوها من حارة جانبية مظلمة. خطر له أن يصبح على المقهى فريماً وجد خبراً فى انتظاره ، لكنه كان زاهداً تماماً فى كل شئ، غير

متحمس لأى شئ . ها هو ذا يشعر بالرهق ، بالحاجة إلى أن يتمدد ظهره على الأرض، لكنه بات يخشى النوم، إلا أنه خلع الحذاء والجورب، تسلل داخلا إلى حجرة النوم، علق السترة بجوار الفستان تذكر أن عروسا نثام فى انتظاره على السرير، نظر فى السرير، كانت العروس شبه ميتة كل طرف من أطرافها مرمى فى ركن بعيد، فمها مفتوح صوت تنففسها خشن مرتفع يوحى بالفجعية كذبيحة تنن فى ضعف وانكسار، ترتفع الأثة عالية يطلقها القفص الصدرى بكل حرته ، ثم ترتد عائدة كأنما اصطدمت بسقف فتبهط متوجعة فى ألم. امتدت يده لكى تعديلها فى وضع يتيح لها تنفسا مريحا، لكن يده تجمدت بعد رعشة عنيفة، ثم ارتدت إلى جواره عاجزة . كانت فرشاة الأرض باقية مكانها من الأمس ، فارتضى فوقها بثيابه ليوهم نفسه وربما غيره أن نومه ليس رسميا تماما إنما هو مجرد تريحة مؤقتة لا يصح أن تغزوها الكوايبس لكنه سرعان ما استغرق فى النوم.

نومه كان متقطعاً ملولاً تخللته لحظات صحو توشك أن تكون انتباهاً، فيغض عينه من جديد، يحاول قراءة سورة يسين فى سره، إلا أن السورة تخفى بعد الآية الثانية أو الثالثة أو قرب نهايتها . انتبه مرة إلى أن الضوء ذا اللون الإردوازى قد غمر الحجرة. وانتبه مرة ثانية إلى هواء بارد غير مألوف يهب عليه من الردهة وانتبه مرة ثالثة إلى أن الشمس راقدة بكامل تلججها فى زجاج الشباك المطل على شارع محمد على، وخيل إليه بعد ذلك أنه سمع طرقا على الباب مصحوبا بلغظ، لكنه لحظتها كان إلى النوم العميق أقرب . غير أن اللفظ راح يتزايد ويتضخم حتى صار فوق رأسه تماما . فتح عينيه، رأى رهطا من الناس يملأون الحجرة ينظرون إليه فى فضول صفيق. خيل إليه لبرهة خاطفة أنه فى واحد من الأحلام المزعجة، لكن عين إبراهيم افندى غطاس كانت قد سقطت فى عينيه متبعها بابتسامته اللطيفة ، فيما يصيح بمرح واستنكار :

«صباحية مباركة يا عريس الغفلة !! يا أغرب عريس شفته فى حياتى !!» .

انتفض قاعدا ثم واقفا . تبين عددا من الناس : إبراهيم افندى ، سيدة عرف من وجهها أنها حماته ، رجلين على وجهيهما ملامح حماته ، صديقه الموسيقى

العجوز الساكن تحته . تجمد في وقفته ؛ حاول الدخول في شكل الترحيب ، لكن العماص كان يلبك رموش عينيه بلزوجة صمغية . صفق الموسيقى العجوز كفا على كف يعلن استنكاره :

- «كيف يا رجل تنام وتترك باب الشقة مفتوحا ؟! هل جننت ؟! الحمد لله أن الجماعة طرقتوا بابي ليسألوني عنك ولكي أفتح لهم باب الشارع !! الدار والحمد لله أمان ولكن لا أحد يضمن الظروف ؛ حصل خير على كل حال ؛ تسلم أقاريك وقل لي مع السلامة ؛ شرباتي أشربها فيما بعد ؛ سلام عليكم !» .

انصرف مشيعا بعبارات الشكر من الجميع . كانت منال قد تربعت على السرير خجله مرتبكة حائرة . جلست أمها على حافة السرير وجعلت تربت على ظهرها تتحسسها في كل موضع دون أن تفلح في إخفاء توجسها وقلقها ؛ حتى اضطرت منال إلى أن تصيح فيها :

- «مالك يا وليه ؟! مانا كويسه أهه ؛ أنا زى ما أنا ؛ ما نقص منى شيء ..» .

كان عبد البصير في حرج شديد ، لكنه سرعان ما تقلب عليه مسترداً مرجه . قال في بساطة وهو يشير إلى الأرض :

- «تفضلوا اقعدوا!!» .

ثم أطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يتخبط في بعضه . نظرت له الأم مندهشة ثم ضحكت ، وبدا من الواضح أنه دخل قلبها بهذه الضحكة فحسب . وكان إبراهيم افندى غطاس أول البادين بالجلوس على الأرض فوق البطانية الكالحة ، فتبعه الرجلان ؛ وجلس عبد البصير على حافة السرير بجانب ليواجه حماته ؛ فصارت منال بينهما . قالت حماته فيما بين الجد والمزاح :

- «هذه عملة تعملها يا رجل ؟! بذمتك وبنيك ؛ بنت كهذه تكون دخلتها بهذا المنظر ؟! » .

رفع يده الكبيرة ذات الأصابع الطويلة الغليظة ؛ رفع أيضا صوته الخشن الناضح بالمرارة :

- «شوفى يا أم جمال ! أنا تزوجت ابنتك وانتهى الأمر !! هذا نصيب والنصيب غالب !! زواجى منها لم يكن فى دماغى أبدا !! وحتى هذه اللحظة لا أعرف كيف تم ولا كيف وافقت مع أنى مرتبط بواحدة غيرها وكنت أجهز لشبكتها هذا الأسبوع !! كل شىء تم غصبا عنى وعنها !! لا أنا أردت ولا هى أرادت !! إنما الله هو الذى أراد فأوحى لناس طيبين فتسلطوا علينا حتى فقدنا الوعى فتزوجنا !! وعلى كل حال فأتانا لم أقرب ابنتك بعد !! والحمد لله أنك جئت على غفلة ورأيت ما رأيت !! فإذا كان لك رأيا آخر فخذى ابنتك وورقة طلاقها وأنا مستعد لأى تضحية مهما كانت غالية لإصلاح غلطتى فالذنب ذنبى أنا وليس ذنبها !!» .

شرع إبراهيم افندى يقاطعه أكثر من مرة . ولما تهيأ للكلام كانت نظرتة معلقة بالبنت فى اهتمام وترقب ، وإذا رآها ترفع يدها صمت ناظرا فيها بعين ثاقبة حتى يعرف رأيها بوضوح ، فإذا هى تصيح فى تحد وثقة على بطانة خفيفة من الذعر :

- «طلاق ؟! والله لن يكون أبدا !! أنا تزوجت وانتهى الأمر ! وراضية بنصيبى !! وإذا كان عندك كلام يا أمى فابلعيه وأريحى نفسك !! إن كان أحدهم تخن أذنك بكلمتين فائتم جميعا فى سكة وأنا فى سكة !! ها أنا قلتها لكم وبرزقى على الله !!» .

حدثت فيها أمها بغيظ مكتوم :

- «آه يا فاجرة !!» .

شوجت منال بذراعها فى عدم اهتمام :

- «فاجرة فاجرة !!» .

وقال إبراهيم افندى :

- «خلاص يا أم جمال ! وضحت الرؤية ! نتكلم الآن فى المختصر المفيد ! خلك

معى يا جمال لتعقل أختك مع أنك محتاج لمن يعقلك !!» .

قالت منال وهى تحول بصرها بعيدا :

- «أعرف أن خالى جمال هو الذى قواها على الرفض بعدما قبلت !! ابن خالتي هذا هو الآخر كان يريد أن يزوجنى لأخيه ! ولكن كل شىء نصيب يا جماعة!!» .

قال إبراهيم افندى :

- «عداك العيب يا عروسه ! لابد أن نتعظ بما حدث !!» .

قال خالها جمال :-

- «ما قلنا شيئاً يا إبراهيم افندى ! لكن الأصول يجب أن تمشى على

الكل!!» .

وقال ابن خالتها :

- «خلاص هي تزوجت وانتهى الأمر ! قصدنا الآن أن تأخذها لتقيم لها فرحا

فى البلد ! وفى نفس الوقت نعطى للعريس فرصة لتجهيز بيته ! ونستر أنفسنا قدام الخلق !!» .

قاطع إبراهيم افندى :

- «تحلف أن هذه هي نيتك حقا ؟!» .

صاح ابن الخالة بصوت مروحى :

- «أحلف ! طبعاً ! أحلف !!» .

لكن منال صاحت من قعدتها بقوة :

- «سأرمى نفسى تحت القطار إن أخذتمونى بالعافية !! قلت لكم أنا خلاص

تزوجت ودخلت ! أما الزفة التى تقولون عنها فزفتى كان لها العجب !! نشرها

الجرنان وقرأتها بعينى فى جرنان الأخبار مع واحد فى القطار !! هل كنتم

تحلمون بأن زفة ابنتكم تتكتب فى الجرائد ؟!» .

أشارت الأم إلى ما حولها فى تأفف :

- «تعيشين هكذا وأنت عروس ؟!» .

قالت منال :

- «هذه فى نظرى سراية أحسن من سرايات الملوك !! المهم راحتى !! وأنا

مرتاحة ! أحب زوجى أعبده ! سأعيش معه على الفول والطعمية !»

قال إبراهيم افندى غطاس :

- «نسمع العريس !» .

قال عبد البصير فى نبرة صدق واضحة :

- «أنا الآن متمسك بزوجتى !! لن أفرط فيها أنها اشتترتني فأنا لا أبيعها

بأغلى الجواهر !! هى الآن جوهرة عزيزة على !!» .

قال إبراهيم افندى غطاس :

- «كلام جميل ! وإن فنحن بخلاء !!» .

صال الخال :

- «نريد أن نطمئن على عفش بنتنا !!» .

جاوبه ابن الخالة :

- «والقائمة ! ومؤخر الصداق!!» .

قال عبد البصير :

- «أما العفش فساتولى تجهيزه من الآن ! وأما القائمة فاكتب ما تشاء

وأنا أوقع عليه بإمضائى ! وأما مؤخر الصداق فإنه تحدد فى القسيمة
وانتهى أمره!!» .

قال ابن الخالة متشددا :

- «لأبد من تعديل القسيمة !!» .

استجاب عبد لابصير لاستفازته :

- «لا تعديل فى شىء !! وأجدع ما فى خيلك اركبه !! زوجتى فى بيتى على

سنة الله ورسوله ! وهى موافقة ! فليس لك عندى أى شىء !!» .

صاح الخال :

- «تحدانا ؟!» .

- «نعم !!» .

- «إننى فهمى قاصر وأنت غررت بها أنت ومن معك !! وزورت فى سننها وهذه

جريمة !!» .

ونهبض محتجا :

- «بنا يا جماعة !!» .

صاح إبراهيم افندى :

- «صلوا على النبي ! صلوا على النبي ! قلت يا عبد البصير إنك مستعد للتجهيز من الآن ؟!»

قال عبد البصير :

- «نعم ! الآن حالا !!» .

قال إبراهيم افندى غطاس :

- «إذن قهيا بنا نفعل !!» .

نهبض عبد البصير فى الحال . قال ابن الخالة فى نيرة خبيثة صفراء :

- «والعروس ؟ ألا يحق لها أن تختار عفش بيتها بنفسها ؟ لا بد أن تجيء

معنا لتختار عفشا يناسبها كهروس بكر بنت ناس !!» .

قالت منال وهى متشبثة بمكانها :

- «ما يختاره زوجى سيعجبنى ! إنه سيختار أحسن منى ! ويفهم فى العفش

أحسن منى ! وأنا قبلته بدون عفش !» .

ثم صاحت فى تحد غريب موجهة الكلام لزوجها :

- «يا أستاذ عبده !! خلك معى أنا !! لا ترهق نفسك !! لا تهتم !! هات ما

تقدر عليه !! وإن لم يكن معك فلوس الآن فهذا السرير يكفى !!» .

تبادل الجميع نظرة جمدها الذهول وعدم التوقع لكن الحيوية ما لبثت

أن تحركت فى نظرتين فى عينى عبد البصير وإبراهيم افندى غطاس .

عبرت نظرة عبد البصير عن الامتنان الهائل الذى يوشك أن يكون حبا

مفاجئا ، وعبرت نظرة إبراهيم افندى عن الإكبار الشديد للفتاة الأصيلة .

أما بقية الحاضرين فقد بقى الجمود فى نظراتهم بنفس النظر

المجمدة رمت الأم ابنتها ، ثم أشارت لمن معها ؛ ومضت ، فتبعها كل من

أخيها وابن أختها منكسسى الروس فى غيظ وخجل. مضى وراءهم كل من إبراهيم أفندى وعبد البصير يحاولان استرضاءهم . وعلى السلم قال عبد البصير :

- «المسألة ليست قائمة عفش أو مؤخر صداق ! المسألة أن ابنتكم أصبحت من هذه اللحظة أغلى شىء فى حياتى !! فبدلاً من زعلكم منها ادعوا لها بالتوفيق ! رزقها ورزقى على الله وإن أفرط فى حق من حقوقها !!» .

بلغتها العبارة كاملة ، فشعرت براحة عظيمة . نزلت عن السرير ، جعلت تفكر فى تنظيف الشقة . وفيما هى متشمرة تفعل بهمة ونشاط تذكرت أن حافظة نقودها بها بعض جنيهات متبقية ؛ شرعت تفكر فى طبخة دسمة للغداء ، متوقعة أن إبراهيم أفندى سيعود لابد مع زوجها . وقد صدق حدسها ؛ إذ ما كادت تنهى للنزول إلى سوق الخضار الملاصق للبيت من الخلف حتى دخل زوجها مع إبراهيم أفندى حاملاً لفة الكباب الساخن والأرغفة والسلطات ، وكيساً من الفاكهة .

قربت المنضدة من حافة السرير كى تجلس عليه مع زوجها ليجلس إبراهيم أفندى على الكرسي الوحيد . لمس إبراهيم أفندى ما هى فيه من حرج ؛ قال باسم :

- «كل شىء آت بعد قليل ! سراير ومراتب وألحفة ونواليب وترايبيزات وكراس كثيرة ونحاس ؛ فاطمنى يا عروس ربنا يجعلك وجه السعد عليه !! أمك وخالك وابن خالك شافوا العفش وانتقوه بأنفسهم قبل سفرهم ! الرجل لم يبخل عليك بأى شىء !!» .

أطرقت برأسها ، راحت تفرد لفات الطعام بمعصمين ممثئين . تأمل عبد البصير هذين المعصمين لأول مرة ، فأعجب بهما ؛ ولاحظ أن جمالها من النوع الخفى الذى لا يعلن عن نفسه إلا لمن يحاول استكشافه . داخله كثير من السرور فأقبل على الطعام بشهية .

أعجبه منظر الشقة بعد أن تم فرشها ؛ أمن أن الستر جميل وفتح لشهية الإنسان على الحياة . أعجب أيضا بمنظر زوجه وهى تخطر بين قطع الأثاث كالبطة ؛ مرتديه أحد قمصان النوم العارية الاكتاف التى اشتراها لها من الموسكى .

كان جالسا على كرسى فى الأنتريه المخملى الذى فرش به فى الردهة ؛ ومن حوله ستائر تتدلى على الشبابيك والممرات من قماش الكريتون المشجر أنجزتها منال فى أربع وعشرين ساعة فى شقة أم فريد ، فكشفت عن موهبة فى التفصيل والحياسة يمكن استثمارها .

وضعت أمامه فنجان القهوة ثم جلست فى مواجهته واضعة ساقا على ساق ، مبرزة - ربما عن عمد - شرائع من فخذيهما العاريين فى لون البرتقال بعد تقشيريه . أزاح عينيه نحو فنجان القهوة محاولاً طرد شبح الفخذين عن خاطره ؛ لكن الفنجان اهتز فى يده حينما وقعت عينه - عرضا على عينيه ؛ فإذا هى تنظر فيه بنظرة حائرة يشوبها ظل من الاتهام الغامض فارتجف قلبه . نظرتها المتشككة تكاد تطعنه فى رجولته . لها عذرها على كل حال ، فقد مضى على زواجهما أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يقدم على محاولة فض بكارتها ؛ بل إنه يتجنب ملامستها ولا يدخل الفراش إلا حين يتأكد أنها استغرقت فى النوم ، فيتسلل مندسا بجوارها محتفظا بمسافة بين الجسدين . ليتها تعرف أنه غشيم بالفعل فى العلاقة الجنسية لا يعرف عن تفاصيلها أى شىء ، بل إن الخجل يعتريه يجمد أطرافه بمجرد وقوع بصره على بقعة عارية فى جسد امرأة ؛ ولذلك فهو دائم الاستغفار بغض البصر كلما وقع عقوا على صدور أو أكتاف عارية فى الشوارع أو الحفلات ، يطارده الشعور بالخطيئة كلما اضطر للعزف وراء راقصة تتلوى ؛ لذا فقد اعتاد اغماض عينيه أثناء العزف ، منه تقوى ومنه اندماج .

كثيرا ما سأل أصحابه عن كيفية فض البكارة ؛ كيفية التعامل مع العروس ،
 عمن يكون هو البادئ ، عن الأسلوب الذى يضمن له عدم نفور العروس منه ،
 الإجراءات الواجب اتخاذها أثناء الفعل ؛ هل يتم عادة فى صمت أم مصحوب
 بكلمات معينة ومن قبيل ماذا ؟! أفى الضوء أم فى الظلام ؟! أعرى تام أن نصف
 عرى ؟! أبالعضو أم بالأصبع ؟! أنسيل دماء كثيرة أم أنها مجرد بقع صغيرة ؟!
 كثرة الدماء دليل على البكارة الحقة أم أنها كيس دم صناعى ملبوس ؟! كيف
 يتسنى للعريس اكتشاف أن عروسه عنراء بختم ربها لم يمسسها بشر قبله ؟!
 وإذا اكتشف العكس لا قدر الله فماذا ينبغى عليه أن يفعل ؟! ما الذى يجب عليه
 أن يفعل لكى يطيل زمن الفعل قبل الوصول إلى الذروة ؟! ما هى العلامات التى
 تبين له أن عروسه قد استكفت وأن عليه تبعا لذلك أن ينهى الفعل ؟ هل بمستطاعه
 إنهاؤه وقتما يشاء ؟! هل فتحة الإيلاج هى نفسها فتحة البول ؟! فكيف تكون
 مسدودة إذن بفشاء البكارة ؟! هل الغشاء هذا كالكوبرى مثلا والمياه تمر من تحته
 ؟! وكيف يضمن الزوج أن زوجه لن تنتظر إلى غيره ؟! إذا حدث ونظرت فهل يكون
 هو المسئول أم أنها طبيعة فى بنت حواء ؟! هل هناك حد للاكتفاء متى بلغت
 الزوجة استقرت واطمأن الزوج ؟! ما هى الدلائل التى تشير إلى أن الزوجة قد
 بدأت تخون زوجها ؟! هل السلوك الأمثل أن يحجب الزوج زوجه عن كل
 أصدقائه ؟! هل ، وهل ، وهل ...

أسئلة عجيبة وغريبة ضاق بها سالم أبو شفه والشيخ عطيه وغيرهما من
 خلصائه من أهل الفن الذين بدوا يستسهلون الصعود إلى شقته بدلاً من المقهى
 ليضعوه فى حرج يسكنه عن مزيد من الأسئلة الساذجة ، فيقضون الليل فى سمر
 وتدريب ، ولقد تلقى الكثير من النصائح والوصايا والدروس العميقة والوصفات
 المجربة ؛ ضاعت كلها فى هدير الأوتار ، واضمحلت على حافة السرير قبل أن
 يتمدد عليه ؛ فإذا هو كالعادة يعطى ظهره للعروس مستسلما للراحة التى يبعثها
 فيه تمدده على جنبه الأيمن ، لطالما اندهش من موقعه هذا ؛ وتسأل كثيرا : ما

الذى يمنعه حتى الآن من محاولة فض بكارة زوجه ؟! إن الشيء الوحيد الذى يقوم فى ذهنه كلما شرع يستدير ليواجه زوجه ، وكلما هم بمد ساعده لاحتضاناتها ؛ شعور داهم بأنه قد بدأ يخون سعدية المليجى . شبح سعدية المليجى قائم بينه وبين زوجه فى الفراش .

ولكن ما هى ذى سعدية المليجى لم تعره اهتماما طوال ثلاثة أشهر كاملة . لقد خلص ضميره معها ، أرسل لها عشر برقيات بمعدل برقية كل أسبوع ، ومع ذلك لم ترد عليه ، فيا له من احتقار شديد له ؛ أيمكن لسعدية أن تحتقره إلى هذا الحد؟! إنه غير قادر على تصور هذا ؛ أتراها قد علمت بزواجه من ليلة حدوثه؟! ما لبث حتى انتفض وصاح متألما ، ممسكا بقلبه ، إذ تذكر الجرنان الذى نشر خبر رفاهه العجيب . شعر بسكين يشق صدره بالطول وبالعرض ؛ لابد أن سعدية قرأت الخبر صباح الزفاف ، لابد أنها تأثرت ؛ لابد أن جرحها الآن ينزف دما . كيف لم ينتبه إلى هذا منذ وقت مبكر ؟! كيف فاته أن حبيبته قد انجرح جرحا عميقا لا يمكن شفاؤه ، بنشر ذلك الخبر الخائب ؟! لو انتبه إلى ذلك فى حينه لسافر إليها فوراً وفسر لها حقيقة ما حدث . ولكن ماذا عليه أن يفعله الآن بعد أن سرحت النار فى الحطب فأحرقته تماما ؟! إنه لابد أن يصلح خطأه بأي شكل ، حتى ولو كان النصيب قد انقطع والعياذ بالله فإنه يجب أن يعتذر لها ويطلعها على الموقف برمته ؛ يجتو على ركبتيه أمامها يطلب منها العفو والسماح فإن تعطفت بقبول عذره فإنها تكون قد أقالته من عثرته ويعت الرّوح فى حلمه الأخضر . نعم ؛ هذا ما يجب أن يكون .

زفر بحرقه واضحة أثارت انتباه منال بل جرحتها فى الصميم ، فهطلت دموعها بغزارة . نظر فى ساعته ، لقد أقبل المساء وفات أوان السفر اليوم إضافة إلى أنه مرتبط الليل بشغل فى صحارى سيّتى مع نجوى فؤاد ومحمد العزبى ، لا يستطيع التّضحية بشغل الليلة فهو متبطل منذ أسبوع مضى يصرف من احم الحى .

دارت الفكرة فى رأسه وهو يشرب ثمالة القهوة متلذذا بخشونة البن فى قاع

الفنجان : لسوف يخرج من الملهى فى حوالى الثانية أو الثالثة صباحا فيتجه من
فرره إلى محطة القطار ليركب قطار الصحافة ليكون لدى سعيدة فى طلعة
الشمس يصبحها بالخير ويحاول إقناعها أن مثال هذه ضرورة لكليهما معا ،
فإنهما يجب عليهما الانصراف لشغلهم ولا بد من زوجة أخرى للبيت
والطبخ والكنس والغسل ؛ خادمة بعقد شرعى . حينئذ شعر بهمزات شيطانية
بدأت تتركب على كتفيه لتوسوس فى أذنيه مزيدا من الأفكار الشريرة تجاه
مثال ، فارتعش شاعرا بالخسة وبضرورة طرد الشيطان ، فأشعل عود كبريت
ليخيفه ؛ ثم أشعل سيجارة فيما يقول عبر النخان المتصاعد من فمه :- «ما
بكاؤك يا مثال ؟!» .

قال وهى تشرق بالدمع :

- «عمرى ما كنت تلقىح !! أنت لا تطيقنى !! اتركنى أعود لأهلى إن كنت
ضائقا بى حتى لا تنتهد هكذا مرة أخرى !!» .

أصابه رهق مفاجىء ؛ شعر بالإشفاق عليها ؛ عجز عن التصرف اللائق؛
أرسل ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يتخبط فى بعضه . ابتسمت رغما عنها .
قام إليها ، لأول مرة فوجيء بيده تمتد لتمر على شعرها بأصابع حانية ، شعر
برجفتها تحت يده ، تسربت إليه الرجفة ، قال بصوت مخرخش :

- «لا تشطى بخيالك إلى بعيد !! أنا أحبك فعلا !! وغداً يصبح كل شىء على
ما يرام ! كل ما أرجوه منك أن تعذرينى فأنا مضطرب الأعصاب لأسباب لا شأن
لك بها ولكنى سوف أهدأ حتما بعد وقت قصير !!» .

ابتعد قليلا ليطفىء السيجارة فى منفضة على الطقوقة فى شكل قوقعة .
أشعل سيجارة أخرى واتجه نحو الباب ، قال ممسكا بالأكره إنه سيقضى
بعض مشاويره قبل حلول موعد الشغل وأنه سينادى عليها كالعادة من تحت
الشباك : يا مصطفى - اسم أبيه واسم الطفل المفترض قدومه بعد حين - فعليها
أن تدلى السلة وفيها الكمان فيأخذه ويضع فى السلة ما اشتراه من خضار ولحم
وفاكهة .

بمجرد نزوله سائل نفسه عن المشاوير المهمة التي زعم أنه سيقضيها ؛ فلم يجد وراءه أى مشوار ، تبين له أنه كان يريد الهرب من مواجهتها فحسب . إلا أنه وجد فى النزول راحة كبيرة ، صار يمشى كيفما اتفق ؛ جلس على أكثر من مقهى فى ميدان العتبة ، وميدان الأوبرا ، وشارع فؤاد . تأمل كثيرا فى منظر كازينو أوبرا ، أو بديعة سابقا . حاول أن يتصور شخصية بديعة مصابنى أيام كانت تدبر هذا الملهى فى عز مجدها ؛ فى هذا الملهى اشتغل نجوم كثيرون يعتز بهم ، فريد الأطرش ، إبراهيم حموده ، محمد عبد المطلب ، محمود الشريف وأحمد صدقى ومحمود شكوكو ومحمد فوزى . ما من فنان كبير إلا ومر فى بدايته بكازينو بديعة وتدرّب فيه على لقاء الجمهور . معظم الأغنيات الشهيرة التى يذيعها الراديو تم إنتاجها كلاما ولحنا وأداء فى هذا الملهى الليلى العجيب الذى أدارته فى سرّة المدينة امرأة قوية الشكيمة من أصل شامى ولعبت أخطر دور فى حياة الفن والفنانين ؛ وتزوجت من نجيب الريحاني ، ودخلت تاريخ الوجدان الشعبى وأصبح اسمها يطلق على أكبر كوبرى يعبر النيل إلى بر الجيزة ولربما كان للكوبرى اسما آخر ولكن ذاكرة الشعب القاهرى لا تعرفه إلا باسمها . شعر عبد البصير - لا يدرى لم - أن الأيام السالفة كانت أفضل كثيرا من هذه الأيام برغم كل شيء .

فى طريق عودته إلى البيت لمح جرسون قهوة التجارة فناداه . أخبره أن رجلا شبه صعيدى قد سأل عنه بالحاح شديد فوصفوا له البيت . سأل فى اهتمام : ما مشكله ؟ قيل إنه أسمر الوجه متغضن الملامح يتكلم بلهجة شرقاوية . هز رأسه بالشكر متوقعا أن يكون رجلا من أجوايد طنطا جاء يطلبه لفرح هناك .

تحت شباك شقته رفع رأسه مناديا : يا مصطفى . أطلت زوجة من الشباك قالت إن ضيفا ينتظره منذ حوالى ربيع ساعة أشار لها بنراعه أن تنزله وتبعث الكمان معه . وقف ينتظر .

ازدحم الشارع فجأة وارتفع صخب الترام بأنجراسه المصلصلة. تلكأت السيارات في بء ثم توقفت نهائيا نتيجة عطل مفاجيء. كانت صنجة الترام قد انفصلت عن السلك الكهربى الممتد بطول خط الترام، ونزل المحصل ليعيد ضبطها على السلك. سيارة بصندوق أسود مربع اضطرت للوقوف أمام باب البيت فسدت الطريق إليه، لأن إحدى عربات الكارو كانت تسد عليها الطريق فى انتظار سير الترام. عينه صافحت السيارة ذات الصندوق الأسود بنظرة واجفة، تبين أنها بسيارة لنقل الموتى مكتوب على أبوابها ولوحاتها عبارة : تحت الطلب.

أشاح ببصره عنها شاعرا بانقباض فى صدره. ظهر الضيف فى فتحة الباب المظلمة ممسكا بصندوق الكمان. هيكل الرجل مألوف لديه، حاول رؤية ملامحه فى ظلام العتبة فلم يفلح. وكانت السيارة ذات الصندوق الأسود قد فصلت بينه وبين عتبة الباب، راح يطرقع بأصبعيه ليلفت نظر الضيف إلى مكانه. خرج الضيف من العتبة متأبطا صندوق الكمان وجعل يبحث عن برزخ يمر منه بين السيارة ذات الصندوق الأسود والسيارة الواقفة خلفها أو الواقفة أمامها فلم يجد، فصار يلف حول نفسه حائرا. تذكر عبدالبصير بقلب منقبض أنه رأى هذا المشهد بحذافيره ذات يوم فى مكان ما، وحاول أن يتذكر أين رآه ومتى فلم يوفق.

تابع ضيفه المجهول إذ يتزحزح بجنبه لصق الحائط نحو كابينة سائق السيارة ذات الصندوق الأسود، والكابينة منخفضة كثيرا عن الصندوق. فوق هذه الكابينة مال الضيف بجذعه، مد نراعه أمام زجاج السيارة ليصافح عبدالبصير الذى تقدم فمد يده فوق غطاء المحرك. وقعت عينه فى عيني الضيف، فهتف بفرحة طاغية:

— «عم عثمان؟! أهلاً أهلاً إزيك ياراجل!!»

سلم عليه بحرارة، ثم مد يديه الاثنتين وتناول منه آلة الكمان. فى تلك اللحظة تحرك الطريق فزحفت السيارة لتفصل بينهما لبرهة طويلة. فما أن لاحت نعم

عثمان فرصة اتساع مسافة بين سيارتين حتى عبرها بسرعة، فصار تحت إبط عبدالبصير، الذي سحبه إلى قهوة التجارة فانتحى به ركنا قصيا .
طلب فنجانين من القهوة، فصاح عم عثمان بلهجة ذات معنى:

« سادة من فضلك!! »

كان الحزن ياديا عليه بصورة جلية، وصوته خامل مخشوشن، وحاله أقرب إلى الهوان والبهذلة. لاحظ عبدالبصير هذا، لكنه صاح فى احتداد مبطن بالعشم كأنه يكلم سعدية نفسها وجها لوجه :

« أيصح هذا ياناس ياطيبين؟! هل أستحق منكم هذا؟! مائة برقية أبعتها لكم ولا أحد يعبرنى؟! أنا لم أغلط على كل حال!! القلوب مع ذلك عند بعضها!! تصور أننى كنت سأسافر إليكم بعد ساعات؟! لكن الحمد لله أنك جئت!! سأريك الشبكة والبدلتين!! الآن ردت الروح لى!! نسيت كل شىء!! لم أعد زعلانا!! كنت واثق أن سعدية سترد على!! الحمد لله! الحمد لله!! »

جاءت القهوة المطلوبة. أمسك عبدالبصير الفنجان بيد مرتعشة وقد بدأ يتوجس من صمت عم عثمان المطبق، ورأسه المنكسة فى الأرض كمنذب ينتظر الحكم بالإعدام ..

« لماذا لا تتكلم؟! ».

بصعوبة شديدة رفع عم عثمان رأسه، بصعوبة أشد خرج صوته الصدى :

« لا .. لا .. لا أجد كلاماً أقوله!! »

« هى غاضبة منى طبعاً؟! معها حق! لكنى سأشرح لها كل شىء بالتفصيل!! »

ولابد أنها ستقدر موقفى!!

« لا ترهق نفسك ياولدى!! فكل شىء نصيب!! »

« تزوجت سعدية؟! »

نشف ريقه فى انتظار الجواب. لكن عم عثمان لم يستطع المقاومة، فانفجر باكيا بعمق وألم حارق. هتف عبدالبصير بفرع ولهفة:

« تزوجت؟! »

« لا !! »

« ما الحكاية بالضبط؟ »

« حتى الآن لم تعرف؟ »

« أعرف ماذا؟ »

« الخبر كان في الجرنان لصق خبر زفافك!! »

« خبر ماذا؟ »

« موتها!! »

« إيه؟ »

« تعيش أنت !! البقية في حياتك!! »

انتفض واقفا كالمجنون، شد الرجل من خناقة في عنف ملثاث:

« ماذا قلت؟ سعيدة ماتت؟ كيف؟ متى؟ أين؟ من قتلها؟ انطق!! »

خلص الرجل خناقة برفق من يديه القويتين، ثم احتضنه، أجلسه، صار يربت على كتفيه، حكى له قصة الحادث المروع الذي حدث في فرح في بنى سويف، وأخرج من جيبه الجرنان المطوى المتاكل، ويأصبعه أشار لعبد البصير على الخبرين المتجاورين: خبر زفافه وخبر مقتل سعيدة المليجي وشقيقتها والعريس على خشبة المسرح،

اختنق عبد البصير بالبكاء، فك رباط العنق، شد طرفي القميص بيديه بكل عنف فتناثرت أزراره في الهواء، صار يلطم خديه، يشوح بذراعيه في حركات جنونية، ليس على شقيقته سوى:

« مش ممكن ! مش ممكن! خيال! جنون!! »

صارت ذراعه تصطدم بكل ما حوله، سقطت صينية الفناجين على الأرض فتكسرت ، تهاوى صندوق الكمان في ضجة مفزعّة. بكل جنون ويأس شاط صندوق الكمان بقدمه، ثم صاح في ألم ممسكا بقدمه بينما طار الصندوق إلى بعيد ليرتطم بالرصيف ارتطاما شديدا حتى انفتح وطارت الكمان. إنكب عليها أكثر من واحد ممن يسيرون على الرصيف، وضعوها في صندوقها كيفما اتفق

وأعادوها إليه، فأمسك بالصندوق وهبده فى الأرض بكل عنفوان الغضب الملتاث، صائحا فى هذيان محموم:

- «لا أريدها!! لم تعد تنفعنى!! لم يعد لها أهمية فى حياتى!! خلاص! انكسر قلبى! ابعدها عنى!!»

كل من فى المقهى تجمع حوله، حاولوا الاستفهام من عم عثمان، الذى كان منهمكا فى البكاء والحيرة والضجل لكنه مع ذلك استطاع أن يخبرهم بلب الموضوع. عندئذ صاح أكثر من واحد اتضح أنهم كانوا يعرفون سعدية المليجى إما قبل الحادث وإما بسببه :

- «لا حول ولا قوة إلا بالله! كانت فنانة بحق!! كانت من أشرف الناس!! كانت بنت موت!! مثلها خسارة فى أيامنا!! كانت فله!! موهبة خطيرة!! ألم يعرف بموتها إلا الآن؟! الحادث هن البلاد كلها وهو لم يعرف؟! عجائب!! ألم يسمع بالتأين الذى أقمناه هنا فى القهوة بعد الحادث بليلة؟! ناس كثيرون من هنا سافروا إلى بلدتها للزءاء!! أحب أم صداقة أم قرابة أم زمالة؟! سمه ما شئت!! قل إنه الوفاء يارجل!! بصراحة إن من يعرفها لابد أن يحزن عليها!! لكننا جميعا إلى الموت صانرون!!»

انقسمت المرتبات فى عينيه من خلل الدموع الهائلة، حيث وضع رأسه على كفه وانخرط فى البكاء كطفل تيتم قبل الأوان. شحب وجهه،! انسخط، بدت ثيابه فضفاضة عليه كأنه استعارها من كامل الشناوى. ميزت نظراته وجه الأستاذ جميل كريم يخترق الزحام وأصلا إليه، شعر بقليل من الراحة.

- «قم معى يا عبده!»

قام فى الحال. أمسك الأستاذ جميل كريم بإبطه ملتفتا إلى عم عثمان:

- «تعال يارجل!»

نهض عم عثمان، جمع آلة الكمان التى انكسرت رقبته وانخلعت بعض مفاتيحها وتقطعت أوتارها والتف بعضها حول بعض . شعر الرجل بالأسف الشديد وهو يكومها داخل الصندوق الذى تفصصت مفاصله وانعوجت أقفالها، فأغلق الصندوق كيفما اتفق، تأبطه، مضى خلفهما فى خطو جنازى وقور مقهور منكسر.

- «يا حرام !! قلبى على الجدع! والله قلبى عليه!! شوفى يا ابنتى! يوم تزوجت أبا فريد كان أسخم من زوجك!! كل الفنانين هكذا دماغهم ملووحة دائماً يرون كل شيء بالمقلوب!! يتصورون أنهم بفنهم يعدلون الحال المائل!! فليتصوروا ما يشاؤون فالمهم أنهم يعدلون دماغنا ويروقون أعصابنا بفنهم!!»

«مهمتك الآن صعبة وسهلة فى نفس الوقت لأى دماغ مفتوح!! زوجك الحق لله فنان حقيقى رغم أنه لم يتعلم فى المدارس ولم يأخذ شهادات عالية ولا دياولو!! لكنه فى نظر الذين يفهمون أهم حتى ممن يعطون الشهادات العالية لمستحقيها!! حرمان زوجك من التعليم جعله خشنا صعب الاحتمال من يسمعه يتكلم يتصوره سباكاً أو عامل بياض!! لسانه لم يعرف لغة المدارس وكلام الناس الراقين من أهل الفن!! إنه مجرد شخص من أولاد البلد أوتى موهبة جبارة تسلطت عليه فلم يتعلم شيئاً فى الدنيا كلها سوى الضرب على آلة الكمان وحدها!! كان المفروض أن يكون حلو اللسان ناعم الملمس حتى يعوض ما فاتته من تعليم وثقافة فلا يسبب لمن يعاشرونه وجعا قليظته الجميع فى لحظة!! محمد عبدالوهاب مثلاً لم يأخذ شهادة عالية لكنه تعلم فى الأوساط الراقية كيف يتكلم كيف يقرأ كيف يفكر كيف يعاشر الناس ولهذا نجح فالموهبة لوحدها كامرأة جميلة معنسة لا ولن يقربها نكراً!! لا بد معها من موهبة الذكاء والشخصية القوية والعين المفتوحة على كل شيء فى الحياة!! زكريا أحمد كان يتكلم كأكبر العلماء كلاماً يملأ الدماغ! أم كلثوم حين كنت أزورها فى بيتها أراها تطلب من خادمتها فنجان القهوة وديوان إبراهيم ناجى!! سيد درويش كان يفهم فى السياسة وفى أمور المجتمع ومشاكل الناس ولهذا نجح!! زوجك مع الأسف لا يفهم شيئاً بالمرّة!! أصابعه تفهم أحسن منه وقوسه أنكى من عقله!! وهذا ما يجعلنا نحبه ونحتمله بعبله وأنت قبلنا يجب أن تفعل!! ليكون فى معلومك أنه سوف يتعب فى حياته كثيراً وإن تكون علاقته

ناجحة أبدا وهذا مما يخضع من مسئوليتك يصعب من مهمتك ياحلوة لكنك إن تخليت عنه تكونى خسيصة وغبية لأن خسارتك ستكون الأكبر أما إن نجحت فى تطبيب جرحه فإنك تدخلين التاريخ من أوسع أبوابه يقال عنك المرأة التى وقفت وراء العظيم المضروب به وبها المثل!! لا تصدمك الصعوبة فالمهمة أبسط مما يذهب إليه خيالك! إنها بسيطة: ضعى فى اعتبارك أن زوجك مجرد طفل شقى عنيد! إقهمى مواضع ضعفه وأكملها بقوتك فضعه قوة لك خل بالك! لكن لا تشعره بأنه ضعيف وإلا فمثله يمكن أن يهدم البيت على رأسيكما فى لمح البصر فى لحظة غضب نون أن يدرى!! أشعريه دائما بقوته! شوفى ما يحبه فتحبيه أكثر! ما يكرهه لا تطيقه! أهم شىء فى حياته آلة الكمان فلا تجعلها ضرتك بل كونى وصيفتها وهى الأميرة!! إنه درويش محب للصلاة مفطور على التقوى فصلى وراءه فرضا بفرض!! هو يحب الناس كعينييه يموت فى حب اللة والونس لأنه كما علمت ترى فى حجر شيخ طريقة يقبل المريدون بيده فهو إذن شيخ طريقة هو الآخر ولكن على طريقتة وله دراويش كثار يقرأون طول الليل ويرد الكمان وعهد النغم فكونى لهم مضيافة قدمى لهم الأكل والشرب والراحة طالما هم فى دارك فالراحة ياحلوة ليست أن تقفل بابنا على أنفسنا وننام فى هدوء نأكل فى تكتم نفرح على الساكت نكتم الحزن فتموت كمدأ وحسرة!! إنما الراحة ياحلوة أن نفعل ما نحبه، ما يفعله من نحبه ، ما يبسطنا ولو لدقيقة واحدة!! راحتك ياحلوة فى راحة زوجك إن كان مجنونا غريب الأطوار فلا تقفى له كاللقمة فى الزور!! ساعديه شجعيه فإذا يشعر بالدفع فى حضنك لا يغادره لحظة واحدة!! المنظر المجنون الذى عمله على قهوة التجارة منذ كم شهر مضى لا يفعله إلا دماغ هبلاء: يلطم ويجعر ويحطم الكمان ويفضح الدنيا كل ذلك ما كان له داع لولا أنه رجل على نيائه صافى القلب نقى السريرة فكيف تخافين منه بعد ذلك؟! إنه لم يكتم سره عنك ولا عن أحد غيرك! ما فى قلبه على أسانه ينقض غضبه أولا بأول!!..

«حمدا لله أنه اختار غريمك فى الوقت المناسب جلت قدرته وحكمته! سبحان الله: قتلت لحظة عقد قرانك!! إنى والله لفى حيرة! هل كان الله لحظة قتلها يقف

لصالح القتيلة أم لصالحك أم لصالح زوجك أم لصالحكم جميعا فى نفس اللحظة؟! لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع هذا قول فى منتهى الحكمة!! أنت الآن ضامنة أن زوجك ليس مربوط القلب بأحد ولا أظن أن واحدة أخرى تدخل قلبه بعد ذلك بسهولة!! الوحيدة التى يمكن أن تدخل قلبه هى أنت! ولكن بشرط أن تغلى ما سبق أن نصحتك به منذ شهور طويلة مضت!! لسوف يقتنع على مر الزمن أنك نصيبه الذى اختاره الله له بإرادته فسبحانه كان على علم بأن الأخرى مفقود فيها النصيب!!..

«أعرف أنه قد ندم ندما كبيرا على تحطيم الكمان! كان يسألنى: ما ذنبها؟! أقول سل نفسك! فيطوح رأسه أسفا وحسرة ويتحدث عن فعلته كأن شخصا آخر فاقد الرشيد فعلها!! قلت لك مرارا إنه طفل كبير يتصرف على سجيته!! أعرف أنه صنايعى ماهر فى إصلاح الآلات الموسيقية! أعرف كذلك أنه أعادها أحسن مما كانت وهذا قال طيب! لما شففتها بعد إصلاحها فرحت قلت له مادمت أصلحتها بهذه العناية فإنك إذن نويت أن تعود لاستئناف نشاطك بعد هذا التوقف الطويل!! قلت يجب أن تلعلع فى الحفلات كما كنت وتحببى اسمك الذى كاد يُنسى!! صدمنى بقوله لا والله ما أصلحتها إلا حزنا عليها فحسب كتحفة يجب أن تبقى سليمة صالحة أما العزف فلا أظن أننى أرغب فيه فقد جف قلبى وتيبست أصابعى تجمد القوس فى يدي!! هو يكذب على نفسه بالطبع دون أن يدري!! هو أيضا يشجع نفسه على الإستيقاظ يفضح نفسه لكى يثيرها لتتحرك لتعديل أمرها واسترداد عافيتها!! طبعاً إسألينى عنهم فأتانا مخضرة فى عشرتهم سنين طويلة هؤلاء المجانين العظماء!!..

«عرفت يا حبيبتي! عرفت حكى لى أبو فريد وهو فى غاية الأسف والحزن!! ولكن ما الذى حدث؟ لا هذا يحدث أول مرة ولا زوجك أول من يحدث معه ما حدث!! ياما عظماء فى الموسيقى جاءت عليهم لحظات على المسرح توقفت فيها مواهبهم عن الحركة ففشلوا فانسحبوا بكل بساطة!! زوجك جلس بين الفرقة ليعزف فنشز ولخبط وتلجت أصابعه؟! وإيه يعنى؟! الجميع يعرفون أنه فى أزمة

نفسية لم يخرج منها بعد! أنا شخصيا فرحت بوقوعه فى هذه الورطة الحرجة! نعم! كان لابد وأن يتلقى صدمة أعنف من السابقة حتى تفيقه فيثوب إلى رشده!! هو قد ينسى ذات يوم موت حبيبة قلبه لكنه لن ينسى أبدا لحظة أن واجه جمهوره وعجز عن العزف له لأن حبيبة القلب هى فى النهاية والبداية حبيبة القلب أما الكمان فإنها حبة القلب!! لن يهدأ باله إلا بعد أن يسترد احترامه فى نظر جمهوره! إنى واثقة أنه يحمل الآن همأ وحيداً: كيف ينتزع التصفيق من جديد؟ إن لتصفيق الجمهور وقع ساحر فى أذن الفنان يطرب له لحد الإدمان!! هذا ما يجب أن تعرفيه يا صغيرتى فاعملى بكل وسيلة على أن يستمتع لتصفيق جمهوره! ساعديه استدرجيه للكمان باستمرار حرصيه على التفوق!! إن كان الرنق يجيئك الآن من محل إصلاح الآلات فرزقكم الواسع لن يجيء إلا بعودة زوجك للإمساك المستمر بالكمان فإنها وعده قدره مصيره فليعد إليها قبل فوات الأوان!!

«حكاية هجرك فى الفراش هذه نكتة!! إنه غشيم يا عبيطة!! دربحيه!! أهذا منظر واحدة يهيم بها زوجها أو تغريه بالفراش؟! تزينى يا حمارة! أنت لست تلميذه فى الإعدادية أنت زوجة والزوجة يجب أن تغرى زوجها وتفتح نفسه للدين!! ماذا يمنعك من! من الاستحمام مرتين وثلاثة فى اليوم؟ قلة مياه؟ هو ينام بجوارك على السرير كل ليلة! خُشى عليه! إطبقي فى حضنه فهذا حقك وواجبك أيضاً! إنفخى فى ناره الخامدة حتى يطير التراب عن جنوتها المدفونة تحت الرماد! الرماد بارد على السطح فحسب لكنه يسخن كلما دخلت فيه وعند الوصول إلى بصة النار يشتعل بأقل وقود!! إن كنت غشيمة أنت الأخرى فافعلى أى شئ على سبيل اللعب واللعب يعلمكما معا!! إن يد الطفل وفمه يعرفان طريقهما إلى حلمة ثدى الأم دون أن يعلمه ذلك أحد!! كل ما هنالك أن الطفل لا يجب أن يوضع على الصدر أولاً!! قومى الآن ونفدى ما قلت لك! اشترى لنفسك علبة تواليت! وطنى نفسك على أن تتجحى فيحالفك النجاح لا محالة!!».

(٥٣)

امتلات الردهة الصغيرة الضيقة بعدد كبير من الناس، رجال ونساء: ثلاثة من

عازفي الكمان، الأستاذ كريم بقانونه، سالم أبو شغه بناية، الشيخ عطية بعوده، الشيخ عبدالحليم مندور، الشيخ عمران، عفاف شاكر أحدث مطربة دخلت الإذاعة وتقلب عيشها في دور الملاهي الليلية في وسط المدينة، نقدق الرقاق. منهم من جلس على الكراسي التابعة لطاغم الأنتريه الرخيص، ومنهم من جلس فوق بقات وحمير خشبية منجدة، ومن جلس على الأرض العارية. فإذا طرق الباب طارق فلا بد أن يقف اثنان على الأقل من الجالسين لصقه ليتمكن فتحه.

لفظ هائل تختلط فيه الأصوات: ثمة من يتكلم بحماسة وصوت عال، ومن يدونز أوتاره، ومن يضبطها على الإيقاع. ثمة همسات صادرة عن وجوه على شاشة تليفزيون ماركة باي ١٧ بوصة أبيض وأسود موضوع على منضدة صغيرة لصق باب حجرة النوم مفتوح على الدوام رغم أن أحداً لا يتفرج عليه. ثمة أصوات لارتطام الأواني في المطبخ، ووشيش أكثر من وابلر جاز مشتعل، ثمة طفل جميل عمره فوق العامين بأشهر قليلة راح يزحف في الممر الضيق الفاصل بين الردهة والحجرات يقطع الممر رائحا غاديا فوق بالون منتفخ ما يكاد يصل إليه حتى يدفعه بقدمه الدقيقة الملاحظة صائحا في زأططة: هيه، ثم يلاحقه من جديد، هكذا دريته أمه على أن يلهو بعيدا عنها في لحظات الذروة كهذه اللحظة، ذلك هو مصطفى أول ابن لعبدالبصير، الذي فرح به فرحا كبيرا جدا، سيما وأنه يحمل الكثير من ملامح جدته الجميلة وخاصة عينيها الخضراوين، ها هو ذا عبدالبصير، رغم إنشغاله بضيقه، وبآلته، لا يني يراقبه في فرحة مشوية بالتوجس إذ يخشى أن يحسده هو أو غيره فيصطدم بشيء أو يوقع جهاز التليفزيون فوقه، لكنه كان مطمئنا لحسن العاقبة لما لمسه في ولده من ذكاء يبعده تلقائيا عن مواطن الخطر.

رفع الأستاذ كريم ذراعه ليعطيهم إشارة الاستعداد فتهيئوا جميعا، ثم خفض ذراعه مرة واحدة فشرعوا في العزف. إنها مقطوعة «المولد» لأحمد فؤاد حسن إحدى المقطوعات التي سيعزفونها مساء الغد في ملهى الأريزونا لأن الراقصة فلة مراد تفضل الرقص عليها تحديا لبقية اللاتي لا يرقصن إلا بمصاحبة موسيقى مشخلة بالإيقاعات الصاخبة. إنهن في نظرها يقمن بالتلطيط أو التثليلت أما هي

فتقدم رقصا فيه فن وفكر وموضوع!! شوف الأمله. هكذا ينبز عبدالبصير من تحت لتحت فى كثير من الاحتجاج والسخط المكتوم لكنه مع ذلك مستمر فى العزف بأعلى ما عنده من قدرة وحماسة، حتى إذا ما وصلوا للمقطع الناطق أعطاهم الأستاذ الإشارة بإيماءة من رأسه أتبعتها بنطق: صلوا على.. نور النبى، وهم جميعا يربون: ألفين صلا عليك يانبى.. الله الله .. صلوا على .. إلخ . وكان الصوت عميقا تردده جدران الشقة الضيقة، وتشارك فيه منال بصوتها من المطبخ ثم وهى واقفة على تخوم الردهة والمطبخ مكتفة يديها الملوئين بعصير الطماطم: ألفين صلا عليك يانبى الله الله، كانت تطلق صوتها فى ابتهاج صاف مشوب بكثير من الرضاء عن النفس، فها هى ذى قد نجحت فى استرداد زوجها، عشتت عليه وعلى أصحابه لا تكف عن خدمتهم ليل نهار حتى وهى حامل الآن فى شهرها الثالث للمرة الثانية، لم تعد تنتظر أن يطلبوا منها شيئا، فالقهوة وراء الشاي، وأكواب العصير الذى تجيد صنعه من الجزر والفراولة والبرتقال والجوافة والمانجو والخروب.

عزفوا مقطوعة «المواد» ثلاث مرات، ومقطوعة «حبيبى الأسمر» لعبدالوهاب أربع مرات، ومقطوعة «فتافيت السكر» لمحمد فوزى، وموسيقى وأغنية «زينة» لفريد الأطرش كل ذلك مرات عديدة حتى أطمأنوا إلى جودة مستواهم وفى نفس الوقت توهجوا وسخنوا، فبدأوا فى عزف مقطوعات لعبدالبصير: لونجا نهاوند، لونجا نوماجير، المشربية، عند ذلك قال الأستاذ كريم إنهم صاروا على أتم استعداد لتقديم حفل ساهر، إشمانط عبدالبصير بكثير من الغضب المفاجئ وشروح بأصبعه:

- «إلا موسيقاى !! لا أعزفها فى مثل هذه الأماكن لو قطمت رقبتى!! يكفى أن نتمرن عليها فحسب!!»

لوح الأستاذ كريم فى عدم اقتناع:

- «أنت حر ! لكننى لو كنت مكانك ...»

قاطعه بصوته الخشن:

- «كل واحد له نبي يصلى عليه!!»

وأطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخط في بعضه، فضحكوا لها، عندئذ صاحت منال: العشاء، سحب عبد البصير ترابيزة الأنثريه الواطئة المستطيلة، وهى عبارة عن لوح زجاجى على أربع قوائم، ألصق بها طقطوقة صغيرة وفرد عليهما جريدة قديمة، وقف فيما بين المطبخ والردهة، يتناول الأطباق من منال فيناولها لسالم أبو شفة ليضعها على الترابيزة: الأرز المعمر، هبر اللحم من مشوى ومقلّى ومسلوق مع الملوخية والبامية والسلطات.

فيما هم يشربون الشاي فاجأهم عبد البصير بقنبلة لم يكن يتوقعها أحد:

- «على فكرة يا أستاذ ! أنا لست معكم غدا!!»

- «ما هذا الكلام؟! أجننت؟!»

هكذا صاح الأستاذ فيه. فرد عليه بكل برود:

- «نعم جننت ! لن أشتغل !! يلزمنى راحة!!»

- «لا أراك الله! يامتعب القلب! بصراحة ياعبد ه أنت يجب أن تبطل هذه

الخصلة! كلما رزقك الله بقرشين تتمرد علي الشغل وتتركنا إلى الراحة والكسل!!

أنت تتبطل على النعمة خلّ بالك وهذا لا يرضى الله!!»

- «نعمة؟! هى !! نعمة!! الله الغنى عن هذه النعمة ياسيدى!! ربنا يكفينى

شرها !! اللهم اغثنى عنها!!»

- «أمرك عجب!!»

- «أمرى أنا؟! يجوز!!»

- «تراه أمرنا نحن إذن؟!»

- «الله أعلم بالضمائر!!»

- «معنا غدا أم لا؟!»

- «لا!!»

- «أنت حر !! لكن كان المفروض أن تبلفنى من أول الليل كى أتصرف فى

واحد غيرك!!»

- «ياسيدى ! المقهى مفتوحة للصبح! فيها بدلاً من الواحد عشرة!!»

- «لكن ليس فيهم عبد البصير الصوفانى!!»

- «وعنده فى حالة نفسية صعبة!! نفسى رافضة للشغل! صدىنى! طول الليل

وأنا أحاول كسر أنفها لتستمر لكنى لم أقدر!! هى النفس أمارة بالسوء كما

تعرف! وماذا أفعل لها؟! أطاوعها مؤقتاً لأريحها من الوجع ثم أعاود الشغل

ثانية!!»

حينما انصرفوا عاتبته منال على هذا التصرف: أبعد أن أكرمهم الله بالشغل

ثلاثة ليال فى الأسبوع، وجرت الفلوس فى أيديهم، يتبطروا؟ فأنفجر فيها يكاد

يبكى:

- «تعبت!! أشعر أننى أمرغ نفسى وفنى تحت أقدام راقصة تهز وسطها

وفخذيها!! أشعر كأننى صرت غباراً طائراً فى ذيل بذلة الرقص!! الفلوس الراقدة

فى يولابك الآن كأنها الثعابين تلدغنى كلما رأيته!! نفسى مصدودة عن الأكل

الذى نشتره بها!! إنها فى نظرى حرام ملوثة!! كيف أصلى لله وأقتات من عرق

فخذى راقصة تعرض لحمها على البشر؟! أمن أجل هذا تركت بلدى وأهلى وجئت

إلى هنا؟! ما كان أغنانى عن كل هذه المشقة!! العوالم فى بلادنا أرحم! ما قيمة

أن أكون عازفاً فى فرقة أكبر راقصة فى البلاد العربية كلها؟! أليست فى نهاية

الأمر مثلها مثل أى غازية من طائفة العوالم واللاتية؟! إن الغازية أحياناً تتحشم

أما راقصات القاهرة فلا يعرفن الحشمة ولا يبرعن إلا فى المسخرة وقلة القيمة!!

ساكون راضياً عن نفسى لو عرفت لأصغر مطرية هاوية!! أما أن أقضى كل هذا

العمر فى التدريب والمشقة لكى أستغل مواهبى فى هز وسط امرأة؟! الموت أليق

بى!! أعرف أنك ستقولين لى الأكل والشرب والمعاش ! وقد سبق أن قلت لك على

نظامى فى الحياة: الكمنجة أولاً! بعدها الأولاد! بعد ذلك أنت! هذا هو ترتيب

الأهمية فى حياتى ولن يتغير!! الكمنجة هى كل شئ فى حياتى! هى عشقى

وغرامى!! ليس هناك من يحب شيئاً ويمرغه فى الوحل!! إنتى أنتظرين الكمنجة

أن ترفعى وترفع من شأنى فكيف لها وهى المهانة أن ترفعنى؟! غير ممكن بالطبع

فإننى إذا لم أحترمها وأصون شرفها فإنها تحسف بى الأرض!! سأبقى طول
عمرى خيطا فى ذيل بدلة راقصة! مسفارا فى حداثها!! سيان عندى إن فهمت
هذا الكلام أو لم تفهمه فليس عندى غيره!!».

ثم أشعل سيجارته ، تعدد بجلابه على الكرسي، فى حين بقيت منال صامته
تحقق فى الأرض بعينين واسعتين قويتين، عاقدة ذراعيها فوق صدرها التى صار
فى مستوى بطنها المنتفخة. راقبت طفلها وهو يزحف نحوها فرحا باسمها يحاول
أن يتسلق ساقها. ابتسمت لابتسامته، فقد خطر لها أنه هو الآخر اعتاد صوت
أبيه وهو يتكلم بانفعال حاد، فلم يعد يخاف منه شأن من يراه لأول مرة إذ يتصور
أن هذا المنفعل ربما حطم كل شيء أمامه فى اللحظة التالية من فرط الإنفعال
وتصاعد الغضب، والمؤكد أن سيصاب بالذهول حينما يرى أن كل هذا الانفعال قد
هبط مرة واحدة إلى لا شيء بل ربما إلى بسمة أو ضحكة بلهاء تشبه صفيحا
يخبط فى بعضه. إلا أن منال كانت بقدر إدراكها لطية قلبه تترك أيضا أنه حنبلى
فى هذه المسألة بالذات وأنه يعنى بالفعل ما يقول، وإنها لتوقن تماما من أنه يحب
الكمائن أكثر منها ومن العيال ومن نفسه أيضا، فبقاؤه على قيد الحياة مرتبط
بأوتار هذه الآلة، إنه أشبه بالقوس تمسك به يد مجهولة قوية لتجربى به على أوتار
الحياة كيفما شاعت هذه اليد المجهولة، توقن كذلك أنه ليس دعياً، بل هى أول من
يعترف بموهبته، أول من يتمنى له الرفعة وعلو المقام، بل هى أول من يؤيده بأنه لم
يؤت كل هذه الموهبة من أجل شخلة أرداف راقصة فى شارع الهرم، إنما الحياة
صعبة، وهو لا يعرف شيئا عن أسعار أى شيء، يكتفى بوضع كل ما لديه من
نقود فى الدولاب لا يأخذ إلا مصروف يومه، ولا يكف عن إعلان انزعاجه كلما رأى
كومة النقود توشك على الازمحلل، يزعم أنها قد انضربت بقرء عفريت، ينسى
أن هذه العزائم اليومية تتكلف الشيء الفلانى. ما أبعد ذهنه عن تخوينها أو
اتهامها بالسرف، لكنه دائم الإنزعاج من نفاق أى شيء. تعرف كل هذا جيدا، إلا
أنها لو استسلمت لجنونه لامتنتع النقود عنهما تماما لفترات طويلة قاسية. فماذا
تفعل؟! لقد أصبحت تعرف حقيقة الجو من حوله أكثر منه، لأنها تراقبه من بعيد،

تعرف أن أية فرقة من الفرق الموسيقية لن تمكنه من تثبيت أقدامه فيها إلا كعازف بين العازفين وهو يئى إلا أن يكون العازف الأول، الصوليست، وهذا صعب قد لا يتحقق إلا بمشقة كبيرة وبعد زمن طويل.

زفرت، فكرت فى أصابعها، جعلت تحديق فى أطراف أظافرها شاردة، ثم قررت أن تبدأ من غد فى شراء ماكينة للخياطة بالتقسيط، لقد أن الأوان أن تتكسب من مواهبها فى الخياطة والتطريز وتصميم الأزياء، أشد مواهبها سطوعاً منذ طفولتها. السبب أن خالها أهداها عروساً جميلة من محلات القاهرة تغمض عينيها إذا نامت وتفتحها إذا قامت، وتحرك ساقها وفخذيها بمفاصل تمكنها من الجلوس والوقوف والتريع، كانت أعلى هدية تلقىتها، فعشقها، أصبحت تصمم لها الفساتين باستمرار، تتفنن فى اختراع موديلات جديدة فى تفاصيل جديدة يحكمها نطق بديع، تنخر القصاصات الجديدة المتعددة الأنواع والألوان تخلق منها تكوينات فى غاية الجمال والاتساق، تكونت لديها منذ الصغر حاسة التعامل مع الأقمشة الثمينة، فما أن كبرت حتى أصبحت تصمم لنفسها الفساتين والجونيلات وتخطيها بنفسها على ماكينة أمها، كما اعتادت أن تحيل الملابس القديمة المهمة إلى أشياء جديدة يمكن الانتفاع بها، وتلجأ إليها صويحباتها ببذلات أبائهن فتحيلها بقدرة فائقة إلى تاييرات بعد أن تقلب القماش على الوجه الآخر المحتفظ بلونه وجدته. لقد توقع لها الجميع أن تفتنى من وراء هذه المهبة، فلتجرب حظها إذن . تذكرت أن فى الدولاب بضع مئات من الجنيئات، فإلى أن تنفذ تكون هى بعون الله قد جنت بعض ثمار يديها، وهكذا سحبت نفسها برفق إلى السرير وهو من خلفها.

قالت: سم، ومدت له الطفل الذى دهمه النعاس فى الأرض، فقال بسم الله الرحمن الرحيم، وتناوله، مدده بجوار الحائط فوق المشمع المفروش له على المرتبة، وتراجع قليلاً لتصعد منال إلى جوار طفلها. فلما أطفأ النور وتمدد بجوارها أحاط ظهرها بذراعه تلقائياً. وتلقائياً استدارت إليه متلذذة بسماع دقات قلبه.

آخر ما كانت تتوقعه مزال أن يشك عبد البصير في سلوكها. لكنها بدأت تلاحظ عليه - منذ وقت مبكر - أنه كثيرا ما يرتاب في نواياها، يراجعها فيما تقول، يمسك لها على الواحدة، يسألها أسئلة غريبة غير متوقعة، يعتمد إرباكها، يلخبط غزلها فتعجز عن إقناعه، فتشوح في يأسى وضيق، فيسكت على مضض. هي لا تستطيع أن تفسر له أشياء من المفروض أن يفهمها بالبداهة، فمثلا هو غير مستعد للجماع في كل وقت فإنها أيضا كذلك كما أنها ليست - ولا يمكن أن تكون - مجرد لعبة جنسية يلهو بها وقتما يشاء ويهملها كلما أراد. كيف لا يفهم أنها باتت مجعدة أضعاف جهده؟ هو يقضى الليل كله ومعظم النهار مع كمانه، وحده أو مع رفاق، داخل البيت أو خارجه، أما هي فطوال النهار والليل منكفئة على ماكينة الخياطة ومقص التفصيل ورسوم البترونات التي تجمعها من المجلات لتدرسها كي تخالفها أو تطورها أو تبسطها. هذا وحده كاف لأن تستغرق في النوم بمجرد وضع رأسها على أى مسند، لكنها إلى ذلك تكنس تسمح تطبخ تسهر على راحة ضيوفه الأجلاف الطواويس. ما يتبقى في عروقتها من دم يكفى بالكاد لإرضاع وليدها الثانى زهرة، ناهيك عن ترويض مصطفى وتطبيب جراحه بمجىء غريمة له في أمه. لم يعد لديها وقت لتتزين وتجلس أمامه أثناء التدريب كما كانت تفعل فيما مضى، تستطيع فحسب أن تستحم لتزيل عن نفسها عرق الشغل ونكهة المطبخ، إلا أنها مع ذلك تستطيع أن تجهز نفسها. له يوم الخميس مثلا من كل أسبوع. غير أنه لا يقتنع بيوم واحد، ولا يتورع عن تقليب جسدها والعبث به وهي في أشد حالات الإرهاق لا تقوى على فتح عينيها بله أن تفتح فمها لتعترض. لو كان الود ودها لصحصحت على طول الخط ولكن ما ياليد حيلة. وإذا يشعر أنه ينفخ في نار خامدة ينفعها يغلظة ميرطما بجمجمة غير مفهومة ثم يقوم ليدرك صلاة الفجر جماعة في المسجد القريب.

يتفاقم الأمر شيئاً فشيئاً، أصبح عبد البصير يتأفف صراحة في منظرها الكريه كما يصفه، لا يعجبه أى ثوب ترتديه ولا أى وضع تتخذه في جلستها، يكثر من الحديث عن النسوان الجميلة اللاتي منظرهن يفتح النفس، وعن الأزواج الذين ابتلاهم الله بزوجات نتقات قبيحات، يحكى قصصا وهمية يزعم أنه سمعها أو شاهدها، يربط فيها بين إهمال الزوجة زينتها وبين اتساح الخيانة الزوجية، وكأنه يريد أن يقول لها بصريح العبارة إنها تهمل التزين له لأنها لم تعد تحبه، وأن برودها معه دليل على انشغالها وربما ارتباطها بآخر!!.

تأملت أشد الألم، لكنها كتمت بخار الغضب في صدرها، فقد كانت موقنة من طيبة قلبه ومن أنه مجرد مدب لا يجيد الكلام إطلاقاً، لسانه واقع على تلال من الانقراض البذينة يسحب منها دبشاً لا ينتهى وألفاظاً لا يصح مطلقاً أن تتردد فى بيت محترم، وقلماً ينجح المستمع فى تفادى واحدة من هذه الدبشات الباطحة، بل قد يصاب فى كل مكان فى جسده، اللهم إلا أن يكون من مريديه الذين فهموه وياتوا قادرين على تجاوز طبعه وكلامه فلا يتعاملون إلا مع فنه أو الرد عليه بدبش أقوى يردعه فيضيق ويمسك لسانه. هى مع الأسف لا تقدر على فعل ذلك، قصارى طاقتها أن تصبح فى وجهه محتجة فى احتداد غاضب إذا ما تجاوز حده، بكلمة واحدة لا تتغير:

«سبحان الله فى طبعك!! تريد أن تقتلنى!؟»

فيقول على سبيل الاعتذار:

«ياريت!!»

بلهجة يحاول أن يحملها قدراً من نبرة المداعبة والتراجع.

العناد يورث الكفر، ولكن من حسن حظها أن عنادها لم يطل، ورغبتها فى التمرد على رغباته التى حاول فرضها بالقوة والغلظة نجحت هى فى وأدها. فهى أصلاً تحب أن تترزين، أن ترى نفسها فى المرأة باستمرار، أن تكون مريخة للعيون بأى شكل، نفسيتها فى الأصل لا تستريح إلا إذا كانت فى أبهى زينتها بملابس نظيفة معطرة فوق جسد يضوى باللمعان والنعومة والنضارة، ولم يعرقل طبيعتها

هذه سوى إلحاحه الصياني، وملاحظاته الخشنة الجارحة.

كجبرى عقلك يابنت، وتذكرى كما قالت لك أم فريد أنك زوج فنان نصف مخبول
نصف عاقل، خذيه على قد عقله حتى تمضى السفينة أمنة بعيدة عن الأنواء، هكذا
كانت تقول دائما لنفسها.

كان الطالع حسنا، والمناسبة طيبة، أنجزت تصميم وحياسة صفقة من الفساتين
الثمينة لثلاثة عرائس دفعة واحدة جئن إليها من طرف أم فريد، من بينهن فنانة
سينمائية صاعدة. تقاضت أجرا مجزيا جدا، فوقه بوسة عميقة تمثلت فى بقشيش
خرافى من كل من عاين الفساتين من أهل العرايس. إلى ذلك فالיום خميس،
وسيزورهم الليلة أحد كبار الملحنين العتاة قرر أن ينافس كبار المطربين بأن يغنى
ألحانه بنفسه، على وجه التحديد ألحانه المبكرة جدا، التى تحولت فى ظل
عبدالحليم حافظ إلى نوع من التراث القديم. الملحن واثق أن الجمهور لم يتضع
نوقه بعد وأنه لايزال مفتونا بألحانه القديمة الجميلة، وقد فرح عندما لمس أن
عبدالبصير يحفظها عن ظهر قلب ضمن محفوظاته التراثية الكثيرة، حتى ليكاد
يكون مرجعا حيا فيها بالنسبة للحنها نفسه، إذ أنه - كما وصفه الملحن العجوز
- فى دماغه نوتة موسيقية محفورة لا تنطمس حروفها أبدا، لهذا فقد اختاره
ليكون العازف الأول فى الفرقة التى تصاحبه، سيمًا وأن هذه الألحان مليئة
بالتقاسيم المنفردة للكان، وسوف تسافر الفرقة مع حفلات برنامج فرح الشهر
وبرنامج ليالى الشرق التى تقيمهما إذاعة صوت العرب باسم البرنامجين
المذكورين فى الدول العربية منافسة بذلك حفلات أضواء المدينة التى تقيمها إذاعة
البرنامج العام فى الأقاليم المحلية. بالطبع لن يجيء الملحن بمفرده، ثم إن
عبدالبصير قد عزم الأستاذ عنان عاشق الموسيقى الذى يعمل مديرا لسنترال باب
اللو، والذى استجاب لأمنية منال بمجرد تصريحها بها : «نفسى يبقى عندى
تليفون» ، فلم يمض شهر واحد إلا وكان التليفون قد تم تركيبه فى شقتها،
ستجىء كذلك أم فريد مع أبى فريد، بل لقد وصلت أم فريد بالفعل منذ الضحى
لكى تساعدنا فى شغل المطبخ وتنظيم الشقة وإعداد المائدة على طريقة افرنجية

تليق بناس مهمين.

بمجرد الانتهاء من شغل المطبخ تناولتها أم فريد، أغلقت عليها باب الحمام، ويعرق الحلاوة المطاط نتفت لها كل شعرة وكل زغب فى حنايا جسدها، سوت حواجبها قوستها ببراعة كخطين مرسومين بالقلم الرفيع، أضاء وجهها واتسعت عيناها فى بحيرة من الكحل، أنساب شعرها جدائل حرة طليقة على الصدر والكفين، احمرت الخود كالنفاح، تفرجت الشفتان كالفرولة، انثال على جسدها فستان جديد الطراز من صنعها، أحالها الى غزال.

استقبلت الضيوف بترحاب ويشاشة كعادتها دائما، فاجأت زوجها بأنها اشترت - من كدها - مائدة دائرية محنقة عتيقة الطراز كلاسيكية أثرية بطاقم كراسيها من قادها إليه - سرا - سالم أبو شفة النايأتى فى شارع هدى شعراوى أوجدت لها ركنا فى الردهة بتعديل بسيط فى وضع الانتريه. امتدت المائدة على خير وجه، مضى كل شىء فى سلامة وإشراق بفضل دبلوماسية أم فريد وقيادتها الخفية للأمور.

بدا الجميع سعداء إلا زوجها، كان فاقدا توازنه ظل طوال الحفل مرتبكا، عصيبا، منحرف المزاج، يراقبها خلسة، وعلانية، فى عينيه شىء غريب كالصفاقة كالاتهام، شعرت هى أنه يجاهد ليخفى ضيقه، مما عرضه لكثير من الدهولة، فكلما وقع فى خطأ سدّد إليها نظراته كأنها المسئولة، حتى أريكها، وتر أعصابها، لكنها ماتلبث حتى تسترد بشاشتها بغمزة ذات معنى من أم فريد، إلا أنها كانت تضمر حزنا عميقا جدا فى قلبها، لا لشىء إلا لأن الملحن العجوز قد بدأ يسأم من كثرة الملاحظات التى يأخذها على زوجها أثناء عزف التريب وهذا شىء لم يحدث له من قبل أبدا، فالعادة أنه هو الذى يكتشف الأخطاء عند الآخرين، أما الآن فإن ملاحظات الملحن قد بدأت تتكلم فى بديهيات لايقع فيها صغار الهواة، صار الملحن غير قادر على إخفاء تبرمه واندهاشه فلا يننى يردد بين لحظة وأخرى:

«أنت مالك الليلة؟ إيه؟ ماذا جرى لك؟ لست فى القورم!! ما الحكاية؟».

وهو قد حط عليه غباء كالتمليذ البليد ذى الوجه الكالح يردد فى ابتسامة بلهاء:

- «مش عارف!!».

أو يغطي على ارتبাকে باطلاق ضحكة الشبيهة بصفيح يخبط في بعضه، كان الملحن العجوز محققا في تصريحه لحظة انصرافه بأن الليلة كانت للعشاء فحسب وأنه يشكر ست البيت من أعماقه، تبعه الأستاذ عنان معلقا بقصيدة مدح في سيدة هذا البيت وفي ذوقها الرفيع وشياكتها في كل شيء. اقترح الملحن العجوز بيته مكانا للقاء القادم، شيعه عبد البصير حتى بسطة الطابق السفلي، كانت أم فريد آخر المنصرفين، وحينما مالت على وجهها لتقبلها قبلة الوداع همست في أذنها بوصية شديدة الأهمية:

- «كوني باردة الأعصاب مهما فعل ومهما تكلم» !!

كوني مشتتة في الفراش كالنار فتهدأ أعصابه !!».

أومات برأسها مبتسمة، انتظرت حتى اختفت أم فريد في بئر السلم، أغلقت الباب ودخلت حجرة النوم فيما كان عبد البصير بيدل ثيابه، لاحظت أنه يرمى بقطع الثياب في كل اتجاه بحدة وضيق، يقلت الجلباب من بين أصابعه فيسبه سبا. فاحشا، صارت بكل هدوء تجمع قطع الثياب تشبكها في مشاجبها داخل الدولاب. جلس على حافة السرير وأشعل سيجارة محشوة بالحشيش . جلست هي على مقعد التسريحة، سلطت عينيها في عينيهِ باسمّة بنظرة فيها اشتياق ونداء. صار ينقل البصر فيما بين وجهها وظهرها البارز في المرأة. قالت:

- «أعمل لك شاي؟».

- «لأ!!».

- «قهوة؟».

- «لأ!!».

وشد نفسا عميقا من السيجارة ثم استدرك:

- «ما هذا الذي تعملينه في نفسك؟»

- «ماذا عملت؟».

واستدارت ناظرة لنفسها في المرأة، عاجلها:

- «ماكنت أبدا بهذه الأناقة!!».
- «طول عمرى أحب الأناقة حتى وأنا فقيرة!!».
- «عمرى مارأيتك بهذه الزينة !! فما سر ك هذه الليلة ياترى؟!».
- «أردت أن أعجبك ! فأتنا كما تعرف أحب كل شىء يعجبك ويرضيك!!».
- «فلم اخترت هذه الليلة بالذات كأنك عروس ليلة الزفاف؟! أنت لم تكونى هكذا وأنت عروس!!».
- «ومتى كنت عروسا؟! دعنى أكون عروسا هذه الليلة!! قدر أن هذه ليلة عرسنا! فكل ليلة يسعد فيها الإنسان هى ليلة عرس!!».
- «لكن لماذا هذه الليلة بالذات؟! هذا ما أحب أن أعرفه بكل صراحة!!».
- «راق بالى! خلصت من شغل كتم أنفاسى شهورا طويلة! تطهرت من أثر الولادة فليلة البارحة كانت الأريعين على ولادة زهرة! واكتملت المناسبة بمجىء ضيوف لايصح أن أظهر أمامهم بمظهر لايليق بك وبى! أم فريد يكرمها الله تولقتنى!!».
- «أ..أ..أ.. هذه هى النقطة إذن!!».
- واعتدل كائنه عثر على دليل الاتهام:
- «قولى إنك تزينت هكذا وفعلت فى نفسك البدع من أجل ناس آخرين!!».
- «ماذا تقصد يا عبده!!».
- وانقلبت سحنتها، هبت ريح الغضب على عينيها فكنتست ما كان فيهما من ضوء، أشعلت جمرتين متقدتين.
- «إلا أن منال تذرعت بأخر ما فى صدرها من زفرات:
- «وضح كلامك يا عبده! ما إذا قصدت بناس آخرين؟».
- «أنت تفهمين قصدى!!».
- كان صوته يقطر سما . وكانت نظراتها تقذف حمما:
- «هل أنت فى وعيك؟!».
- «تعرفين أننى لا أسكر ! والحشيش لا يغيب عن الوعى!!».

بنبرة حاولت أن تجعلها ساخرة:

— «أنت والله أعلم تتهمنى بالخيانة!»

— «كل شيء واضح إذن!!».

هطلت الدموع على خديها، لم تستطع إيقافها، شعرت لأول مرة في حياتها بالذل، وبأنها تورطت في صفقة خاسرة. دار الشريط في ذهنها بسرعة وكثافة، رأت نفسها عاملة في محل للأزياء، ثم صاحبة عمل، ثم شريكة منبوذة تحمل على صدرها طفلة وتسحب بيدها طفلا، لا أحد يقبل الزواج منها بسبب طفلها، جميع وجوه أهلها تحلق فيها بنظرات التشفى.

— «لماذا البكاء! تشعرين بالذنب طبعاً!!».

حملت فيه، همت بالبصق في وجهه، لكن أم فريد بزغت في ظلام حالك خلف رأسها فمنعته، كانت البصقة قد جمعت تلقائيا في فمها، فسحبت منديلها وأودعتها فيه بهدوء ثم مسحت أنفها:

— «حيرتني يا عبده!! إن تزيتن أكون خائنة!! إن أهملت زينتي أكون نتنة وخائنة أيضا!! هذا لتفسير له عندي سوى شيء واحد هو أن التخوين في طبيعك!! لكني ألتمس من الله الصبر على ظلمك!».

دفعت نفسها واقفة في انكسار، اتجهت إلى الحمام ففسلت وجهها، جمعت شعرها في عقدة واحدة فوق رأسها علقته في مشجبه، ارتدت ثوبا منزليا بسيطا خفيفا، صعدت إلى السرير فاحتضنت طفلها، أعطته ظهرها كأنما إلى الأبد، سرعان مادكها النوم لكا.

سلوكه بعد ذلك أصبح لا يطاق، لشدة مافيه من صبيانية والتواء يعود الى البيت في أوقات شاذة لكي يفاجأها، يزعم أنه مسافر لحفل سيغيب فيه أياما فتجهز له الحقيبة وتودعه حتى الباب، ثم تفاجأ بأنه قد عاد في عز الليل، في كل مرة لا يقتنع ببراعتها، فيغمغم، بما يكشف عن اعتقاده بأن الظروف قد خدمتها أو أنها طلعت أذكي منه، ثم يكرر المحاولة، في مرة دبر انخطة بإحكام حيث أشرك بعض زملائه في ايهامها بحقيقة أنه مسافر هذه المرة بالفعل: جاء زميلان بالتيهما

فى بكورة الصبح ثم ركبوا سياره فى انتظارهم مكتوب على لوحها المعدنية وعلى أبوابها أجرة - اسكندرية فصدقته هذه المرة فما كاد الليل يدخل حتى أمنت على نفسها فأغلقت الباب من الداخل بالترباس، فإذا بها فى عز الليل تسمع «عكرشة» فى الباب وحركة دفع قوية عنيفة ترج الشراعة والجدران نفسها، فزعت من نومها صائحة: من؟! فصرخ ضائقا بلهجة أمرة حادة: أفتحى فوراً!! فى الحال!! ألقت بنفسها على الأرض تتخبط فى الأشياء بحثاً عن زر النور، لفت جسدها فى ثوب كالعباءة هروا، فتحت الباب، اندفع الى الداخل مهرولاً. استدرك فارتد مسرعاً فأطلق الباب بالمفتاح، هروا الى حجرة النوم كالمجنون، أخذ يقلب فى الفراش، يفتح الدولاب يتحسس الثياب الواقعة كاشباح خاوية تثبت بطلان أفكاره وفساد نيته، يركع على الأرض يقلب البصر تحت السرير، يدخل المطبخ والحمام يكاد يرفع غطيان الحلل، يفتح كل الشبابيك ينظر فى الشارع والحارة باسترابة، فى النهاية يرمى بجثته فوق الكرسي لاهثاً يتصبب عرقاً، ثم يبدأ فى جر الناعم: عندك عشاء؟ فتسحب نظراتها المتاملة فى سخرية أليمة، تستدير الى المطبخ لتؤلف له عشاء سريعاً، تجلس أمامه لاأذة بالصمت حتى ينتهى من طعامه فترفع الأطباق إلى المطبخ، تتلأأ أمامه قليلاً فى انتظار أن يعن له طلب يطلبه، حتى إذا مالوح لها بذراعه علامة أنه لا يطلب شيئاً دخلت حجرة النوم فاحتضنت طفليها.

انكسرت نفسها، زهدت الزينة والجنس بل والفراش، أصبحت قليلة الفرح لاتضحك من قلبها إلا نادراً، كان هو يعمن فى الاسترابة رغماً عنه، كان شخصية أخرى تتلبسه فى معظم الأحيان فتتصرف بدلاً منه هذه التصرفات الشاذة. اعتاد أن يفتش فى ملابسها المودعة فى الدولاب، تحت أفرخ الورق المفروشة على رفوفه، فى حقيبة يدها، أحياناً يعثر على قصاصة ورق عليها عنوان ورقم هاتف:

- «بس!! اعترفى ! عنوان من؟»

ويجربى إلى الهاتف ليطالب الرقم:

- «اعترفى قبل أن أسأله ! اعترفى قبل أن اطلقك الآن بالثلاثة» .

الابتسامة الشاحبة تبسع على شفتيها وقد غاضت الدماء فى صفحة وجهها.

- «اسأله !! فأنت ضعيف الذاكرة!!».

يضع السماعه مسلطا عينيه فى عينيها بخشوفه وخسة ونذالة، وبذاءة:

- «ضعيف الذاكرة أم ضعيف الشخصية!! أم ضعيف شيء آخر ! قوايها

بالمره!! تنكرى لكل شيء».

تتذرع بالصبر والهدوء :

- «يارجل ياطيب !! نسيت أنك أعطيتنى هذه الورقة فى الأسبوع الماضى؟!

يوم كنا عاندين من زيارة أم فريد والتقاك فى الشارع رجل يعرفك وتعرفه من

سنين فطلبت تليفونه فكتبه لك؟! لاحظتها أعطيتنى الورقة قائلا ضعيبها فى

حقيبتك!! أما أنا فيعلم الله أنى لا أعرف حتى اسمه!!».

يظهر عليه القليل من التردد المشوب بقليل من الخجل ، يحاول التذكر، يثبك

مخه، يرفع السماعه فى إصرار غبى، لكن لحة ذكاء برقت فى عينيه حينما رد

عليه الطرف الآخر ، إذ قال على الفور:

- «أنا عبدالبصير الصوفانى ! من معى؟».

رد عليه الآخر مهللا بالترحاب، تعرف عليه قال له عبدالبصير:

- «ها أنا كلمتك كما طلبت أحب أن أسمع صوتك! خلنى أراك ! مع

السلامة!».

رغم هذا، فقد لاحظ مرة أن نوتة أرقام الهاتف مفتوحة بجوار الهاتف على

حرف معين، فقطب حاجبيه فى اهتمام شديد، راجع الأسماء المكتوبة فى الحرف

كلها متوقفا عند كل اسم لمدة طويلة قبل أن ينتقل الى غيره، خاصة أن الأسماء

والأرقام كلها مكتوبة بخطها هى لأن خطه عاجز وغير مقروء، حينما عجز ذهنه عن

ربط الشبهة باسم من الأسماء راح يسألها بشكل يبدو عرضيا عابرا:

- «تكلمت مع أحد ؟! أقصد فى التليفون؟!».

- «لم أسمع رنة التليفون طول النهار!!».

ترداد استرابتة :

- «ربما طلبت أنت أحدا لكى يسليك مثلا؟».

تهز رأسها بالنفى .. تتوتر أعصابه:

- «ولماذا الكذب؟ النوبة مقلوبة مفتوحة على حرف معين أمام التليفون تقول بالغم المليان إن أحدا كان يطلب رقما منذ قليل!!» .
تلوح بيديها فى ضيق، تنظر إلى أعلى طالبة الصبر من الله، تسعفها اللباقة بحس ساخر:

- «لو كان معى جهاز رفع البصمات لأثبت لك الآن أن هذه النوبة على وضعها هذا من صبيحة ربنا وأنت الذى وضعتها هكذا!! كنت تطلب شخصا قبل أن تخرج وكان الخط يعطيك مشغولا!! بالأمانة سببت ديك التليفون وهبت السماعه فوقه وخرجت فى الحال!!».

يزوم مفكرا، يتذكر بالفعل:

- «مضبوط ! تذكرت حقك على!!».

ويطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه، بلامبالاة كأنه لم يفعل شيئا يسىء إليها .

كان يدفعها الى الخيانة دفعا ولو على سبيل الهزء بكل محاولاته والتنكيل بعقليته الفاسدة، لولا أن شخصية أم فريد كات تبرز لها من بين كسف الظلام المتراكمة خلف رأسها تناشدها التعقل وتكبير المخ . صانت نفسها بقوة وصبر وجلد. قوتها كانت فى مواجهة نفسها بالحقيقة، حقيقة أنه قدرها الذى لامفر منه، فإنها رغم كل ذلك لاتزال تحبه وتقدر فنه، سيما وأن سلوكه المروج المستريب أصبح لا يؤلمها، فلم يكن إلا تعذيبا لنفسه فحسب، وكان يؤوب إليها فى النهاية دائما مقهورا شاعرا بالذنب لانذا بضحكته البلهاء يطلب عفوها، اعتادت أن تعفو عنه، حياتها معه أصبحت فى السنين الأخيرة عفوا متواصلا، غير أنها باتت تتصرف بحكمة وحيلة، تنظر فى وجهه أول الليل، فإن لمست فى ملامحه انبساطا، وفى حركاته روقان بال، وفى عينيه انعдал مزاج، قامت فترزنت وغيّرت ثيابها وتعطرت وأكثرث من الرواح والمجىء أمام ناظره، واختطاف لحظات تجلسها معهم خلال التدريبات المتواصلة، لتنتهى الجولة أو بالأحرى تبدأ بدايتها الحقة -

فى الفراش، خاصة أنها اشترت لكل من الطفلين سريرا هزازا، إما أن نظرت فى عينيه فرأت خلاف ذلك بقيت على حالها وكمنّت فى حجرة النوم حتى ينصرف رفاقه فيذهب هو فى أعقابهم الى مسجد الحسين ليؤدى صلاة الفجر جماعة، وحين يعود يجدها تقط فى النوم ، فيستلقى بجوارها .

(٥٥)

ناولوه سالم أبو شفة الناياتى السيجارة المظلومة بنوع ردىء من الحشيش، قائلا فى حماسة مفاجئة:

— «أقرأت الإعلان اليوم فى الجرايد؟!».

قطب جبينه:

— «إعلان ماذا؟!».

— «مسرح التليفزيون سينشئ فرقة غنائية استعراضية ستبدأ نشاطها فى الحال بتقديم أوبريت الليلة العظيمة من تلحين حسين جنيد وإخراج فؤاد الجزايرى وهم يطلبون موسيقيين يعملون مع الفرقة بعقود ثابتة وربما تم تعيينهم بعد فترة إذا استمرت الفرقة ناجحة!!».

طلقت الفكرة فى رأسه خضراء معيقة برائحة منعشة لعلها رائحة الاستقرار المؤدى الى صعود:

— «أنت قرأت هذا الإعلان بنفسك؟ والله دى فكرة نيرة ! تعال نتقدم ! لن نخسر شيئا ! صحيح أن كل شىء يمشى فى البلد بالوسائط ولكن لن نخسر شيئا ! مجرد طلب على وروقة دفعة!!».

تمت كتابة الطلبين فى نفس القعدة وفى الصباح توجهها سويلا الى إدارة المسرح فى مسرح الهوساير ثم رجعا بموعد للاختبار.

جاء انضمامه لفرقة أوبريت الليلة العظيمة بمثابة عهد جديد بكل معنى الكلمة، شعر أنه قد حصل على اعتراف رسمى بأنه موسيقي يعتد به فى البلاد، عضواً فى

فرقة تشرف عليها وتدفع رواتبها الحكومة، انفتح أمامه عالم جديد، ممثلون وممثلات ممن كان يرى صورهم فى لوحات الإعلانات، مخرجون مؤلفون مهندسون ديكور وإضاءة كمانه لفتت أنظار كل هؤلاء بون زملائه جميعا، بل إن زملاءه أنفسهم انبهروا به، صاروا يدبرون للاختلاء به عقب انسداد الستار فى قعدات خاصة فى حجرة التدريب أو فى بيوتهم لكى يعزف لهم نتفا من مقطوعاته التى ألفها بوحى من حبه لسعدية الملىجى، فإذا هم يندهشون من مهارة قوسة وليونة أصابعه وقدرته الفذة على استنطاق الأوتار بأوى لمسة بأقل نأمة، تتضاعف دهشتهم حينما يكتشفون أنه علم نفسه بنفسه وأنه لم يتخرج مثلهم فى معهد الموسيقى رغم أنه يجيد قراءة النوتة الموسيقية مثلهم، مع ذلكبقى شعور خفى يضح أحاسيسهم بمضطرب مريح، هو كونهم أكاديميين، نوى شهادات عليا أما هو فشعبى تلقائى غير مؤهل أكاديميا، ذلك هو الشيء الوحيد الذى تمسكوا به جميعا فى علاقتهم به ليصلوا عن أنفسهم غائلة تفوقه عليهم واشتهاره فى الوسط الموسيقى أكثر منهم فى زمن قصير حتى أن الكثيرين من الملحنين بدأوا فى الاستعانة به كصوليست متميز يرفع مستوى الأداء الموسيقى فى ألحانهم ويشجعهم على تخصيص فواصل منفردة للكمان، كان لابد أن يكون ثمة شيء يتميز به زملاؤه عنه يواجهونه به عند اللزوم.

بات هو حساسا جدا فى التقاط هذا الشعور بل كان كان يتوقعه ويحسب حسابه منذ زمن طويل مضى، وكم عانى منه معاناة نفسية قاسية، إلا أن شدة رنود فعله سرعان ما أنسته هذا الشعور تماما، فماذا ينقصه بعد إذ وضعه المتذوقون الأصلاء - وعلى رأسهم الجمهور - فى المكانة التى يستحقها!! ثم إنه ليس من الغباء لدرجة أن ينسى أن حملة الشهادات العليا هؤلاء يجلسون أمامه كالتلاميذ طالبين أن يدرهم على عزف مقطوعاته هذه ليقينهم، أن مجرد إجادتهم لعزفها يعتبر شهادة بأنهم قد وصلوا الى أعلى مستويات المهارة، هذا وحده يكفيه دليلا على أنه أعلى قامة منهم، بل إنه ليتلقى كل يوم شهادة عملية جديدة كلما شاهد المسرحية موسيقى كبير من عمالقة التلحين والتوزيع والتأليف والقيادة

والطرب، بات من المؤلف أن من يحضر من هؤلاء يطلب التعرف عليه بحكم ما سمعه عنه : إبراهيم حجاج، فؤاد الظاهري، محمد حسن الشجاعى، عبدالحليم على، عبدالحليم نويرة، أحمد صدقي، محمود الشريف، حسين جنيد، مدحت عاصم، كل هؤلاء وغيرهم استمعوا اليه فقالوا - أمام الجميع : هذه الموسيقى لابد لها من عازفين أخصائيين لابد من خلق عازفين جدد يتمرنون عليها لتخلقهم هى.

داخل مسرح البالون عثر على حجرة منفردة أشبه بالخص المنقى، لعلها كانت معدة لخفير مخازن الديكور، هذا الخص استهواه فاتخذة منتجعا لتدريباته اليومية قبل بداية العرض بساعات طويلة، وكان أنصاف المهويين من العازفين حملة الشهادات يستهجنون هذا الاغراق المبالغ فيه فى التدريبات ويتخونونه مثار للتريقة والسخرية ويقومون بزيارات خاطفة لهذا لغرض وحده. إلا أنه شرعان ما أعطاهم أعمق درس مفحم كان قد تعلمه بنوره من حوارات أبيه مع العازفين الأجانب الذين يحضرون للمشاركة فى حفلات الكنائس وهم من خبرة العازفين فى العالم، موجز الدرس أن العازف لابد له من تدريب يومية لا يقل عن ست ساعات إذا أراد أن يكون شيئاً حقيقياً له وزنه، وذلك من أجل سلامة الطبع، قيل وما الطبع يا عبدالبصير! قال يعنى انطباع الأوتار على الأنامل عند العفق، فبالدريب المتواصل تكتسب الأعصاب وعضلات الذراعين والأصابع سيولة وليونة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعرف الأوتار مستقرها من بصمات الأنامل فتستقر عليها بكل راحة بمجرد وصول الأصبع الى الوتر فى أى منطقة فيه، كما أن القوس هو لسان الكمان فلا بد من التدريب عليه وحده ساعة علي الأقل كل يوم بأن تمسك الأصابع بالقوس ثم تظل تحركه فى الهواء صعوداً وهبوطاً تنفضه.

استمع العقلاء من المهويين الأصلاء الى هذا الكلام فى إجلال وتقدير، أصبح منهم من يعيش الاستماع الى هذه التدريبات نفسها رغم أنها مجرد نغمات عشوائية غير متسقة فى سياق محدد، وقال له فؤاد الظاهري إن لك لمنهج فى التدريب، ذو خصوصية، فنحن أمام سبعة حروف، سبع قرارات وسبع جوابات على أوتار أربعة فماذا يمكن أن يخرج منها؟ إنك بتدريباتك العشوائية التفقاينة هذه تعصر الأوتار

عصرا تستحلبها آخر نقطة في ضروعها بالإلحاح على كل حرف ومحاصرته من جميع الطبقات ؛ وهذه التدريبات في حد ذاتها قيمة إبداعية كبرى لو أننا على درجة من الوعي لقمنا بتسجيلها على أشرطة كتمارين يمكن تقييدها على طلبة المعاهد عمليا ونظريا ويمكن تصديرها لكل من يريد التحقق في المعزوف الشرقي من معاهد العالم .

بات كل راغب في استقطاب المهارة والوصول إلى درجة عالية من الدربة يحج إلى هذه العشة السحرية ، حتى غدت مصدر أنس حقيقي في هذا المسرح الواقف على شاطئ نيل العجوزة يقدم لجمهوره ألعابا سحرية وأغنيات بهلوانية في فنتازية فنية مطبوخة جيدا من فنان جماهيري عتيق جمع في مزاجه بين السينما والمسرح ألعاب السيرك هو المخرج فؤاد الجزائري .

هذه العشة صارت بيته الحقيقي حتى أنها أنسته بيته الأصلي ؛ نسي زوجه ومحاولاته الكيد لها ، أصبح منشغلا بنفسه تماما . لم يلاحظ أن زوجة قد سمعت إلى حد مزعج ، صارت كالبرميل القصير تتحرك بصعوبة شديدة وتستعين بأكثر من خادمة ؛ بل لعله لم يلاحظ أنها أنجبت له بنتا ثانية اسمها مديحة ليصبح هو أبا لثلاثة : مصطفى وزهرة ومديحة . الشيء الوحيد الذي طفا على سطح ذاكرته فبات يذكره على الدوام لأنه لم يكن يتوقعه على الإطلاق هو ذلك الرجل الحاج الذي وفي بوعده ليثبت أن الدنيا في مصر لاتزال بخير وفيها ناس تستحق الجنة فعلا ؛ ذلك هو الحاج مصطفى الصوفاني ، سمي أبيه . كان التقاء منذ أكثر من عام في فرح ابنته في حدائق القبة . يومها - لأجل النصيب - ألهمه الله أن يتواضع فيقبل المشاركة بكمانه في إحياء فرح خصوصى على سطح عمارة ؛ وبالطبع كان لاسم الحاج دخلا في قبوله المجاملة بدون أجر ؛ سيما وأن الحاج صاحب عمارة سكنية جديدة يمكن أن يقوم عليه الأمل في العثور على شقة سكنية في عمارة جديدة محترمة في حي محترم يبعده عن حي العوالم السيئ السمعة . ولأنها إرادة الله فإنهم حينما عرفوه على الحاج بعد الحفل قال له الرجل في إعجاب شديد متحيز :

- «من أين جئت باسمك هذا ؟» .

ضحك ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخط في بعضه :

- «من عند الله ! أم أنك تريد أن تتنكر لابنك ؟» وأردف فحدّثه عن أصل عائلته الطنطاوية التي لا بد أن تكون هي نفسها عائلة الحاج ! ثم ختم كلامه بأنّه ابنه يحلم بشقة واسعة . فإذا بالحاج يقول له بكل بساطة :

- «عندى شقة في الدور الأرضى فى هذه العمارة نفسها يسكنها طلبة !!
فحينما يسافرون فى إجازتهم أعدك بأن تكون لك ! هات عنوانك !!» .

وكان وهو يلميه يتصور أنه كلام من قبيل فض المجاس ! لكنه فوجئ بأن الرجل قد أرسل إليه رسولا يخطر به بأن الشقة قد خلت . انطلق إليه بكامل عفشه وأولاده ؛ وبدأت منال تفرج عن مخزاتها فتحولها إلى أطقم للجلوس والمائدة والنوم . صار البيت بيتا بحق وحقيقى ؛ يليق أن يستضيف فيه من يشاء من كبار الناس . لكنه جاء بعد أن واف على هذه العشة الساحرة الملائمة التي بات لايفادها إلا بضغط من الحراس المجبرين على ضرورة إغلاق الأبواب فى نهاية السهرة .

كثيرا ما كانت تنتقل العشة بكامل هيئتها إلى البيت فى النصف الثانى من الليل ؛ ليكملوا تدريباتهم فى غرفة الجلوس المطلّة على الشارعين العمومى والفرعى معا ؛ فوق طاقم من المقاعد المطعمة بالأصداف والمنجدة بالقטיפه الحمراء . فما أن يدخلوا البيت حتى تنهض منال مستأنفة نشاطها فتجهز العشاء الدسم لكل هؤلاء . أثناء انهماكهم فى الأكل تستحم وتغير هئومها ثم تقبل عليهم بوجه مضىء كى ترحب بهم . فى العادة تستمر القعدة حتى أذان الفجر ، فيتركهم ذاهبا إلى المسجد المحنق المقتطع من العمارة حيث كان المفروض أنه دكان بمخزن لكن صاحب العمارة حوله إلى مسجد ليتمتع بحق إسقاط العوايد عن عمارته ؛ فكأنه أعد خصيصا لعبد البصير لأنه كان المواظب الوحيد على أداء الصلاة فيه .

لقيت مسرحية الليلة العظيمة نجاحا ملحوظا ؛ إذ أن الأعمال الفنية المؤلفة من

عناصر: غذائية كثيرة «كحلة التورلى» الشهيرة فى المطبخ المصرى .
وكان لمسرح البالون نفسه كبناء على شكل المنطاد ومجهز من الداخل
لتأدية الحركات البهلوانية، دخلاً كبيراً فى نجاح الفرقة . لهذا استمرت كفرقة
غنائية استعراضية تنتهى من عمل لتبدأ فى آخر ؛ وتم تعيين كل الموسيقيين
كموظفين فى الميرى .

طابت له الحياة ؛ امتلاً بنفسه . مرتب الحكومة يسد ثغرات لا يستهان بأمرها .
الحفلات الغنائية التى يدعى إليها فى الملامى بعد انتهاء العرض المسرحى أو فى
أيام الإجازات هى التى تسد الجانب الأكبر . زوجه لم يعد لديها وقت للتفكير فى
الأزياء ؛ وما حاجتها لذلك ؟ إنزوت ماكينة الخياطة فى ركن قصى من حجرة
المعاش ، لاتدار إلا للشغل فى ملابس أهل البيت والصحاب المقربين جداً . لقد
أصبحت منال أما لأربع أبناء يملأون حياتها صخباً وبهجة وانشغالا حميماً . لم
يعد يهم - ولأيهم زوجها - أمر الزينة أو أمر الفراش ؛ فلقد تمضى الشهور
الطويلة دون أن يجتمع كلاهما فى فراش واحد ؛ إذ هو يتهىأ للنوم فى اللحظة
التي تنهى فيها للصحو لتجهيز العيال للمدرسة ، ولشغل البيت الذى لاينفد ؛ فإن
تلاقيا على الفراش صدفة فى لحظة قيلولة فإن الظرف هو الذى يتحكم فى تحديد
مصير اللقاء ؛ إما تلاحم سريع لاهث مكتوم متحشرج وإما تبادل حوار سريع
حول شئون البيت والعيال .

امتلاؤه بنفسه فصله تماماً عن الحياة من حوله ؛ انحصرت حياته كلها فى
القوس والوتر ، ولا شئ غير ذلك ؛ لا يرى الحياة من حوله إلا مجرد أخبار تبليغه ،
بشكل عابر بغير تفاصيل ؛ أو فى شئ من الاحتفالية يعرف من خلالها بعض
التفاصيل . دائماً أبداً يفاجأ بحدوث الأحداث وانقلاب الأمور وحضور أشياء
طارئة ؛ فيضطر للسؤال عن أصلها وفصلها ؛ قد يفتن بفهم الظاهرة من ظاهرها
؛ وقد يخيل إليه أن محدثه عنها يخوض به فى حكايات طويلة غير مفهومة
ومعلومات معقدة عن أوضاع غريبة ؛ فإذا هو قد سئم بسرعة وانصرف ذهنه . هو
إلى ذلك لا يخب أن يصدر رأسه بالاستماع إلى أى مناقشة ؛ حتى الحوارات

والأحاديث التي تبثها شاشات الإذاعة لا يطبق متابعتها أكثر من دقيقتين فيأمر بتحويل المؤشر أو يقوم هو فيبحث عن أى موسيقى أو غناء فى أى محطة ؛ فإن وجده انذراه وأستحققه ! فيما عدا السنباطى وعبدالوهاب وزكريا أحمد من المعاصرين يبدو الجميع فى نظره معتمدين على النصب الفنى المتقن أو السرقة من الغرب .

دائرة معارفه السياسية تقترب من الصفر ؛ يعرف بالكاد اسم رئيس الجمهورية واسم رئيس الوزراء . وقد ظل شهورا طويلة لايعرف أن «الثقافة» قد استقلت عن «الإعلام» بوزارة خاصة ؛ وأن جميع المسارح بما فيها فرقته أصبحت تابعة لوزارة الثقافة فى هيئة اسمها هيئة المسرح والموسيقى . وقد ظل لوقت طويل - رغم إعلامه بهذا الخبر - يخلط بين وزير الثقافة ووزير الإعلام . ولولا أن الأمر قد تطلب منه تقديم أوراق ومسوغات ؛ كما أن شخصية الصراف الذى يقبض . منه راتبه قد تغيرت مثلما تغير مقر الخزنة ؛ لولا ذلك لما اضطر للسؤال عن حقيقة ما جرى .

فى كل ما سمعه وشاهده لم يدهشه شيء قدر دهشته من سوء مستوى الأخلاق فى الوسط الفنى بعامة ، بصورة صدمته صدمة عنيفة باردة ؛ تأكد على أثرها أن مجتمع العوالم والغوازي والموالدية - الذى استعلى عليه بإيعاز من أبيه - ربما كان أحسن خلقا وأنظف سلوكا وأعف من كثيرين جدا من هؤلاء المشهورين.اللامعين . لم يكن يتصور على الإطلاق أن الألفاظ السوقية القبيحة يمكن أن تجرى على ألسنة هؤلاء الذين سعى لشرف الانتماء إليهم فى العاصمة ؛ فإذا هم يتخاطبون بمفردات تتناول عضو الأم ، يصفون بعضهم بعضا بألفاظ يندى لها الجبين عرقا ؛ عبارة يا ابن القحبة جارية على كل لسان تتردد فى الدقيقة الواحدة عشرات المرات ؛ ناهيك عن الاتهامات الشنيعة التى تلقى جزافا وبدون مراعات لآى حرمة ؛ والأحكام الكبيرة تطلق دون تبصر لتصيب الأكابر والعمالقة فى مقتل !!

كثيرا ما تألم من ثقل الصدمة ؛ كثيرا ما فضفض للأستاذ كريم ؛ متسانلا

السر فى قلة الأدب المنتشرة بين زملائه . وكان الأستاذ كريم يطم بوزء فى أسف قائلا :

- «على أيامنا لم تكن العلاقات على هذا المستوى من الدناءة !! الصغير يحترم الكبير ! والكبير يحنو على الصغير ! لا تسمع فى البروفة إلا يا هانم ويا أستاذ ويا مولانا ومن فضلك ومن غير تكليف ولو سمحت لى .. إلخ ! علاقات على مستوى الفن !! اليوم صار الوسط الفنى لمامة !! اتسعت مساحة العمل قبل إعداد الكفاءات والكوادر اللازمة فامتلات الساحة بكل من هب ودب تحت راية الاشتراكية ويمبدأ إتاحة الفرص وعدالة التوزيع وما إلى ذلك من عبارات حق يقصدها تيرير الباطل وشرعية الخطأ !! عليه العوض !!» .

وعلقت أم فريد :

- «لا تنسى يا أبو فريد أن الثورة نجحت فى تكسير كل الروس الكبيرة فى البلد !! لا يجب أن يكون فى البلاد رأس أعلى من رأس الشوار ! والشوار يعنى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح نصر وشعراوى جمعة وعلى صبرى وسامى شرف وكل واحد من هؤلاء حكومة قائمة بذاتها وفى نفس الوقت يعرف مركزه أمام الرأس الكبيرة الوحيدة فى البلاد !! والله لولا ذكاء عبدالناصر ومعرفته بأنه محتاج لخدمات أم كلثوم وعبدالوهاب وعبداللطيم حافظ وتوفيق الحكيم وأمثال هؤلاء الأذكاء الثعالب الماكرين لمسحهم من على وجه الأرض !! هو صحيح يعرف أن لهم شعبية كبيرة والضرب فيهم يجرى موقفه لكن منذ متى كان يهيم حتى من الشعب نفسه ؟! إنما هو ذكى يستمع لمشورة مستشاره الخصوصى العاقل محمد حسنين هيكل فيجعل من أمثال هؤلاء رموزا يحرص عليهم لزوم المظهر !! أنسيت يا أبا فريد أن الثورة مرمرت كثيرا من الناس المحترمين مرغت كرامتهم فى التراب لمجرد أنهم خاصموها فى الرأى ؟! ألم تسمع ما يتناقله الناس فى السر عما يفعله صلاح نصر فى كبار الفنانات ليرغمهن على الشرطة والمومسة خدمة لجهاز المخابرات !! والله إن دى يغلى كلما جاءت سيرة هؤلاء الشياطين !! منذ يومين كانت عندى مطربة مشهورة !

قطعت قلبي وهي تحكي لى عما فعلوه بها ! حكموا عليها أن تكون عاهرة ! صوروها عارية ! سجلوا لها شرائط وهي فى الفراش مع من أرغموها بالنوم معه خدمة اللوطن !! بل ومع زوجها !! زعيم أفريقى بغل ننت ظل ليلة كاملة ينهش فى لحمها بأسنانه وأظافره حتى شوهها جعلها تنزف من كل مكان فى جسدها فحاولوا إلى المستشفى وزعموا أنها تعرضت لحادث سيارة ليبرروا لزوجها ولأهلها مافى جسدها كله ووجهها من خدوش وعض ونزغ مفاصل ! والمؤلم أنها فى النهاية لم تجد فى جوفه أية أسرار أو معلومات !! تقول لى ثورة ؟! ثورة الشؤم ياليتها غارت بها الأرض !! أضاعت البلد وهيبة الناس وزيفت كل شيء ! والله وربنا ما يرضى بهذا أبدا ولا بد أن يفضحهم واحدا واحدا !! يمهل ولا يمهل !! أنت الآخر طيب ياسى عبده !! أنت فلاح وعندكم مثل يقول : ما قدرش على الحمار شد البردعة !! هكذا الناس الآن ياسى عبده إلا يقدرن على شتيمة من يستحق الشتيمة فصاروا يشتمون بعضهم بعضا !! وعلى كل حال لماذا تستغرب ؟! الرئيس عبدالناصر نفسه يتلفظ بالألفاظ السوقية فى خطاب رسمى ! يقول عن الملك حسين ابن زين ! وعن ملك السعودية سأنتف ذقته ! وعلى أمريكا أن تشرب من البحر ! وتجىء أنت بسلامتك فتعترض على أن الزلاء يشتمون بعضهم بالآفاظ سوقية ؟! نصيحتي أن تكون فى حالك ! وبصراحة فلن تسلك معهم وتأخذ حقك إلا إذا كنت قليل الأدب مثلهم طويل اللسان !! أما الذين يتكلمون عن الأخلاق والقيم الوطنية هذه الأيام فإنهم أشبه بنكتة خطيب المسجد الحشاش أتعرفها ؟ أحكيها لك : وقف الخطيب على المنبر فى صلاة الجمعة ينهى الناس عن شرب الحشيش ويصرخ بأعلى صوته يعظهم بأن الحشيش ضار بالصحة يخرب البيوت والأدمغة ولهذا يحرمه الله ! فسأله رجل على نياته : وما الحشيش يا مولانا ؟! فدرس الخطيب أصابعه فى لفة العمامة وأخرج قطعة حشيش رفعها أمامهم قائلا : مثل هذا ! ثم دسها واستأنف الخطبة !! » .

ضحكوا ! وأضاف الأستاذ كريم :

— « إضافة لكلامك يا أم فريد فإن الثورة فتحت جميع الجامعات والمعاهد

العليا السفلة والرعاع وحثالة المجتمع ! والسفلة ليسوا هم الفقراء بالطبع !
حصلوا على شهادات عالية لكنهم بلا أخلاق بلا تربية فى الأصل ! واكتملت
الكارثة بأن أصبحوا الآن هم عصب الحياة فى كل مجال !! .

أستدركت أم فريد :

- «علمتهم الثورة لكنها مسحت شخصياتهم !! أذلتهم ! منعتهم من الكلام فى
السياسة طعنهم فى ضمائرهم نفت الأساتذة المحترمين وسلطت عليهم أساتذة لا
خلاق لهم يبيعون لهم العلم بالقطارة ويشتغلون مخبرين عليهم !! أهل الخبرة تم
استبعادهم من كل مكان !! وأهل الثقة خيالات مآته وماهم بأهل لشيء بالمرة !!
منظمات الشباب طابور من المخبرين وكتاب التقارير مطلوقين على عباد الله
الشرفاء المساكين !! » .

هز أبوفريد رأسه فى تأييد وعلى شفثيه ابتسامة حرجة تنضح خوفا وتوجسا
! ثم مال برأسه فى صوت خفيض :

- « لا أعرف متى ينتهى هذا الكابوس ! هل سمعتم بما حدث للمطرب
المسكين كمال حسنى ؟! نعم كمال الذى يشبه صوته صوت عبدالحليم كما
يزعمون ! مع أن صوته فى نظرى بونظر أم فريد أحلى بكثير ! مبتهج مبتسم
ملء بالأمل ! اكتشفه المذيع الكبير حسنى الحديدى فى برنامج ركن الهواة
فأعطاه اسمه كما أعطى المذيع حافظ عبدالوهاب اسمه لعبدالحليم شبانه ! وكان
عبدالحليم قد أصبح مؤسسة قائمة بذاتها منذ صار مطربا خصوصا لثورة
عبدالناصر فكبرت نفسه على زملاء الكفاح وانطلق يبحث عن زملاء ملائمين
للمرحلة ! لهذا رحب الموجى وغيره بالتلحين لكمال حسنى فنجح وأحبه الناس
حينما غنى مع شادية فى فيلم سينمائى وبدأ يشق طريقه ! هل علمتم بما جرى
له ؟ طبعاً لا ! المسكين كان عندى هنا منذ يومين فى حالة تصعب على الكافر من
شدة الرعب !! بكى بحرقة ووجع ! قال المسكين إنه دعى لأول مرة فى حياته للفناء
فى حفل أضواء المدينة فقابله الجمهور بعاصفة من التصفيق ! فى الحفلة التالية
طلب لنفس البرنامج فطلب الفرقة الماسية فتهربت منه ! فلجأ لفرقة من الدرجة

الثانية ! وفى الحفل بدأ يلاحظ أشياء غير طبيعية : الوجوه خلف الكواليس تتجنب النظر إليه ! عمال الميكروفات لا يلاطفونه كالعادة رغم أنه ينفق عليهم ما يتقاضاه من أجر ! الفرقة الموسيقية غير متحمسة ! مع ذلك غنى بكل أعصابه تحديا للجو المحيط به ! صفق الجمهور بحرارة طلب الإعادة مرة ومرات ! أثناء ذلك غاظه مجهول خلف الكواليس برفع صوت الراديو على اللحن المميز لنشرة الأخبار لبرهة عابرة فتأكد كمال بغيظ كظيم أن الميكروفون قد انتقل إلى الأستديو لإذاعة نشرة الأخبار ابتداء من فقرته يعنى لم يسمعه أحد ممن فى البيوت !! ما كاد المسكين يخرج من المسرح إلى بيته حتى وجد فى انتظاره أربعة رجال أشداء قالوا له : تفضل معنا حيث نطلبك فى كلمتين !! أخذوه ومضوا ! شحنوه فى سيارة بوكس فورد ! ذهبوا به إلى بناية فى حى لاطوغل ! ركبوا المصعد ! أدخلوه على رجل مهيب متجهم الوجه مثل القليطة قال له : يا هذا هذه آخر مرة تغنى فيها ! قال المسكين : مش فاهم ! قال الرجل المتجهم فى شخطة قوية : إنشاء الله ما فهمت !! أدرك المسكين وقد أمين أنه أمام واحد ممن إذا قالوا فعلوا فقال له : ولكن يا أفندم ! سعادتك تعلم أننى استقلت من شغلى فى البنك وأحترفت الفن !! فهب الرجل فى وجهه : عد إلى شغلك الاصلى إشتغل أى شغله إولع بجاز المهم أنك ان تغنى بعد الآن ! هذه أوامر عليا ! غناء ممنوع ! وأنت الجانى على نفسك ! مفهوم ؟! هن المسكين رأسه يعنى مفهوم طبعاً ! لكن الرجل شخط فيه بعنف : إنطق !! فنطق : مفهوم يا أفندم !! فشوح الرجل الغليظ يذراعه : مع السلامة ! ثم ناداه بعد أن خطا خطوة واحدة : إسمع : لو أردت نصيحتى فسافر إلى أى مكان وأترك مصر الآن لأن حياتك ربما كانت فى خطر ! وإياك أن تفتح فمك بهذا الكلام !! الولاد يا ولاده صار جلدًا على عظم فى أربعة وعشرين ساعة ! يمشى يتلفت وراءه من شدة الرعب ! ينام كل ليلة فى مكان مختلف !! بات عندى ليلة ! قال : دببنى ! قلت : دببنى أنت فبياتك عندى لن يمر بسلام ! ولكن أم فريد هذه التى تجلس أمامك أرجل منى بصراحة ! هى التى دببرته ! كلمت ناسا تعرفهم فى إذاعة الكويت قالوا لها : إرسلية فوراً !! اليوم فى الفجر جمع المسكين

حقائبه وتسلسل إلى الكويت ليعيش هناك !! وإني واثق أنه سيرجع لشغلته الأصلية كمحاسب لأنهم سيحاربونه في كل الإذاعات العربية لصالح عبد الحليم حافظ مطرب الثورة المدلل !! هل يستطيع واحد منا أن يفتح فمه ؟! » .

زفرت أم فريد في حسرة :

- « فكرتني بالولد عبد الوهاب ! يا قلب أمه صوت كالقيثارة ! إنه عبد الحليم وعبد الوهاب معا في صوت واحد ! إحساس وذكاء في الأداء ! ترك بصمة بأغنية واحدة مشتركة مع نجاة الصغيرة من تلحين محمود الشريف : وطني وصباي وأحلامي !! بهذه الغنوة قلب الدنيا على رأسه ! انسدت بعدها أبواب الإذاعة في وجهه فأخذها من قصيره وسافر إلى الكويت ! كان بعيد النظر ويحترم نفسه ! ولابد أن الحرب لاحقته في كل مكان فطلق الغناء بالثلاثة صار يقلب عيشه في شغل بعيد عن الفن !! خسارة الغناء بغياب هذا الولد لا تعوض ! ربنا يستر علينا بقية أيامنا لنخرج منها بكرامتنا !! » .

وشوحت بذراعها كائنها تقول : فضونا من هذه السيرة الشائكة المرة . إلا أن عبد البصير هو الذي نطق هذه العبارة بنفسه حينما استشعر الرعب الحقيقي ! ثم استغفر الله وطلب الستر بصوت عال . ولحظة شعر بأن شخصية جيدة تولد الآن في قلبه : سيغلق أذنيه عن كل شيء يسمعه ، لن يكون له أى دعوة بأى « مواضيع » ، لن يتكلم ، لن يهتم بمن راح ومن جاء ، لا يريد أن يعرف حتى أسماء الوزراء ولا المدراء ولا حتى الففر ، لن يكون مؤدبا مع زملائه حتى لا يؤكل أو يستضعف خاصة أنه لاحظ أن أعلامهم صوتا وأطولهم لسانا أكثرهم تواجدا ومكسبا . لن ، وإن ، وإن ؛ إلا أنه كان يحاول مع ذلك إسكات اللفظ المرتفع داخله لكي ينصت إلى صوت خافت يتردد في أعماقه يريد إنذاره بأن الطريق حالك وشاق ، وشائك . ومع الخفقان الشديد لقلبه كان يدرك أنه في احتياج للإنصات جيدا لهذا الصوت قبل أن يدلهم الطريق تماما .

بات مسخا مثيرا للعجب أكثر من الإعجاب . المتحدث معه قد تجيء عليه لحظة لا يجد أمامه شخصا بمعنى الكلمة يبادل الحديث ؛ ربما رأى ابن بلد ساذج ، كل

كلامه تطجين فى تطجين ، لايعرف كيف يصوغ رأيا أو وجهة نظر فى عبارات مستقيمة مهذبة ؛ إنما كل أرائه ووجهات نظره عبارات مبتورة موتورة غليظة خشنة جارحة ؛ فهذا فتان ابن قحبة ؛ وهذا فن وسخ ؛ وهذه بلدة من الشراميط ؛ وهذا المدير إن ضايقه فى المرة القادمة فسيحرر له محضرا فى القسم ؛ وهذه الراقصة لبؤة ، وبلك مغنية نصف كم ؛ ياعم سبيك ؛ غدا سوف يطريقها الله على رعوسهم ؛ إلى آخر هذا القاموس الذى لا يوجد إلا فى أحقر الحواري والمقاهى الرخيصة فضلا عن أنه لا يليق بأصحاب المواهب الفاخرة . لقد أصبح أشد وساخة وسوقية من الوسط المحيط به ؛ أصبحت شكواه من قلة الأدب لا محل لها وقد صار علما من أعلامها .

شخصية فقيرة جدا فى المحتوى الثقافى والإنسانى ؛ مع ذلك هو إنسان كريم طيب القلب حقا . ولأنه خاوي تماما من كل مايمت إلى الثقافة بصلة ؛ فإنه بات محض أصابع مدرية على درجة عالية جدا من المهارة والبهلوانية ؛ لكنها محض مهارة ، محدودة الأفق ، غير خلاقة . وآخر قطعة ألفها منذ سنوات طويلة بقيت حتى الآن لم تكتمل ؛ ومن الواضح أنها لن تكتمل فى ظل انحدار الوسط الذى انتمى إليه ودخله متعشما أن يستمد منه الثقافة والمعرفة والنمو والسمو ؛ فإذا العكس هو ماحدث ؛ لم يعد التأليف يلح عليه مطلقا ؛ لم تعد تطرأ عليه أية خواطر موسيقية مبهجة كتلك التى كانت تدهامه فى ظل عشقه البكر الأول لسعدية المليجى . إلا أن حماسه للمران والتدريب المتواصل لم تفتقر لحظة واحدة . وكان عزائه أن جميع من يستمع إلى تدريباته ينهر بما تفتتحه من مناطق نغمية شبه مجهولة ، وما تكشفه من قدرات للأوتار غير مألوفة من قبل .

إلا أنه وقد بدأ يلاحظ ذلك على نفسه ؛ لاحظ ما هو أكثر أهمية فى نظره ؛ شيء يشبه النفور المتبادل بدأ يقوم بينه وبين الكثيرين من كبار العازفين ، الكثيرون منهم أصبحوا لا يطبقون الجلوس معه أطول من ربع ساعة ، لا أحد منهم يرحب بالدخول معه فى أى حوار أو محادثة ؛ لا أحد يسأله رأيه فى أى شيء ؛ تجنبوه تقريبا ولكن فى شيء من اللطف والرقعة كما أن أحدا لم يعد يتحدث عنه

بالحماسة السابقة ؛ بل كف الجميع تقريبا عن الحديث عن موهبته ؛ فإن سمعوا
مبهورا ؛ جديدا يتحدث عنه بإعجاب أمسكوا هم التعليق ؛ فإن طولبوا بالتعليق
ردبوا عبارات مدغمة غير مفهومة ؛ أو مفهومة لكنها حيادية تماما . من كانوا من
قبل أصدقاء الحميمين باتوا إذا جاءت سيرته بينهم علقوا على فتور صداقته لهم
بكلمات سريعة موجزة : « مغرور - لسانه طويل - مدب - عصبى - جهول .. إلخ »
ويعد أن كانوا يساننوه إذا تحدث عن نفسه بزهو أو طالب بتحسين وضعه ؛
أصبحوا يفعلون ذلك بشيء من اللؤم والالتواء يعطى أثرا عكسيا فى غير صالحه .
زوجه منال كانت أنكى منه كثيرا فى العلاقات العامة كانت تعرف بالبداهة أن
مشاعر الغيرة والحقد هى التى تحكم علاقة كبار العازفين بزوجها . لسان زوجها
طويل أى نعم ، وحاد ، والاتهامات الشنيعة هى أقرب شيء إليه ؛ إلا أن ذلك مهما
كان لاينفى مشاعر الغيرة من رجل بلا علم على الإطلاق ولكن موهبته تتفوق عليهم
؛ ثم إنها تعرف - وهم أيضا لاشك يعرفون أن من يعاشر زوجها يوما واحداً
سرعان ما يدرك أن لسانه فى واد وقلبه فى واد آخر ، وأنه مزدوج الشخصية ؛
فالشخصية التى تعترف على الكمان هذا العزف البديع المؤثر ليست هى التى
تتعامل مع الناس . وهذا يعنى فى نظرها أن الذين كرهوه وحققوا عليه فى الخفاء
وبدأوا فى الدس والكيد له كانوا مستعدين لذلك فى الأساس ؛ فما صدقوا أن
أعطاهم الفرصة كاملة ؛ سلمهم المبرر الظاهرى المنطقى . لقد درست هى الأخرى
أخلاقيات الوسط الفنى جيدا ؛ إذ أن شقتها هذه صورة مصغرة منه ؛ أصبحت
على ثقة من أشياء يقشعر منها البدن كانت تسمعها ولا تصدقها . نعم هى الآن
موقنة من وجود من هو مستعد لقتل منافسه فى الشهرة والاستحواذ على الفرص
؛ نعم هناك وحوش بلا ضمائر يستلبون عفاف القاصرات بوهم الشهرة . نعم
هناك من هو مستعد للتفريط فى عرضه مقابل النجومية الزائفة ؛ نعم هناك من
يستعين بالحكومة على ردع منافسيه وإيقاف نموهم ؛ نعم هناك أشخاص
مؤسسات لا تعرف الرحمة أو الإنسانية فى سبيل استثمارهم كمؤسسات ؛ نعم
أما كلثوم مؤسسة وعبدالوهاب ألبان وعبدالحليم أخطبوط ؛ وكل فنان جديد إنما

يتوقف مستقبله على مدى قدرته على أن يكون أخطبوطا متفرع الأذرع والسيقان والزعفران والأعين والذبول؛ إن لم يكن للمطرب أو المطربة رعب في الإذاعة والتليفزيون والصحف والسوق فإنها ضائعة وهو ضائع لامحالة مهما كانا على موهبة؛ من ليس غولاً أكلته الغيلان؛ لقد رأيت كل هذا بعينها ولسنته بيديها؛ رأيت كيف أن الإنسان في هذا الوسط لابد أن يكون ناعم اللمس منافقا كذابا أفاكا بلا ضمير قادرا على التلون في سرعة البرق، زوجها إذن بالنسبة لهؤلاء وأولئك - على خشونته وطول لسانه وحدته - يعتبر ملاكاً طاهراً لا مثيل له بينهم، إن حذاه في نظرها ونظر أم فريد - وهما محققان - برقابهم جميعا بلا استثناء وعلى جميع المستويات.

لم تقلق منال من تدهور العلاقات بينه وبين كبار الموسيقيين بوجه عام؛ يكفي أن شخصياتهم جميعا تتلاشى على المنصة أمام طفيان كمانه تلك الفرس الغفية؛ يكفي أيضا أن جميع الشبان الجدد يلتفون حوله كال دراويش يحبون حتى طول لسانه.

اشتكى لها مرة أن الصحف لا تكتب عنه، وأن الإذاعة - مسموعة ومرئية - لا تسجل معه الأحاديث؛ فتصورت أنه يجب أن يتكلم عن نفسه، ولكن حينما تصادف أن سجل معه التليفزيون حديثاً في ليلة رأس السنة عن تمنياته للعام الجديد؛ فوجئت به يتحدث عن شيء لم يخطر لأحد على بال؛ لقد تمنى أن تنشأ النولة فرقة للموسيقى العربية تكون مهمتها إحياء التراث الغنائي بشكل معاصر؛ فالتراث يعتبر ثروة غنائية ثمينة مهددة بالضياع ومن المؤسف أن جمهور هذه الأيام لا يكاد يعرف لحنا واحدا لداود حسنى أو كامل الخلعي أو عبده الحامولى أو سلامة حجازى أو أبو العلا محمد أو محمد المسلوب أو درويش الحيرى أو على محمود أو غيرهم رغم أنها ألحان عظيمة جدا صنعت كل الأجيال؛ ثم عزف بالكمان بعض هذه الألحان؛ وقال إن إنشاء هذه الفرقة ضرورة قومية لابد منها إذا علمنا أن عدد الحفظة الملمين بهذه الألحان - الباقين على قيد الحياة - قد أصبح شديد الندرة كما أنهم في طريقهم إلى فقدان الذاكرة؛ ولابد أن

تتكون هذه الفرقة من خيرة العازفين وأجود الأصوات الكورالية ؛ وأن يشرف عليها ويقودها واحد من عمالقة الدارسين بحيث تقوم بتقديم هذه الألحان فى صورة عصرية حديثة بتوزيع جديد ، أوركسترالى . ولهذه الفرقة أكثر من هدف : إحياء التراث ونشره بين الأجيال الجديدة حفاظا على سلامة ذوقهم وشرقيتهم ، وربطهم بتراثهم وفى نفس الوقت تكون الفرقة بمثابة معمل للتفريخ يتخرج فيها المطربون والعازفون .

انبسطت أسارير منال من شدة إعجابها بهذه الفكرة ، ومن كونها فوجئت بأن زوجها تحدث جيدا فى حدود اللياقة والتهذيب . ليلتذاك اطمأنت ؛ وقامت لتستحم ، وتغير ثيابها .

(٥٦)

ربما كان من قبيل الصدفة أن وزير الثقافة - وهو المثقف الجهم نو القراءات العميقة الجادة والاهتمامات الفنية والفكرية المتنوعة - لفتت نظره شاشة التليفزيون المفتوح فى الردهة أمام أهل منزله، ف جذب انتباهه حديث رجل جهم الملامح مثله كبير الاسنان يتكلم فى حماسة شديدة عن فكرة انشاء فرقة للموسيقى العربية تتخصص فى تقديم التراث قديمه وحديثه فى ثوب عصرى بتوزيع أوركسترالى يلعب فيه الكورال دورا كبيرا .

بدت له الفكرة وجيهة إلى حد كبير ، اعطى أذنه للمتحدث فلما شرع يعرّف بعض الألحان القديمة على الكمان فاضت على اعطافه بهجة طاغية، وانتبه فى كثير من الوجل الناتج عن شعور مرهف بالمسئولية ان حفظه التراث الغنائى القومى ينقرضون إن بالموت او بعجز الشيخوخة. إنه وهو وزير للثقافة مفتون بالموسيقى العالمية الكلاسيكية القائمة على الفكر والتأليف ، وخاصة فاجنر والذى يملك من تسجيلاتها مكتبة زاخرة ما بين شرائط واسطوانات - يتوق الى استكمال تسجيلات لألحان عربية تراثية يعشقها ويترنم بها كثيرا فى خلوته .

تذكر في الحال الحانا كثيرة عظيمة كان يستمع اليها في طفولته وصباه وشبابه ثم اختفت تماما من سوق الغناء بل ومن الحياة كلها ، لعبده الحامولى وسلامة حجازى وعبد الحى حلمى وصالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا وسيد درويش ومنيرة المهدي بل وزكريا احمد والقصبجى الكبير وصبرى السويونى ، وتسأل : أين ذهب كل هذا الآن ؟ كيف سمحنا له أن يوشك على الانقراض ؟

دوت في اعماقه - على انغام الكمان الساحرة - بعض الحان حميمة، حملت معها اطيافا من الذكريات الحلوة معطرة الالحان ربما يكون في مكتبته على اسطوانات قديمة مشروخة الصوت . حضرت في قلبه الحان بعينها، تخيلها على صورة حديثة خلابة بأصوات شابة دراسة يصاحبها تحت كامل من الآلات الشرقية والغربية، توقع لفرقة من هذا النوع نجاحا جماهيريا مدويا ، عندئذ تغير المشهد على شاشة التلفزيون اثر انتهاء المتحدث من حديثه فظهرت اغنية خفيفة رقيقة لمطربة لا صوت لها لا حس لا معنى، ناهيك عما في الاغنية من صخب وأبتذال ، خيل اليه ان الواقع يحاوره ، تسمرت الفكرة في رأسه كضرورة قصوى في مواجهة هذه الفتاة . على أن الفكرة سرعان ما اختبأت تحت عشرات الأفكار والمشاريع الملحة العاجلة . كان موزع النفس بين مشاريعه الخاصة كمتقف ، وهى دائما طموحة مكلفة مرهقة . ومشاريع الوزارة وهى لا تقل طموحا وتكلفة وارهاقا . إنه الظاهرة الثقافية الوحيدة تقريبا بين تنظيم الضابط الاحرار القائم بالثورة ، وكان جادا بالفعل فى التأسيس الثقافى لوزارة تنشأ لأول مرة فى تاريخ البلاد، فوضع مؤسسات للمسرح والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية، والثقافة الجماهيرية والمعاهد العلمية المتخصصة .

لم تكن فكرة إنشاء فرقة غنائية تختص بتقديم التراث الغنائى العربى فى صورة عصرية اوركسترالية مجرد فكرة عبرت رأسه ثم طواها الزحام فى النسيان ، إنما اختفت فى ذهنه مؤقتا ربما لكى تختمر على مهلها ، وفيما هو فى مكتبته ذات يوم إذ دخل عليه احد وكلاء الوزارة وهو من فريق الضباط ايضا إلا انه موسيقى، لعله كان فى موسيقات الجيش، إلا أنه يفهم جيدا فى علم الموسيقى،

كما يجيد العزف على بعض الآلات الوترية ويغرم بكتابة المقالات والأبحاث في تاريخ الموسيقى وربطها بنهضة الشعوب. لم تكن كتابة جيدة بالطبع لكن استمرارها في الصحف جعل من أسم أنور خليل أبو ضيف علما من الأعلام، فأصبح يدعى لكل ندوة وكل برنامج اذاعي، ولكل حفل في جميع مجالات الفن عامة، وأصبح لا يتورع عن الإدلاء برأيه - العلمى - فى كل هاتيك المجالات الفنية بلا استثناء ، نون أى قدر من الحياء . كان طويل القامة معشوق القوام تنتهى قامته العملاقة برأس صغير مستدير كالقفاصة يظلها شعر خفيف ناعم يميل على الفودين، وجهه مكتنز الملامح ضيق الخدين دائرى الصدغين مستقيم الأنف على عتبة مكونه من شارب ثقيل مضموم تحت طاقتى الأنف ، كالخنفساء الكبيرة ، ضيق العينين، حاد البصر فى انتهازية متافقة ، مع ذلك يتدلى علي صدره منظر للقراءة بسلسلة ذهبية حول رقبة طويلة ممثلة ، شكله بوجه عام يأخذ سمات المثقفين الاجانب .

هو الى ذلك رقيق الحاشية هادىء الطبع بارد الاعصاب نادر الانفعال فى حركاته وسكناته وكلماته ثقة زائدة عن الحد هى بالطبع موروثة عن الضابط الذى كانه ذات يوم قريب . الواقع ان التراث العسكرى بقى ماثلا فى سلوكه العام، لا يحتمل مناقشة رأيه ، او التلؤف فى تنفيذ اوامره ، يكاد يأمر زملاءه وموظفيه ان يحيلوا انفسهم الى التحقيق اذا ظهر منهم أى تراخ فى فهم وجهات نظره او شبهه عدم الاقتناع بها ، إلا أنه سريع التدارك ، فالحق - يشهد زملاؤه - أنه يطوى الجوانح على قلب طيب محب للجد والعمل والاجتهاد كما أنه مولع بأمور الثقافة يعشق التحدث فى قضاياها المختلفة .

أقبل على الوزير بوجه باش :

- « صباح الخير سيادة الوزير جاعتنى فكرة أكثر من عبقرية ! عكفت عليها

فى الحال درستها من جميع جوانبها وإنى لفخور بتوصلى إلى هذه الفكرة !!! » .

وقدم له ملفا انيقا - ما أن صافحت عين الوزير غلافه وقرأت العبارات المدونة

عليه بالخط العريض حتى أشرق وجهه واتسعت الابتسامة على وجهه المقنع الملامح

ذى اللون النحاسى القريب الشبه بتمثال شيخ البلد الفرعونى. قرأ العبارة ثانية فى شغف : مشروع انشاء فرقة لتقديم التراث الغنائى العربى فى ثوب عصرى. صار الوزير ينقل البصر بين هذه العبارات ووجه وكيل الوزارة الذى وقف يبتسم فى سعادة من شعر ان اقتراحه صادف هوى فى نفس الوزير . قال الوزير فى ابتسامة دبلوماسية تفيض خبثا عميقا :

- هذه الفكرة من بنات افكارك يا أستاذ أنور؟ صاح وكيل الوزارة كمن يرد اتهاما عن نفسه :

- « لم اسمع مخلوقا يتكلم عنها من قبل !! إنها لم تخطر ببال احد على الاطلاق غيرى !! إقرأ سيادتك لتعرف انها مدروسة ولا يتفتق عنها إلا عقل دارس فاهم !!! » .

زام الوزير بنبرة ذات معنى وقد اتسعت ابتسامته وكثفت ظلالها . اشار له ان يجلس مرددا بصوت عال :

- « ما أعجب توارد الخواطر » .

ثم شرع يقرأ المذكرة التفصيلية التى حددت كل شيء حتى اعداد العازفين وأفراد الكورال ومرتباتهم ، ثم اشارت ضمن كلامها عن المصادر التى ستستقى منها الفرقة الالحان التراثية القديمة - إلى رجل يدعى محمد عبد السلام، من قدامى الموسيقيين ، عاصر الشيخ على محمود وزكريا احمد وأبوود حسنى وكامل الخلقى، ويعتبر من الحفظة النادرين فى مصر، كما أن لديه مكتبة موسيقية عامرة بالاسطوانات والشرائط والنوتات يضعها كلها فى خدمة هذا المشروع القومى. قرأ الوزير المذكرة باستمتاع كبير ، صار يضع خطوطا بالقلم الرصاص تحت كثير من السطور . فما أن اتم قراءة المذكرة وملحقاتها عن الميزانية للمالية حتى تناول ورقة بيضاء ، وسحب من جيب سترته الداخلى قلمه الباركر ذا الغطاء الذهبى ، وكتب كلاما كثيرا، ثم وضع الورقة مرفقة بالملف ، وهز رأسه ناظرا إلى وكيل الوزارة فى امتنان بما يعنى أن المشروع قد وجد قبولا حسنا، وما عليه الا الشروع فى التنفيذ بدون ابطاء .

إن هي الا شهر قليلة حتى نجح الوزير فى تجميع كافة الامكانيات المطلوبة وفى استصدار قرار جمهورى بإنشاء الفرقة ، (فرقة التراث العربى)، على أن تستعين بعناصر من فرقة المسرح الغنائى ، وأن تتخذ من معهد الموسيقى العربية فى شارع رمسيس مقرا مؤقتا لها إلى أن يتم بناء قاعة خاصة بها يطلق عليها اسم سيد درويش فى منطقة الهرم، وأن يعين أنور خليل أبو ضيف مديرا عاما لها .

(٥٧)

لم يكن عبد البصير واعيا بحقيقة ان فكرته تم الوثوب عليها، فسجلت فى التاريخ باسم وكيل الوزارة . لكنه شعر بفرح عظيم لمجرد ان فكرته لقيت قبولا حسنا، وإذا وقع عليه الاختيار ليكون من بين عازفيها، وإذا علم أن قاعة قيمة يتم بناؤها للفرقة، تذكر حلما رآه منذ أعوام طويلة أيام كان يعيش فى مدينة طنطا، إذ رأى نفسه يعزف بين فرقة مهيبة على مسرح فى قاعة فخيمة حديثة البناء ، زاهية الألوان ، وقيل له إن هذه القاعة اسمها قاعة سيد درويش ، وكان لحظتها يشارك فى عزف دور انا هويت لسيد درويش ، فلما رأى أن القاعة المزمع إنشاؤها ستسمى بهذا الاسم شعر برعدة هزته من قمة رأسه الى أخمص قدميه . فى اجتماع الفرقة الموسيقية بوكيل الوزارة المختص لمناقشة تصورهم عن عمل الفرقة وهدفها ونظام العمل فيها كان صوت عبد البصير أكثر الاصوات وضوحا وفهما وجذبا لكل انتباه، كما أن وكيل الوزارة - لأمر ما كان أكثر ميلا للاخذ بآرائه ووضعها فى الاعتبار ، سيما وأنها كانت تنم عن فهم دقيق جدا لرسالة الفرقة ، ووعى عميق لدورها ، ولدهشة الجميع أملى على وكيل الوزارة حوالى عشرين اسما من أسماء الحفظة العتاة من طائفة المشايخ والموالدية وقدامى المطربين ، يثق جيدا فى المامهم الكافى بأكبر قدر فى الالحان القديمة بل إن ذاكرة بعضهم تستوعب تراثا يرجع الى أكثر من قرن من الزمان .

طرحت الأسماء المرشحة لقيادة الفرقة موسيقيا . كلها أسماء لها وزنها الثقيل ، لكن عبد البصير اصر على اقتراحه بأن يكون المايسترو عبد الصبور ابو عميره هو القائد لا أحد غير ، لأنه يعتبر خبيرا فى الموسيقى الشرقية ، أما المايسترو عبد الطيم على المرشح أو الكفة الراجحة فإنه متخصص فى الغربيات وهو استاذ كبير فيها .

ما أدهشه أن بعض زملائه الذين لم يعجبهم تألقه فى هذه المناسبة وتوجسوا من احتمال لمعانه ومن أن يتبوأ فى هذا المشروع مركزا مرموقا ، راحوا يدسون الاسافين فى طريقه لدى المسؤولين ، حتى اوهموا وكيل الوزارة انور خليل ابو ضيف ان عبد البصير يسعى لأن يكون المدير خاصة انه يزعم فى كل مكان انه صاحب الفكرة . دعر وكيل الوزارة طبعاً لأنه فى حقيقة الامر اخذ الفكرة منه اثناء حديثه عنها فى التلفزيون ، خشى أن يتناول عليه فى الصحف لينازعه فى شرف انتماء الفكرة اليه ، فراح هو الآخر يدق الاسافين بهدف تحجيمه وايقافه عند حده ، بات لا يعطيه اذنا صاغية ، بل ويسفه من افكاره ويذكره فى كل لحظة انه رجل امى غير دارس وأن عليه ان يترك الكلام والآراء لاصحاب العلم، مما اثار غيظ عبد البصير واستفز لسانه المفلوت ، فأصبح يرد الصاع صاعين، يعلن احتقاره علناً ، وفى تطجين خشن - لكل اصحاب الياقات المنشأة والشهادات العالية، فاضطر وكيل الوزارة الى تلاشيه والاكتفاء بالكيد له فى الخفاء وانتظار الفرصة السانحة للإيقاع به فى شر أعماله .

لم يكن هناك عدد كاف من المغنين المطلوب تعيينهم ، حتى بعد نشر اعلانات فى الصحف تقدم كثيرون لكنهم عند الاختبار لم يصلحوا كمطربين محترفين . إلا أن لجنة الاختبار تخيرت مجموعة من الاصوات النسائية والرجالية ككوزال تتوقف قدراتهم عند الاداء فحسب .

فيما كان المايسترو عبد الصبور ابو عميرة يوجه العازفين فى اول اجتماع تدريبي - لضبط آلتهم على الطبقة الكبيرة ، رفع عبد البصير يده طالبا الكلمة . قوبل من زملائه بكثير من الاستنكار والاحتجاج الصامتين . حاول المايسترو

تجاهله عن عمد، إذ هو فى نظره مجرد عازف عليه أن يؤدى ما يؤمر به دون مناقشة . فلما التح عبد البصير على طلب الكلمة نظر المايسترو اليه فى اشمئناط هاتفا بكثير من السأم .

- «نعم ؟ قل ! » .

وقف عبد البصير فى تواضع شديد قال للمايسترو إن الطبقة الصغيرة - بعد إذنه - هى الانسب لمصاحبة غناء المجاميع الكبيرة، خاصة أن هناك ميكروفونات ، فى حين ان الطبقة الكبيرة سوف تشوشر على الغناء ، كما أن غناء المجاميع الكبيرة من الطبقة الكبيرة سيجعل الصوت الجماعى مدغما غير واضح الكلمات . أحمر وجه المايسترو من شدة الغيظ والكمد، بكل استهانة اشار له ان يجلس، ثم لقنه درساً فى الادب، بصوت عال فى خطبة زاعقة تضمنت عبارات قاسية من قبيل : من أنت؟ ومن أدراك؟ وكيف تجرؤ؟ وأنت هنا مجرد آلة .. الخ .. الخ .. غرق عبد البصير فى عرقه الغزير وسط موجات حارة من التشفى ، صار يتمنى ان تنشق الارض وتبلعه من شدة الشعور بالحرج والإهانة ، صار يريد :

- «خلاص يا افندم ! اللي تشوفه انا غلطان ..

ثم جلس ، لكنه - على سبيل المقاومة ورد العدوان - رفض ان يضبط كمانه على الطبقة الكبيرة . تعمد ان يراه المايسترو متراخيا غير متحمس للعمل . اعطى المايسترو اشارة بالتوقف، بعث اليه نظرة اهتمام ..

- «إيه !! مش عايز تشتغل معنا واللا ايه ؟!

ببساطة اذهلت الجميع هز عبدالبصير رأسه :

- «لا ! وإنى احتج على كل لفظ من الالفاظ التى قلتها حضرتك الآن فى ردك على اقتراحى !! وإذا انت لم تعتذر عنها امام الجميع فإنى لست فى هذه الفرقة!!» .

حسد نفسه على هذه الطلاقة فلم يكن فى الواقع قد فكر فى قول شيء من هذا ولو فكر ما فعل . اما وقد فعل بكل هذه الجراءة فقد رأى من الافضل ان يستمر ولا ضاعت كرامته تماما بين زملائه الذين يستولون عليه لجرد انهم يحملون ورقة

مختومة من احد المعاهد ، كان سعيدا حقا وهو يرى مسحة من الخجل الرقيق تتمشى فى وجه المايسترو الذى وضع انه قد استاء من نفسه لخروجه عن حدود اللياقة فى رده . إلا انه لم يشأ أن يعتذر هكذا بالأمر ، فتش بأخر ما فى طوقه من رقة ، وبابتسامة مهذبة جدا قال :

« - وإذا لم اعتذر » .. !

لكنه قالها بلهجة مازحة ، فقال عبد البصير :

« - اذن فأنا لست فى الفرقة ! » .

فى الحال سحب صندوق الكمان ، فتحه ، وضع الكمان فيه اغلقه بثبات وهنوء وثقة ثم نهض واقفا :

« - هل تعطينى الاذن بالانصراف لو سمحت »

تسمر المايسترو فى مكانه وقد اسقط فى يده فلم يدرك بماذا يجيب . كانت الابتسامة الخجلة قد ماتت على شفثيه . أخيرا قال بأريحيه :

« - استاذ عبده ! تفضل واجلس ! افتح الكمان واشتغل !! » .

تحرك عبد البصير ببطء حتى تخلص من صف المقاعد التى رحب الجالسون عليها بفكرة انصرافه فتزحزحوا موسعين له طريقا سهلا . انطلق فى مشيته السريعة المتطوحة الشبيهة بمشية الدهماء .

جن جنون المايسترو ، صرخ .

« - تعال هنا يا أستاذ أنت !! ارجع مكانك !! أنا لم أعطك الإذن

بالانصراف !! » .

شوح عبد البصير ببديه فى صراخ اعلى :

« - « تسمح لنفسك تهزى » الخلق فحسب ؟! أنت هزأتنى بغير موجب لمجرد

اننى اقترحت عليك الفكرة الاصح !!

لكنك بدلا من مناقشتى حتى تقنعنى او اقنعك هزأتنى !!

فهل تظننى عبدا فى ضعيفتك ؟!

من حقى أن احتج ، ! وانصرافى الآن بغير إذنك هو الاحتجاج الذى لا أملك

غيره! » .

شحب وجه المايسترو شحوباً واضحاً . اشفق عليه البعض من الطيباتية الانتهازيين ، تواتر التعليقات تصافح وجهه تملس على ملامحه بملق سمج :

- « لا تحرق دمك يا مايسترو فلا شيء يستأهل !! » .

- « خلنا في بروفتنا يا مايسترو فهي الأهم »

- « دعه فكل واحد ادري بمصلحته !! » .

النبرة الخفية وراء هذه التعليقات بدت كأنها تقول للمايسترو : احرق دمك اكثر

!! لا تترك هذا الشخص إلا مدمراً تماماً علي يديك !! .

وقف سالم أبو شفة ثم ذهب الى عبد البصير :

- « لا تركب دماغك يا عبده ! عد الى البروفة ! لاتكن مجنوناً !! إنه المايسترو

أأم تراك نسيت نفسك ١٩ » .

شاطت اعصاب عبد البصير ، ارتفع غضبه في زعيقه الى أعلى ذروته ، صار يشوح بيديه وقد عميت عينه عن كل شيء حوله ، كما عمى صوته فصار لا يدري ما يقول . بكل عنف وقوة راح يدفع من حاول لمسه ، فيلقى بهذا على الارض وبذاك على الكرسي ، غير مدرك أن هذا الذي دفعه هو مدير الغرفة أنور خليل أبو ضيف الذي جاء يجرى من مكتبه ليستطيع الامر .

كان قد خيل اليه أن الجميع تكاثروا عليه لقهره ارضاءً للمايسترو والمدير وأن جميع حاسديه قد انتهز الفرصة النادرة لسحقه وإخماد انفاسه حتى لا تقوم له قائمة ، الدنيا كلها صارت في نظره صفراء مزرقه كلون سم الافاعي ، فاستحال هو الى شمعة من اللهب بعشرات الالسنه تصب النار في كل اتجاه ، لم يبق على ظهر الارض مسئول لم ينل حظاً من الشتائم والسباب الفاحش المتدفق بغير حساب ، حتى إذا تعب من الزعيق وانهد من الفلفصة والبهذلة حاول أن يلم نفسه المبعثرة ، فصار يتخبط يتعثر في مشيته يلهث بعمق صار من الواضح انه عمى عن الطريق ، فارتدى متهاكاً على أقرب كرسي يمسح عرقه يلتقط انفاسه المبعثرة .

رغم أن الخبطة التي نالها مدير الفرقة المتغطرس كانت قوية ، إذ أن الدفعة طوحت في الهواء فارتطم رأسه بحافة الكرسي ، فإنه مع ذلك كان سعيدا ، تتصاعد من ملامح وجهه المكيف ومضات شريره تصب في ابتسامة صفراء عريضة ، أخيرا جاءت الفرصة على الطبطاب ، فهذا الولد كان له كالثوكة في الجنب، لم يكن يستريح لوجوده في الفرقة مطلقا إذ هو الصوت الوحيد الذي يشذ عن الجميع لا يعرف اللباقة ولا المجاملة ولا كيفية مخاطبة الرؤساء ثم إنه يعتبر نفسه مسئولا عن الفرقة كائنه صاحبها، كان أنور خليل أبو ضيف على يقين بأن بقاء هذا الولد في الفرقة سيفسد عليه كل خطاه، سيكون قدوة للفساد اليوم يتبجح مع المايسترو ويدفع المدير لبيبطة وغدا يجلس على كرسي المدير ..

« تعال ورائي !! » .

هكذا اشار اليه وهو يمضي نحو مكتبه ، بلهجة أمرة صارمة .

وكأن عبد البصير قد وجد أخيرا شيئا يفعله ، إذ نهض قائما في الحال بحماسة ، فمضى وراء المدير في خطوات صلفة متحدية ، خطوات من استعداد نفسيا لكل النتائج بكل ترحيب ، ففي تلك اللحظة كان قد وصل الى يقين قاطع بأنه لا بقاء له بعد اليوم في هذا الوسط الموبوء المنحل، بل صار مستعدا لتطليق الكمان نفسها رغم عشقه للأسرة الكمانية : الفيولين والفيولا والتشيللو والكونترباس .

لقد كان يتعشم أن تقوده الفيولين .. الكمان .. الى الحرية والكرامة فإذا هي تقوده الى أن يكون مطية لكل منعجرف متكبر . اذا كان آلايه العوالم قد ابتذلوا الآلات بجهلهم وسوقيتهم ونقص مواهبهم فإن المحترفين الدارسين فيهم كمية شر تكفي لتدمير المواهب وكسر الانوف ، فأى فن ينتظرون من عازف مكسور الأنف خافض الجبين لا صوت له ؟ ..

بلهجة ضابط عسكري عريق ، سمجة كلهجة ضباط الشرطة - نقر أنور خليل أبو ضيف علي سطح المكتب :

« عامل لى فتوة فيها يا باشا ؟ »

التهديد السمج ينضج صفراوية بشعة فى فحيح صوته المستشفى. بعصبية حادة رافضة لهجة وإصاحبها والفرقة والوطن نفسه، شوح عبد البصير بيديه فى ضيق بلغ حد الاختناق ، وقد تدفق اللعاب من شفتيه :

- «نعم أنا فتوة !!!» .

وكانت - نون قصد - قد اطاحت بكل ما على المكتب من أكواب ودواة جبر ونشافة ومقلمة واوراق . تتأثر كل ذلك طائرا فى الهواء وفى وجه سيادة المدير ، الذى تسمر فى وقفته مبهوتا - أخيرا خرج صوته كفحيح الافعى ! ..

- «أنت مرفوت!» .

- «مرفوت !! يا دار ما دخلك شر !!» .

ونهض واقفا يبحث عن كمانه لينصرف ، صرخ فيه انور خليل ابو ضيف بحنق شديد :

- «أنتنظر لايد أن تأخذ قرار فصلك معك حتى قبل ان يوقع عليه الوزير» .

وانحنى يكتب قرار الفصل . شوح عبد البصير فيما يتجه الى الباب:

- «عنوانى عندكم !!» .

- «قف مكانك !! سأطلب لك رجال الأمن !!»

وضغط على زر . رن الجرس . دخل الساعى ، كان يتعثر فى كثير من الخجل والحرص والتوجس من أن يكلف بعمل غليظ ضد هذا الفنان الجميل السكره، الذى يعطف عليه باستمرار ويغدق عليه . اعطاه المدير قرار الفصل :

- يكتب على المكنة فوراً ويسجل فى الدفتر ويجيء مع الدفتر ليوقع فيه بالاستلام !! اقبل الباب وراك بالمفتاح !! ..

أحني الساعى رأسه فى امتثال صامت ، ، وخرج وسمعت تكات المفتاح من الخارج . استدار عبد البصير قد بردت اعصابه فجأة كأنه غرق فى بحر من الجليد جلس على الكرسي مبتسما فبدت اسنانه الكبيرة كأنه يكشر عن أنيابه ، مما ادخل الرعب فى قلب المدير فأدار وجهه بعيدا عن نظرات عينيه ذات الحول الخفيف الذى اضى على وجهه مسحة من شقاوة وغلظة شنير السيمى المصرية

صار المدير يعيث بالاوراق يحاول اعادة الاشياء الى اماكنها السابقة : ادرك عبد البصير مدى الربح الذى سيبه له، فاطلق ضحكته البلهاء الشبيهة بصفيح يخبط فى بعضه . من تحت لتحت جعل المدير يسرب اليه النظرات المحمومة وقد بدأ يوقن انه أمام مجنون رسمى لن يتورع عن فعل اى شئ راحت ضحكة عبد البصير تغلو ساخرة من كل ما حدث: أخيرا وضع ساقا علي ساق ، اشعل سيجارة فى بطة الخمران الذى يريد الاستمتاع بكل حركة فى التدخين .

ما كادت السيجارة تنتهى حتى سمعت تكة المفتاح فى الباب، هبت لفحة ريح، على أثرها تقدم الساعى بالدفتري مفتوحا وفوقه نص القرار على ورق فلوسكاب أبيض كان الساعى خافض الرأس مطبق الشفتين يتجنب النظر لعبد البصير حتى لا ينفجر فى البكاء من فرط التأثير . استدار وخرج . أمسك المدير بنص القرار فراجع بنظرة سريعة ثم وقع على الصورتين ، رمى من يواحدة منهما فى اتجاه عبد البصير .. تفضل ، وأشار له بإصبعه على الموضع الذى سيوقع فيه فى الدفتري . بكل هدوء وثقة نهض عبد البصير فتناول الورقة ، طواها اربع طيات، دسها فى جيبه ثم وقع فى الدفتري ، ثم حمل كمانه على صورة وغادر الحجرة مهولا لا يلوى على شئ :

خرج من مبنى معهد الموسيقى الى شارع رمسيس ،لقى بنفسه فى واحدة من سيارات الاجرة هاتفا فى عصبية متعاطمة :
- « حدائق القبة يا أسطى ! » .

توجست منال من منظره المتجهم ، سألته عن سر عودته مبكرا لكنه لم يرد، اسند صندوق الكمان فى ركن من حجرة الصالون تعود أن يضعه فيه، ثم جلس واضعا رأسه بين يديه . استعاد ما حدث محاولا تغليب نفسه بأى وضع ، لكنه تأكد من سلامة موقفه . خشى ان تمعن منال فى الاسئلة فنهض متجها الى حجرة النوم ، خلع ملابسه القى بها على السرير، شجر أنه ربما يخلد إلى رقاد طويل ، فزحف عليه الاككتاب قويا داهما . اسلم نفسه لطائف النوم، ثم ما لبث أن تعالى شخير .

أول شيء فعله فى صباح اليوم التالى أن خرج يبحث عن دكان او مخزن للإيجار يقيم فيه ورشة لصناعة ألتى العود والقانون ، وقد دفعه الى البحث بجدية شعوره بأن العثور علي دكان للإيجار فى هذه المنطقة الأهلة أمر أقرب إلى المستحيل .

العجيب ان البحث لم يطل، الفأل الحسن وضع فى طريقه شقة من حجرة وصالة فى الطابق تحت الارضى فى منزل عتيق متهاالك على بعد ثلاثة شوارع فقط من مسكنه، أغلب الظن انها كانت معدة لتربية الدواجن.

دفع فيها خلوا بسيطا ، مما اضطر منال الى ان تخلع الكثير من أساورها الذهبية . ثم شرع فى الحال فى تجهيز الورشة مفعما بتفاؤل كبير لأن ورشة أبيه فى طنطا كانت هي الأخرى فى شقه مشابهة فى بيت مماثل. ارسل فى طلب احد إخوته من طنطا ليعمل معه صنايعيا يؤسس للعمل فى الورشة بخبرة أبيه الموروثة. ما لبث اخوه حتى جاء على الفور ومعه قائمة بقطع العدة التى سيشتريانها معا، وقائمة أخرى بعنوانين المتخصصين فى تصنيع أخشاب الآلات الموسيقية . فلما فوجيء عبد البصير ان العملية تجرى فى طرق سالكة ايقن ان هذه الورشة هى مستقبل أولاده ، فاقسم ليستورن جميع الأخشاب والأدوات والمعدات من الخارج، وقد فعل كل ذلك فيما لا يزيد على شهر واحد قبدا الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام الطيبة ، إذ أنه ذات صباح جميل مشرق فوجيء بنفسه يرتدى ثيابه الأنيقة ويمضى الى الورشة لافتتاح اول يوم عمل فيها كان يتنفس بقوة وشعور بالحرية والسيادة والتطهر ، فإذا به وجها لوجه أمام اعرابى يسوق امامه قطيعا من الخرفان ، فتذكر ان عيد الاضحى على الأبواب ، فامتلا بفرحة غد منشود ذى تباشير الهية .. استوقف الاعرابى ، انتقى خروفين ، لم يفاصل كثيرا ، سحبهما إلى الورشة ، ربط واحدا منهما فى منخل الورشة، وصمم ليذبحن الآخر على عتبته قبل ان يخطو بداخلها. وكانت اصابعه الطويلة باعثة النغم العبقري قد راحت تسلخ جلد الخروف ، فيما ينشغل ذهنه فى البحث عن يستحقون ان يوزع عليهم لحم هذا الخروف بالمجان .

أجرى المايسترو وتدريبات لا حصر لها على الطبقة الكبيرة، ولكنها كلها باءت
 بفشل ذريع، لم ينضبط الصوت الجماعى أبداً، عدل وضع الميكروفونات على جميع
 الأوجه ، أعاد التسجيل التجريبي مرات ومرات، استمع بدقة وتركيز شديدين، وفى
 كل مرة يتأكد له أن الصوت الجماعى - فى العزف وأداء الكورال معا - مندغم
 تماماً، فضلاً عن عدم صفائه ، وتشوشه واستحالة وصول معانى الكلمات الى
 الأذن فى صحة وسلامة . حينئذ أيقن أنه ظلم عبد البصير بقدر ما تسرع فى
 الهجوم عليه وتسفيه شخصه وأفكاره . نعم، ما كان يصح .. وهو الأكاديمي
 العقلانى الحقائى - أن يرد على عازفه ربود العاجزين الراضين لأي مناقشة قد
 تكشف عمق خوائهم وادعائهم . إنه بهذا الرد المتسرع قد وضع نفسه فى هذه
 المرتبة دون أن يدري، وكان الأخرى به أن يستمع جيداً الى وجهه نظر عازفه
 ويناقشها بهدوء وروية ويتواضع كما يفعل العلماء المحترمون ، فالعلم قرين
 التواضع ، والعالم لا يضيره مطلقاً ان يتعلم ممن هم أقل منه تحصيلاً وكفاءة ..
 أشعل المايسترو سيجارة نفث فى دخانها غضبة من نفسه على نفسه . كان
 جالساً واضعاً ساقاً على ساق، مرتدياً معطفه الجبردين الكحلى، والكوفية
 الحريرية تحيط عنقه تحت ياقه المعطف وتنسدل على جانبيه الصدر صانعة لرباط
 العنق الثمين اطارا بديع المنظر . اعتدل فجأة بعد شروء طويل ، صاح فيمن حوله
 بلهجة أمر ضجرة :

- « أحذكم يأتنى بعنوان زميلكم عبد البصير!! » ...

طأطأ الجميع رءوسهم؛ أحمرت وجوه كثيرة بطلقت بعض العيون تعقل
 الدهشة فى مهدأ . قال المايسترو وقد بدا عليه التأثير :

- « زميلكم عبد البصير كان على حق فى وجهة نظره!

الرجوع الى الحق فضيلة وأنا يجب ان اعتذر عن تسرعى فى إهانتته !! لسوف
 ننقد فكرته ! علينا أن نضبط انفسنا من الآن على الطبقة الصغيرة !! قلت هل

يعرف احدكم عنوانه السكنى ؟ ! » .

قال أحدهم بغير حماس :

« تجده فى الإدارة ! » .

وقال سالم أبو شقة :

« أنا أعرفه !! » .

فقال له :

« إذن فخذنى إليه الآن! يجب أن أعذر له مادمت اقتنعت بتنفيذ فكرته !!أشهد الآن أنه ولد يستاهل السلامة !! فعلا إن الطبقة الكبيرة تكون أصلح فى حال الموسيقى الصرفة ! وحينما يكون الكورال من نوى الأصوات القوية القادرة الجميلة أما عندنا فليس سوى الكورس البسيط وقدراته لا تتجاوز الأداء السلبي العريان ! هم بلا أصوات فى حين أنهم كانوا يجب أن يختاروا من المغنين !! لكن!! ماباليد حيلة ! ليس عندنا غيرهم ! ومع ذلك فتجربتهم على الطبقة الصغيرة أتوا بنتيجة ممتازة ! نعم ! أداؤهم من الطبقة الصغيرة يسترهم ويسترننا أيضا!!» .

تشجع سالم أبو شقة، قال بحماسة عاطفية متهدجة :

«على فكرة يا مايسترو! عبد البصير هو الذى أوصى باختيار حضرتك لقيادة الفرقة ! قال إنك الوحيد فى مصر لديك حساسية عالية للموسيقى الشرقية!!» .

« يا سلام!!»

هكذا صاح المايسترو، رافعا حاجبيه فى دهشة. حلا للبعض أن يركب الموجة فى الحال مذ رأها تتجه لصالح عبد البصير، طمعا فى وده برد غيبته، وتحسبا لما قد تسفر عنه هذه الظروف الطارئة . تطوع أكثر من واحد وحكى للمايسترو قصة اقتراح عبد البصير وإصراره على أن يكون المايسترو بالذات هو قائد الفرقة دون غيره، وكيف أن الخبر وصل إلى «الغير» الذى كان مقترحا فاستدعاه وعاتبه..

إلخ.

بغض النظر عما أحدثه هذا الخبر فى نفس المايسترو ومن شعور بالارتياح داعب غروره وترك فيها أثرا حميدا فإن ذهنه كان مشغولا بأشياء كثيرة تتعلق بهذا العازف، فكأن ستارا من الضباب قد انزاح عن عينيه فصارت شخصية هذا العازف العجيب تتكشف تحت ناظريه فيراه على حقيقته لأول مرة. ومضت فى رأسه لمحات كثيرة تثبت باليقين القاطع أن هذا العازف يتميز عن كل العازفين الذين تعامل معهم طوال حياته حتى نوى الأسماء البراقة، فالقوس غير القوس والوتر غير الوتر، صوت الكمان يتفرد عنده، فرغم أنه لم يستمع إليه إلا قليلا فإنه يشعر أن الفرقة من غيرة تبدو فى سمعه خالية من الدسم، ثمة شىء ثمين - قبل الخلاف حول الطبقة فى التدريبات المبدئية الأولى - كان يسرى فى صلب العزف ثم اختفى فهزل قوام المعزوف صار رخوا مانعا دلعا كالغسل المخفف بالماء، مجرد عزف دقيق حريف ملتزم بحرفية النوتة على الشعرة لكنه بلا إحساس متوهج ومن ثم بلا إبداع بلا جواهر ثمين، فالإحساس هو القيمة الحقيقية الوحيدة التى تميز عزف الإنسان عن عزف الماكينة الحديثة المسماة بالكيبوتر، إنه شخصا لا يطبق العزف الآلى لأنه ضغط على الأعصاب يورثها الضيق والملل فضلا عن أنه قتل الملكة الإبداع التى لا تنمو إلا فى استمرار الممارسة ومكابدة التعبير فى ظروف نفسية متعددة متغيرة متفاوتة، فالموسيقى فن زمنى كل برهة فيه لا بد أن تموت بالنغم ولا بد أن يموت النغم بالإحساس حتى يكون للصمت ظل النغم مدلولا كالمنطوق سواء بسواء، بدون الإحساس يصبح النغم طينيا وإن انتظمه سلم الموسيقى، هذا العازف الغائب كما يتأكد له الآن كتلة من الإحساس تكمن قوتها فى أصابعه المكتنزة الممتلئة .

حين تأهب المايسترو إلى الانصراف أوما لسالم أبى شقة أن ينتظره، ثم جمع أوراقه فى حقيبته الجلدية السوداء وتوجه إلى حجرة المدير . جلس، كالعادة أشعل سيجارة ، ثم نخل الموضوع مباشرة:

- «شف ياسيدى! لقد أخطأنا فى حق عبدالبصير الصوفانى ولابد من إصلاح خطئنا!!».

مأخوذاً شاحباً مدّ المدير رقبته إلى الأمام فاتحاً فاه فى حركة احتجاج مذهولة، أتبعها بقوله:
- «يعنى إيه؟!».

- «يعنى بالفتششر! عبدالبصير الصوفانى لابد من إعادته للفرقة!! هو بصراحة عصب الفرقة! بل يعنى الحياء من القول بأنه هو الفرقة!!».

هكذا قال المايسترو بلهجة من يقول: اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد، ثم غَضُ بصره عن نوبة الأرتيكاريا التى أملت بسيادة المدير فأحالته إلى مارد أهوج يضرب المكتب بقبضته يشوح يخطب يردح:

- «لايمكن!! كله إلا هذا!! هذا الولد لايعتبتها مرة أخرى!! أنا ما صدقت أن خلصت - أقصد خلصنا - منه!! أرجوك! أنت تغامر بنجاح الفرقة! هذا الولد سينشر نوعاً من التسبب فى الفرقة! ان نستطيع أن نعدل عليه الخط بعد الذى فعله إن تسامحنا معه!! لن.....».

- «من فضلك! فلنتكلم يهدوء لتفاهم! أولاً هو اسمه العازف وليس هذا الولد!! فأتا لست أقود ولدانا وإلا فأتا فى نظرك ولد مثله!! إن سمحت لى فإن أى عازف فى هذه الفرقة من الآن اسمه الأستاذ فلان مهما كان رأيك فيه!! هذا هو الخطاب الذى يجب أن يقوم بيننا!! ثانياً - لاتؤاخذنى - نحن هنا لسنا فى كتيبة عسكرية إنما نحن فرقة فنية!! ثالثاً إن الفرقة لم تتجح بعد لأنها لم تبدأ عروضها!! رابعاً إن غياب هذا العازف عنها يجعل الشك فى نجاحها قائماً لسبب بسيط هو أننى ليس عندى صوليست فى مستواه يمكن الاعتماد عليه!! ثم إن غيابه عن الفرقة يخس العزف وأنا لا أحب التخسيس فى العمل مادمت قادراً على الامتلاء!! ما الذى يرغمنى على قبول الخسة وعندى الأصل؟! إن وجوده عامل ربط وتحميس وتنشيط وتأصيل للجميع!! خامساً وهو مايجب ألا تنساه إنه الوحيد الذى يحفظ

التراث كله عن ظهر قلب من الموالدية إلى مطربي الملوك حفظا واستيعابا وإحساسا ذكيا وأميناً! هو خبير بمواطن الجمال في التراث فكيف أفرط فيه نتيجة موقف غبى منه ومعنى أيضاً؟! اسمع لى! لقد تربييت على أخلاق علمية وفنية لا أملك لها دفعا أو خيانة!! وإقد قبلت مسئولية إنجاح هذا المشروع الذى شرفت بقيادته فإما أن تطلق يدى فيه أو فالانسحاب أكرم لى ولتاريخى الذى بنيته بالجهد والعرق ولست مستعدا لوضعه فى امتحان أحقق!!».

سحق عقب السيجارة فى المنفضة، رفع جبهته، ثقب وجه المدير المستدير المكبظ بنظرة جامدة، كان المدير يبحث فى ذهنه عن مبرر لتأجيل البت فى هذا الأمر حتى يميتة أو يجد منه مخرجاً، فلما ثقيبتة النظرة الحادة على غير توقع اضطر إلى المراوغة العسكرية، فعلى الرغم من أنه لا يبخن ولا يشرب أى مكيفات فإنه يحتفظ على مكتبه بعلبة خشبية مصدفة تملئ بالسجائر إذ يفتحها للضيف تتبعث منها الموسيقى، قدمها للمايسترو بأسما، فنحاهما جانباً بحركة لطيفة قائلاً إنه لا يغير سجائره المحلية، واتخذ هيئة من ينتظر النطق بالحكم النهائى لصالحه فى قضية طال الفصل فيها بغير موجب، قال المدير:

«على كل حال دعنى أخاطب السيد الوزير بمذكرة مكتوبة! هذا أمر ينبغي عرضه عليه بمذكرة وافية نذكر فيها كل التفاصيل والملاحظات!! وإلا فما معنى أن أفصل موظفاً ثم أعود فأعيته بعد شهر واحد؟!».

المايسترو كان يتوقع رداً كهذا، إذ هو يعرف مع من يتعامل، يعرف أيضاً أن التذرع بالناس الذى فوق، وانتظار الأوامر الشريفة، ودس أنف القوى الفوقية فى كل كبيرة وصغيرة، كل تلك أوضاع لم يعد يطبقها ولا يقبل تداولها فى العمل الفنى، فعليه إذن - وليكن هذا الموقف هو المحك الأول - أن يرفض هذا الأسلوب، فإذا كان وزير الثقافة نفسه عسكرياً فإن محصوله الثقافى الكبير شفيع له لأن المثقف فيه طمس العسكري تماماً، أما هذا المدير العسكري هو الآخر فلا شفيع له ويجب أن ينسى أمور العسكرية.

ثم نهض المايسترو واقفاً، بقوامه الفارع النحيل، مد يده بحركة محايدة ليسلم على المدير دون أدنى حماسة، بملامح جامدة ونبرة وثاقة قالها:

«كلم وزيرك على مهلك! أما أنا فمعتكف فى منزلى حتى تنتهى من مخاطبة الوزير! وحين يوافق على مطلبى بتعيين العازف المفصول عبدالبصير الصوفانى وبالشروط التى ترضيه فحينئذ سأحضر لاستئناف التدريبات!!».

وسحب يده برفق من يد المدير، خرج متجنباً رؤية وجهه، تاركاً إياه يتخبط فى ذهوله كأسد جريح فوجيء بالشراك منصوبة حواليه.



أصبح يرتع فى الفرقة طولا وعرضا، الشورى شورته والكلمة كلمته، المايسترو لايرد له طلبا، لقد اكتشف المايسترو أن الله ساق إليه رجلا يحمل المسؤولية الفرعية نيابة عنه لكى يتفرغ هو للابتكار والتحفيظ والتخطيط فى حين يقوم عبدالبصير بمهمة التدريب وتسجيل النصوص القديمة، كلاما وإحنا، على شرائط يقدمها للمايسترو بأصوات الحفظة العجائز الذين يعرفهم.

يوم الافتتاح كان منظر الفرقة مفرحا، إضافة إلى الكمنجات السبع حضرت أسرة الكمان كلها: الفيولين، الفيولا، التشيللو، الكونترياس، مع آلات الإيقاع الشرقية الحراقية، الرق والطبلة والدف والمزهر، بجوار العود والقانون والناي، وأوبوا ومندولين وبزق وجيتار وأورج وأوكورديون، الفرقة موحدة الزى، لها على خشبة المسرح مشهد مهيب: فى أعلى الخلفية صف طويل من كورال نسائي كسور حديقة مزدانة بأشجار الورد البلدى، تحتن بدرجة صف من كورال رجالى، فى المستوى الثالث ترتص على شكل قوس عناصر الفرقة الموسيقية كغابة جميلة من الأقواس والآلات، أمامهم صف من حوامل النوت الموسيقية، فى مواجهتهم - على مبعدة قليلة - منصة المايسترو، معطيا ظهره للجمهور وقد اندمج فيما يشبه الذكر ينتفض جسده كالمجنوب ممسكا بعصاه يمتط ينكمش يترنح يتلوى كانه ينتزع هذه الألسان البديعة من تحت أقدام الفريق لينشرها فى الهواء حواليه كفلاح

فرعونى قديم ينثر الحب فى الأرض، فتغمر الجمهور كوابل من المطر ينزل بردا وسلاما على نفوس شرقانة أضرمتها القىظ فاشتاقت لهذا الغيث.

دوى التصفيق هز القاعة كانفجار البركان، طال انحناء المايسترو فى شكر وتبجيل، كلما رفع المايسترو قامته انهال فوقها دوى الهاتف العنيف يطلب الإعادة، لكنه أبدا لا يستجيب لهذا المطلب، بل يعطى الجمهور ظهره، مشيرا للفرقة بطرف العصاء فينسب لحن جديد أكثر حرارة واستحواذا على الأفئدة، فتقطع أنفاس الصالة كلها فى صمت جليل مهيب تصير الأنفاس المنقطعة كالسجاجيد الحيرية تخطر فوقها الأنغام الصادحة الحريفة اللاذعة وقد أبرز التوزيع الموسيقى الجديد جمالها وثرأها الشعورى الحار، أصوات الكورال تملو وتعلو ثم تهبط فجأة من علياء الجوابات إلى عمق وكياسة القرارات، وما بين القرار والجواب تتراقص الأنغام رشيقة متأودة متوجعة متصبية كأنها ترسم على خد الأثير لوحات تصور ما فى جنة الخلد من حور عين وفاكهة وشراب مختلف ألوانه، البهجة مسكرة، مفرحة إلى حد الحزن، محزنة إلى حد الفرح.

حفل وراء حفل، أسبوع وراء أسبوع، شهر تلو شهر، تأصلت فى الجمهور قيم للاستماع شديدة الاحترام، فلا شوشرة ولا قزقة لب ولا همس فى الأركان، كف الجمهور عن طلب الإعادة، عرف أن الفرقة ملتزمة ببرنامج فنى وزمنى لاتحيد عنه، فى الليالى الأولى كانت وزارة الثقافة ترسل مجموعة من الباصات تقف فى ميدان التحرير مكتوب عليها اسم فرقة الموسيقى العربية، لتسهل على الناس مهمة الانتقال إلى قاعة سيد درويش التى لم تكن معروفة بعد، وتنقلهم بعد نهاية الكفل إلى ميدان التحرير باعتباره ملتقى حركة المواصلات، وكانت الوزارة تظن أن مهمة الباصات ستمكث طويلا بل ربما أصبحت حقا مكتسبا للجمهور يتمسك به كشرط لمشاهدة الفرقة، لكنها فى الأسبوع الثانى فوجئت بأرجل الجمهور تقوهم إلى القاعة، وأمست لافئة كامل العدد تجابه الكثيرين على شبك التذاكر باستمرار، أصبحت فرقة الموسيقى العربية ملمحا بارزا ورئيسيا فى وجه الثقافة المصرية،

التف الجمهور حولها بغزارة وشغف، وضع أنه تعرف فيها على نفسه، على شخصيته الغنائية الأصيلة ، شهرة الفرقة طبقت الآفاق، أصبحت قبله يحج إليها كل عشاق النغم الشرقي الأصيل من جميع أنحاء العالم.

تلقت الفرقة عروضاً كثيرة من دول عديدة لإقامة حفلات فيها: سوريا والعراق ولبنان والأردن والسعودية واليمن وتونس والمغرب وأسبانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا، فأصبحت تحصل على إجازات كثيرة من جمهورها المصري لتعود إليه بعد أيام مشتاقة فيلتقاها أكثر اشتياقاً، المايسترو كان على درجة عظيمة من الكفاءة والجدية والإصرار على صعود النجاح، مثل مدرب الكرة يتسلم الفريق كل يوم نون هودة فيقيم له ما يشبه المعسكر للتدريب على ألحان جديدة من التراث المعاصر من عبدالوهاب والقصبجي والسنباطي وزكريا أحمد وفريد الأطرش.

جاءت بعثة من التلفزيون الألماني لعمل فيلم تسجيلي عن الفرقة بكافة عناصرها الفنية، بعد أن أنهى المخرج عمله رأى أنه اكتشف كنزاً ثميناً يصلح أن يكون مادة لفيلم آخر قائم بذاته، ذلك هو العازف الأول للكمّان في الفرقة، كان المايسترو أثناء التجهيز للتصوير يرجع إليه في كل صغيرة وكبيرة يأخذ مشورته يلمس لديه تصحيح المعلومات عن بعض أصحاب الألحان القديمة وطريقة أدائها في السابق على التخت الشرقي، لما لقت عبدالبصير الصوفاني نظر البعثة الألمانية بمهارته الفائقة بل غير الطبيعية في العزف على الكمّان بصورة تذكرهم ببجاني، إضافة إلى معلوماته الغزيرة عن تراث الغناء العربي، تسالوا عن كنه دراساته ومؤلفاته الأكاديمية، أوما لهم المايسترو مبتسماً بأنه قد علم نفسه بنفسه، أكمل عبدالبصير - عبر مترجم محترف - فأعطاهم طرفاً من قصة حياته، فتكاملت في ذهن المخرج التلفزيوني الألماني عناصر فيلم تسجيلي كامل يعتبر في نظره أهم من الفيلم الخاص بالفرقة ككل، فشرع في تصويره على الفور، أخذ من عبدالبصير كمية هائلة من الكلام والعزف، على أن يقوم بتسويقها حينما يعود إلى بلاده.

ولم يكن عبد البصير يدرى أنّ ذلك الفيلم التسجيلى الألمانى سيكون بعد بضعة أعوام نافذة له على العالمية، وأن أُلحانه التى أذاعها الفيلم سرحت فى ملاهى ألمانيا وكونت له فى أوروبا اسما مدويا، وأن وفودا من المتعهدين والدارسين والصحفيين والإعلاميين الأجانب ستأتى من بلادها خصيصا للتعرف عليه وتتعاقد على حفلات وتكتب وتذيع أسطورة حياته كإحدى أعاجيب الدنيا .. لم يكن يدرى ذلك، بل ولا يكاد يصدق، حتى وهو يلتقى هذه الوفود ويطير معها إلى كل بلاد الدنيا الواسعة .

تمت

روايات الهلال تقدم

حلم ليلة أفريقية

تأليف

سبريان إكوينسي

ترجمة

د . هبى محمد حسن

تصدر : ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢

أحداث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٣٣	جبل الروح	جاوزينج جيان	سبتمبر ٢٠٠١	٨,٠٠
٦٣٤	منعطف النهر	ف . س نايبول	أكتوبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٥	ليالى غريبال	مصطفى نصر	نوفمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٦	جنرال الجيش الميت	إسماعيل قدرى	ديسمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٧	أيام وردية	علاء الديب	يناير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٨	صمت الرمل	محمد عبدالسلام العمرى	فبراير ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٣٩	قبض الريح	على الشوياشى	مارس ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٠	نخلة على الحافة	جميل عطية ابراهيم	أبريل ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤١	المعبر	زياد عبدالفتاح	مايو ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٢	أسرار حميمة	نوريا أمات	يونيه ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٣	أوان القطاف	محمود الوردانى	يوليو ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٤	حالة مستعصية	سعيد سالم	أغسطس ٢٠٠٢	٥,٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٥١٦٦

I.S.B.N

977- O7- 0965 - 4



خيرى شلبى

- سبعةون كتابا
- رئيس تحرير مجلة الشعر
- رئيس تحرير مكتبة الدراسات الشعبية
- كاتب متفرغ حاليا
- جائزة الدولة عام ١٩٨٠ - ١٩٨١

- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ٨٠ - ١٩٨١

- من رواياته : (السنيرة) ، (الأوباش) ، (الشطار) ، (الوئد) ، (العراوى) ، (فرعان من الصبار) ، (وكالة عطية) ، (سوال البيات والنوم) ، (لحس العتب) ، (موت صباة) ، (بغلة العرش) ، (بطن البقرة) ، (رحلات الطريشجى الطلوجى) ، (صالح هيصة) ، ثلاثية : (اولنا ولد) + (وثانينا الكومى) + (وثالثنا الورق) ، وغير ذلك .

من مجموعاته القصصية : (صاحب السعادة اللص) ، (الفحنى الخطر) ، (أسباب لكى بالنار) ، (سارق الفرج) ، (النداس) ، (أشياء تخصنا) ، وغيرها .

من مسرحياته : (مباد اللوى) ، (مسوناتا الأمل) ، (المخريشين) ، (الخلاص) ، وغيرها .

ترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والأردية والكورية والصينية .

بطل هذه الرواية عازف على آلة الكمان، نبغ نبوغا فطريا حيث ارتبط بالآلة - كتصنيع وترميم فى ورشة أبيه - وكحقل من الأنغام علمته التجارب كيف يحصدها . لقد توحد بالآلة الكمان فقام بتمصيرها فأحدث دويا فى جميع أنحاء العالم بمعزوفاته التى ألّفها للكمان فإذا بها روح مصر فى نغم ينبض بالهوية المصرية ، والعجيب أن هذا الفنان النجم الذى شفت أذان العالم وخب لبه لم يكن نجما فى بلاده بل لا يكاد يعرفه أحد خارج دائرة المحترفين . والرواية تثبت أن القيمة الفنية إذا كانت صادقة وحقيقية فإنها لا تموت مطلقا ، ومن هنا فإن الصدق مع النفس يظل حقيقيا لا زيف فيه ، صدقا وراءه مكابدات قاسية وصراعات مع النفس ، مع المجتمع مع الابتذال السائد ، إلا أن هذه المكابدات هى التى تصهر الفنان وتبرز أبداع ما فيه .

وهذه الرواية تتماهى فى شكلها الفنى ، وفى سياقها الدرامى مع نوعية الحياة التى يعيشها البطل . تكاد هى الأخرى تكون سيمفونية . إن المضمون الموسيقى للدراما الإنسانية هو جوهر البناء ، كما أن النوتة الموسيقية للمقطوعات التى ألّفها البطل هى فى الواقع مفردات لدراما حياته الصعبة الفريدة فرادة «كمانه» وأوتاره وأنامله .

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قراءة الابداع
الراقي عربيا وعالميا ، فشارك معنا عائلتنا
الابداعية «عائلة روايات الهلال».

● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ،
أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد
المضمون الى عنوانك

●+● عاما من الابداع المثالي

● ثم اختيار أعمالنا لتكون أفضل
الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.

● تحصل رواياتنا على أهم الجوائز
الأدبية. ويتم ترجمتها إلى لغات العالم.

● مرة أخرى .. إذا كنت من قراء
الابداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات
الهلال» .



جالات المستشفية



عائلة المستشفية



متنوعيات المستشفية

سوالیہ



The image shows the cover of a children's magazine titled 'كاف' (Kaf). At the top, it says 'كتاب مصور للطفل' (A picture book for the child). Below that, the magazine's name 'كاف' is written in a stylized font, followed by the number '16'. The central illustration depicts two cartoon characters, a pink one and an orange one, floating in space with stars and a comet in the background. The main title 'قصة في الفضاء' (A Story in Space) is written in large, bold Arabic letters. At the bottom, it says 'من إعداد' (Prepared by) followed by 'المؤسسة العربية الحديثة' (The Modern Arab Foundation), 'العلوم والتكنولوجيا' (Science and Technology), and 'عدد 1440 هـ' (Number 1440 AH). The price '3000 ل.س.' (3000 L.S.) is also indicated.

[illegible]

0634740